تذكرة وبيان من علوم القرآن

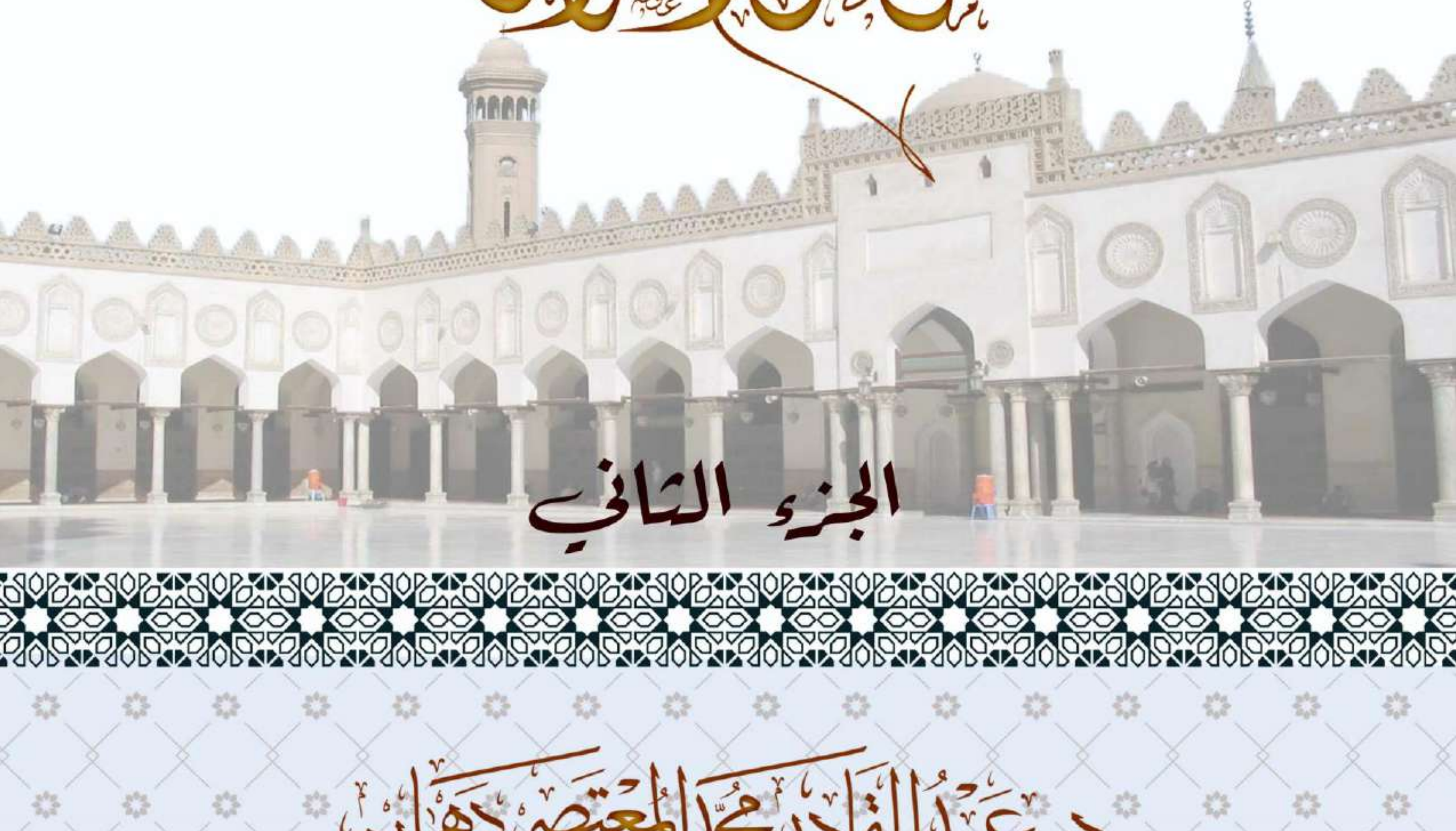

الجزء الثاني

د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان

دار اللؤلؤة
للنشر والتوزيع
المنصورة - مصر

الجزء الثاني

تذكرة وبيان

من علوم القرآن

جميع الحقوق محفوظة

جميع الحقوق محفوظة ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو نقله بأي وسيلة من الوسائل سواء كانت إليكترونية أو ميكانيكية بما في ذلك النسخ أو التصوير وغير ذلك دون حصول علي إذن خطي من المؤلف والناشر.

الطبعة الأولى :

رقــم الإيــداع : ٢٨٤٦٩

الـرقم الـدولي : ٩٧٨-٩٧٧-٩٩٧-٢٤٩-٧

دار اللؤلؤة للنشر والتوزيع

@DarElollaa
Dar_Elollaa@hotmail.com
الأزهر : شارع محمد عبده خلف الجامع الأزهر .
01050144505 - 0225117747
المنصورة : عزبة عقل - بجوار جامعة الأزهر .
01007868983 -0502357979

تذكرة وبيان من علوم القرآن

الجزء الثاني

د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان

دار اللؤلؤة
للنشر والتوزيع
المنصورة - مصر

الجزء الثاني

من

تذكرة وبيان من علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةٌ :

الحمد لله المتصف بالجلال والجمال، وسائر صفات الكمال، والمنزه عن النظائر والأمثال، وهو الكبير المتعال، البصير بأحوال العباد، والرقيب على أقوال وأفعال.

أبدع الخلق على غير مثال، وإليه المرجع والمآل، حفظ أصفيائه من الزيغ والضلال، فهداهم إلى طريق الكمال، وإلى الارتشاف من معين زلال، فتفيؤا في تلك الظلال، ما يهدي إلى خير الخلال، من التحلِّي بخير الخصال، وبما يحميهم من سقوط واعتلال، فعمروا حياتهم بما ينفع من علمٍ وأعمال، وبما يثمر في حال وفي مآل، مع انصرام أيام، وانقضاء آجال.

أحمده تعالى بالغدو والآصال، وأسأله الرزق الحلال، والعفو عن ذنوب ثقال، وأن لا يحوجني إلى أحد من خلقه، حاجة الذُّل والسؤال.

وأعوذ به من انتكاس واعتلال، ومن الخوض في قيل وقال.

أما بعد:

فإن من رحمة المولى العليم، وفضله على عباده المؤمنين، أن بيَّن لهم في كتابه المبين، وسنة رسوله الأمين: طريق الصلاح والرشاد، فهداهم إلى الخير والسداد؛

ليتزودوا من دار الفناء ليوم المعاد، والصلاة والسلام على المختار من خير العباد، وأفضل أسوة للناس وهاد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم التناد.

أما بعد فقد تقدَّم في الجزء الأول أن علوم القرآن من أولى العلوم التي ينبغي أن يُعنى بها، وأن يشغل الباحث بها جُلَّ وقته، وأن يستغرق الليل والنهار، ويصرف نفائس الأوقات، وهو يغوص في بحر أسرارها، وأن يستنهض همته لدرك ما يمكن دركه من سبر أغوارها، هي علوم القرآن الكريم؛ لشرفها بشرف موضوعها.

وهذه دراسة لبعض الموضوعات في هذا الباب، تبدأ من حيث انتهى الجزء الأول. ويتناول الجزء الثاني الموضوعات التالية: **(مجاري الكناية في التفسير)**، وهو مستل ومختصر من كتابي: **(مجَارِي الكِنَايَة في اللُّغَة وعِلْمِ البَيَان والتَّفْسِيْر والفِقْه وأُصُوْلِه)** مع إضافات وفوائد متفرقة. ويتناول الكتاب أيضًا مبحث: **(قصص القرآن هداية واعتبار)**، وهو مستل ومختصر من كتابي: **(الزَّمان والهداية والاعتبار في قصص القرآن والأحاديث والأخبار)**، مع إضافات وفوائد متفرقة. ويتناول الكتاب أيضًا مبحث: **(الإعجاز بين الإقناع والإمتاع)**، وفيه تحقيق المراد من الإعجاز في اللغة والاصطلاح، وبيان عناية بمسائل الإعجاز، وبيان القدر المعجز من القرآن، وما يتحقَّق به الإعجاز، مع ذكر جملة من أوجه إعجاز القرآن، ومن ذلك: بيان خصائص القرآن الكريم وأسلوبه، والتناسق في ترتيب الآيات والسور، والحروف المقطعة في أوائل السور، وغير ذلك، والإشارة إلى مقاصد الإعجاز. ويتناول الكتاب أيضًا مبحث: **(التفسير العلمي مبادئ، ومسالك، وضوابط)**، وهو مستل من

كتابي: (**الإرشادات المنهجية إلى تفسير الآيات الكونية**) مع إضافات وفوائد متفرقة، وفيه إضاءات على تعريف التفسير العلمي ومبادئه العشرة، وضوابطه فيما يخصُّ الظَّاهِرَةَ العلميَّةَ الكونيَّة، والمفسِّرَ، والنَّص، والتَّعارض والتَّرجيح فيما يخص النص، وذكر نماذج من التفسير العلمي للآيات الكونية وآيات الخلق، ودفع شبه في هذا الباب. كما يتناول الكتاب مبحث: (**أسماء السور**)، وفيه: تعريف السورة في اللغة والاصطلاح، وبيان الحكمة في تقطيع القرآن سورًا، وأقسام السور، والبحث عن سر التسمية، وغير ذلك. والله تعالى أسأل أن يكون الكتاب نافعًا ومثمرًا، وقد أودعت الكتاب فوائد وتحقيقات في غاية النفاسة، وهي تفتح آفاقًا للبحث والنظر، والإمتاع والإقناع، راجيًا من الله تعالى القبول. والناظر في تتابع المصنفات، واختلاف الزمان يلحظ استدراكات وتحريرًا لمسائل سابقة، كمسائل قليلة وردت في (الجزء الأول من تذكرة وبيان في علوم القرآن)، جاء ذكرها في كتاب: (مجاري الكناية)، الذي جاء متأخرًا عنه، وجاء هذا الكتاب جامعًا لفوائد متفرقة، وفي كتب متعددة. وأسأل الله تعالى التوفيق والتيسير لإتمام الجزء الثالث من (تذكرة وبيان في علوم القرآن). وقد حرصت في هذه الأجزاء أن أذكر ما لا يستغني عنه طالب العلم، ولا سيما الباحث في علوم القرآن والتفسير.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان

المبحث الثاني عشر

مجاري الكناية في التفسير

توطئة:

إنَّ مقاصد (علم البيان) تنحصر في أربعة هي: (التشبيه، والاستعارة، والكناية، والمجاز المرسل)، فإن اللفظ إن استعمل في غير ما وضع له في الأصل، فإما أن يكون على جهة المجاز، أو الاستعارة، أو الكناية، أو التمثيل.

فيستعمل على هذه الأوجه من أجل المبالغة في معناها، فإن قولنا: (مررت بالرجل الأسد) يخالف قولنا: (مررت بالرجل الشجاع البالغ في الشجاعة كل مبلغ)؛ وما ذاك إلا لما فيه من المبالغة بكونه مجازًا.

وقد كنتُ قد بحثتُ من مقاصدِ (علم البيان) كلًّا من: (التشبيه، والاستعارة، والمجاز المرسل)، في الجزء الأول من كتاب: (تذكرة وبيان من علوم القرآن)، ووعدتُّ بأن يكون مبحث الكناية في صدر ا لجزء الثاني من كتابي: (تذكرة وبيان من علوم القرآن).

ولما رأيت ما للكناية من اصطلاحاتٍ وتشعُّباتٍ وفروعٍ في علوم متنوعة، وتبنى على قواعدها عقائد وأحكام، وقد ضلَّ من زيغ عن فهمها أقوام، رأيتُ إفرادها بالبحث، والتوسع في بيان مجاريها في كتاب مستقلٍّ، يستوفي مطالبها، ويهدي إلى معرفة مجاريها المتنوعة، وقد سميته: **(مجاري الكناية في اللُّغة، وعلم البيان، والتَّفسير، والفقه، وأصوله)**، وهو يحرر تلك المعاني، ويجمع أطراف الموضوع، وما يتصل به.

وفي كتاب: (مجاري الكناية) إضافات وبعض الاستدراك على مسائل محددة تقدم ذكرها في (الجزء الأول من تذكرة وبيان من علوم القرآن).

وحيث إن طالب العلم -ولا سيما في علوم التفسير- لا يستغني عن معرفة تلك الاصطلاحات؛ لفهم كتب التفسير، ومقصد كل مفسِّر، فقد رأيت اختصار تلك المجاري هنا -كما وعدت من قبل-؛ فإن حاجة طالب التَّفسير وعلوم القرآن إلى فقه الكناية، ومعرفة مجاريها في التفسير أكثر من حاجة غيره؛ إذ إن تلك المجاري مبثوثة في أمهات كتب التفسير، وفي الحواشي عليها، كتلك التي على (الكشاف)، أو على (تفسير القاضي البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ).. إلى غير ذلك.

فلا ينبغي لمن لا دراية له بتلك المجاري أن يتصدَّر لشرح كتب التفسير؛ إذ لا يتسنى له -والحالة هذه- أن يفقه مقصد المفسِّر، ومَحْمَلَ كلامه.

كما ينبغي لطالب علوم اللغة والبلاغة وأصول الفقه أن يكون على دراية وفهم لهذه المجاري المتنوعة؛ حتى تتمايز عنده مصطلحات الكناية ومحاملها في كل فنٍّ، فلا يسارع إلى تخطئة من قصد فنًّا أو محملًا غير ما فهمه ذاك الذي سارع إلى التخطئة من غير دراية بتلك المحامل.

والكنايةُ وادٍ عميق من أودية البلاغة، وهي في موضعها أبلغ من التَّصريح، وقد يخفى تحقيق المراد على كثيرين، وقد تضل فيها الفهوم، وتختلف الأنظار والرؤى، وتختلط المفاهيم، وتزل الأقدام، فيأتي من دراية عنده بعلوم الآلة، ومجاري الكناية بقبيح التأويل، وفاسد المعتقد.

إنَّ من تمامِ العناية، لطالب العلمِ والهداية: معرفة مجاري الكناية؛ فإنها تسري في علوم متعددة، وفنون متنوعة، سريان الماء في العود، وجريان الدِّماء في العروق.

فيتحلَّى الباحثُ من المعرفة بتلك القلائد، من العلم بتلك المجاري والاصطلاحات، التي يتنوعُ استعمالها في العلم الواحد، بما يتلاءم مع السياق والمقاصد.

والكناية من المباحث الهامة والدقيقة التي ينبغي أن يعتني بها الباحث في العلوم العربية، وعلوم القرآن والتفسير، إلا أن حاجة المفسر ماسَّة إلى معرفة مجاري الكناية في اللغة، وفي اصطلاح البيانيين، وعند الأصوليين، حيث إنك تجد تلك الاصطلاحات جميعًا مبثوثة في كتب التفسير، وفي المهمات من الحواشي التي عليها، وأئمة التفسير مجتهدون في علوم القرآن الكريم، وما يتصل بها من علوم الآلة، وقد بلغ كثير منهم الذروة في علوم اللغة، والبلاغة، والأصول، فاصطبغت تفاسيرهم بتلك الاصطلاحات المتنوعة، والمناحي المتعددة التي تخدم النص، وتظهر روعة الأسلوب والسبك، وسحر البلاغة.

ومع الاستيفاء كذلك للمعاني المستنبطة من النص لا بدَّ من الإحاطة بتلك الاصطلاحات لما يترتب عليها من الأحكام.

فينبغي التمييز بين (لسان أهل اللغة) من حيث إطلاق مادة: (الكناية) على المسميات والمعاني المعدولة عن مسمياتها ومعانيها الصريحة إلى أخرى هي محل القصد، وبين (عرف اللغة)، وهو ما تعارف الناس عليه من طبائع وعادات فيما

بينهم في استعمالهم لألفاظ يريدون بها غيرها؛ لنكتة تسوغ ذلك العدول عن اللفظ الصريح، وتضفي عليه رونقًا مستفادًا من دلالة المعنى المنتقل إليه، من نحو: المدح والتقدير، أو الذم والتحقير، ونحو ذلك، وكل ذلك مما لا يخرج قواعد اللغة وأصولها، بل هو من جمال اللغة، وسحر بلاغتها، ووفائها بالمقاصد دون كلفة إطناب، حيث يغني عن ذلك بليغ اللفظ، ومناسبة الحال والمقام.

المطلب الأول: تعريف الكناية في اللغة:

أولًا: الكناية في لسان أهل اللغة:

الكناية مصدر كنَّى يكنى، وكنيته تكنية حسنة، ولامها واو وياء، يقال: كناه يكنيه، ويكنوه، والكنية بالأب، أو بالأم، وفلان يكنى بأبي عبد الله، وفلانة تكنى بأم فلان، ولا يقال: يكنى بعبد الله، ولا زينب تكنى بهند، وإنما هو مقصود على الأب، والأم، وفلان كنى فلان، أي: مكنى بكنيته، كما يقال: سميه، أي: مسمى باسمه، وكنى الرؤيا، هي الأمثال التي تكون عند الرؤيا يكنى بها عن أعيان الأمور [١].

---

(١) انظر: الطراز (١/١٨٥)، كتاب العين (٥/٤١١)، الصحاح، للجوهري، مادة: (كنى) (٦/٢٤٧٧)، مقاييس اللغة، لابن فارس (٥/١٣٩)، النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/٢٠٧)، مجاري الكناية (ص:٢٠).

ثانيًا: الكناية في عرف اللغة:

الكناية في اللغة: أن تتكلم بشيء وتريد به غيره، وهي مصدر كنيت بكذا عن كذا، أو كنوت: إذا تركت التصريح به، وبابه: رمى يرمي.

وقولهم: (كنيت بكذا..) المضارع على هذا: أكني، فهو كرمى يرمي، وقولهم: (وكنوت..) المضارع: أكنو، فهو على هذا كدعا يدعو.

وورد: (كنوت بكذا عن كذا) من باب: (دعا يدعو) [1].

قال أبو عبيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقال: كنوت الرجل، وكنيته لغتان، قال: سمعت من أبي زياد ينشد الكسائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وإني لأكنو عن قذور بغيرها ... وأعرب أحيانًا بها وأصارح [2]

والكناية عند النحاة وأهل اللغة، كما فصل ذلك الرضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (شرحه لكافية ابن الحاجب): أن يعبر عن شيء معين، لفظًا كان أو معنى، بلفظ غير صريح في الدلالة عليه، إما للإبهام على بعض السامعين، كقولك: (جاءني فلان)، وأنت تريد: زيدًا، وقال فلان: كيت وكيت؛ إبهامًا على بعض من يسمع، أو لشناعة المعبر عنه، كهن للفرج، أو الفعل القبيح، كوطئت وفعلت، عن جامعت، والغائط للحدث، أو للاختصار كالضمائر الراجعة إلى متقدم، أو لنوع من الفصاحة،

---

(١) انظر: مختصر المعاني (ص:٢٥٧)، المطول (ص:٤٠٧)، تقرير الشمس الأنبابي (٣١٧/٤)، مواهب الفتاح (٤٣٩/٢).

(٢) غريب الحديث، لأبي عُبيد (٣٠٣/١)، وانظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (كنى) (٢٤٧٧/٦).

كقولك: كثير الرماد، للكثير القرى، أو لغير ذلك من الأغراض، والمكنى عنه إن كان لفظًا، فقد يكون المراد معنى ذلك اللفظ، كقوله:

كـأن فعلة لم تمـلأ مواكبها ديـار بكر ولم تخلع ولم تهب [(١)]

أي: خولة" [(٢)]. كنى بفعلة عن اسمها، واسمها: خولة. على أن (فعلة) كناية عن موزونه مع اعتبار معناه، وهو خولة [(٣)].

ثالثًا: تعريف الكناية في اصطلاح علماء البيان:

الكناية في اصطلاح علماء البيان هي: **(لفظٌ أُرِيدَ به لازمُ معناه، مع جواز إرادته)**.

وهي بهذا المعنى أخص من معناها لغة، والقاعدة أنه (كلما زادت القيود قَلَّ الموجود)، أو يقال: (كلما زادت المفاهيم قلَّت الماصدقات).

---

(١) "البيت للمتنبي، من قصيدة رثى بها خولة، أخت سيف الدولة الحمداني، ولم يصرح بلفظها؛ استعظامًا؛ لكونها ملكة، بل كنى عن اسمها بفعلة، فلفظ: (فعلة) حكمها حكم موزونها ممتنع من الصرف؛ للعلمية والتأنيث، فكذا: (فعلة) ممتنع" خزانة الأدب (٦/٤٤٧)، ديوان أبي الطيب المتنبي (ص:٤٢٣).

(٢) شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٣/١٤٧-١٤٨)، وانظر: حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي (٢/٤٩).

(٣) انظر: خزانة الأدب (٦/٤٤٧).

والكناية في الاصطلاح كقولنا: (طويل النجاد) والمراد به لازم معناه، أي: طول القامة مع جواز أن يراد حقيقة طول النجاد أيضًا.

فالكناية في الاصطلاح: لفظ له معنى حقيقي أطلق ولم يرد منه ذلك المعنى الحقيقي، بل أريد به لازم معناه الحقيقي، مع جواز إرادة معناه الحقيقي مع لازمه، وبذلك فإنها تفارق المجاز؛ إذ لا يجوز إرادة المعنى الحقيقي فيه مع المعنى المجازي.

رابعًا: تقرير معنى الكناية عند علماء البيان:

ولعلماء البيان في تقرير معنى الكناية طريقان -كما يعلم من شرحي: السعد والسيد رَحِمَهُمَااللَّهُ للمفتاح-:

الطريق الأول: أنها استعمال اللفظ في غير ما وضع له، أي: وضعًا تحقيقيًا؛ لملاحظة علاقة [(١)]، مع جواز إرادة الموضوع له معه:

وفائدة قولنا: (معه) في التعريف الآنف الذكر على أن إرادة اللازم أصل، وإرادة المعنى بتبعية إرادة اللازم، ولينتقل منه إلى اللازم، كما يفهم من قولنا: (جاء زيد مع عمرو)؛ ولهذا يقال: (جاء فلان مع الأمير)، ولا يقال: (جاء الأمير معه)، والممنوع هو الجمع بين المعنى ولازمه على وجه يكونان مقصودين استقلالًا، لا على وجه يكون أحدهما تابعًا للآخر، ووسيلة إلى قصده وفهمه.

---

(١) وهي الملزومية -كما هو بين-.

وإمكان إرادة المعنى الحقيقي من الكناية فارق بينها وبين المجاز؛ فإنه جائز في الكناية، وممتنع في المجاز، كما دلَّ عليه تعريف المجاز.

والقول بالواسطة هو محلُّ بحثٍ ونظر، كما جاء مبينًا في (مجاري الكناية).

الطريق الثاني: أنها اللفظ المستعمل فيما وضع له، أي: وضعًا تحقيقيًّا، لكن لا ليكون مقصودًا بالذات، بل لينتقل منه إلى لازمه المقصود بالذات؛ لما بينهما من العلاقة:

فالفرق بينها وبين المجاز على هذا: صحة إرادة الموضوع له مع غيره فيها؛ للإخبار بكل على أن يكون الغير هو المقصود الأعظم، والحقيقي تابعًا له في القصد مستطردًا في الذكر، فيكون محط صدق وكذب، كما أن الغير محط صدق وكذب، ولا تستلزم تلك الإرادة الجمع الممنوع عندهم، بخلاف المجاز فلا يصح فيه إرادة المعنى الحقيقي؛ للإخبار؛ لأنه يلزم أن يكون فيه قرينة مانعة عن إرادة الموضوع له، فلو انتفى هذا انتفى المجاز؛ لانتفاء الملزوم بانتفاء اللازم، ولا حاجة إليه للانتقال؛ إذ ليس انتقال ذهن السامع من المعنى الحقيقي إلى غيره متوقفًا على الاستعمال في المعنى الحقيقي؛ إذ يكفيه حضور المعنى الحقيقي في ذهن السامع عند سماعه اللفظ، ولا شبهة في ذلك؛ فالأسد -مثلًا- في نحو: (رأيت أسدًا يرمي)، ليس مرادًا منه المعنى الحقيقي، لا للانتقال ولا للإخبار، فإن (يرمي) يمنع منه، ولا حاجة إليه للانتقال، بخلاف (كثير الرماد) -مثلًا-؛ فإنه يصح فيه من حيث إنه كناية: أن يراد

منه المعنى الحقيقي والكنائي، وإن كان قد يمنع من ذلك مانع خارج كلزوم الكذب على إرادة المعنى الحقيقي.

فقولهم: (الكناية لفظ أريد به لازم معناه...الخ)، ظاهر في الجريان على الطريق الثاني من طريقي الكناية، وهو أنها اللفظ المستعمل، أو استعمال اللفظ في الموضوع له وضعًا تحقيقيًّا، ولو مع انتفائه واستحالته؛ لأن تحقق المعنى وعدم تحققه أمر خارج عن مدلولي اللفظ، بناء على أنه موضع للمعنى الذهني لا الخارجي، لكن لا ليكون مقصودًا بالذات، بل لينتقل منه إلى لازمه المقصود بالذات، بحيث يكون مناط الإثبات والنفي، والصدق والكذب؛ لما بينهما من علاقة الملزومية [١].

وعبارة المفتاح في تعريف الكناية تحتمل الطريقين -كما قاله السعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ-. وكلام (المطول) المختلف في محلين مبني -كما قال العلامة الفناري رَحِمَهُ ٱللَّهُ- [٢] على اختلاف المذهبين.

*ولا يلزم في الكناية أن يكون المعنى الحقيقي لفظًا متحققًا في الواقع -كما تقرر-؛ إذ يصح أن تقول: (محمد طويل النجاد) كناية عن طوله، وإن لم يكن له نجاد أصلًا.

---

(١) بيانية الصبان مع حاشية الشيخ محمد الأنبابي (ص:٨٧-٩٠)، وانظر: تقرير الشمس الأنباي (٤/٣١٧)، الحواشي النقية (ص:٧١).

(٢) انظر: حاشية الفناري على المطول (ص:٥١٣-٥١٤).

قال العلامة السعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (التلويح): "الكناية عند (علماء البيان): (لفظ قصد بمعناه معنى ثان ملزوم له) أي: لفظ استعمل في معناه الموضوع له، لكن لا ليتعلق به الإثبات والنفي، ويرجع إليه الصدق، والكذب، بل لينتقل منه إلى ملزومه، فيكون هو مناط الإثبات والنفي، ومرجع الصدق، والكذب، كما يقال: (فلان طويل النجاد)؛ قصدًا بطول النجاد إلى طول القامة، فيصح الكلام، وإن لم يكن له نجاد قط، بل وإن استحال المعنى الحقيقي..." [١].

ومع مفارقة الكناية للمجاز من حيث جواز إرادة المعنى مع لازمه في الكناية، فإنه قد تمتنع إرادة المعنى الأصلي في الكناية؛ لخصوص الموضوع، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ [الزمر:٦٧]، كناية عن تمام القدرة.

قال العلامة الفناري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قد تقترن بالكناية قرينة مانعة عن إرادة الموضوع له في خصوص المحل، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ [الزمر:٦٧] [٢]، وقوله

---

(١) انظر: شرح التلويح على التوضيح (١/١٣٥-١٣٦)، بتصرف يسير.

(٢) كناية عن عظمة الله عَزَّوَجَلَّ، وجلالة شأنه، وكمال قدرته، وتمام التمكن من الأفعال العظام بسهولة. وقيل: المراد باليمين: القدرة -مثلًا- مجازًا. انظر: حاشية الشيخ محمد الأنبابي على رسالة الشيخ محمد الصبان (ص:١٠٠). وقد استنبط الزمخشري نوعًا من الكناية غريبًا، وهو أن تعمد إلى جملة ورد معناها على خلاف الظاهر، فيأخذ الخلاصة منها من غير اعتبار مفرداتها بالحقيقة أو المجاز، فتعبر بها عن مقصودك. وسيأتي بيانه.

عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، ونظائرهما، وقد حققناه في مباحث: (إخراج الكلام لا على مقتضى الظاهر)، فلينظر فيها" [١].

وفي (حاشية الشيخ محمد الأنبابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ على رسالة الشيخ محمد الصبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ): "قد تمتنع الكناية من اشتراط الإمكان من حيث خصوص المادة، أي: من حيث النظر إلى مدلول خصوص المادة في الواقع، وإن جازت من حيث إنها كناية، فالتعريف صادق على هذه الصورة" [٢].

فالكناية من حيثُ إنَّها لفظ مراد به لازم معناه لا تنافي إرادة المعنى الحقيقي، والمجاز من حيثُ إنَّه مَجازٌ يُنافِي إرادتَه، ولكن قد تَمتنِعُ إرادةُ المعنى الحقيقيِّ في الكناية من حيث خُصوصُ المادَّة.

*إمَّا لاستحالتِه، كما ذكر صاحب (الكشاف) في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى:١١]، أنه من باب الكناية، كما في قولهم: (مثلك لا يبخل) [٣]؛ لأنهم إذا نفوه عمن يماثله ويكون على أخص أوصافه [٤] فقد نفوه عنه بالأولى [٥]، ولا

---

(١) حاشية الفناري على المطول (ص:٥١٣).

(٢) حاشية الشيخ محمد الأنبابي على رسالة الشيخ محمد الصبان (ص:٩٤).

(٣) انظر: الكشاف (٤/٢١٢-٢١٣)، حاشية الطيبي على الكشاف (١٤/٢٣-٢٤)، الجامع الكبير، لضياء الدين ابن الأثير (ص:١٦١).

(٤) كالشجاعة في نحو: (مثلك لا يفرُّ).

(٥) قال الشيخ الأنبابي في التعقيب على قول العلامة الصبان: (فقد نفوه عنه بالأولى): إن فيه نظرًا؛ فإن مبنى نفي البخل عن المخاطب في المثال، والمثل عن الله عَزَّوَجَلَّ في الآية: كون حكم المتماثلين واحد،=

يخفى أنه يمتنع هنا إرادة الحقيقة، وهي نفي المماثلة عمن هو مماثل له، وعلى أخص أوصافه؛ لاقتضائها وجود مثل له جَلَّوَعَلَا، وهو محال.

*أو للزوم الكذب، كما في قولك: (زيد جبان الكلب)[١]، و(مهزول الفصيل) إذا لم يكن له كلب ولا فصيل، فلا يصح هنا إرادة الحقيقة؛ للزوم الكذب حينئذ، وعلى هذا فلا حاجة إلى ما قيل: إن المعنى أنه يجوز إرادة الموضوع له في الكناية ولو في محل آخر واستعمال آخر، بخلاف المجاز.

وفي (حاشية عبد الحكيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ على المطول) أن الوجهين المذكورين مستفادان من (الكشاف)[٢]. وعلى كل اندفع الاعتراض على التعريف بما يمتنع فيه إرادة

=فحيث نفى أمر عن أحدهما لزم نفيه عن الآخر بمقتضى التماثل والتساوي بينهما، فيكون النفيان متساويين لا بمقتضى أرجحية الآخر وأولويته حتى يكون النفي عنه بالأولى، وإلا لم يكونا متماثلين، والفرض التماثل، وليس لفظ: (بالأولى) في عبارة السعد في (مختصره) ولا في (مطوله)، بل هو زيادة من المصنف في عبارته" حاشية الأنبابي (ص:٩٨).

(١) أي: لألفه الإنسان الأجنبي بكثرة الضيفان الواردين، فلا يعادي أحدًا، ولا يتجاسر عليه. وقوله: (ومهزول الفصيل): أي: لكثرة حلب أمه للضيفان، فكل منهما كناية عن الكرم. أنبابي (ص:٩٨).

(٢) قال عبد الحكيم: "أي: بالنظر إلى كونه كناية، فلا ينافي امتناع إرادته في خصوص المادة، كما في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ۝٥﴾ [طه:٥]، فهو مجاز متفرع على الكناية. وقيل: جواز إرادته ولو في محل آخر، وكلا المعنيين مستفاد من (الكشاف).." حاشية السيالكوتي على المطول (ص:٤٨٠).

الموضوع له، وأما على الطريق الثاني فهي حقيقة [١]، وبه صرح صاحب (المفتاح) فتكون خارجة عن تعريف المجاز بقولنا: في غير ما وضع له؛ لأنها مستعملة في معناها الموضوعة له، لكن لا لذاته [٢]، ولكن لينتقل منه للازمه، فمعناها مراد لغيره مع استعمال اللفظ فيه، ولازمه مراد لذاته لا مع استعمال اللفظ فيه. وعلى هذا الطريق يحمل قول من قال: إن الكناية لا تخلو عن إرادة الموضوع له تبعًا، وإن استحال، ولا يلزم على ذلك محذور، كما قاله السعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تلويحه) جاريًا على هذا الطريق: أن الكناية لفظ قصد بمعناه معنى ثان لازم له، أي: لفظ استعمل في معناه الموضوع له، لكن لا ليتعلق به الإثبات والنفي، ويرجع إليه الصدق والكذب، بل لينتقل منه إلى لازمه، فيكون هو مناط النفي والإثبات، والصدق والكذب، كما يقال: (فلان طويل النجاد) قصدًا إلى طول قامته، فيصح الكلام وإن لم يكن له نجاد قط، بل وإن استحال المعنى الحقيقي، كما في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧]، وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ۝٥﴾ [طه:٥]، وأمثال ذلك؛ فإن

---

(١) قيل: إنها عليه واسطة، وأنه لا بدَّ في الحقيقة من قصد المعنى لذاته، وقد رد هذا القيل بأنه غير معروف عن أحد من القوم. حاشية الشيخ محمد الأنبابي على رسالة الشيخ محمد الصبان (ص:٩٨-٩٩).

(٢) حاشية الشيخ محمد الأنبابي (ص:٩٩-١٠٠)، وانظر: تقرير الشمس الأنبابي (٣٢١/٤)، الشرح المختصر على تلخيص المفتاح (١٢٤/٢).

هذه كنايات من غير لزوم كذب؛ لأن استعمال اللفظ في معناه الحقيقي، وطلب دلالته عليه إنما هو لقصد الانتقال منه إلى لازمه. مع بعض تغيير [١].

ويختلف قول الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تفسيره) من حيث مسمى: (الكناية) على المجاز، أو العكس، في أكثر من موضع من (تفسيره). وقد ذكر الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى أربع صور في اتفاق وجه الدلالة على المعنى فيها، ويختلف فيها كلام الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ففي واحدة يقول: إنها من المجاز عن الكناية، وفي الثانية يقول: إنها من المجاز، وفي الثالثة والرابعة يقول: إنها من الكناية. ومحصل القول: أنه إذا أمكن المعنى الأصلي كان كناية، وإذا لم يمكن كان مجازًا مبنيًا على تلك الكناية. ويجوز إطلاق الكناية عليه أيضًا نظرًا إلى أنه في أصله كان كناية في معنى، ثم انقلب فيه مجازًا، والتغاير اعتباري.

وتنظر هذه الأقوال فيما حققه الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى [٢]، وفي الحواشي والمطولات.

وبناء عليه فإن الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول في تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥]: "لما كان الاستواء على العرش، وهو سرير الملك مما يردف الملك، جعلوه كناية عن الملك فقالوا: (استوى فلان على العرش) يريدون: ملك،

---

(١) بيانية الصبان مع حاشية الشيخ محمد الأنبابي (ص:٩١-١٠٠)، وانظر: حاشية الفناري على المطول (ص:٥١٣)، وتقرير الشمس الأنبابي (٤/٣١٨-٣٢٢).

(٢) انظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، للأستاذ الدكتور محمد أبو موسى (ص:٥٥١-٥٦٢).

وإن لم يقعد على السرير البتة، وقالوه أيضًا؛ لشهرته في ذلك المعنى ومساواته: (ملك) في مؤدَّاه، وإن كان أشرح وأبسط، وأدل على صورة الأمر" (١).

فالقول بالكناية باعتبار أصله في اللغة، بصرف النظر عن اشتهاره في الاستعمال، أو عدم اشتهاره، عند من يرى أن شرط الكناية: إمكان المعنى الحقيقي، كالزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومن وافقه، فإن استحال عنده فالنظر إلى ذلك باعتبارين.

وما كان من هذا القبيل فقد صرَّح الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه من المجازات المتفرعة على الكناية، بمعنى: أنها استعملت في المعنى الكنائي كثيرًا بحيث قطع النظر عن المعنى الحقيقي، فصار ذلك بسبب استعماله في محل امتنع فيه المعنى الحقيقي، فانقلبت الكناية -والحالة هذه- مجازًا.

وعليه فإن الحكم يختلف بين المجاز المرسل أو الاستعارة بالنظر إلى استحالة المعنى الحقيقي، أو الكناية باعتبار إمكان الأصل (المعنى الحقيقي).

وقد قال غير واحد في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥]: إنه كناية عن الملك، وذلك باعتبار الأصل على نحو ما عليه الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله الآنف الذكر.

فإن قيل بالاستحالة دون اعتبار الأصل وخصوص الموضوع فإن الحمل يكون على المجاز المرسل أو الاستعارة.

---

(١) الكشاف (٣/٥٢).

والفرق على هذا بَيْنَ المجاز والاستعارة وبَيْنَ الكناية بيِّن من حيث اعتبار القرينة، فإن كانت تمنع المعنى الحقيقي فالحمل على المجاز أو الاستعارة، وإلا -أي: إن لم تمنع من إرادة المعنى الحقيقي ولو بالنظر إلى أصل المعنى- فإنه كناية.

وعلى هذا فقد قيل في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]: إنه من قبيل الاستعارة المكنية أو التخييلية على حسب تعريف الأقدمين لها. فالمستعار: الاستواء، والمستعار منه: كل جسم مستو، والمستعار له الحق جَلَّوَعَلَا؛ ليتخيل السامع عند سماع لفظ هذه الاستعارة ملكًا فرغ من ترتيب ممالكه، وتشييد ملكه.

وجميع ما تحتاج اليه رعاياه وجنده من عمارة بلاده، وتدبير أحوال عباده استوى على سرير ملكه استواء عظمة، فيقيس السامع ما غاب عن حسِّه من أمر الإلهية على ما هي متخيلة؛ ولهذا لا يقع ذكر الاستواء على العرش إلا بعد الفراغ من خلق السماوات والأرض وما بينهما، وإن لم يكن ثمة سرير منصوب، ولا جلوس محسوس، ولا استواء على ما يدل عليه الظَّاهر من تعريف هيئة مخصوصة.

وذكر البعض أنه من الممكن في اللغة اجتماع الاستعارة المكنية مع المجاز المرسل في لفظ واحد، وفي وقت واحد.

نحو قولنا -مثلًا-: (استوى الملك على عرشه)، فإن لفظ: (استوى) إما أن نتصور فيه المجاز المرسل، إذا قلنا باستعماله في لازمه، وهو الظهور الحسي؛ فإن (الاستواء) يلازمه الظهور الحسي، فإذا كان الإنسان مستويًا على عرشه فإنه يكون

ظاهرًا وبارزًا ومشاهدًا للناس، فاستعمل الملزوم الذي هو (الاستواء) على اللازم الذي هو الظهور الحسي على سبيل المجاز المرسل، بعلاقة اللزومية.

لكنا إذا أطلقنا الظهور الحسي الذي هو (استواء الملك على عرشه) على الظهور المعنوي الذي هو تمكنه من الملك، وتدبير شؤون الرعية، ونحو ذلك، نكون قد شبهنا الظهور الحسي بالظهور المعنوي؛ لعلاقة مشابهة، فكان من قبيل الاستعارة.

فمن الممكن أن نتصور اجتماع المعنيين معًا في نفس الوقت؛ إذ إنه لا يرتفع أحدهما إذا وجد الآخر، فليسا من قبيل المتقابلين أو المتناقضين.

والحاصل أن قولنا: (استوى الملك على عرشه) ينظر إليه في اللغة من أكثر من اعتبار:

١ – المعنى الحقيقي بصرف النظر عن اشتهاره في الاستعمال أو عدم اشتهاره.

٢ – المعنى المجازي، وذلك بالحمل على المجاز المرسل أو الاستعارة على النحو الذي تقدم بيانه، وتنزيل عدم اشتهار المعنى الحقيقي في الاستعمال منزلة الاستحالة، وجعل ذلك قرينة المجاز.

٣- الكناية باعتبار إمكان الأصل (المعنى الحقيقي) لغة.

وبناء على ما تقدم فإن اختلاف كلام الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إطلاق مسمى: (الكناية) على المجاز، أو العكس، في أكثر من موضع من (تفسيره) ليس تناقضًا؛ إذ لا يعدو أن يكون الأمر اعتباريًّا على النحو الذي تقدم بيانه.

وجمهور البيانيين يرون أنه قد تمتنع إرادة المعنى الأصلي في الكناية؛ لخصوص الموضوع.

وقد قال كثير من البيانيين: إن المراد من جواز إرادة المعنى الحقيقي: ما يقابلُ الوجوبَ والامتناع، وليس المراد به: عدَمَ الامتناع، والكناية على القول بأنَّها واسطةٌ قد يراد بها الموضوع له مع لازمه بالفعل، فيكون اللفظ مستعملًا في الموضوع له وغيره على أنَّه حقيقةٌ وواسطة، إلَّا أنَّ غيرَه أصلٌ في الإرادة، ومقصودٌ بالإفادة، وإرادةُ الموضوع له تَبَعٌ ووسيلةٌ؛ ليَنتقِلَ منهُ إلى ذلك الغير المقصود، فلا يكونُ من قبيل: (الجمْعِ بين المعنى الحقيقيِّ وغيرِه) المختلَفِ فيه -كما تقدم-.

وقد لا يُرادُ بها إلَّا غير الموضوع له، وهذا هو الغالب[1].

وقد يقصد المعنى الأصلي لذاته في مواضع مخصوصة، ولكن هذا القصد ليس قصدًا خالصًا، بل يراد لذاته وللانتقال إلى المعنى المجازي، فلا يدخل في مسألة: (الجمع بين الحقيقة والمجاز) المختلف فيه؛ لأن ذلك الجمع لم يرد للانتقال.

والحاصل أن يعتبر في الكناية -على هذا- استعمال اللفظ مرادًا منه المعنى الكنائي، حيث إن اللفظ في الكناية يستعمل فيما وضع له، وفي غير ما وضع له.

وسواء استعمل اللفظ فيما وضع له أو في غير ما وضع له فإن معناه الأصلي لا يكون مقصودًا في الكناية قصدًا أصليًّا، وإنما لينتقل منه إلى لازمه، وهو المقصود

---

(١) انظر: بيانية الصبان مع حاشية الشيخ محمد الأنبابي (ص:٩٤).

بالذات، بحيث يكون مناط الإثبات والنفي، والصدق والكذب؛ لما بينهما من علاقة الملزومية.

فإن قصد اللفظ المستعمل فيما وضع له معه فإنما يكون مقصودًا بالتبع، ويبقى المقصود الأصلي من الكناية مستفاد من دلالة اللفظ ولازمه، فقد شابهت الاستعارة من هذا الوجه، فحكم على الكناية بأنها من قبيل المجاز، كما حكم على الاستعارة.

وقد يستحيل في الكناية إرادة المعنى الحقيقي؛ لخصوص الموضوع. واشترط الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومن وافقه في الكناية: إمكان المعنى الحقيقي -كما تقدم-، وزاد العصام رَحِمَهُ ٱللَّهُ ألا يكون كذلك منتفيًا، فما لا يمكن إرادة المعنى الحقيقي فيه يكون عند الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ من قبيل المجاز.

وقد يقصد المعنى الأصلي لذاته في مواضع مخصوصة، ولكن هذا القصد ليس قصدًا خالصًا لذاته فحسب، بل يراد لذاته وللانتقال إلى المعنى المجازي، فلا يدخل في مسألة: (الجمع بين الحقيقة والمجاز) المختلف فيه؛ لأن ذلك الجمع لم يرد للانتقال.

وقد اختلف في الكناية هل هي من قبيل المجاز، أم أنها من الحقيقة، أم أنها تنقسم إلى حقيقة ومجاز؟ كما جاء مبينًا في (مجاري الكناية).

خامسًا: إرادة المعنى اللغوي من الكناية في التفسير:

وكثيرًا ما يريد المفسر من الكناية المعنى اللغوي، ومن ذلك: ما جاء في تفسير قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ٢٨﴾ [الفرقان:٢٧-٢٨].

قال جار الله الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "و(فلان): كناية عن الأعلام [١]، كما أن (الهن) كناية عن الأجناس. فإن أريد بالظالم عقبة [٢]، فالمعنى: ليتني لم أتخذ (أُبيًّا) [٣] خليلًا، فكنى عن اسمه. وإن أريد به الجنس [٤]، فكل من اتخذ من المضلين خليلًا كان لخليله اسم علم لا محالة، فجعله كناية عنه"[٥].

---

(١) والجمع إشارة إلى أنه كناية عن كل علم على سبيل البدل، غير مختص بعلم دون علم، لا أنه كناية عن الأعلام في إطلاق واحد. انظر: حاشيتا القونوي وابن التمجيد على البيضاوي (١٤/٨٠).

(٢) يعني: عقبة بن أبي معيط، فتكون اللام للعهد المخصوص. والمراد بالظلم الاعتداء الخاص المعهود من قصة معينة، وهي قصة عقبة بن أبي معيط، وما أغراه به أبي بن خلف. ويبقى أن العبرة بعموم الألفاظ، لا بخصوص الأسباب، فكل ظالم أطاع خليله في الكفر، حتى مات على ذلك يجري له مثل ما جرى لابن أبي معيط.

(٣) يعني: أبي بن خلف.

(٤) فيكون كناية عن علم كل من يضله، كائنًا من كان، من شياطين الإنس والجن.

(٥) الكشاف (٣/٢٧٦-٢٧٧).

فقوله: (وفلان كناية عن الأعلام، كما أن الهن [١] كناية عن الأجناس) ليس المراد بالكناية المعنى الاصطلاحي الذي هو ذكر اللازم وإرادة الملزوم، بل المراد به المعنى اللغوي الذي هو ضد التصريح.

وقيل: فلان كناية عن علم ذكور من يعقل، وفلانة عن علم إناثهم. وقيل: كناية عن نكرة من يعقل من الذكور، وفلانة عمن يعقل من الإناث، وأما الفلان والفلانة، فكناية عن غير العقلاء، وفل يختص بالنداء إلا في ضرورة، كقول الشاعر:

فِي لَجَّةٍ أَمْسِكْ فُلَانًا عَنْ فُلِ *** [٢].... [٣].

---

(١) قيل: الهن اسم يكنى به عن أسماء الأجناس مطلقًا، كرجل وفرس، وغير ذلك. وقيل: عما يستقبح التصريح به، وقيل: عن الفرج خاصة.

(٢) البيت لأبي النجم العجلي، واسمه: الفضل بن قدامة. انظر: ديوان أبي النجم (ص:٣٥٥) [١٣٠]، وانظر: الكتاب، لسيبويه (٢/٢٤٨)، شرح الشواهد الكبرى (٤/١٧٠٦).

(٣) انظر: تفسير أبي السعود (٦/٢١٤)، الدر المصون (٨/٤٧٩)، التفسير البسيط (١/٢٣٤-٢٣٥)، شرح الكافية الشافية (٣/١٣٢٩)، شرح المفصل (١/١٤٦)، أوضح المسالك (٤/٣٦)، شرح التصريح على التوضيح (٢/٢٤٠)، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع (٢/٥٩)، شرح تسهيل الفوائد (٣/٤١٩)، الكتاب، لسيبويه (٣/٥٠٧).

سادسًا: التصريح قد يكون أبلغ من الكناية:

وقد يكون التصريح أبلغ من الكناية، كما في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢﴾ [البقرة:٢٨٢].

قال القاضي البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "كرر لفظه الله جَلَّوَعَلَا في الجمل الثلاث؛ لاستقلالها، فإن الأولى: حث على التقوى، والثانية: وعد بإنعامه، والثالثة: تعظيم لشأنه؛ ولأنه أدخل في التعظيم من الكناية"(١).

فقوله: (ولأنه أدخل في التعظيم من الكناية) أي: أقوى وأظهر في التعظيم؛ لدلالته على جميع صفات الكمال والمدح بها. (من الكناية) أي: من ذكر الضمير الراجع إليه كناية، والمراد بالكناية: المعنى اللغوي (٢).

والكناية في موضعها أبلغ من اللفظ التصريح -كما تقرر في غير موضع-.

المطلب الثاني: وجود الكناية في القرآن الكريم:

قال الطرطوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (العمدة): "قد اختلف في وجود الكناية في القرآن، وهو كالخلاف في المجاز، فمن أجاز وجود المجاز فيه أجاز الكناية، وهو قول الجمهور، ومن أنكر ذلك أنكر هذا" (٣).

---

(١) تفسير البيضاوي (١/١٦٥)، وانظر: حاشية الطيبي على الكشاف (٣/٥٦٢).

(٢) انظر: حاشية القونوي على البيضاوي (٥/٤٨٩-٤٩٠).

(٣) البرهان في علوم القرآن (٢/٣٠١).

وقد وقع الخلاف بين العلماء في مسألة وجود المجاز في القرآن، فقال جماهير أهل العلم بوجود المجاز في اللغة، وفي القرآن، والسنة.

وذهب بعضهم إلى نفيه.

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المستصفى): "فالقرآن يشتمل على المجاز، خلافًا لبعضهم، فنقول: المجاز اسم مشترك قد يطلق على الباطل الذي لا حقيقة له، والقرآن منزَّه عن ذلك، ولعله الذي أراده من أنكر اشتمال القرآن على المجاز.

وقد يطلق على اللفظ الذي تجوز به عن موضوعه، وذلك لا ينكر في القرآن مع قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف:٨٢].

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ [الكهف:٧٧].

وقوله: ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ﴾ [الحج:٤٠]، فالصلوات كيف تهدم؟

﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ [النساء:٤٣].

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور:٣٥].

﴿يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب:٥٧]، وهو يريد: رسوله [(١)].

﴿فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٩٤]، والقصاص حق، فكيف يكون عدوانًا؟

---

(١) قال العلامة الطيبي: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأحزاب:٥٧]، أي: يؤذون رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإلا فالله عَزَّوَجَلَّ الغالب أبدًا" حاشية الطيبي على الكشاف (١٥/٢٩٨).

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى:٤٠].

و﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ [البقرة:١٥].

﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ﴾ [الأنفال:٣٠].

﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾ [المائدة:٦٤].

﴿أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾ [الكهف:٢٩]، وذلك ما لا يحصى، وكل ذلك مجاز" (١).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف:٧٧]، هذا من المجاز؛ لأن الجدار لا يكون له حقيقة إرادة، ومعناه: قرب من الانقضاض، وهو السقوط. واستدل الأصوليون بهذا على وجود المجاز في القرآن الكريم، وله نظائر معروفة" (٢).

وفي (المفهم)، للإمام أبي العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الجدار: الحائط. وينقض: يسقط. ووصفه بالإرادة مجاز مستعمل، وقد فسره في الحديث بقوله: «**يقول: مائل**» (٣)، فكان فيه دليل على وجود المجاز في القرآن، وهو مذهب الجمهور". ونحوه قول أبي عبد الله القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تفسيره) (٤). وقد تقدم في

---

(١) المستصفى (ص:٨٤).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٤١/١٥).

(٣) وهو في (الصحيحين). انظر: صحيح البخاري [٤٧٢٥]، مسلم [٢٣٨٠].

(٤) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢٠٨/٦-٢٠٩)، وانظر: تفسير القرطبي (٢٥/١١)، وانظر: قواطع الأدلة، لأبي المظفر السمعاني (٢٦٦/١).

(الجزء الأول) من (تذكرة وبيان) ذكر نظائر كثيرة. ومما يحتج به الأصوليون على من أنكر وجود المجاز في القرآن: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء: ٢٤]" [١].

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المجاز واقع في لغة العرب عند جمهور أهل العلم. وخالف في ذلك: أبو إسحاق الإسفراييني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وخلافه هذا يدل أبلغ دلالة على عدم اطلاعه على لغة العرب، وينادي بأعلى صوت بأن سبب هذا الخلاف تفريطه في الاطلاع على ما ينبغي الاطلاع عليه من هذه اللغة الشريفة، وما اشتملت عليه من الحقائق والمجازات التي لا تخفى على من له أدنى معرفة بها. وقد استدل بما هو أوهن من بيت العنكبوت.." [٢].

وقال شمس الأئمة السرخسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد ظهر استحسان الناس للمجازات والاستعارات فوق استحسانهم للفظ الذي هو حقيقة"[٣].

وفي (كشف الأسرار على أصول فخر الإسلام): "وأما الذين أنكروا وجود المجاز في القرآن، وزعموا أنه لو كان فيه مجاز لكان كذبًا فإنه يلزمهم أن يكون قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر:٩] كذبًا؛ لأن

(١) أحكام القرآن، لابن الفرس (٣/٢٥٨).

(٢) إرشاد الفحول (١/٦٦).

(٣) أصول السرخسي (١/١٧٢).

﴿إِنَّا﴾، و﴿نَحْنُ﴾ للجماعة دون الواحد في أصل الوضع. وإن قالوا: صحَّ ذلك على وجه التعظيم فهو المجاز الذي أنكروه.." إلى غير ذلك[١].

وإنَّ أيَّ مجازٍ أو استعارة يطلب له ثلاثة أشياء: القرينة، والعلاقة، والشَّيء الثَّالث بالغ الأهميَّة غَفَلَ عنه من أنكر المجاز، وهو النُّكتة. فمثلًا: عندما أفيد أني رأيتُ رجلًا شجاعًا عظيم الشَّجاعة أقول مثلًا: (رأيتُ أسدًا رابضًا خلف مدفعه). فقولنا: (رابضًا خلف مدفعه) هذه القرينة أفادت أنَّني لا أقصد (الحيوان المفترس)، فهذه هي القرينة، والعلاقة المشابهة، ولكن طالما أنني قصدت أن أفيد أني رأيتُ رجلًا شجاعًا فلماذا نبحث عن قرينة؟ ولماذا لم نُعَبِّر بالحقيقة من أوَّل الأمر؟ فبدلًا من إيقاع المخاطَب أوَّلا في اللَّبس، ثمَّ تصحيحُ ذلك بما يأتي من تمام الكلام، ثمَّ تطلب العلاقة. فبدلا من هذه التَّعمية لماذا لا يأتي المتكلِّم من أوَّل الأمر بحقيقة ما يقصده؟ فيقول من أوَّل الأمر: (رأيتُ رجلًا شجاعًا). يلزم وجود نكتة اقتضت عدم التَّعبير بالحقيقة المرادة إلى مجازٍ يراد منه هذه الحقيقة الأخرى. والتَّحقيق أنَّ هناك حقيقتين: حقيقةٌ مرادة من الكلام، وحقيقةٌ مهجورة غير مرادة من الكلام فقولنا: (رأيتُ أسدًا رابضًا خلف مدفعه) الحقيقة المهجورةُ هي: الحيوان المعروف، والمرادةُ هي: الرَّجل الشُّجاع، فلماذا لا نعبِّر بالحقيقة المرادة من أوَّل الأمر؟ ولماذا نصرف المخاطَب إلى المجاز؟

---

(١) انظر: كشف الأسرار شرح أصول البزدوي (٢/٤٣-٤٤).

المطلب الثالث: بلاغة الكناية وأهميتها وأغراضها:

إن الكناية من ألطف أساليب البلاغة وأدقها؛ لأن فيها الانتقال من الملزوم إلى اللازم، فهو كدعوى الشيء مصحوبًا بالدلالة عليه، مع ما فيها من الإيجاز، وتجسيد المعاني المعقولة في صورة المحس، فالكناية فيها سحر البلاغة، وروعة الأسلوب.

فكأنك تقول في نحو: (زيد كثير الرماد): زيد كريم؛ لأنه كثير الرماد، وكثرته تستلزم كذا ...الخ، والانتقال من كثرة الرماد إلى الكرم يحتاج إلى وسائط؛ للوصول إلى لازم المعنى، فهو كريم؛ لأنه يذبح الذبائح، ويقري الضيوف، ويعد لهم الطعام الكثير الذي يخلف رمادًا يدل على الجود والكرم.

فأنت تأتي بمعنى: (الجود والكرم) في قولك: كثير الرماد، مصحوبًا بالدليل عليه، وهو أنه كثير الرماد، في إيجاز وتجسيم، فبدلًا من أن تقول: إنه كريم جدًّا، بدليل أنه يذبح الذبائح، ويقري الضيوف، ويحرق الحطب الكثير لأجل ذلك، وهو يخلف رمادًا كثيرًا يدل على ما قام به، استغنيتَ عن ذلك كله بقولك: (كثير الرماد)، فهو إيجاز بليغ، مع ما فيه من التجسيم من حيث الإتيان بالدليل المادي المحسوس الذي يدل على كرمه وجوده.

وعلى ذلك فقد فَسِرُّ جمال الكناية بأنه: الإتيانُ بالمعنى مصحوبًا بالدليل عليه في إيجاز وتجسيم.

ومن ذلك قول امرئ القيس في وصف محبوبته:

وتُضْحِي فتيتُ الْمِسكِ فوق فراشها   نؤومُ الضحى لم تَنْتَطِقْ عن تفضُّلِ (١)

وقد قصد بقوله: (نؤومُ الضحى) قصد أنها مرفَّهة مخدومة، ولا تحتاج إلى الاستيقاظ مبكرًا كسائر الفتيات؛ لتقوم بقضاء حاجاتها، فلها من يكفيها من الخدم، فهي تنام ولا تهتم بشيء؛ لأنها غير محتاجة إلى السعي بنفسها في قضاء حاجاتها؛ وذلك أن وقت الضحى وقت سعي نساء العرب في أمر المعاش، وكفاية أسبابه، وتحصيل ما يحتاج إليه، فلا تنام فيه من نسائهم إلا من تكون لها خدم ينوبون عنها في السعي لذلك.

فعبر عن معنى أنها مترفة مخدومة، وتجد من يقضي حاجاتها، بقوله: (نؤومُ الضحى) فأتى بالمعنى وهو أنها مرفَّهة مخدومة مصحوبًا بالدليل عليه، وهو أنها تنام وقت الضحى في إيجاز وتجسيم، حيث أتى بدليل مادي يدلل به على معنى أنها مترفة ومخدومة.

ومن ذلك قول الخنساء تصف أخاها صخرًا:

طويل النجاد، رفيع العماد *** (٢).

وقد كنت الخنساء عن طول قامة أخيها بطول نجاد سيفه. و(النجاد): حمائل السيف؛ إذ من المعلوم باللزوم الذهني أن الرجل ذا القامة القصيرة لا يتخذ حمائل طويلة لسيفه، إنما يتخذ الحمائل الطويلة من كان من الناس طويل القامة.

---

(١) ديوان امرئ القيس (ص:٤٤) [٤٢].

(٢) ديوان الخنساء (ص:٣١)، و(ص:٩٨).

وكنت عن كون أخيها ذا منزلة رفيعة في قومه بقولها:

(رفيع العماد) أي: بيته بين بيوت العرب ذو أعمدة عالية؛ إذ يلزم ذهنًا من ارتفاع أعمدة سكان الخيام في البادية أن تكون هذه الأعمدة لبيوت عظيمة كبيرة، وجرت العادة أن تكون هذه الخيام العظيمة لذوي المكانة الرفيعة في أقوامهم، أما سائر سكان البادية فتتشابه خيامهم في ارتفاعها وأحجامها وأطوال أعمدتها.

ويقال في ذلك ما قيل في سابقه من كونها أتت بالمعنى المراد مصحوبًا بالدليل عليه في إيجاز وتجسيم.

والكنايات في موضعها أبلغ من التصريح.

قال الخطيب القزويني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أطبق البلغاء [١] على أنَّ المجاز والكناية أبلغ من الحقيقة والتصريح؛ لأن الانتقال فيهما من الملزوم إلى اللازم، فهو كدعوى الشيء ببيِّنة، وأنَّ الاستعارة أبلغ من التشبيه؛ لأنها نوع من المجاز، وأن التمثيل على سبيل الاستعارة أبلغ من التمثيل لا على سبيل الاستعارة، وأن الكناية أبلغ من الإفصاح بالذكر" [٢].

---

(١) قوله: (أطبق البلغاء). قال العلامة السعد والسيد في (شرحي المفتاح): يراد بالبلغاء علماء البيان على ما هو الظاهر؛ لأنهم هم الذين يظهر منهم الإجماع، ويمكن أن يراد جميع البلغاء، ويكون إجماع أهل السليقة بحسب المعنى، حيث يعتبرون هذه المعاني في موارد الكلام، وإن لم يعلموا هذه الاصطلاحات.
المطول وشرح السيد (ص:٤١٤-٤١٦)، وانظر: الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم (٢/٣٦٠).

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة (ص:٢٤٩).

قال الشيخ عبد القاهر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ليس ذلك؛ لأن الواحد من هذه الأمور يفيد زيادة في المعنى نفسه لا يفيدها خلافه بل لأنه يفيد تأكيدًا لإثبات المعنى لا يفيده خلافه، فليست فضيلة قولنا: (رأيت أسدًا) على قولنا: (رأيت رجلًا) هو والأسد سواء في الشجاعة أن الأول أفاد زيادة في مساواته للأسد في الشجاعة لم يفده الثاني، بل هي أن الأول أفاد تأكيدًا لإثبات تلك المساواة له لم يفده الثاني. وليست فضيلة قولنا: (كثير الرماد) على قولنا: (كثير القرى) أن الأول أفاد زيادة لقراه لم يفدها الثاني، بل هي أن الأول أفاد تأكيدًا لإثبات كثرة القرى له لم يفده الثاني.

والسبب في ذلك أن الانتقال في الجميع من الملزوم إلى اللازم، فيكون إثبات المعنى به كدعوى الشيء ببينة، ولا شك أن دعوى الشيء ببينة أبلغ في إثباته من دعواه بلا بينة، ولقائل أن يقول: قد تقدم أن الاستعارة أصلها التشبيه وأن الأصل في وجه الشبه أن يكون الشبه به أتم منه في المشبه وأظهر. فقولنا: رأيت أسدًا يفيد للمرء شجاعة أتم مما يفيدها قولنا: (رأيت رجلًا كالأسد)؛ لأن الأول يفيد: شجاعة الأسد، والثاني: شجاعة دون شجاعة الأسد، ويمكن أن يجاب بحمل كلام الشيخ على أن السبب في كل صورة ليس هو ذلك لا أن ذلك ليس بسبب في شيء من الصور أصلًا [1].

---

(١) انظر: الإيضاح في علوم البلاغة (ص:٢٤٩)، دلائل الإعجاز (ص:٦٩)، وانظر ذلك مفصلًا في (المطول وشرح السيد) (ص:٤١٤-٤١٥)، مختصر المعاني (ص:٢٦٢)، مواهب الفتاح (٤٧٧/٢)، شروح التلخيص (٢٧٤/٤)، تحقيق الفوائد الغياثية (٧٨٥/٢)، بغية الإيضاح (٥٥٥/٣)، شرح المختصر على تلخيص المفتاح (١٣٣/٢)، حاشية الشيخ مخلوف (ص:٣١٨).

وما ذكر هنا من الكناية إنما هو باصطلاح البيانيين(١).

وقال الكرماني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان مكانة الكناية وأهميتها: "والكناية أبلغ من التصريح والإفصاح بذكره؛ كما في المجاز بعينه؛ فإن الانتقال في الكناية عن اللازم إلى الملزوم إنما يكون بعد تساويهما، وحينئذ يكون انتقالًا من الملزوم إلى اللازم؛ فيصير حال الكناية كحال المجاز في كون الشيء معها مدعى بشاهد" (٢).

وقد تقرَّر في (مراتب التشبيه من حيث القوة والضعف) أن التشبيه من أعلى أنواع البلاغة وأشرفها، واتفق البلغاء على أن الاستعارة أبلغ منه؛ لأنها مجاز، وهو حقيقة، والمجاز أبلغ، فإذا الاستعارة أعلى مراتب الفصاحة، وكذا الكناية أبلغ من التصريح، والاستعارة أبلغ من الكناية -كما قال في (عروس الأفراح) - (٣): إنه الظاهر؛ لأنها كالجامعة بين كناية واستعارة، ولأنها مجاز قطعًا، وفي الكناية خلاف كما تقرر.

والتحقيق أنها من قبيل المجاز، كما جاء مبينًا في (مجاري الكناية).

قال في (الطراز): "اعلم أن الكناية واد من أودية البلاغة، وركن من أركان المجاز، وتختص بدقة وغموض، ومن أجل ذلك حصل الزلل لكثير من الفرق، لسبب التأويلات، كما عرض للباطنية فيما أتوا به من قبح التأويل وشنيعه، ولطوائف من

---

(١) انظر: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (٢/٢١٩-٢٢٠).

(٢) تحقيق الفوائد الغياثية، للكرماني (٢/٧٨٦).

(٣) انظر ذلك في (عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح) (٢/٢٢٢).

أهل البدع والضلالات، وما ذاك إلا من جهلهم بمجاريها، وما يجوز استعماله منها، وما لا يجوز، فلا جرم كانت مختصة بمزيد الاعتناء، لما يحصل فيها من الفوائد الكثيرة، والنكت الغزيرة، ولنذكر ماهية الكناية، ثم نردفه بالفرق بين الكناية، والتعريض، ثم نذكر أقسامها وأمثلتها، فهذه فصول أربعة نفصلها بمعونة الله عَزَّوَجَلَّ" (١).

*ومن الآيات التي تفيد أن الكناية أبلغ من التصريح: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌۖ فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّۚ﴾ [الحج:٣٦]، يعني: إذا سقطت على جنوبها ميتة. كنى عن الموت بالسقوط على الجنب، كما كَنَّى عن النَّحْرِ والذَّبْح بذكر اسْمِ الله عَزَّوَجَلَّ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾. والكنايات في أكثر المواضع أبلغ من التصريح.

وقد أوردتُ نماذج كثيرة للدلالة على أن الكناية في موضعها أبلغ من التصريح في كتاب: (مجاري الكناية).

المطلب الرابع: بيان أغراض الكناية وفوائدها:

الكناية تمكن الإنسان من التعبير عن أمور كثيرة يتحاشى التصريح والإفصاح بها بصريح اللفظ، ويتنقل إلى الكناية لأغراض وأوجه من البلاغة، وهاك بيان أغراض الكناية وفوائدها:

---

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (١/١٨٥).

أولًا: قصد الاختصار، وبلاغة الإيجاز:

ومن أغراض الكناية وفوائدها: قصد الاختصار، وبلاغة الإيجاز:

*ومن ذلك: التعبير عن أفعال متعددة بلفظ: (فعل)، فيكون لفظ: (فعل) كناية لا للدلالة على فعل واحد، وهو يفيد بذلك الاختصار، كما قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ٧٩﴾ [المائدة:٧٩]، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [النساء:٦٦]، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة:٢٤]، أي: فإن لم تأتوا بسورة من مثله، ولن تأتوا.

قال جار الله الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عبَّر عن الإتيان بالفعل؛ لأنه فعل من الأفعال.

والفائدة فيه: أنه جار مجرى الكناية التي تعطيك اختصارًا؛ إذ لو لم يعدل من لفظ: (الإتيان) إلى لفظ: (الفعل) لاستطيل أن يقال: فإن لم تأتوا بسورة من مثله، ولن تأتوا بسورة من مثله. فعبر عن (الإتيان) بالفعل. والفائدة فيه: أنه جار مجرى الكناية التي تعطيك اختصارًا ووجازة تغنيك عن طول المكنى عنه. ألا ترى أنَّ الرجل يقول: ضربت زيدًا في موضع كذا على صفة كذا، وشتمته ونكلت به، ويعد كيفيات وأفعالًا، فتقول: بئسما فعلت. ولو ذكرت ما أنبته عنه، لطال عليك" (١).

---

(١) الكشاف (١٠١/١).

ثانيًا: استعمال الكناية في مواضع لا يحسن التصريح فيها بصريح الكلام، وإيثار الأسلوب غير المباشر في الكلام، إذا كان مقتضى الحال يستدعي ذلك:

إن الخطاب في القرآن الكريم يعلم المخاطبين: حسن الخطاب، وجميل الأدب، وبلاغة التعبير، ورعاية حال المخاطبين، حيث تستعمل الكناية في مواضع لا يحسن التصريح فيها بصريح الكلام.

ومن الكناية: وإيثار الأسلوب غير المباشر في الكلام، إذا كان مقتضى الحال يستدعي ذلك، وما البلاغة إلا مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته، ويتحقق ذلك في استعمال البليغ للكناية مراعيًا حال المخاطَب، وبلاغة الألفاظ.

وعليه فإن المتكلم البليغ، المنتفع من هدايات الآيات القرآنية، يتحاشى في خطاب غيره من البشر: الإفصاح عن مقصده بصريح الكلام، وينتقل إلى الكناية؛ احترمًا للمخاطب، وتأدبًا معه، من حيث الابتعاد عما يسوئه، أو ينفر منه، أو يشمئز منه، ورعاية لمشاعره من حيث استعمال كلام يسلم من محاذير قد تترتب على مواجهته بصريح الألفاظ، والمتكلم يصل من خلال استعمال الكناية إلى مقصده محترزًا عن تلك المحاذير، وإن دلَّ ذلك فإنما يدل على حِسِّه المرهف، وحكمته وتأنيه في استعمال ما أصلح هو من الألفاظ والأساليب.

ومن الحكمة والبلاغة: استعمال الكناية في موضعها، فهي من جميل الأدب، وبليغ الخطاب، وهي تضفي رونقًا من الحسن والجمال، وبعدًا في المعنى.

فتحصل أن تنزيه الأذن عما تنبو عن سماعه من احترام المخاطب، حيث يقبح ذكر الصريح، وفيه ما فيه من أدب الخطاب وبلاغته، وهو من أغراض استعمال الكناية، حيث لا يحسن التصريح بصريح الكلام.

*ومن استعمال الكناية في القرآن الكريم فيما لا يحسن التصريح فيه بصريح الكلام: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ [النساء:٤٣]، فالغائط في الأصل: اسم للمكان المنخفض من الأرض، وقد كانوا إذا أرادوا قضاء حاجتهم أبعدوا عن العيون إلى منخفض من الأرض، فسمي منه؛ لذلك ولكنه كثر استعماله في كلامهم، فصار بمنزلة التصريح.

قال شيخ الإسلام أبو السعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿ٱلْغَآئِطِ﴾: "هو المكان الغائر المطمئن، والمجيء منه: كناية عن الحدث؛ لأن المعتاد أن من يريده يذهب إليه؛ ليواري شخصه عن أعين الناس. وإسناد المجيء منه إلى واحد منهم من المخاطبين دونهم، للتفادي عن التصريح بنسبتهم إلى ما يستحيا منه، أو يستهجن التصريح به، وكذلك إيثار الكناية فيما عطف عليه من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء:٤٣] على التصريح بالجماع" (١).

(١) تفسير أبي السعود (٢/١٨٠)، وانظر: روح المعاني (٣/٤١)، مجاز القرآن، لأبي عبيدة (١/١٥٥)، معاني القرآن، للفراء (١/٣٠٣)، الكامل في اللغة والأدب، للمبرد (٢/٩٨)، تحرير التحبير، لابن أبي الإصبع (ص:١٤٣).

قال الشهاب الخفاجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وفي ذكر: ﴿أَحَدٌ﴾ [النساء: ٤٣] فيه دون غيره إيماء إلى أن الإنسان ينفرد عند قضاء الحاجة، كما هو دأبه وأدبه" (١).

وقال ابن أبي الإصبع رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الكناية: أن يعبر المتكلم عن المعنى القبيح باللفظ الحسن، وعن الفاحش بالطاهر، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة:٧٥] كناية عن الحدث، وكقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ [النساء:٤٣] كناية عن قضاء الحاجة، وكقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [البقرة:٢٣٥] كناية عن الجماع.

*ومن الآيات التي تضمنت: بلاغة الإيجاز، والكناية على قول من حملها على المجاز ولم ينف المعنى الحقيقي الظاهر: ما قيل في قوله جَلَّوَعَلَا في مريم عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ وابنها المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة:٧٥]. فهو كناية عن قضاء الحاجة؛ لأن الذي يأكل الطعام يحتاج إلى قضاء الحاجة، فهو محتاج من ناحيتين، ومن كان هكذا حاله لا يصلح أن يكون ربًّا، وهو ما ينفي بأبلغ عبارة الألوهيَّة عن الرَّسول المحتاج إلى الطعام وإلى دفعه، وفيه دلالة على البون الشَّاسع بين (مقام الألوهيَّة) و(مقام النُّبوَّة).

وفي الآية: اختصار بليغ؛ إذ يصح أن يراد المعنى المجازي، كما يصح أن يراد المعنى الحقيقي معه؛ إذ إن دلالة كل منهما واحدة، وهي العجز والافتقار؛ والآية

---

(١) حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي (٣/ ١٤٠).

تدل على ذلك عليهما معًا؛ إذ إن أحدهما مسبب عن الآخر، ولا ينفك عنه، وفيها: عدم التصريح بما يستقبح ذكره، والإشارة إليه بما هو مسبب عنه.

وقد أوردتُ في كتاب: (مجاري الكناية) تعقيبا مطولًا على من أنكر الكناية في الآية، وعلى من ضَعَّفَ الحمل عليها، مع ذكر نماذج كثيرة من الآيات التي فيها بلاغة الكناية من حيث إيثار الأسلوب غير المباشر.

ثالثًا: التنبيه على عظم قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، وشدة تمكنه جَلَّوَعَلَا وتصرفه في الخلق، والتعبير عن ذلك بما لا يؤديه اللفظ الصريح:

إن من أغراض الكناية: التنبيه على عظم قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، وشدة تمكنه جَلَّوَعَلَا وتصرفه في الخلق، وكون المكنى به ينبه على معنى لا يؤديه اللفظ الصريح.

*ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ﴾ [البقرة:٢٥٥].

فقوله: ﴿حِفْظُهُمَا ۚ﴾ أي: حفظ الله عَزَّوَجَلَّ السماوات والأرض، فحذف الفاعل، وأضاف المصدر إلى المفعول.

وفي الآية: كناية عن عظيم قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ [الرعد: ٨-٩].

قال الإمام محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ۝٥٧﴾ [هود:٥٧] "الحفيظ: أصله مبالغة الحافظ، وهو الذي يضع المحفوظ بحيث لا يناله أحد غير حافظه، وهو هنا كناية عن القدرة والقهر" (١).

*ومن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ [الزمر:٦٧].

ففي الآية: كناية عن عظيم قدرة الله عَزَّوَجَلَّ.

*ومن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [الزمر:٦٣].

ففي الآية: كناية عن عظيم قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، وشدة تمكنه جَلَّ وَعَلَا من التصرف في كل شيء في السماوات والأرض، وحفظه لها، فلا يملك أمرها، ولا يتمكن من التصرف فيها غيره، فهو جَلَّ وَعَلَا الحافظ لخزائنها، ومدبرها، وهو الذي يملك مفاتيحها.

وفي آيات الخلق دلالة عظمية على قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، وشدة تمكنه جَلَّ وَعَلَا وتصرفه في الخلق، فهو جَلَّ وَعَلَا مبدع الخلق، ومالك الملك، والحافظ لنظام العالم، وليس كمثله شيء، والآيات في هذا كثيرة.

رابعًا: الإشارة إلى فطنة المخاطب:

وذلك حيث يُفْهم المكنى عنه من القرائن، والسياق، والسباق.

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/١٠٣).

*وذلك نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٢٣ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة:٢٣-٢٤].

فإنه كناية عن ألا تعاندوا عند ظهور المعجزة فتمسكم هذه النار العظيمة [(١)].

قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ أي: ما أمرتم به من الإتيان بالمثل، بعد ما بذلتم في السعي غاية المجهود. ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ اعتراض بين جزأي الشرطية، مقرر لمضمون مقدمها، ومؤكد لإيجاب العمل بتاليها، وهذه معجزة باهرة، حيث أخبر بالغيب الخاص علمه به عَزَّوَجَلَّ، وقد وقع الأمر كذلك. كيف لا ولو عارضوه بشيء يدانيه في الجملة لتناقله الرواة خلفا عن سلف. ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ جواب الشرط، على أن اتقاء النار كناية عن الاحتراز من العناد؛ إذ بذلك يتحقَّق تسبُّبه عنه، وترتبه عليه، كأنه قيل: فإذا عجزتم عن الإتيان بمثله -كما هو المقرر- فاحترزوا من إنكار كونه منزلًا من عند الله عَزَّوَجَلَّ، فإنه مستوجب للعقاب بالنار، لكن أوثر عليه الكناية المذكورة المبنيَّة على تصوير العناد بصورة النار، وجعل الاتصاف به عين الملابسة بها، للمبالغة في تهويل شأنه، وتفظيع أمره، وإظهار كمال العناية بتحذير المخاطبين منه، وتنفيرهم عنه، وحثهم على الجدِّ في تحقيق المكنيِّ به. وفيه من الإيجاز البديع ما لا يخفى، حيث كان الأصل: فإن لم تفعلوا فقد صحَّ صدقه عندكم، وإذا صحَّ ذلك كان لزومكم العناد، وترككم الإيمان به سببًا لاستحقاقكم العقاب بالنار، فاحترزوا منه،

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/٣٠٢).

واتَّقوا النار ﴿ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ صفة للنار مورثة لها زيادة هول وفظاعة -أعاذنا الله من ذلك- (١).

خامسًا: استعمال لفظ هو أجمل وأبلغ من الصريح:

إن من أغراض استعمال الكناية: العدول عن صريح اللفظ إلى آخر هو أجمل وأبلغ، ويقال في آيات القرآن الكريم: إن كل لفظ قد استعمل في موضعه، وهو في أعلى درجات البلاغة وأجملها، ويظهر ذلك جليًّا في الآيات التالية:

*ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [الكهف:٤٢]. فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ كناية عن الندم.

قال الزَّمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وتقليب الكفين: كناية عن الندم والتحسر؛ لأنَّ النادم يقلب كفيه ظهرًا لبطن (٢)، كما كنى عن ذلك بِعَضِّ الكف أو الأنامل، والسقوط في اليد" (٣).

---

(١) تفسير أبي السعود (٦٧/١).

(٢) قال في (الأساس): قلبتُ الأمر ظهرًا لبطن، قال عمر بن أبي ربيعة: (وضربنا الحديث ظهرًا لبطنٍ***وأتينا من أمرنا ما اشتهينا) نصب (ظهرًا لبطن) على أنه مفعولٌ مطلق، أي: يُقلِّبُ كفيه تقليبًا. حاشية الطيبي على الكشاف (٤٧٨/٩)، وانظر: أساس البلاغة، مادة: (ظهر) (٦٢٨/١)، ديوان عمر بن أبي ربيعة (ص:٣٩٠).

(٣) الكشاف (٧٢٤/٢).

*ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨﴾ [الفرقان:٢٧-٢٨]. كناية عن الندم والحسرة، كما أن لفظة: (فُلَان) كناية عن الخليل الذي أضله.

قال الزَّمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "عض اليدين والأنامل، والسقوط في اليد، وأكل البنان، وحرق الأسنان والأرم [(١)] ونحوها كنايات عن الغيظ والحسرة؛ لأنها من روادفها، فيذكر الرادفة ويدل بها على المردوف، فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة، ويجد السامع عنده في نفسه من الروعة والاستحسان ما لا يجده عند لفظ المكنى عنه" [(٢)].

ويمكن أن نطلق على هذه الدِّلالة أنها من دلالات: (الالتزام العرفي). أمَّا دلالة الالتزام فهي دلالة اللَّفظ على أمرٍ خارجٍ عن معناه لازمٍ له، كدلالة السَّقف على جدار أو عمود يحمله، ودلالة الإنسان على الضَّاحك الخارج عن معناه، ولكنَّه لازم له.

---

(١) قوله: (وحرق الأسنان والأرم) قال في (الصحاح): "حرقت الشيء حرقًا: بردته وحككت بعضه ببعض. ومنه قولهم: (حرق نابه يَحْرُقُهُ ويَحْرِقُه)، أي: سحقه حتى سمع له صريف. و(فلان يحرق عليك الأُرَّمَ غَيظًا). وفيه أيضًا: أرم على الشيء، أي: عض عليه وأرمه أيضًا، أي: أكله، والأُرَّم: الأضراس، كأنه جمع: آرِم، يقال: إذا تَغَيَّظَ فحَكَّ أضراسه بعضها ببعض. الانتصاف (٣/٢٧٦)، الصحاح، مادة: (حرق) (٤/١٤٥٧)، مادة: (أرم) (٥/١٨٦٠)، مقاييس اللغة، مادة: (حرق) (٢/٤٣)، تهذيب اللغة (٢/١٧٧).

(٢) الكشاف (٣/٢٧٦).

وليس من شرط (دلالة الالتزام) أن تكون ذهنيةً عقليَّة فقط، بل قد تكون (دلالة الالتزام) دلالة (لزوم عرفي) أي: أنَّ العقل لا يحكم إلا بعد ملاحظة تكرار المشاهدة والتَّجربة التي دلَّ العرف على المعنى المراد، والتَّكرار على لزومها. وهذا كثيرٌ في القرآن والسنُّة، وباب الكناية قائمٌ عليه. و(الملازمة العرفيَّة) هنا إنما حكم العقل بها بالنَّظر إلى السِّياق والسِّباق والقرائن التي ترجِّحُ الكناية على الحقيقة، فيحكم بالملازمة العرفيَّة، وذلك واضح.

*ونظير ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [الأعراف:١٤٩].

و﴿سُقِطَ﴾ فعل ماض مبني للمجهول. وأصل الكلام: سقطت أفواههم على أيديهم، ففي بمعنى: (على)، وذلك من شدة الندم؛ فإن العادة أنَّ الإنسان إذا ندم بقلبه على شيء عض بفمه على أصابعه، فسقوط الأفواه على الأيدي لازم للندم، فأطلق اسم اللازم، وأريد الملزوم على سبيل الكناية.

وقد جاء بيان ذلك مفصلًا، مع ذكر نماذج كثيرة في الدلالة على بلاغة الكناية من حيث العدول عن صريح اللفظ إلى آخر هو أجمل وأبلغ في (مجاري الكناية).

سادسًا: تحسين اللفظ وتزيينه:

إن مدار البلاغة على تحسين اللفظ، وهو من أغراض استعمال الكناية. ولا ريب أن تحسين اللفظ في الكناية يستتبع زيادة في تحسين المعنى.

فالكناية تحقق: إصابة المعنى، وتحسين اللفظ في المواضع التي يكون تحسين اللفظ فيها مقصودًا؛ ليكون أكثر ملائمة من ألفاظ أخرى، ولما يستتبع ذلك من تحسين المعنى.

ولذلك أفرد هذا الغرض بالذكر الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره (١).

*ومن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۝٤٩﴾ [الصافات:٤٩] فإن العرب كانت عادتهم الكناية عن حرائر النساء بالبيض.

قال امرؤ القيس:

وبَـيْـضَةِ خِـدرٍ لا يُـرامُ خِـبـاؤُهَا   تَمَتَّـعْتُ من لَهْـوٍ بهـا غيرَ مُـعْجَلِ (٢)

ومن نخوة العرب وغيرتهم: كنايتهم عن حرائر النساء بالبيض.

و(بيضة الخدر): المرأة المصونة في خدرها، وهو الخباء. و(لا يرام): لا يمكن الوصول إليه.

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قولهم: (أصح من بيض النعام) يقال في العذارى، وَيُرَاد: سلامتهن من الْمُلَامسَة والافتضاض" (٣).

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/٣٠٧)، وانظر: تحرير التحبير، لابن أبي الإصبع (ص:١٤٥)، خزانة الأدب وغاية الأرب، لابن حجة الحموي (٢/٢٦٤)، خزانة الأدب، للبغدادي (١/٤٠٠).

(٢) ديوان امرئ القيس (ص:١٥).

(٣) المستقصى في أمثال العرب (ص:٢٠٤).

والمعنى: ورب بيضة خدر، يعني: ورب امرأة لزمت خدرها، ثم شبهها بالبيض.

قال الزوزني: والنساء يشبهن بالبيض من ثلاثة أوجه:

أحدها: بالصحة والسلامة عن الطمث، ومنه قول الفرزدق:

خرجن إلَيّ لم يطمثن قبلي وهن أصح من بيض النَّعام (١)

ويروى: دفعن إلي، ويروى: برزن إِلَيّ.

والثاني: في الصيانة والستر؛ لأن الطائر يصون بيضه ويحضنه.

والثالث: في صفاء اللون ونقائه؛ لأن البيض يكون صافي اللون نقيه إذا كان تحت الطائر.

وربما شبهت النساء ببيض النعام، وأريد أنهن بيض تشوب ألوانهن صفرة يسيرة وكذلك لون بيض النعام، ومنه قول ذي الرُّمَّة:

***كأنَّها فِضةٌ قد مَسَّها ذَهَبُ (٢)

و(الرَّوم): الطلب والفعل منه: يروم. و(الخباء): البيت إذا كان من قطن، أو وبر، أو صوف، أو شعر، والجمع: أخبية.

و(التمتع): الانتفاع. وغير يروى بالنصب والجر، فالجر على صفة لهو، والنصب على الحال من التاء في (تمتعت).

---

(١) ديوان الفرزدق (ص:٨٣٦). "أي: هن عذارى غير مُفْتَرَعَات" تهذيب اللغة (٢١٦/١٣).

(٢) ديوان ذي الرمة، شرح أبي نصر الباهلي، رواية ثعلب (٣٣/١)، وصدر البيت: (كحلاء في بَرَجٍ صفراءُ في غَنجٍ***).

ويقول: وربَّ امرأة كالبيض في سلامتها من الافتضاض، أو في الصون والستر، أو في صفاء اللون ونقائه، أو في بياضها المشوب بصفرة يسيرة، ملازمة خدرها، غير خرَّاجة ولَّاجة، انتفعت باللهو بها على تمكث وتلبث، لم أعجل عنها، ولم أشغل عنها بغيرها" (١).

وتقول العرب إذا وصفت الشيء بالحسن والنظافة: كأنه بيض النعام المغطى بالريش.

وقيل: المكنون المصون عن الكسر، أي: إنهن عذارى.

وقيل: المراد بالبيض اللؤلؤ، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [الواقعة:٢٢-٢٣]، أي: في أصدافه (٢).

سابعًا: قصد المبالغة والبلاغة:

*ومن ذلك قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الزخرف:١٨].

---

(١) شرح المعلقات السبع، للزَّوْزَني (ص:٤٨).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٥/٨٠-٨١)، تفسير يحيى بن سلام (٢/٨٣١)، روح المعاني (١٢/٨٧).

فمعنى قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ أي: يتربى في الزينة والنعمة، وهو إذًا احتاج إلى مجاثاة الخصوم [(١)]، ومجاراة الرجال: كان غير مبين، ليس عنده بيان، ولا يأتي ببرهان يحتج به على من يخاصمه، وذلك لضعف عقولهن، ونقصانهنَّ عن فطرة الرجال.

يقال: قلما تكلمت امرأة فأرادت أن تتكلم بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها.

وفيه: أنه جعل النشء في الزينة والنعومة من المعايب والمذام، وأنه من صفة ربات الحجال، فعلى الرجل أن يجتنب ذلك، ويأنف منه، ويربأ بنفسه عنه، وأن يتزين بلباس التقوى.

فكنى الله عَزَّوَجَلَّ عن النساء بأنهن ينشأن في التَّرفه والتَّزين والتَّشاغل عن النظر في الأمور، ودقيق المعاني، ولو أتى بلفظ: (النساء) لم يشعر بذلك. والمراد: نفي ذلك -أعني: الأنوثة- عن الملائكة، وكونهم بنات الله عَزَّوَجَلَّ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا [(٢)].

وقوله: (من يتربى في الزينة الخ). كناية عن البنات، سواء كانت تتربى في الزينة أو لا، وفي جعل الزينة ظرفًا للتربية؛ مبالغة عظيمة، ولفرط رغبتهن الزينة، كأنهن محاطة بالزينة إحاطة المظروف بالظرف [(٣)].

---

(١) قوله: (إلى مجاثاة الخصوم) مفاعلة من (جثا يجثو): إذا برك على ركبتيه. الصحاح، مادة: (جثا) (٢٢٩٨/٦)، ابن المنير (٢٤٣/٤).

(٢) انظر: الكشاف (٢٤٣/٤)، البرهان في علوم القرآن (٣٠٧/٢)، الإتقان في علوم القرآن (١٦١/٣).

(٣) انظر: حاشية القونوي على البيضاوي (٢٩٧/١٧).

*ومن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الزمر:٣٣-٣٤] كناية عن عظيم فضل الله عَزَّوَجَلَّ، وسعة ما يعطونه.

ثامنًا: الكناية عن الشيء ببعض ما ينسب إليه من عادة أو طبع:

*ويقال هذا -أعني: الكناية عن الشيء ببعض ما ينسب إليه من عادة أو طبع أيضًا- في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الزخرف:١٨]. كما أفاد ذلك ونبَّه عليه: الطوفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الإكسير)، حيث قال: "كنى عن النساء بملازمتهن التحلي، وهو من عادتهن، وبالعيِّ وعدم الإبانة في الخصام [(١)]، وهو من طبعهن وجبلتهن؛ لضعف قوتهن العقلية.

---

(١) الْعِيُّ: خلاف البيان. الصحاح، للجوهري، مادة: (عيي) (٢٤٤٢/٦)، وقال الراغب: "الإعياء: عجز يلحق البدن من المشي، والعي. عجز يلحق من تولي الأمر والكلام" المفردات (ص:٦٠٠). وإن الضعف الخلقي، والعجز عن الإبانة في الخصام عيب ناقص في الرجال، وهي متصلة بطبيعة الخلق بالنسبة للبنات، ولا تعد من صفات النقص بالنسبة لهن، بل هي من الصفات التي تمدح بها المرأة، ومن جملة محاسن النساء التي تجذب إليها القلوب، وقد جاء مدحهن بذلك في كثير من الشعر، فمن ذلك قول جرير: (إنَّ العيونَ التي في طرفها حورٌ***قتلننا ثم لم يحيين قتلانا)، (يصرعن ذا اللبِّ حتى لا حراك به***وهنَّ أضعف خلق الله أركانا) ديوان جرير (ص:٤٩٢)، طبعة دار بيروت [١٤٠٦هـ].

تاسعًا: التنبيه على العاقبة والمصير:

إن القرآن الكريم إنما يُعْنَى بالمقاصد العامَّة والمهمات، فيختصر مقدمات؛ للوصول إلى موضع الاعتبار والفائدة. ومن أغراض الكناية: استعمالها لأجل ذلك الاختصار، وللعناية بموضع الفائدة والاعتبار.

*ومن ذلك قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾ [المسد:١-٣]. فأخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن مصير أبي لهب، وأنه سينقلب إلى لهب يصلاه في نار جهنم.

واسم أبي لهب: عبد العزى؛ ولهذا لم يذكر باسمه؛ لأنه حرام شرعًا.

وقيل: للإشارة إلى أن مصيره إلى اللهب، وكان كني به؛ لإشراق وجهه.

وأخبر جَلَّ وَعَلَا عن مصير امرأته بقوله: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [المسد:٤-٥]، فأخبر عن حالها، وأنها نمامة مؤذية، وأن مصيرها إلى أن تكون حطبًا لجهنم، وأن تكون مغلولة اليد التي كانت تؤذي بها، فالكناية أوجزت ذلك المصير في أبلغ تصوير.

وفي قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد:١] تعليم للمخاطَبين بإنشاء الدُّعاء عليه، أي: قولوا ذلك، فهو مصروفٌ إلى الخلق؛ لإعلامهم بأن من كان هذا حاله في الإيذاء والإفساد، والصد عن الهداية، فهو أهل لأن يدعى عليه، فهو وزوجته أنموذجان لكل مفسد ومؤذي.

أو هو من قبيل الإخبار بما يؤول إليه حاله.

والفائدة: عدم اقتفاء أثر من كان حاله كذلك، والتَّحذير من سلوك طريقه، وفي ذكر المآل والعاقبة عبرة للمعتبر.

والقرآن إنما يعنى بالمقاصد العامَّة، فليس الأمر مجرَّد إنشاء للدُّعاء على فلان من الناس؛ فلذلك فإنَّ القرآن لا يعنى بذكر غالبًا بذكر أشخاص، ولا أماكن، ولا أزمنة، ولا مسافات؛ لأن ذلك لا علاقة له بالحدث، وإنما يعنى بموضع العبرة. فعندما يذكر فرعون -مثلًا- وهو لقب لملوك مصر في تلك الحقبة من الزمن، لا يذكر من هو على وجه التحديد. وإذا نصَّ القرآن الكريم في القليلِ النَّادر على ذلك فإنما يكون لقصد عظيم.

والملاحظ هنا أنه جرى ذكر أبي لهب لفائدة، وهي: أن الآية تتضمن الإعجاز والتَّحدي، فمن الَّذي يملك أن يطلق هذا التَّهديد على صفحات الدَّهر، والقطع بأنه لن يتوب في حياته، فلو أنَّ أبا لهب قال: آمنت ولو كذبًا؛ ليثبت أنَّه قد محى أسباب شقائه، أو بقصد تشكيك النَّاس بصحَّة هذا الإخبار لكان نسخًا للخبر، وقد علمتَ ما فيه. وفهم ذلك الإعجازَ المشافهون بالخطاب وقت تنزله، ومن أتى بعدهم إلى قيام الساعة، فكانت الفائدة جليلة، دالة دلالة واضحة على أن القرآن الكريم إنما هو وحي الله عَزَّوَجَلَّ، لا مبدل لكلماته.

قال الباقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وجميع الآيات التي يتضمنها القرآن من الإخبار عن الغيوب يكثر جدًّا، وإنما أردنا أن ننبه بالبعض على الكل" (١).

---

(١) إعجاز القرآن، للباقلاني (ص:٣٤).

وكذلك قد يجري ذكر نماذج من الواقع، ولكن المقصد الأصلي للنص الاعتبار بما آل إليه حالهم، ويعلم ذلك بالاستقراء.

خلاصة في إجمال أغراض الكناية:

وهاك إجمال الأغراض البلاغية لاستخدام الكناية:

١ - قصد الاختصار، وبلاغة الإيجاز.

٢ – استعمال الكناية في مواضع لا يحسن التصريح فيها بصريح الكلام، وإيثار الأسلوب غير المباشر في الكلام، إذا كان مقتضى الحال يستدعي ذلك.

٣ - التنبيه على عظم قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، وشدة تمكنه جَلَّوَعَلَا وتصرفه في الخلق، والتعبير عن ذلك بما لا يؤديه اللفظ الصريح.

٤ – الإشارة إلى فطنة المخاطب.

٥ – استعمال لفظ هو أجمل وأبلغ من الصريح.

٦ - تحسين اللفظ وتزيينه.

٧ - قصد المبالغة والبلاغة.

٨ - الكناية عن الشيء ببعض ما ينسب إليه من عادة أو طبع.

٩ – التنبيه على العاقبة والمصير.

قال بدر الدين بن مالك الشهير بابن الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولا يترك التصريح بالشيء إلى الكناية عنه في بليغ الكلام إلا لتوخي: نكتة الإيضاح، أو بيان حال

الموصوف، أو مقدار حاله، أو القصد إلى المدح أو الذم، أو الاختصار، أو الستر أو الصيانة، أو التعمية والإلغاز، أو التعبير عن الصعب بالسهل، أو عن الفاحش بالظاهر، أو عن المعنى القبيح باللفظ الحسن" (١).

المطلب الخامس: الكناية بين الحقيقة والمجاز:

بناء على ما تقدم فقد اختلف أنظار العلماء في الكناية هل هي من قبيل المجاز، أم أنها من الحقيقة، أم أنها تنقسم إلى حقيقة ومجاز؟

فأكثر علماء البيان يعدون الكناية من أنواع المجاز، وزعم كثير من أهل العلم منهم: الإمام الرازي، والإمام عز الدين بن عبد السلام رَحِمَهُمَااللَّهُ: أن الكناية من قبيل الحقيقة، ونصر هذا القول: شهاب الدين الكوراني رَحِمَهُاللَّهُ، وقال: هو قول الجمهور، وقال في (التحبير): هو قول الأكثر.

وقيل: إنها تنقسم إلى حقيقة ومجاز، وقد اختاره السبكي، وولده التاج، والبرماوي رَحِمَهُمُاللَّهُ، وقبلهم جماعة.

وقيل: إنها ليست بحقيقة ولا مجاز، وهو قول السكاكي رَحِمَهُاللَّهُ، وتبعه الخطيب القزويني رَحِمَهُاللَّهُ.

وقد فصلتُ القول في بيان هذه المذاهب مع بيان ما يترجح منها في كتاب: (مجاري الكناية)، وهاك إجمال ما اشتهر من المذاهب، وهي أربعة مذاهب:

---

(١) المصباح في المعاني والبيان والبديع، لبدر الدين بن مالك (ص:١٤٧).

أحدها: أنها حقيقة؛ لأنها استعملت فيما وضعت له، وأريد بها الدلالة على غيره.

والثاني: أنها مجاز؛ لأن القصد من الاستعمال هو المعنى الكنائي، وهو لازم معنى اللفظ المستعمل، سواء بعد ذلك قصد من اللفظ: المعنى الذي وضع له معه، أو لم يقصد؛ لأنه وإن قصد فإنما يقصد بالتبع، وجواز إرادة المعنى الذي وضع له معه قرينة مميزة له عن المجاز المرسل.

والثالث: أنها تنقسم إليهما.

والرابع: أنها لا حقيقة ولا مجاز.

*وقد توسَّع البعض في ذكر مذاهب أخرى، فقد قيل:

المذهب الخامس: وهو مذهب العصام رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو أن تجعل الكناية كلها حقائق صرفة، ويكون قصد ما يجعل معنى كنائيًّا من قبيل قصد النتيجة بعد إقامة الدليل.

وهو يشترط في الكناية أن لا يكون المعنى الأصلي ممتنعا ولا منفيًا.

المذهب السادس: النظر إلى جملة ما ورد في معناها على خلاف الظاهر، فيأخذ الخلاصة منها من غير اعتبار مفرداتها بالحقيقة أو المجاز، وهذه الكناية إنما يصار إليها عند عدم إجراء اللفظ على ظاهره، وقد قيل: إنه مذهب آخر للزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ. والصواب أنه من قبيل الاستعارة بالتخييل. وقيل: هو نوع من الإيماء.

وقد فصلتُ القول في بيان هذه المذاهب في كتاب: (مجاري الكناية).

*مسألة: في بيان محددات الإطلاق في التفسير:

١ – السياق.

٢ – القرائن.

٣ – معرفة منهج المفسر وطريقته:

وتكون من خلال استقراء منهج المفسر، وفهم طريقته، وما اشتهر من اصطلاحاته في التفسير، وفي كتبه الأخرى.

المطلب السادس: أقسام الكناية:

يقسم الإمام يوسف السكاكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الكناية بحسب المعنى المراد منها إلى ثلاثة أقسام: كناية عن موصوف، وكناية عن صفة، وكناية عن نسبة [(١)].

أولًا: كناية عن موصوف لم يصرح به في الكلام:

١ – تعريفها وبيان نوعيها:

وهي ما صرح فيها وبالصفة وبالنسبة، ولم يصرح فيها بالموصوف المطلوب النسبة إليه، ولكن ذكر مكانه صفة، أو أوصاف تختص به، كما في قولك: (فلان

---

(١) انظر: مفتاح العلوم (ص:٤٠٣-٤٠٧).

صفا لي مجمع لبه) كناية عن (قلبه)، فقد صرح فيها بالصفة، وهي (مجمع اللب)، كما صرح فيها بالنسبة، وهي: (إسناد الصفة إليها)، ولم يصرح فيها بالموصوف المطلوب نسبة الصفاء إليه، وهو (القلب)، ولكن ذكر مكانه وصف خاص به، وهو: (مجمع اللب).

ونقول -مثلًا- عن أبناء مصر: يا أبناء النيل.

وعن العرب: هم أبناء الضاد، كناية عن اللغة العربية...إلى غير ذلك.

وهي نوعان:

أولهما: ما تكون الكناية فيه معنى واحدًا، كما في المثال السابق، وكما في قول الشاعر:

الضَّاربين بكلِّ أبيض مخذم والطاعنين مجامع الأضغان [1]

---

(١) (الضاربين)، أي: أمدح الضاربين، (بكل أبيض)، أي: بكل سيف أبيض. (مخذم)، بضم الميم وسكون الخاء وكسر الذال، أي: القاطع، و(الطاعنين)، أي: وأمدح الطاعنين الضاربين بالرمح. (بمجامع الأضغان)، المجامع: جمع مجمع، وهو اسم مكان من الجميع. و(الأضغان) جمع ضغن، وهو الحقد. شموس البراعة (ص:١٢٦) المطبع الأسنى، الهند، الطبعة القديمة. قال في (معاهد التنصيص): "ولا أعرف قائله. والشاهد فيه: القسم الأول من أقسام الكناية، وهو أن يكون المطلوب بها غير صفة ولا نسبة، وتكون لمعنى واحد كما هنا، وتكون لمجموع معان، فقوله: (بمجامع الأضغان) معنى واحد، كناية عن القلوب. ونحوه قول البحتري: (فأتبعتها أخرى فأضللت نصلها***بحيث يكون اللب والرعب والحقد)" معاهد التنصيص (١٧٢/٢-١٧٣)، وانظر: عروس الأفراح (٢/٢١٠-٢١١).

فإنه كنى (بمجامع الأضغان) التي هي مختصة بالقلوب؛ إذ لا تجتمع الأضغان في غيرها، عن القلوب، فكانت الكناية ههنا مما يكون المكني عنه فيه الموصوف لا الصفة ولا النسبة؛ لأنهما مذكورتان صراحة فلا يطلبان بالكناية.

وفي (مجاري الكناية) ذكر نماذج كثيرة من هذا النوع.

وثانيهما: ما تكون الكناية فيه مجموع معان مختلفة بضم بعضها إلى بعض لتكون جملتها مختصة بالموصوف، كما يقال في (الإنسان): حي، مستوى القامة عريض الأظفار، فالكناية مجموع هذه المعاني، من الحياة، واستواء القامة

وعرض الأظفار، لا كل واحد منها، وهذه المعاني مجتمعة وصف خاص بالإنسان.

وكما في قوله جَلَّوَعَلَا – كناية عن المرأة–: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ١٨﴾ [الزخرف:١٨]، فقد كنى عن المرأة بمن يتربى في الزينة والحلي، وإذا خاصم فإنه لا يستطيع الإبانة عن مراده؛ حياءً وخجلًا، وهذه المعاني خاصة بالمرأة.

فهو كناية عن موصوف هو البنات.

٢ – نماذج من الكناية عن موصوف:

*ومن الكناية عن موصوف: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ﴾ [البقرة:١٩٧]، فإن الرفث كناية عن موصوف، وهو الجماع وما يتعلق به. وقيل: هو الكلام الفاحش –وقد تقدم بيان ذلك–.

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ أي: فلا جماع؛ لأنه يفسده، أو: فلا فحش من الكلام"[١].

وقوله: (فلا جماع، أو فلا فحش من الكلام) الأول: كناية، والثاني: حقيقة. والمعنى على الأول: فلا جماع؛ إذ الرفث كناية عنه؛ لأنه مفسد للحج. وعلى الثاني: فلا فحش في الكلام، وهذا معنى حقيقي له، لكن قدم الأول؛ لأنه متعارف في الشرع [٢].

*ومن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ [الذاريات:٩]، كناية عن موصوف، وهو المكذب الجاحد للحق.

*ومن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣﴾ [القمر:١٣] فإنه كناية عن موصوف محذوف، تقديره: وحملناه على سفينة ذات ألواح ومسامير.

والموصوف المحذوف هو السفينة، وفي قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣﴾ من الصفات ما يقوم مقام الموصوفات، فينوب منابها، ويودى مؤداها، بحيث لا يفصل بينها وبينها، كقولهم: حي مستوي القامة عريض الأظفار في الكناية عن الإنسان... إلى غير ذلك.

---

(١) الكشاف (٢٤٣/١).

(٢) انظر: حاشية الطيبي على الكشاف (٢٩١/٣)، حاشية القونوي على البيضاوي (١١٣/٥).

ثانيًا: كناية عن صفة لم يصرح بها في الكلام:

١ - تعريفها وبيان نوعيها:

وهي: ما صرح فيها بالموصوف، وبالنسبة إليه، ولم يصرح فيها بالصفة المطلوب نسبتها وإثباتها، ولكن ذكر مكانها صفة تستلزمها، كما في (فلان طويل النجاد) كناية عن طوله، وكما في قولهم: (فلانة نؤومُ الضحى) كناية عن أنها مترفة مخدومة، فقد صرح بالموصوف -وهو فلانة- كما صرح بالنسبة، وهي إسناد النوم في الضحى إليها، ولم يصرح بالصفة المطلوب نسبتها، وهي: (الترف والنعمة) ولكن ذكر مكانها صفة تستلزمها، وهي: النوم إلى الضحى [١].

وهي نوعان:

الأول: كناية بعيدة:

وهي ما يكون الانتقال فيها إلى المطلوب بواسطة، أو بوسائط، نحو: (فلان كثير الرماد) كناية عن المضياف، والوسائط: هي الانتقال من كثرة الرماد إلى كثرة إحراق الحطب، ومنها إلى كثرة الطبخ والخبز، ومنها إلى كثرة الضيوف والأكلة، ومنها إلى المطلوب، وهو المضياف الكريم.

والثاني: كناية قريبة:

وهي ما يكون الانتقال فيها إلى المطلوب بغير واسطة بين المعنى المنتقل عنه، والمعنى المنتقل إليه، كطويل النجاد، كناية عن طول القامة.

---

(١) انظر: البلاغة الصافية (ص:٥٨-٥٩).

ومن ذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومًا مَّحۡسُورًا ۝٢٩﴾ [الإسراء:٢٩]، وقال: جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾ [المائدة:٦٤]، فإن غل اليد كناية عن صفة البخل، وبسطها كل البسط كناية عن صفة الإسراف والتبذير.

*ومن الكناية عن صفة: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ﴾ [آل عمران:١١٩].

فعض الأنامل كناية عن صفة. وقد جرت عادة العرب على التعبير عن المغتاظ النادم على ما فعل بعضِّ الأنامل والبنان.

٢ – نماذج من الكناية عن صفة:

*ومن الكناية عن صفة: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ [الحج:٢]، فهو كناية عن صفة، وهي الفزع من شدة الهول، وانشغال كل امرئ بنفسه، وبما ينجيه من تلك الأهوال.

*ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ [نوح:٧]، فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ كناية عن المبالغة في إعراضهم عمَّا دعاهم إليه، فهم بمثابة من سدَّ سمعه ومنع بصره؛ كيلا يسمع، ولا

يرى. فكما وضعوا أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوه، جعلوا ثيابهم أغشية على أعينهم لئلا يبصروه. وهو كناية عن صفة.

وقيل: هو كناية عن العداوة. يقال: (لبس لي فلان ثياب العداوة).

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: جعلوها غشاوة على أسماعهم، وذلك عبارة عن الامتناع من الإصغاء.

وقيل: ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ كناية عن العدو كقولهم: (شَمَّرَ ذَيْلَه، وأَلْقَى ثَوْبَه)[١]، ويقال: (غشيته سوطًا أو سيفًا، ككسوته وعممته)"[٢].

وقيل: الكلام على سبيل الحقيقة. والقول بالكناية أبلغ، وهي لا تمنع إرادة المعنى الحقيقي -كما تقرر في غير موضع-.

قال في (البحر): "والظاهر أن ذلك حقيقة، سدوا مسامعهم حتى لا يسمعوا ما دعاهم إليه، وتَغَطَّوْا بثيابهم حتى لا ينظروا إليه؛ كراهة وبغضًا من سماع النصح، ورؤية الناصح، ويجوز أن يكون ذلك كناية عن المبالغة في إعراضهم عمَّا دعاهم إليه.." [٣].

إلا أن القول بالكناية لا يمنع إرادة الحقيقة -كما هو مقرَّر-.

---

(١) ومن أمثالهم: (شمر ذيلًا وادرع ليلًا)، أي: استعمل الحزمَ واتَّخذ الليلَ جَمَلًا. انظر: الصحاح، مادة: (درع) (١٢٠٧/٣).

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة: (غشي) (ص:٦٠٧).

(٣) البحر المحيط في التفسير (٢٨١/١٠-٢٨٢).

*ونظيره: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ [هود:٥]. كناية عن النفاق أو الإعراض؛ لأن ثني الصدور كناية عن الإعراض، وقد تقدم تفسير الآية.

*ومن ذلك: قول مريم عَلَيۡهَا ٱلسَّلَامُ: ﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ﴾ [آل عمران:٤٧] كناية عن العفة والطهارة.

*ومن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء:٢٤] كناية عن صفة، وهي: المبالغة في التواضع واللين، والرفق بهما...إلى غير ذلك.

ثالثًا: كناية عن نسبة بين أمرين غير مصرح بها في الكلام:

١ – تعريفها ومثالها في الإيجاب والنفي:

وهي ما صرح فيها بالموصوف، وبالصفة، ولم يصرح فيها بالنسبة بينها، ولكن ذكر مكانها نسبة أخرى تستلزمها سواء أكانت النسبة إثباتًا أو نفيًا.

أ. **فمثالها في الإيجاب**: قولهم: (المجد بين برديه)، كناية عن إثبات المجد للممدوح، فقد صرح في هذه الكناية بالموصوف، وهو ضمير الممدوح، كما صرح بالصفة وهي: (المجد)، ولكن لم يصرح فيها بنسبة المجد إليه، وإنما ذكر مكانها نسبة المجد إلى برديه إثباتًا، وهي تستلزم نسبة المجد إليه؛ فإن إثبات المجد والكرم لما يحيط بالممدوح ويشتمل عليه، وهو الثوب، كناية عن إثباتهما لذات الممدوح، فكان المكني عنه فيها نسبة المجد والكرم إليه، لا نفس المجد والكرم؛ لأنهما مذكوران صريحًا، فلا

تريد أنفسهما بطريق الكناية، بل تريد نسبة المجد والكرم إليه، فكان المكني عنه فيها النسبة.

*ومن ذلك: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْخَيْلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إلى يومِ القيامة**»[1].

فلم ينسب الخير إلى الخيل، وإنما نسب إلى نواصيها، والناصية وهي مقدمة الرأس لا تنفك عن الخيل، فالصفة هي الخير، والموصوف الخيل، والكناية هي في النسبة بين الخيل والنواصي.

ومن ذلك قولهم: (الكرم بين ثوبيه)، و(فلان طَلْقُ اليدين) كناية عن نسبة الكرم إليه.

ومن ذلك قولهم: (البلاغة في لسانه) كناية عن نسبة الفصاحة والبلاغة إليه.

ومن ذلك قولهم: (المؤمن يرضى بالقليل) كناية عن نسبة القناعة إليه.

*وقد لا يذكر الموصوف في كناية النسبة، وإنما يشار إليه، ويفهم من السياق، نحو قولهم: (الفضلُ يسير حيث سار) كناية عن نسبة الفضل إليه، دون ذكره مع نسبة الفضل إلى المكان الذي يتواجد فيه، وليس إليه مُباشرة.

ب. ومثالها في النفي: قول الشنفرى الأزدي، يصف امرأة بالعفة والنزاهة:

---

(١) صحيح البخاري [٢٨٥٠، ٢٨٥٢، ٣١١٩، ٣٦٤٥]، مسلم [٩٨٧، ١٨٧٢، ١٨٧٣].

تَحُلُّ بِمَنْجَاةٍ مِنَ اللَّوْمِ بَيْتَهَا إذا ما بُيُوتٌ بالمَذَمَّةِ حُلَّتِ (١)

فقد صرح بالموصوف، وهو: الضمير في (بيتها)، وصرح بالصفة، وهي: (اللوم) المنفي في قوله: (بمنجاة من اللوم)، ولكن لم يصرح بنسبة نفي اللوم عنها، ولكن ذكر مكانها نسبة أخرى، وهي: (نفي اللوم عن بيت يحتويها) وهو يستلزم نفي اللوم عنها (٢).

قال بهاء الدين السبكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قد تكون الكناية في الإثبات، وقد تكون في النفي، ومثل للثاني بقول الشنفرى الأزدي السابق.

قال: وقد قدمنا الكناية في جانب النفي في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ﴾ [آل عمران:٧٧]" (٣).

٢ – نماذج من الكناية عن نسبة:

*فمن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ﴾ [البقرة:٦١] كناية عن إحاطتهما بهم كما تحيط القبَّة بمن ضربت عليه، وهي كناية عن نسبة، أراد أن

(١) المفضليات، للمفضل بن محمد الضبي (ص:١٠٩)، التذكرة الحمدونية (١٦٢/٦)، دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني (٣١٠/١).

(٢) انظر: البلاغة الصافية (ص:٦١)، وانظر: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (٢١٤/٢)، الإيضاح في علوم البلاغة (ص:٢٤٧).

(٣) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (٢١٩/٢).

يثبت بقاء الذلة والمسكنة عليهم، فكنى بضربها عليهم كما يضرب البناء، أو السرادق على من بداخله.

*ومن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ [الكهف:١١] كناية عن الإنامة الثقيلة؛ لأن المستثقل في نومه يُصاح به فلا يسمع. وإنما خُصت الآذان دون العيون، مع أن النوم يتعلق بها؛ لأن المراد المبالغة في النوم، فإن النائم في الأكثر يتنبه بسبب نُفوذ الصُّراخ في منفذ الصماخ(١).

*ومن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ [فاطر:٤١]. كناية عن نسبة إمداده جَلَّ وَعَلَا للسموات والأرض بمقومات البقاء.

المطلب السابع: أقسام الكناية باعتبار الوسائط (اللوازم والسياق):

سمى الإمام يوسف السكاكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعض أنواع الكناية بأسماء تختلف باختلاف الاعتبارات، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ثم إن الكناية تتفاوت على تعريض، وتلويح، ورمز، وإيماء وإشارة" (٢).

فتنقسم الكناية باعتبار الوسائط إلى أقسام أربعة:

---

(١) انظر: الكشاف (٧٠٥/٣)، المحرر الوجيز (٥٠٠/٣)، حاشية الطيبي على الكشاف (٤١٦/٩)، تفسير أبي السعود (٢٠٦/٥)، روح المعاني (٢٠٢/٨).

(٢) مفتاح العلوم (ص:٤٠٣).

أولًا: التعريض:

وهو لغة خلاف التصريح. يقال: عرَّضت لفلان وبفلان: إذا قلت قولًا لغيره وأنتَ تَعْنِيهِ، فكأنَّك أشرت به إلى عرض، أي: جانب، وتريد جانبًا آخر.

كما إذا سألت رَجُلًا هل رأيت فلانًا، وقد رآه ويكره أن يكذب؟ فيقول: إن فُلَانًا لَيُرى، فيجعل كلامه مُعَرِّضًا فرارًا من الكذب، وهذا معنى: (المعاريض في الكلام)، ومنه حديث: «**إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب**»(١).

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والتعريض: كلام له وجهان من صدق وكذب، أو ظاهر وباطن" (٢). فقصد قائله: الباطن، وهو يظهر إرادة الظاهر.

قال: "والتعريض كالكناية إلا أن التعريض: أن تذكر ما يستفهم المقصود من عرضه: وليس بموضوع للمفهوم عنه، لا أصلًا ولا نقلًا، والكناية: العدول عن لفظ

---

(١) انظر: كتاب العين (٢٧٤/١)، المحكم والمحيط الأعظم، مادة: (عرض) (٤٠٢/١)، المصباح المنير (٤٠٢/٢). وحديث: «إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب» روي موقوفًا على عمران بن حصين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وروي عنه مرفوعًا. قال البيهقي في (السنن) [٢٠٨٤٢] (٣٣٦/١٠): "والموقوف هو الصحيح". قال في (المقاصد): "ورواه العسكري عن مجاهد قال: قال عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إن في المعاريض لمندوحة للرجل المسلم الحر عن الكذب» وأشار إلى أن حكمه الرفع" انظر: المقاصد الحسنة، للسخاوي (ص:١٩٥-١٩٦)، وانظر: نيل الأوطار (٢٥٠/٨-٢٥١).

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة: (عرض) (ص:٥٦٠).

إلى لفظ هو بخلف الأول، ويقوم مقامه؛ ولهذا سميت الأسماء المضمرة في النحو: (الكنايات، والخوالف)" [(١)].

والتعريض نوع من الكناية يفهم من سياق الكلام. قال السكاكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الكناية تتفاوت إلى تعريض، وتلويح، ورمز، وإيماء وإشارة، ومساق الحديث يحسر لك اللثام عن ذلك" [(٢)].

وهو في الاصطلاح عند البيانيين: إمالة الكلام إلى عرض يدل على المقصود، يقال: (عرضت لفلان وبفلان): إذا قلت قولًا لغيره وأنتَ تَعْنِيهِ، فكأنَّك أشرت به إلى عرض، أي: جانب، وتريد جانبًا آخر [(٣)].

قال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المثل السائر): "وأما التعريض: فهو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم، لا بالوضع الحقيقي، ولا المجازي، فإنك إذا قلت لمن تتوقع صلته ومعروفه بغير طلب: (والله إني لمحتاج وليس في يدي شيء، وأنا عريان والبرد قد آذاني)، فإن هذا وأشباهه: تعريض بالطلب، وليس هذا اللفظ موضوعًا في مقابلة الطلب، لا حقيقة ولا مجازًا، إنما دلَّ عليه من طريق المفهوم، بخلاف دلالة اللمس على الجماع، وعليه ورد التعريض في خطبة النكاح، كقولك للمرأة: إنَّك لخليَّة وإني لعزب؛ فإن هذا وأمثاله لا يدلُّ على طلب النكاح حقيقة ولا مجازًا.

---

(١) تفسير الراغب الأصفهاني (٤٨٧/١).

(٢) مفتاح العلوم (ص:٤٠٣).

(٣) انظر: الكشاف (٢٨٣/١)، مختصر المعاني (ص:٢٦١)، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم (٣٥٧/٢).

والتعريض أخفي من الكناية؛ لأن دلالة الكناية: لفظية وضعية من جهة المجاز، ودلالة التعريض من جهة المفهوم، لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي.

وإنما سمي التعريض تعريضًا؛ لأن المعنى فيه يفهم من عرضه: أي من جانبه، وعرض كل شيء: جانبه.

قال: واعلم أن الكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معًا؛ فتأتي على هذا تارة، وعلى هذا أخرى، وأما التعريض فإنه يختص باللفظ المركب، ولا يأتي في اللفظ المفرد ألبتة، والدليل على ذلك: أنه لا يفهم المعنى فيه من جهة الحقيقة، ولا من جهة المجاز، وإنما يفهم من جهة التَّلويح والإشارة، وذلك لا يستقل به اللفظ المفرد، ولكنه يحتاج في الدلالة عليه إلى اللفظ المركب" (١).

وقد ذكر صاحب (الطراز) رَحِمَهُ ٱللَّهُ "أن التفرقة بين التعريض والكناية، هو أنَّ الكناية دالَّة على ما تدلُّ عليه بجهة الحقيقة والمجاز جميعًا، بخلاف التعريض؛ فإنه غير دالٍّ على ما يدلُّ عليه حقيقة ولا مجازًا، وإنما يدلُّ عليه بالقرينة، فافترقا" (٢).

*وذَكَرَ في التفرقة بين التعريض والكناية ثلاثة تنبيهات:

التنبيه الأول: في أن التعريض ليس معدودًا من باب المجاز:

قال: وبيانه هو أن المجاز ما دلَّ على خلاف ما وضع له في الأصل، والتعريض ليس حاله هكذا؛ فإنه دالٌّ على ما كان دالًّا عليه في الأصل، خلا أنه أفاد معنى

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (١٨٦/٢).

(٢) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (١٨٩/٣).

آخر بالقرينة، ومثاله قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون:١١٥]، فهذا استفهام ورد على جهة الإنكار، وهو مجاز فيه، وهو دال على ما وضع له، لكنه تعريض بالكفار في إنكار الرجعة، والمعاد الأخروي، وليس دالًّا عليه من جهة مجازه، ولا من جهة حقيقته، وإنما هو مفهوم من جهة القرينة، كما قررناه من قبل.

التنبيه الثاني: في بيان موقعه:

واعلم أن موقعه إنما يكون في الجمل المترادفة، والألفاظ المركبة، ولا يرد في الكلم المفردة بحال، والسِّرُّ في ذلك: هو أن دلالته على ما يدل عليه لم يكن من جهة الحقيقة، ولا من جهة المجاز، فيجوز وروده في الألفاظ المفردة والمركبة، كما جاز في الحقائق، وكما جاز في المجازات ورودهما معًا، كالاستعارة، والتشبيه المضمر الأداة، والكناية؛ فإنها واردة في الأمرين جميعًا، كما لخصناه من قبل، وإنما دلالته كانت من جهة القرينة، والتلويح والإشارة، وهذا لا يستقل به اللفظ المفرد، ولكنه إنما ينشأ من جهة التركيب، فلأجل هذا كان مختصًّا بالوقوع منه.

التنبيه الثالث: في بيان التفرقة بينه وبين الكناية:

ويظهر ذلك من أوجه ثلاثة:

أولها: أن الكناية واقعة في المجاز، ومعدودة منه، بخلاف التعريض، فلا يعد منه: وذلك من أجل كون التعريض مفهومًا من جهة القرينة، فلا تعلُّق له باللفظ، لا من جهة حقيقته، ولا من جهة مجازه.

وثانيها: هو أن الكناية كما تقع في المفرد، فقد تكون واقعة في المركب، بخلاف التعريض، فإنه لا موقع له في باب اللفظ المفرد.

وثالثها: أن التعريض أخفى من الكناية؛ لأن دلالة الكناية مدلول عليها من جهة اللفظ بطريق المجاز، بخلاف التعريض، فإنما دلالته من جهة القرينة والإشارة:

ولا شك أن كل ما كان اللفظ يدل عليه، فهو أوضح مما يدل عليه اللفظ، وإن علم بدلالة أخرى، ومن أجل هذا فرَّق علماء الشريعة بين صريح القذف وكنايته، وتعريضه، فأوجبوا في الصريح من القذفِ الحدَّ مطلقًا في قولك: (يا زاني).

وأوجبوا في كنايته الحدَّ إذا نوى به في مثل قولك: (يا فاعلًا بأمه)، و(يا مفعولًا به).

ولم يوجبوا في التعريض الحدَّ في مثل قولك: (يا ولد الحلال)، وما ذاك إلا لأجل أن الصريح والكناية يدلان على القذف من جهة اللفظ، إما بالحقيقة، أو بالمجاز.

ويحكى عن الإمام الناصر أن رجلًا قال لرجل بحضرته: (يا ولد الحلال)، فلم يحده، واعتذر بأنه لا حدَّ في التعريض.

فصار التعريض وإن لم يكن معدودًا من المجاز، لكنه أخص من الكناية؛ ولهذا فإن كل تعريض كناية، وليس كل كناية بتعريض، فهي أعم منه"[١].

وقد فصلتُ القول في (التعريض) في (مجاري الكناية).

---

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (١/٢٠٠-٢٠٢).

ثانيًا: التلويح:

(التلويح): لغة: أن تشير إلى غيرك من بعد.

وقد تقدم أن التعريض يسمى: التلويح؛ لأنه يلوح منه ما يريده.

قال القاضي البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التعريض والتلويح: إيهام المقصود بما لم يوضع له حقيقة، ولا مجازًا، كقول السائل: (جئتك لأسلم عليك)" [١].

والتحقيق أن ثمة فرقًا بين التعريض والتلويح عند أهل البيان، فالتلويح: **(ما كثرت فيه الوسائط من غير تعريض)**، كما في (كثير الرماد)؛ فإنه يدلُّ على كثرة إحراق الحطب، ثم على كثرة الطبخ، ثم على كثرة تردد الضيفان، ثم على أنه مضياف.

وكما في قول الشاعر:

وما يكُ فيَّ من عيبٍ فإني ... جبان الكلب مهزول الفصيل [٢]

فكنى عن كرم نفسه، وكثرة قراه للضيفان، بجبن الكلب، وهزال الفصيل؛ فإن الفكر ينتقل إلى جملة وسائط، إذ ينتقل الذهن من جبن الكلب عن الهرير في وجه من يدنو، وخروج الكلب عن طبعه المخالف لذلك، إلى تأديبه، ومنه إلى استمرار

---

(١) تفسير البيضاوي (١/١٤٦).

(٢) انظر: مفتاح العلوم، للسكاكي (ص:٤٠٥)، الإيضاح (ص:٢٤٣)، الطراز (١/٢١٣)، (١/٢١٧)، محاضرات الأدباء (١/٧٥٥)، عروس الأفراح (٢/٢١٣)، وشرح ديوان الحماسة (٢/٥)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه (١/٣١٨).

ما يوجب نباحه، وهو اتصال مشاهدته وجوهًا إثر وجوه، ثم ينتقل من هذا إلى كون صاحبه مقصدًا للداني والقاصي، ثم إلى كونه مشهورًا بحسن القرى، ومن قرى الأضياف إلى وصف الجود. كذلك ينتقل الذهن من هزال الفصيل إلى فقد أمه بنحرها، ومنه إلى قوة الداعي لنحرها، مع بقاء ولدها مع عناية العرب بالنوق، ومنها إلى صرفها إلى الطبائخ، ومنها إلى أنه مضياف.

*ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [الأعراف:١٤٩] (١).

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي: ولما اشتدَّ ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل؛ لأنَّ من شأن من اشتدَّ ندمه وحسرته: أن يعض يده غمًّا، فتصير يده مسقوطًا فيها؛ لأن فاه قد وقع فيها"(٢). وقد تقدم تفسير الآية.

والتلويح من الكناية التي تحتاج إلى تأمل؛ لكثرة الوسائط التي ينتقل فيها الذهن حتى يصل إلى المعنى المقصود.

*ومن دقيق الفهم في إيراد المعنى المراد فيما كان من هذا القبيل: ما تنبَّه له جار الله الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ

---

(١) انظر: عروس الأفراح (٢/٢١٣-٢١٤)، مفتاح العلوم، للسكاكي (ص:٤٠٥-٤٠٦).

(٢) وقيل: من عادة النادم أن يطأطئ رأسه، ويضع ذقنه على يده، بحيث لو أزالها سقط على وجهه، فكأن اليد مسقوط فيها. انظر: روح المعاني (٥/٦١-٦٢)، حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي (٤/٢١٩)، البحر المحيط في التفسير (٥/١٧٨-١٧٩)، الدر المصون (٥/٤٦٣).

عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة:٢٣-٢٤]، حيث قال: "فإن قلت: ما معنى اشتراطه في اتقاء النار انتفاء إتيانهم بسورة من مثله؟ قلت: إنهم إذا لم يأتوا بها، وتبين عجزهم عن المعارضة، صحَّ عندهم صدق رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإذا صح عندهم صدقه، ثم لزموا العناد، ولم ينقادوا، ولم يشايعوا، استوجبوا العقاب بالنار، فقيل لهم: إن استبنتم العجز، فاتركوا العناد، فوضع: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ موضعه؛ لأنَّ اتقاء النار لصيقه وضميمه ترك العناد، من حيث إنه من نتائجه؛ لأنَّ من اتقى النار ترك المعاندة. ونظيره أن يقول الملك لحشمه: (إن أردتم الكرامة عندي فاحذروا سخطي)، يريد: فأطيعوني واتبعوا أمري، وافعلوا ما هو نتيجة حذر السخط. وهو من باب الكناية التي هي شعبة من شعب البلاغة. وفائدته: الإيجاز الذي هو من حلية القرآن، وتهويل شأن العناد بإنابة اتقاء النار منابه، وإبرازه في صورته، مشيعًا ذلك بتهويل صفة النار، وتفظيع أمرها"[١].

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله: (وإبرازه في صورته مشيعًا) الضمير في (إبرازه) للعناد، وفي (صورته) لاتقاء النار. (مشيعًا) حال من اتقاء النار، والعامل قوله: (إنابة)، يريد: أن في إيثار الكناية على التصريح فائدتين أخريين:

إحداهما: تصوير معنى المكني عنه، وأن [عاقبة] العناد هي النار، فالسامع عند ذكر النار يستحضر صورتها فيمتلئ قلبه رعبًا وخوفًا، فإنك إذا أردت أن تقول:

---

(١) الكشاف (١٠٢/١).

(فلان جواد) قلت: (فلان جبان الكلب، مهزولُ الفصيل) فصورت صفة الجود تصويرًا بليغًا، فإن جبن الكلب يدل على مشاهدته وجوهًا إثر وجوه، وهي مشعرةٌ بكثرة تردد الضيفان، وهي بكونه مضيافًا، وهو بكونه جوادًا.

وثانيتهما: التمكن من انضمام قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة:٢٤] الآية، إليه؛ تتميمًا لذلك التهويل والرعب، وترتبه للتصوير"(١).

ففي الآية: تلويح بتهويل شأن المعاندة مع بيان العاقبة.

ثالثًا: الرمز:

الرمز لغة: الإشارة والإيماء إلى قريب على سبيل الخفية، بنحو: شفة، أو حاجب (٢).

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الرمز: الإشارة والإيماء بالشفتين والحاجب" (٣).

قال الله عَزَّوَجَلَّ عن زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ﴾ [آل عمران:٤١]، يعني: إلا بالإشارة أو الكتابة.

---

(١) حاشية الطيبي على الكشاف (٢/٣٣٧-٣٣٨).

(٢) وإنما قيد بقولنا: على سبيل الخفية؛ لأن حقيقته الإشارة بالشفة والحاجب، والغالب أن الإشارة بهما إنما تكون عند قصد الإخفاء.

(٣) الصحاح، للجوهري، مادة: (رمز) (٣/٨٨٠).

وفي الاصطلاح: **(هو الذي قلَّت وسائطه، مع خفاء في اللزوم بلا تعريض)**، نحو: نحو: (هو سمين رخو)، أي: غبي بليد، فيكنى عن كونه غبيًا بليدًا بكونه: سمينًا رخوًا، بواسطة أن السمن والرخو يستلزمان في الغالب استرخاء القوى الذهنية وسكونها، وهما يستلزمان الغباوة والبلادة، لكن هذا الاستلزام ليس بواضح، فقد تحقق في هذه الكناية واسطة واحدة خفية [١].

ونحو: (فلان عريض القفا)، أو (عريض الوسادة) كناية عن بلادته وبلاهته، ونحو: (هو مكتنز اللحم)، كناية عن شجاعته، (ومتناسب الأعضاء) كناية عن ذكائه، ونحو: (غليظ الكبد) كناية عن القسوة...الخ. ولا ريب أن في ذلك كله نوع من الخفاء في اللزوم، مع تحقق الكناية مع قلة الوسائط.

رابعًا: الإيماء والإشارة:

و(هو الذي عدمت وسائطه أو قلَّت، مع وضوح اللزوم، بلا تعريض).

وإطلاق الإيماء والإشارة على هذا النوع من الكناية، وتسميتها بهما؛ لأن أصل الإشارة: أن تكون حِسيَّةً، وهي ظاهرة، قالوا: ومثلها الإيماء.

وقيل: الأولى أن يخص (الإيماء) فيه شائبة الخفاء فيبقى اسم: (الإشارة) للباقي [٢].

---

(١) انظر: شموس البراعة على دروس البلاغة (ص:١٢٦).

(٢) انظر: الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم (٢/٣٥٦-٣٥٧).

ومثال ما عدمت فيه الواسطة: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء:٢٣] أشار بذلك إلى برِّ الوالدين، وترك التعرض إليهما بيسير من الإيلام، فضلًا عن كثيره. فالإشارة إلى الكثير واضحة اللزوم من غير واسطة.

ومثال ما قلَّت فيه الواسطة: قول البحتري:

أو ما رأيت المجد ألقى رحله ... في آل طلحة ثم لم يتحول؟ (١)

وجه كون الوسائط فيه قليلة من غير خفاء أن تقول: إن إلقاء المجد رحله فى آل طلحة مع عدم التحول هذا معنى مجازي؛ إذ لا رحل للمجد، ولكن شبه برجل شريف له رحل يخص بنزوله من شاء، ووجه الشبه: الرغبة في الاتصال بكلٍّ، وأضمر التشبيه في النفس على طريق المكنية، واستعمل معه ما هو من لوازم المشبه به، وهو إلقاء الرحل -أي: الخيمة والمنزل- تخييلًا، ولما جعل المجد ملقيًا رحله فى آل طلحة بلا تحول لزم من ذلك كون محله وموصوفه: آل طلحة؛ لعدم وجدان غيرهم معهم، وذلك بواسطة أن المجد ولو شبه بذي الرحل هو صفة لا بدَّ له من موصوف ومحل، وهذه الواسطة بينة بنفسها، فكانت الكناية ظاهرة، والواسطة واحدة فقد قلت الوسائط مع الظهور، ثم إن مراده بقلة الوسائط: عدم كثرتها، فيصدق بالواسطة الواحدة مع الظهور" (٢).

---

(١) ديوان البحتري (١٧٤٩/٣)، وقد تقدم.

(٢) حاشية الدسوقي على مختصر المعاني (٥٢٩/٣-٥٣٠).

وللكناية مفاهيم متعددة، واصطلاحات متنوعة تختلف باختلاف الفنون، وقد بيَّت ذلك مفصلًا في كتاب: (مَجَارِي الكِنَايَة في اللُّغَة وعِلْمِ البَيَان والتَّفْسِيْر والفِقْه وأُصُوْلِه).

وهذه خلاصة نافعة في التمييز بين الاصطلاحات:

وهاك خلاصة نافعة في تحديد الاصطلاحات؛ ليتميز الاصطلاح الذي يغلب استعماله في كلِّ فنٍّ، حيث يتوسع في كتب التفسير -مثلًا-، في إطلاق اصطلاح الكناية، فلا بدَّ لطالب التفسير من فقه معنى الكناية من حيث الإجمال من ثلاثة محاور:

الأول: اصطلاح اللغويين.

والثاني: الاصطلاح المعول عليه عند البيانيين.

والثالث: الاصطلاح المعول عليه عند الأصوليين.

فمن ذلك:

تعريف الكناية في (**اصطلاح اللغويين**): وينبغي التمييز بين (لسان أهل اللغة) في إطلاق مادة: (الكناية) على المسميات والمعاني، وبين (عرف اللغة) على النحو الذي تقدم بيانه.

وفي (**اصطلاح البيانين**): هي لفظٌ أُريدَ به لازمُ معناه مع جواز إرادته.

وفي **(اصطلاح الأصوليين)**: هي اللفظ الذي استتر المعنى المراد به فلا يفهم إلا بقرينة.

وينبغي ملاحظة العلاقة بين هذه الاصطلاحات من حيث العموم والخصوص على ما تقدم بيانه.

وإن الكناية هي ضد اللفظ الصريح في اللغة وفي الاصطلاح، وإنما عدل عن اللفظ الصريح؛ لنكتة مسوغة، تضفي رونقًا على المراد من ذلك العدول إلى المعنى المنتقل إليه.

وإن الكناية في اللغة، وفي اصطلاح الأصوليين أعم منها عند البيانيين؛ لأنها تشمل الحقيقة والمجاز، وهي عند البيانيين تقابل المجاز، من حيث إن قرينة المجاز مانعة من إرادة المعنى الحقيقي، وقرينة الكناية لا تمنع.

وثمة فروق لا بد للباحث أن يلحظها بين الكناية عند البيانيين، والكناية عند الأصوليين:

***فمن ذلك**: أن الكناية عند الأصوليين قائمة على استتار المراد من اللفظ، فهي لا تبقى من قبيل الكناية إذا زال ذلك الاستتار.

***ومن ذلك**: أن ما يقابل الكناية عند الأصوليين: الصريح، وعند البيانيين: المجاز المرسل.

*ومن ذلك: أن الأصوليين لا يشترطون في المجاز أن تكون القرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي، وإذا سقط القيد المذكور دخلت الكناية.

*ومن ذلك: أن الكناية عند البيانيين: انتقال من لازم إلى ملزوم، وأما على قول الأصوليين والفقهاء فلا احتياج إلى الانتقال، فضلًا عن اللازم والملزوم.

*ومن ذلك: أنه يمتنع عند البيانيين الجمع بين الحقيقة والمجاز، خلافًا للأصوليين على ما تقدم.

وقد فصلتُ القول في ذلك في كتاب: (مجاري الكناية) كما ذكرت فروقًا مميزة بين الاصطلاحات، ومن ذلك:

١ – مفارقة الكناية للتمثيل.

٢ – مفارقة الكناية للمجاز والاستعارة.

٣ – الفرق بين الكناية في اصطلاح البيانيين والخفي عند الأصوليين.

٤ – مفارقة التضمين للكناية.

٥ – مفارقة المشاكلة للكناية.

.... إلى غير ذلك.

المبحث الثالث عشر

قصص القرآن

هداية واعتبار

توطئة:

إنَّ القرآن الكريم هو كلام الله عَزَّوَجَلَّ المنزل على خير خلقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو الهادي إلى صراط مستقيم، وهو حبل الله عَزَّوَجَلَّ المتين، وإن القصص فيه هي أصدق القصص، وأنفعها للمكلف، وهي من أعظم أسباب الهداية، وقد وقع الإخبار فيها عن أحوال الأمم، والنبوّات السَّالِفَة، بأسلوب مشوق، باعث على التأمل والتفكر فيما تتضمَّنه من حقائقَ وعِبَر؛ يقصد منها: الهداية والإرشاد إلى طريق الحقِّ، والاعتبار بالعواقب لكلِّ عملٍ يقدم عليه الإنسان في حياته الدنيا، فهو ينظر بعين البصيرة إلى عاقبة من عمل صالحًا فأثمر ذلك العمل استقامة وصلاحًا، وراحة واطمئنانًا، وحياة طيبة، وحسن جزاء في الآخرة، وإلى مآل من ضلَّ وانحرف، فبغى وظلم، فنزل به عقاب الله عَزَّوَجَلَّ، وهو في الآخرة من الخاسرين.

وقد كان هذا البحث الذي يتناول: **(قصص القرآن، والأحاديث، والأخبار)** من ضمن الموضوعات التي ذكرتها مجملة في هذا المصنف، ثم رأيت بعد ذلك إفرادها بالبحث مع موضوعات أخرى ذات صلة في كتاب سميته: **(الزمان والهداية والاعتبار في قصص القرآن والأحاديث والأخبار)**، لبيان تميز القصص، والأحاديث، والأخبار في القرآن الكريم، من حيث إن الكلام فيها هو كلام الله عَزَّوَجَلَّ، ومثل ذلك من حيث الإخبار: ما حدَّث به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن المرائي والأمور الواقعة في المستقبل، أو عن غيبياتٍ لا تخضع للقانون الذي جعله الله عَزَّوَجَلَّ مطردًا في هذا الكون؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ خالق الزمان، وهو جَلَّ وَعَلَا فوقه، وهو المتصرف

فيه كيف شاء، فلا يحده زمن؛ ولأن هذا الغيب خارج عن حدود العقل، فلا يستقل بإدراكه، فيقتصر في ذلك على ما جاء في صحيح النقل، فمن الغيب ما هو خارج عن النظام الكوني المألوف والمطرد إلى غيب لا يعلم كنهه إلا الله عَزَّوَجَلَّ، فهو جَلَّوَعَلَا خالق الكون، وخالق الزمان والمكان.

وقد ذكر الأستاذ عباس العقاد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أن عقيدة المسلم من جملة الغيبيات، وأنها شيء يعلمه الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يعلمه الإنسان، ولكنها لا تناقض العقل ولا تلغيه، فليست هي ضد العقل لو عرفها وانكشف له الغطاء عنها، ولكنها فوق عقل الإنسان؛ لأنه محدود، وعالم الغيب مطلق غير محدود.

ومن قال: إنه يرفض الإيمان بغير المحدود، فكأنما يقول: إنه يرفض الإيمان بما يستحق الإيمان؛ إذ لا إيمان على الهدى بمعبود ناقص دون مرتبة الكمال الذي لا تحصره الحدود. إلا أن الفارق عظيم بين ما هو ضد العقل، وما هو فوقه، وفوق ما يدرك بالعقول المحدودة.

فما هو ضد العقل يلغيه ويعطله، ويمنعه أن يفكر فيه وفي سواه، وما هو فوق العقل يطلق له المدى إلى غاية ذرعه، ثم يقف حيث ينبغي له الوقوف، وينبغي له الوقوف وهو يفكر ويتدبر، إذا كان من العقل أن يفهم ما يدركه وما ليس يدركه إلا بالإيمان. وحيثما بلغ الإنسان هذا المبلغ فقد انتهى بالعقل والإيمان على وفاق" (١).

---

(١) انظر: التفكير فريضة إسلامية، لعباس العقاد (ص:٨٥-٨٦).

وعندنا أكثر من قاعدة في الحكم على الغيبيات، منها: أن (**عدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود؛ إذ الموجودات أعم من المشاهدات**)، و(**عدم العلم بشيء ليس علمًا بعدمه**)، أو (**ما يحكم العقل باستحالته غير ما يعجز عن دركه**)، والعقل إنما يقرأ النقل، وينظر في قيام الدلائل والشواهد على صدق القائل. وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ المنزل لقوم يعقلون، وجعل العقل مناط التكليف -كما هو معروف ومقرر-، وجعل العلم والنظر، والتفكر في الخلق، طريقًا موصلًا إلى الحقائق، ودالًّا على الخالق جَلَّوَعَلَا؛ ولذلك لا يتصور وجود نص من مشرع حكيم يتناقض مع المسلمات والمبادئ العقلية، أو الحقائق العلمية. ونقول باستحالة وجود تعارض بين الآيات القرآنية، والحقائق العلمية، ومن قال بذلك فهو إما جاهل بالآية، أو جاهل بالحقيقة العلمية. وقد فصَّلتُ القول في ذلك في كتاب: (الإرشادات المنهجية إلى تفسير الآيات الكونية).

والإيمان بالغيب يدخل فيه: كل ما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ به، وكذا ما أخبر به رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما صح عنه.

ومن ذلك: الإيمان بالملائكة، والجن، والعرش، والكرسي، والجنة والنار، ونعيم القبر وعذابه، والصراط والميزان.. إلى غير ذلك.

والإيمان بالغيب من أعظم الأركان التي تقوم عليها عقيدة المسلم؛ ولذلك جعله الله عَزَّوَجَلَّ أول صفات المتقين، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة:٢-٣].

المطلب الأول: بيان معنى القصة في اللغة والاصطلاح:

أولًا: تحرير معنى القصة في اللغة وما يتصل بمادة اللفظ من المعاني:

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قَصَّ أثرَه، أي: تتبَّعه. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ۝٦٤﴾ [الكهف:٦٤]. وكذلك اقْتَصَّ أثرَه، وتَقَصَّصَ أثرَه.

و(القِصَّة): الأمرُ والحديث. وقد اقْتَصَصْتُ الحديث: رويته على وجهه. وقد قَصَّ عليه الخبرَ قَصَصًا. والاسمُ أيضًا: القَصَصُ -بالفتح-، وُضِعَ موضع المصدر حتَّى صار أغلبَ عليه.

و(القِصَصُ) -بكسر القاف-: جمع القصة التي تكتب.

و(القصاص): القَوَدُ. وقد أقَصَّ الأميرُ فلانًا من فلان: إذا اقْتَصَّ له منه فجرحه مثل جرحه، أو قتَلَه قَوَدًا. واسْتَقَصَّهُ: سأله أن يُقِصَّهُ منه.

وتَقاصَّ القومُ: إذا قاصَّ كلُّ واحدٍ منهم صاحبَه في حسابٍ أو غيره. ويقال: ضربه حتَّى أقَصَّهُ من الموت، أي: أدناه منه....." (١).

و(القَصَص): مصدر قولهم: قَصَّ فلانٌ الحديثَ، يقصُّه قَصًّا، وقَصَصًا. وأصله: اتِّباعُ الأثر، يقال: خرج فلانٌ قَصَصًا في أثر فلان، و(قَصًّا)، وذلك إذا اقتصَّ أثرَه، ومنه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص:١١]. وقيل للقاصِّ: يقصُّ

---

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (قصص) (٣/١٠٥١-١٠٥٢).

لأتباعه خبرًا بعد خبر، وسَوقه الكلامَ سَوقًا. فمعنى القَصَص: الخبر الذي تَتَابعُ فيه المعاني (١).

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الْقَصُّ: تتبّع الأثر، يقال: قَصَصْتُ أثره، والْقَصَصُ: الأثر. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ٦٤﴾ [الكهف:٦٤]، ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾ [القصص:١١]. ومنه قيل لما يبقى من الكلإ فيتتبّع أثره: قَصِيصٌ، وقَصَصْتُ ظُفْرَهُ، والْقَصَصُ: الأخبار المتتبَّعة، قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ﴾ [آل عمران:٦٢]، ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ﴾ [يوسف:١١١]، ﴿وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ﴾ [القصص:٢٥]، ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ [يوسف:٣]، ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ﴾ [الأعراف:٧]، ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [النمل:٧٦]، ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ﴾ [الأعراف:١٧٦].

والقِصاصُ: تتبُّع الدَّم بالقود. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة:١٧٩]، ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ﴾ [المائدة:٤٥]، ويقال: قَصَّ فلان فلانا، وضربه ضربا فَأَقَصَّهُ، أي: أدناه من الموت، والْقَصُّ: الجصُّ، و«**نهى رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ **عن تَقْصِيصِ القبور**» (٢)".

---

(١) انظر: التفسير البسيط، لأبي الحسن الواحدي (٥/٣٢٥).

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة: (قصص) (ص:٦٧١-٦٧٢). والحديث: في (صحيح مسلم [٩٧٠]: عن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قال: «نُهِيَ عن تَقْصِيصِ القبور». ويروى: «عن تجصيص القبور» يريد: تلبيسها بالجص. و(التقصيص) بالقاف وصادين مهملتين هو التَّجْصِيص. و(الْقَصَّة) بفتح القاف=

قال جار الله الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف:٣]: "الْقَصَصِ على وجهين:

أ. يكون مصدرًا بمعنى: الاقتصاص، تقول: قصَّ الحديث يقصه قصصًا، كقولك: شله يشله شللًا: إذا طرده.

ب. ويكون (فعلًا) بمعنى: (مفعول) كالنفض والحسب [١]. ونحوه: النبأ والخبر في معنى: المنبأ به والمخبر به.

ويجوز أن يكون من تسمية المفعول بالمصدر، كالخَلْق والصيد [٢].

=وتشديد الصاد هي: الجِصُّ، وفيه: كراهة تَجْصِيصِ القبر، والبناء عليه...انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٢٧/٧)، الاستذكار (٣٢٥/١).

(١) بمعنى: المنفوض، والحسب بمعنى: المحسوب، وكالخبط بمعنى: المخبوط، وكالرتق بمعنى: المرتوق.

(٢) أي: بمعنى: المخْلوق، والصيدُ في الأصلِ مصدر: صَادَ يَصِيدُ ويُصَاد، ويطلق على: الْمَصِيدِ. وتسمية المفعول بالمصدر كثير، ومنه تسمية المكتوب: كتابًا، وسمي المقروء قرآنًا كما سمي المكتوب كتابًا. ومن ذلك: ﴿فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةً﴾ [طه:٩٦] فالقبضة هي المرة من القبض، وإطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر. ومن ذلك: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾ [النبأ:٦] فالمهد والمهاد: الشيء الممهد، سموا المفعول بالمصدر، كقوله في الدرهم: ضرب الأمير، أي: مضروبه، ومنه حديث: «يَا آدمُ ابْعَثْ بَعْثَ النَّار»، أي: المبعوث إليها من أهلها. وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾، وقد تقدم في الجزء الأول: أن التنزيل في الأصل: مصدر، سمي به الكلام المنزل من عند الله عَزَّوَجَلَّ على رسوله محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وتسميته به من قبيل تسمية المفعول بالمصدر، ونظير ذلك: تسمية المقروء بالقرآن.. إلى غير ذلك.

وإن أريد المصدر، فمعناه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: بإيحائنا إليك هذه السورة، على أن يكون ﴿أَحْسَنَ﴾ منصوبًا نصب المصدر، لإضافته إليه، ويكون المقصوص محذوفًا [(١)]؛ لأنَّ قوله: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ مغن عنه.

ويجوز أن ينتصب ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ بـ: ﴿نَقُصُّ﴾، كأنه قيل: نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص هذا القرآن بإيحائنا إليك. والمراد بأحسن الاقتصاص: أنه اقتصَّ على أبدع طريقة، وأعجب أسلوب. ألا ترى أنَّ هذا الحديث مقتص في كتب الأولين، وفي كتب التواريخ، ولا ترى اقتصاصه في كتاب منها مقاربًا لاقتصاصه في القرآن.

وإن أريد بالقصص: المقصوص، فمعناه: نحن نقص عليك أحسن ما يقص من الأحاديث، وإنما كان أحسنه؛ لما يتضمن من العبر والنكت، والحكم والعجائب التي ليست في غيرها.

والظاهر أنه أحسن ما يقتص في بابه، كما يقال في الرجل: هو أعلم الناس وأفضلهم، يراد: في فنه.

---

(١) قوله: (ويكون المقصوص محذوفًا)، أي: مفعول ﴿نَقُصُّ﴾ محذوف لدلالة ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، التقدير: نقص الموحى أحسن القصص. حاشية الطيبي على الكشاف (٨/ ٢٤٠).

فإن قلت: ممّ اشتقاق القصص؟ (١) قلت: من قصَّ أثره: إذا اتبعه؛ لأنَّ الذي يقصُّ الحديث يتبع ما حفظ منه شيئًا فشيئًا، كما يقال: تلا القرآن، إذا قرأه؛ لأنه يتلو أي: يتبع ما حفظ منه آية بعد آية.. " (٢).

ويتحصل مما تقدم أن (القصص) على وجهين:

أحدهما: يكون مصدرًا بمعنى: الاقتصاص.

وثانيهما: يكون (فعلًا) بمعنى: (مفعول).

واشتقاقه من (قصَّ أثره): إذا اتبعه؛ لأن الذي يقصُّ الحديث يتبع ما حفظ منه شيئًا فشيئًا، فالقصص أصله في اللغة من المتابعة، أي: من إتباع الخبر بعضه بعضًا.

فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَحۡسَنَ﴾ مفعول مطلق إذا كان القصص مصدرًا غير مراد به المفعول، ومفعول به إذا كان القصص مصدرًا بمعنى: المفعول.

ففي انتصاب ﴿أَحۡسَنَ﴾ وجهان:

---

(١) قوله: (مم اشتقاق القصص؟)، أي: من أي معنى اشتق (القصص)، وما المنقول منه؟ وإلا فقد بين اشتقاقه فيما سبق حيث قال: قصَّ الحديث يقصه قصصًا" حاشية الطيبي على الكشاف (٢٤٢/٨).

(٢) الكشاف (٤٤٠/٤-٤٤١).

أحدهما: أن يكون منصوبًا على المفعول به، فإذا جَعَلْتَ ﴿ٱلْقَصَص﴾ مصدرًا واقعًا موقع المفعول، كالخَلْق بمعنى: المخْلوق، أو جعَلْته فَعَلًا بمعنى: مفعول كالقَبَضِ والنَّقَص بمعنى: المنْقُوص والمقبوض، أي: نَقُصُّ عليك أَحْسَنَ الأشياءِ المقتصَّة.

والثاني: أن يكونَ منصوبًا على المصدرِ المبَيّن، إذا جَعَلْتَ ﴿ٱلْقَصَص﴾ مصدرًا غيرَ مرادٍ به المفعولُ، ويكون المقصوصُ على هذا محذوفًا، أي: نَقُصُّ عليك أحسنَ الاقتصاص.

فنصبه على المصدرية إما لإضافته إلى المصدر، أو لكونه في الأصل صفة مصدر، أي: قصصًا أحسن القصص.

وفيه مع بيان الواقع تعريض بما في اقتصاص أهل الكتاب من القبح والخلل بسبب التحريف والتبديل.

و﴿أَحْسَنَ﴾ يجوز أن تكونَ أفْعَل تفضيلٍ على بابها، وأن تكونَ لمجرَّدِ الوصفِ بالحُسْن، وتكون من بابِ إضافة الصفةِ لموصوفِها، أي: القصص الحسن.

قوله: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ﴾ الباءُ سببيةٌ، وهي متعلقةٌ بـ: ﴿نَقُصُّ﴾ و(ما) مصدريةٌ، أي: بسبب إيحائنا.

قوله: ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ يجوز فيه وجهان:

أحدهما: وهو الظاهرُ أن ينتصبَ على المفعول به بـ: ﴿أَوْحَيْنَآ﴾.

والثاني: أن تكون المسألةُ من بابِ التنازع، أعني: بين ﴿نَقُصُّ﴾ وبين ﴿أَوْحَيْنَآ﴾، فإنَّ كلًّا منهما يطلبُ ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾، وتكونُ المسألةُ من إعمال الثاني،

وهذا إنما يتأتى على جَعْلِنا ﴿أَحۡسَنَ﴾ منصوبًا على المصدر، ولم نُقَدِّرْ لـ: ﴿نَقُصُّ﴾ مفعولًا محذوفًا. كذا في (الدر المصون) وغيره.

قال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإن حملناه على المصدر كان المعنى: نقص عليك أحسن الاقتصاص، وعلى هذا التقدير فالحسن يعود إلى حسن البيان، لا إلى القصة. والمراد من هذا الحسن: كون هذه الألفاظ فصيحة بالغة في الفصاحة إلى حدِّ الإعجاز، ألا ترى أن هذه القصة مذكورة في كتب التواريخ مع أن شيئًا منها لا يشابه هذه السورة في الفصاحة والبلاغة.

وإن حملناه على المفعول كان معنى كونه أحسن القصص؛ لما فيه من العبر والنكت، والحكم والعجائب التي ليست في غيرها -كما تقدم في كلام الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ-" (١).

ثانيًا: تحرير معنى القصة في الاصطلاح:

يستفاد معنى القصة في الاصطلاح مما تقدم من بيان معنى القصة في اللغة وما يتصل بمادة اللفظ من المعاني، وهي ترجع إلى أن القصة هي المعاني المتتابعة والمترابطة التي لم تكن تعلم للمخاطب قبل ذكرها.

---

(١) مفاتيح الغيب (٤١٧/١٨)، وانظر: الدر المصون (٤٣٠/٦)، حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي (١٥١/٥)، حاشيتا القونوي وابن التمجيد على البيضاوي (٢٤٧/١٠).

ومن الأئمة من ذكر ما ينبئ عن معالم القصة، ومن ذلك: قول الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "القصص الخبر المشتمل على المعاني المتتابعة" (١). وقول القاضي ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(قص الأثر): اتباعه وتطلبه في موضع خفائه" (٢).

وقال أبو إسحاق الزَّجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "القاصُّ: الذي يأتي بالقِصِّةِ على حقيقتها" (٣).

أقول: وبناء على ما تقدم فإن القصة في القرآن الكريم تعرف بأنها: (**عبارة عن حكاية حلقات متتابعة ومترابطة من المعاني، يكمل بعضها بعضًا حتى تتكامل تلك المعاني إلى قضية واحدة متحدَّث عنها على حقيقتها، لم تكن تعلم للمخاطب قبل ذكرها، قد قامت الدلائل والشواهد على صدقها، وهي تنبئ عن مقصد يستفاد من جملتها**).

والقصص التي أخبر بها الله عَزَّوَجَلَّ في القرآن الكريم متنوعة، فمنها: القصص الدالة على حرص الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ على دعوة أقوامهم إلى الهداية، ومكابدتهم المشاق في سبيل الدعوة والتبليغ، وذكر إيمان من آمن معهم، وإعراض من أعرض.

وفي القرآن الكريم قصة مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ، وذكر وصايا لقمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وذكر إيمان امرأة فرعون، وكفر امرأة نوح، وامرأة لوط.

(١) مفاتيح الغيب (٨/٢٥٠).

(٢) المحرر الوجيز (٣/٥٢٩).

(٣) معاني القرآن وإعرابه (٣/٨٨)، وانظر: معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس (٣/٣٩٦).

وذكر أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة، وقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضي، وتاريخ الأمم، وذكر البلاد والديار والآثار، والذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وصاحب الجنتين، وقصة ذي القرنين، وذكر فرعون قارون وهامان، وأصحاب الكهف، وأصحاب الفيل، وأصحاب الأخدود، وذكر أبي لهب وامرأته، وذكر أهل الأعراف، وأحوال أهل الحنة والنار...إلى غير ذلك.

ثالثًا: فروق مميّزة بين الاصطلاحات:

١ – الفرق بين المثل والقصة:

يجتمع المثل مع القصة في التنبيه إلى الاعتبار من حيث قياس حال على حال.

ويفترقان من حيث إن الأمثال لا يشترط في صحتها أن تكون واقعة تاريخية ثابتة، وإنما يشترط فقط: إمكان وقوعها حتى يتسنى للذهن تصورها كما لو أنها وقعت فعلًا.

٢ – الفرق بين القصة والحديث:

قال العسكري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن القصص ما كان طويلًا من الأحاديث، متحدثًا به عن سلف، ومنه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ [يوسف:٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ [هود:١٢٠].

ولا يقال: الله عَزَّوَجَلَّ قاص؛ لأن الوصف بذلك قد صار علمًا لمن يتخذ القصص صناعة.

وأصل القصص في العربية: إتباع الشيء الشيء ومنه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾ [القصص:١١].

وسمي الخبر الطويل: قصصًا؛ لأن بعضه يتبع بعضًا حتى يطول، وإذا استطال السامع الحديث قال: هذا قصص.

والحديث يكون عمن سلف وعمن حضر، ويكون طويلًا وقصيرًا.

ويجوز أن يقال: القصص هو الخبر عن الأمور التي يتلو بعضها بعضًا، والحديث يكون عن ذلك وعن غيره.

والقص: قطع يستطيل ويتبع بعضه بعضًا، مثل: قص الثوب بالمقص، وقص الجناح وما أشبه ذلك.

وهذه قصة الرجل يعني: الخبر عن مجموع أمره، وسميت قصة؛ لأنها يتبع بعضها بعضًا حتى تحتوي على جميع أمره" (١).

ولنا على قول أبي العسكري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أكثر من تعليق:

فمن ذلك: أن قوله: (متحدثًا به عن سلف) كان من المناسب الاستدلال بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ﴾ [طه:٩٩].

ولكن هل يختص كلام الله عَزَّوَجَلَّ -قصة كان أم حديثًا أم خبرًا- بما سلف من الزمن أم أنه أعم من ذلك؟

---

(١) الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري (ص:٤١-٤٢).

والجواب: أن القصص في كلام الله عَزَّوَجَلَّ لا تختص بما سلف من الزمن، وكذا الخبر، -كما سيأتيك-.

والحاصل أن الخبر الفرد لا يقال عنه: قصة، ولكن يشترط في القصة تكون حلقات متصلة يتلو بعضها بعضًا، ويكمل بعضها بعضًا، والحديث يكون عن ذلك وعن غيره.

ويشترط في القصة أن يكون موضوعها واحدًا تظهر فيه معالم القصة.

وقيل: لا بدَّ تتكون القصة من أركان ثلاثة: بداية، ووسط، ونهاية.

كما يشترط أن الغاية من تلك الأخبار المتعاقبة في القصة واحدة، وهي -أعني: الغاية- بمثابة النتيجة والثمرة لتلك القصة.

ويراد من الحديث في القرآن الكريم ما يراد من القصة، من حيث ما يحدثه كل منهما في القلوب من العلوم والمعاني -على ما تقدم-، فيكشف خفاء المتحدث عنه، ويظهره على حقيقته، كما يشتركان في الغاية والقصد من الاعتبار والادكار، كما دلَّ على ذلك قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَۚ﴾ [المؤمنون:٤٤]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾ [سبأ:١٩].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ٩
فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ
عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ١٢ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ١٣ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا
جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ١٤ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ١٥ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ١٦
وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ١٧﴾ [القمر:٩-١٧].

وفي الروايات ما يدل على ما تقدم، ومن ذلك: ما جاء عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ [يوسف:١-٣] الآية.

قال: «نزل القرآن على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتلاه عليهم زمانًا، فقالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا، فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ علينا: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ الآية. فتلاه عليهم زمانًا، قالوا: يا رسول الله، لو حدثتنا فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ [الزمر:٢٣] الآية. قال خلاد: وزاد فيه غيره: قالوا: يا رسول الله، لو ذكّرتنا، فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [الحديد:١٦]» (١).

وروى أبو عبيد القاسم بن سلام رَحِمَهُ اللَّهُ في (فضائل القرآن)، وابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ في (التفسير)، وأبو نعيم رَحِمَهُ اللَّهُ في (الحلية): عن المسعودي، عن عون بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: ملّ أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ملّةً، فقالوا: يا رسول الله حدثنا! فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ [الزمر:٢٣]. ثم ملوا ملّةً أخرى فقالوا: يا رسول الله

---

(١) أخرجه البزار [١١٥٣]، وابن جرير (٥٥٣/١٠)، والطحاوي في (شرح مشكل الآثار) [١١٥٧]، وابن أبي حاتم في (التفسير) [١١٣٢٣]، وأبو يعلى [٧٤٠]، وابن حبان [٦٢٠٩]، والحاكم [٣٣١٩]، وقال: "صحيح الإسناد" ووافقه الذهبي، كما أخرجه: الضياء [١٠٦٩]، وقال: إسناده حسن"، وحسنه الحافظ ابن حجر في (المطالب العالية) [٣٦٣٤]. قال الهيثمي (٢١٩/١٠): "رواه أبو يعلى، والبزار نحوه، وفيه: الحسين بن عمرو العنقزي، وثقه ابن حبان، وضعفه غيره، وبقية رجاله رجال الصحيح، وهو غير خلاد، هذا أقدم"، وانظر: الدر المنثور، للسيوطي (٤٩٦/٤).

حدثنا فوق الحديث، ودون القرآن، يعنون: القصص، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف:١-٣]، فأرادوا الحديث فدَّلهم على أحسن الحديث، وأرادوا القصصَ فدلهم على أحسن القصص (١).

المطلب الثاني: التجوز في الأفعال في قصص القرآن وكلام الله عَزَّوَجَلَّ:

أولًا: وقوع الماضي موقع المستقبل في كلام الله عَزَّوَجَلَّ:

خصَّ كثير من الباحثين تعريف القصة في القرآن بما يقع في الزمن الماضي.

ولا يستقيم هذا في كلام الله عَزَّوَجَلَّ؛ قصة كان أم خبرًا أم حديثًا؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ هو خالق الزمان والمكان، والعالم بما كان وبما هو كائن، فيخبر في كتابه عما وقع للأمم السالفة من الهلاك وخراب الديار جزاء كفرهم بنعم الله عَزَّوَجَلَّ، وإعراضهم عن آياته.

---

(١) فضائل القرآن، للقاسم بن سلام (ص:٥٣)، تفسير الطبري (١٥/٥٥٢)، حلية الأولياء، لأبي نعيم (٤/٢٤٨)، وانظر: أسباب نزول القرآن، لأبي الحسن الواحدي (ص:٢٧٠)، جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر (٢/١٠٠٣). وفي إسناده: المسعودي، قيل: اختلط في آخر عمره، وقد ورد ما يوافق معناه.

وفي القرآن الكريم يقع الماضي موقع المستقبل في مواضع كثيرة، ومن الآيات ما يذكر فيها أكثر من خبر مع اتصال تلك الأخبار، وورودها في سياق واحد، ودلالتها على معنى مشترك. ومن ذلك: ذكر أحوال أهل الجنة النار والأعراف متعاقبة، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُواْ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٤ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ۝٤٥ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ۝٤٦ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٧ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٨ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝٤٩ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝٥١﴾ [الأعراف:٤٣-٥١].

فلا ريب أن الآيات السابقة تضمنت أكثر من خبر، وهي أخبار متصلة -كما هو بين-.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ٣١ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٣﴾ [سبأ:٣١-٣٣].

ففي الآيات: ذكر عدم إيمان أولئك، ثم الإرداف ببيان سبب ذلك الكفر من خلال ذلك الحوار، ثم ذكر العاقبة.

ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١١٧ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١١٨﴾ [المائدة:١١٦-١١٨].

ومن الإخبار الذي وقع فيه الماضي موقع المستقبل: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ الآية [إبراهيم:٢١].

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإنما جيء به بلفظ الماضي؛ لأنَّ ما أخبر به جَلَّ وَعَلَا لصدقه كأنه قد كان ووجد" (١).

ومن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨﴾ [الطلاق:٨]، فالمراد: حساب الآخرة وعذابها ما يذوقون فيها من الوبال ويلقون من الخسر. قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وجيء به على لفظ الماضي، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف:٤٤]، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف:٥٠]، ونحو ذلك؛ لأنَّ المنتظر من وعد الله عَزَّوَجَلَّ ووعيده مُلْقًى في الحقيقة، وما هو كائن فَكَأَنْ قد" (٢).

(١) الكشاف (٢/٥٤٨).

(٢) الكشاف (٤/٥٦٠). وفي نسخة: (فكأن قد كان)، قال العلامة الطيبي: "وفي بعض النسخ: (فكأن قد) بلا (كان). قال: بلغ الوليد بن عبد الملك أن سليمان بن عبد الملك تمنى موته لما له من بعده العهدة، فكتب الوليد إليه يعاتبه على ما بلغه، وكتب في آخر الكتاب: (تمنى رجال أن أموت وإن أمت*** فتلك سبيل لست فيها بأوحد)، (وقد علموا لو ينفع العلم عندهم***لئن مت ما الداعي علي بمخلد)، (فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى***فهيئ لأخرى مثلها فكأن قد)" حاشية الطيبي على الكشاف (١٥/٤٨٣)، مع اختلاف في نسبة هذه الأبيات. انظر: عيون الأخبار، لابن قتيبة الدينوري (٣/١٣١)، الاختيارين، للأخفش الصغير (ص:١٦١-١٦٢)، الجليس الصالح، للنهرواني (ص:٦٧٣)، البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي (٨/٦٤)، حياة الحيوان الكبرى، للدميري (١/٤٦)، زهر الأكم، لليوسي (١/١٧٥-١٧٦).

قال أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فعبر عن المستقبل بلفظ الماضي؛ لأنه لتحقيق أمره وظهور برهانه كأنه قد وقع، وإخبار الله عَزَّوَجَلَّ في الماضي والمستقبل سواء؛ لأنه آت لا محالة" (١).

ومن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣].

فقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَنَزَعْنَا﴾ جاء بلفظ الماضي وهو مستقبل؛ لتحقق وقوعه في المستقبل، حتى عبر عنه بما يعبر به عن الواقع.

قال الخطيب القزويني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تلخيص المفتاح): "(ومنه) أي: من خلاف مقتضى الظاهر: (التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي؛ تنبيهًا على تحقق وقوعه، نحو: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر:٦٨]. ومثله: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾ [الذاريات:٦]، ونحوه: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ [هود:١٠٣]" (٢).

ثانيًا: أوجه التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي وعكسه:

يعبر عن المستقبل بلفظ الماضي وعكسه، ويتحصل من ذلك الأوجه التالية:

---

(١) تفسير القرطبي (٦/٣٧٥)، (١٠/٦٥).

(٢) انظر: تلخيص المفتاح (ص:٩٩)، طبعة دار الفكر العربي، القاهرة، الإيضاح (٢/٩٦-٩٧)، مختصر المعاني (ص:٨١).

١ - التعبير عن المستقبل بالماضي مرادًا به المضي على التحقيق أو المستقبل على القول المرجوح.

٢ - التعبير عن المستقبل بالماضي مرادًا به المستقبل.

٣ - التعبير عن المستقبل باسم الفاعل واسم المفعول.

٤ - التعبير عن الماضي بلفظ المضارع.

٥ - وقد يعبر عن الحاضر بالمستقبل مرادًا به: الحاضر؛ تنزيلًا لما سيقع منزلة ما وقع -كما سيأتي-.

قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي: "ويغلب ذلك فيما إذا كان مدلول الفعل من الأمور الهائلة المهددة المتوعد بها، فيعدل فيه إلى لفظ الماضي تقريرًا وتحقيقًا؛ لوقوعه كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل:٨٧]" (١).

قال الشيخ ضياء الدين ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإنه إنما قال: ﴿فَفَزِعَ﴾ بلفظ الماضي بعد قوله: ﴿يُنفَخُ﴾ وهو للمستقبل؛ للإشعار بتحقيق الفزع وثبوته، وأنه كائن لا محالة، واقع على أهل السماوات والأرض؛ لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل، وكونه مقطوعًا به.

ومن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ﴾ [الزمر:٦٨].

(١) البرهان في علوم القرآن (٣/٣٧٢).

وقوله: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم:٢١].

قال الشيخ ضياء الدين ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ فـ: ﴿وَبَرَزُواْ﴾ بمعنى: يبرزون يوم القيامة، وإنما جيء بلفظ الماضي؛ لأن ما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ به؛ لصدقه وصحته كأنه قد كان ووجد" (١).

ومن ذلك: قوله ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَـٰهُمْ﴾ [الكهف:٤٧]، أي: نحشرهم.

وقوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ [الأعراف:٤٨].

ثم تارة يجعل المتوقع فيه كالواقع فيؤتى بصيغة الماضي مرادًا به المضي؛ تنزيلًا للمتوقع منزلة ما وقع، فلا يكون تعبيرًا عن المستقبل بلفظ الماضي، بل جعل المستقبل ماضيًا؛ مبالغة. ومنه: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١]، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف:٤٤] ونحوه" (٢).

قال الشيخ ضياء الدين ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾: ﴿أَتَىٰٓ﴾ هاهنا بمعنى: (يأتي)، وإنما حسن فيه لفظ الماضي؛ لصدق إتيان الأمر ودخوله في جملة ما لا بد من حدوثه ووقوعه، فصار (يأتي) بمنزلة: قد أتى ومضى.

---

(١) انظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (١٦/٢)، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور (ص:١٠٤).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٣٧٢/٣).

وكذلك قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ [الكهف:٤٧]؛ فإنه إنما قال: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ ماضيًا بعد: ﴿نُسَيِّرُ﴾، ﴿وَتَرَى﴾ وهما مستقبلان؛ للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز؛ ليعانوا تلك الأحوال، كافة، قال: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ قبل ذلك" [(١)].

وقد يعبر عن المستقبل بالماضي مرادًا به المستقبل فهو مجاز لفظي، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ﴾ [النمل:٨٧]، فإنه لا يمكن أن يراد به المضي لمنافاة ﴿يُنفَخُ﴾ الذي هو مستقبل في الواقع.

وفائدة التعبير عنه بالماضي: الإشارة إلى استحضار التحقق، وأن من شأنه؛ لتحققه: أن يعبر عن بالماضي وإن لم يرد معناه. والفرق بينهما: أن الأول مجاز، والثاني لا مجاز فيه إلا من جهة اللفظ فقط" [(٢)].

وقد أبان القول في ذلك ووضحه الشيخ بهاء الدين السبكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال: "واعلم أن ما ورد من ذلك على قسمين:

١ - تارة يجعل المتوقع فيه كالواقع، فيؤتى بالأمر المستقبل بصيغة الفعل الماضي مرادًا به المضي؛ تنزيلًا للمتوقع منزلة ما وقع فلا يكون تعبيرًا عن المستقبل بلفظ

---

(١) انظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (١٦/٢)، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور (ص:١٠٤-١٠٥).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٣/٣٧٢-٣٧٣).

الماضي، بل يكون فيه جعل المستقبل ماضيًا، ومنه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل:١]، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف:٤٤] ونحوه.

فإما أن يريد بـ: ﴿أَتَىٰٓ﴾: أتت مقدماته، فيكون التجوز حصل فى الفعل باعتبار الحدث لا باعتبار الزمان، وإما أن يريد بالادعاء أن الإتيان المستقبل وقع في الماضي، وهو أبلغ من الأول.

٢ – وتارة يعبر عن المستقبل بالماضي مرادًا به المستقبل فهو مجاز لفظي.

وحصل التجوز فى هيئة الفعل من غير أن تكون أردت وقوعه في الماضي، وذلك احتمال مرجوح في نحو: ﴿وَنَادَىٰٓ﴾ وإن كان مشهورًا؛ فإن المعنى على الأول أمكن وأنصع.

ويتعين للقسم الثاني نحو: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ﴾ [النمل:٨٧] لا يمكن أن يراد به المضى لمنافاة ﴿يُنفَخُ﴾ الذي هو مستقبل فى الواقع فى الإرادة، ويحتمل أن يراد أنهم لمبادرتهم النفخ بالصعق كأن صعقهم ماض عن زمن النفخ على سبيل المبالغة، ونظير الآية الكريمة قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ﴾ [الشورى:٤٤] وفي مثل هذا النوع يكون فائدة التعبير بالماضي: الإشارة إلى استحضار التحقق، وأنه من شأنه لتحققه أن تعبر عنه بالماضي، وإن لم ترد معناه، والقسم الأول مجاز، وهذا القسم ليس فيه مجاز إلا من جهة اللفظ فقط.

ثالثًا: التعبير عن المستقبل باسم الفاعل واسم المفعول:

وقال الشيخ ضياء الدين بن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومما ينخرط في هذا السلك: الإخبار باسم المفعول عن الفعل المضارع، فمن ذلك قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ١٠٣﴾ [هود:١٠٣]؛ فإنه إنما آثر اسم المفعول هاهنا على الفعل المضارع؛ لما فيه من الدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم؛ فإنه لا بد من أن يكون ميعادًا مضروبًا يجمع الناس، وأنه موصوف بهذه الصفة، وإن شئت فوازن بينه وبين قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ [التغابن:٩]، فإنك تعثر على صحة ما قلت" [(١)].

وأصل هذا كله مأخوذ من (الكشاف). وقد أشار إلى ذلك الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى في (البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ).

وقال الشيخ بهاء الدين السبكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومثل التعبير عن المستقبل بغير لفظه: اسم الفاعل واسم المفعول باعتبار المستقبل، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ٦﴾ [الذاريات:٦]، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ١٠٣﴾ [هود:١٠٣]؛ فإن اسم الفاعل ليس حقيقة للاستقبال فهو من خلاف المقتضى (قلت): وهذا ليس مثل ما سبق فإن فيه التعبير عن المستقبل بما يدل على الحال لا بما هو للمضى، فيحمل كلام المصنف على أنه مثله فى التعبير عن المستقبل بغيره لا

---

(١) انظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (٢/١٦)، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور (ص:١٠٥).

بالمضي؛ فإن اسم الفاعل حقيقة فى الحال اتفاقًا، مجاز فى المضي على الصحيح، والقسمان السابقان في الفعل يأتيان فى اسم الفاعل، قد يقصد به الاستقبال، وقد يقصد به وقوع الفعل في الحال أو في الماضي" (١).

رابعًا: التعبير عن الماضي بلفظ المضارع:

فهذا بيان من تقدم من التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي، وقد يكون عكس هذا فيعبر عن المعنى الماضي بلفظ المضارع؛ إحضارًا للصورة العجيبة، وإشارة لتجدده شيئًا فشيئًا، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [فاطر:٩]، أي: فأثارت، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [البقرة:١٠٢]، كذا في (مواهب الفتاح) (٢).

قال الشيخ ضياء الدين ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أن الفعل المضارع إذا أتي به في حال الإخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي؛ وذلك لأن الفعل المضارع يوضح الحال التي يقع فيها، ويستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع يشاهدها، وليس كذلك الفعل الماضي، فمما جاء: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾ [فاطر:٩]، فإنه إنما قيل: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ مضارعًا، وما قبله وبعده ماض، لذلك

---

(١) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (١/٢٨٧-٢٨٨).

(٢) مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح (١/٢٩٨).

المعنى الذي أشرنا إليه، وهو حكاية الحال التي يقع فيها إثارة الريح السحاب، واستحضار تلك الصورة البديعة، الدالة على القدرة الباهرة، وهكذا يفعلون بكل فعل فيه نوع تمييز وخصوصية، بحال تستغرب، أو تهم المخاطب، أو غير ذلك". وقد فصل ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المثل السائر) ما أجمله من القول في (الجامع الكبير) (١).

١ - ثم إن التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي وعكسه يحتمل أن يكون من المجاز المرسل والعلاقة: ما بينهما من التضاد؛ لأن الضد أقرب خطورًا بالبال عند ذكر ضده، فبينهما شبه المجاورة؛ لتقارنهما غالبًا في الخيال.

لكن هذا الاحتمال لا يفيد المبالغة المقصودة، وهي الإشعار بتحقق الوقوع، وأن هذا المستقبل كالماضي؛ لأن المجاز المرسل لما كانت الدلالة فيه انتقالية لم يكن فيه أبلغية، وإنما هو كدعوى الشيء ببينة على ما سيأتي.

٢ - ويحتمل أن يكون من مجاز التشبيه، ووجه الشبه: تحقق الوقوع فى كل منهما، بالنسبة للتعبير عن المعنى الاستقبالي بالماضي.

وأما وجه الشبه فى عكسه فهو كون كل نصب العين مشاهدًا، وهو في الماضي أظهر؛ لبروزه إلى الوجود، وهذا الاحتمال يفيد المبالغة السابقة.

فقول الخطيب القزويني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي؛ تنبيهًا على تحقق وقوعه...) يشير إلى أن التعبير عن المستقبل بالماضي على وجه الاستعارة

(١) انظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (١٢/٢)، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور (ص:١٠٢).

بسبب تشبيه المستقبل بالماضي في تحقق الوقوع، وهذا وإن كان من وظيفة البيان، لكن من حيث إن الداعي إليه التنبيه المذكور من وظيفة علم المعاني، ولا يخفى أن الاستعارة في الفعل بتبعية استعارة المصدر، كما هو مشهور إن قلت: إن مصدر الماضي والمستقبل واحد، فكون الاستعارة تبعية يؤدي إلى تشبيه الشيء بنفسه قلنا: يختلف المصدر بالتقيد بالماضي والاستقبال، لكن لا يخفى أن هذا استعارة في المشتق باعتبار الهيئة، ولم يذكره القوم في مباحث الاستعارة -كما ذكر الشيخ السيالكوتي رَحِمَهُ اللَّهُ- لكن قواعدهم لا تأباه -كما ذكر الشيخ الدسوقي رَحِمَهُ اللَّهُ في (حاشيته على مختصر المعاني)" [1].

خامسًا: التعبير عن الحاضر بالمستقبل:

التعبير عن الحاضر بالمستقبل مرادًا به: الحاضر؛ تنزيلًا لما سيقع منزلة ما وقع، كما في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزمر:٣٠]، "أي: إنك وإياهم، وإن كنتم أحياء فأنتم في عداد الموتى؛ لأن ما هو كائن فكأن قد كان" قاله الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ [2].

---

(١) حاشية الدسوقي على مختصر المعاني (١/٧٤٥-٧٤٦)، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح (١/٢٩٨-٢٩٩)، وانظر: حاشية السيالكوتي على كتاب المطول (ص:٢٣٨).

(٢) الكشاف (٤/١٢٧).

ونحوه: قول ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (شرح التسهيل): "المعنى على قراءة الجماعة: وإنك وإياهم وإن كنتم أحياء فأنتم في عداد الموتى؛ لأن ما هو كائن فكأن قد كان، وهذا شبيه بـ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل:١]" (١)، أي: تنزيلًا لمتحقق الوقوع منزلة ما وقع؛ مبالغة وتأكيدًا. وقوله: (وهذا شبيه)، أي: يشبهه من حيث التعبير عن المستقبل بغير لفظه، والفرق بينهما: أن أحدهما للحاضر، والآخر للماضي.

و"عن قتادة: نعى إلى نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفسه، ونعى إليكم أنفسكم. وقرئ: مائت ومائتون. والفرق بين الميت والمائت: أن الميت صفة لازمة، كالسيد.

وأما المائت، فصفة حادثة. تقول: زيد مائت غدًا، كما تقول: سائد غدًا، أي: سيموت وسيسود.

وإذا قلت: زيد ميت، فكما تقول: حي في نقيضه، فيما يرجع إلى اللزوم والثبوت" اهـ.

فتبين أن ﴿مَيِّتٌ﴾: صفة مشبهة، وهي تدل على الثبوت، ففيها: إشعار بأن حياتهم عين الموت، وأن الموت طوق في العنق لازم.

و(مائت): اسم فاعل، وهو يدل على الحدوث، فلا يفيد هنا مع القرينة أكثر من أنهم سيحدث لهم الموت، كما أفاده العلامة الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢).

---

(١) شرح تسهيل الفوائد (١٠٣/٣).

(٢) انظر: روح المعاني (٢٥٢/١٢).

قال ابن المنير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فاستعمال (ميت) مجاز؛ إذ الخطاب مع الأحياء، واستعمال (مائت) حقيقة؛ إذ لا يعطي اسم الفاعل وجود الفعل حال الخطاب. ونظيره قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر:٤٢]، يعني: توفي الموت. ﴿وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر:٤٢]، أي: يتوفاها حين المنام؛ تشبيهًا للنوم بالموت، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام:٦٠]. ﴿فَيُمْسِكُ﴾ [الزمر:٤٢]: الأنفس التي قضى عليها الموت الحقيقي، أي: لا يردها في وقتها حية. ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [الزمر:٤٢] أي: النائمة إلى الأجل الذي سماه، أي: قدره لموتها الحقيقي. هذا أوضح ما قيل في تفسير الآية.." (١).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن اسم الفاعل حقيقة عند بقاء ما اشتق منه اسم الفاعل، والمختار أن استعماله فيما مضى مجاز، وأما استعماله في المستقبل عند الأصوليين فمجازٌ بلا خلاف" (٢).

والحاصل أن التقسيم الآنف الذكر يحرر المسألة في الحكم على القصة في القرآن الكريم واختلاف القول فيها عن القصة في غير كلام الله عَزَّ وَجَلَّ.

كما أن التقسيم الآنف الذكر يبرز نكتة الاستعمال في كل موضع.

---

(١) الكشاف مع حاشية ابن المنير (١٢٧/٤).

(٢) حاشية الطيبي على الكشاف (٣٨١/١٣)، حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي (٣٣٧/٧)، حاشيتا القونوي وابن التمجيد على البيضاوي (٥٢٣/١٦).

سادسًا: اعتبار مجيء التجوز بالأفعال مقيدًا بالشرط، أو غير مقيد:

وقد أورد تلك الأفعال بهذا الاعتبار الإمام عز الدين بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ وقد آثرت ذكر الأقسام التي أوردها؛ لاستقلالها وتميزها من حيث اعتبار كونها مقيدة بالشرط أو غير مقيدة، فقد فصَّل في كتابه: (الإشارة إلى الإيجاز)، القول في التجوز في الأفعال، مع ملاحظة مجيء تلك الأفعال مقيدة بالشرط، وما يجيء في غيره. وقد نقل ذلك التقسيم عنه ابنُ النقيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (مقدمة تفسيره).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما الأفعال فالتجوز فيها أنواع:

أحدها: التجوز بالماضي عن المستقبل؛ تشبيهًا له في التحقق، وذلك في الشرط وجوابه، وفي غيرهما.

وأكثر ما يكون هذا في الشروط وأجوبتها، وقد يجيء في غيرها.

١ – مثاله في غير الشرط: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:١١٦]، وقوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ﴾ [الأعراف:٤٨]، وقوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف:٤٤]، وقوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف:٥٠].. وأمثاله في القرآن كثير.

٢ – وأما مثاله في الشرط: فقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣]، معناه: وإن تكونوا في ريب. وكقوله: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [التوبة:٣]، معناه: وإن تتوبوا فهو خير لكم.

وكقوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس:٩٤]، معناه: فإن تك في شك. وكذلك قوله: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس:٨٤]، معناه: إن تكونوا مؤمنين بالله عَزَّوَجَلَّ فعليه توكلوا.

٣ – وأما في جواب الشرط: فكقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الحج:٤١]، وكقوله: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَاۚ﴾ [الإسراء:٨]، معناه: وإن تعودوا الى قتال محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نعد إلى نصره؛ لأن الشرط لا يكون إلا بمستقبل، والمرتب على المستقبل مستقبل لا محالة، وهذا من مجاز التشبيه، شبه المستقبل في تحققه وثبوته بالماضي الذي دخل في الوجود بحيث لا يمكن رفعه.

الثاني: التعبير بالمستقبل عن الماضي: كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ﴾ [البقرة:١٠٢]، أي: واتبعوا ما تلته الشياطين، وكقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة:٨٧]، معناه: وفريقًا قتلتم. ويجوز أن يكون القول في هاتين الآيتين حكاية حال ماضية. مثله في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [إبراهيم:١٠]، وفي قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُۚ﴾ [هود:١٠٩]، وكذلك قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الواقعة:٤٦]، وقوله: ﴿وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ [القلم:٤٣]، وكذلك قوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب:٣٧]، معناه: وإذ قلت، أو تكون حكاية حال ماضية، وكذلك قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ

أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات:١٠٢]، معناه: أني رأيت، أو تكون حكاية حال ماضية، وكقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ [البقرة:١٨٩]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة:٢٢٢]..ونحو هذه الآيات.

والتعبير بالمستقبل عن الماضي في القرآن كثير.

[الثالث:] التعبير بالمضارع عن الحال المستمرة: قال: وهو مجاز أيضًا؛ لأنه وضع للحال والاستقبال، فكان استعماله في الأزمان الثلاثة استعمالًا له في غير ما وضع له، وهذا كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [آل عمران:١٥٦]، وكقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم:٢٧].." (١).

(١) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز (ص:٢٦-٢٧).

المطلب الثالث: المقاصد والخصائص:

أولًا: الزمان والغاية:

إن قصص القرآن الكريم ليست كغيرها من القصص من حيث الزمان والغاية:

فليست سردًا لوقائع تاريخية ماضية لا صلة لها بالواقع، ولم تسق لأغراض أدبية الغرض منها الإمتاع فحسب؛ ولكنها تساق لأغراض ومقاصد عامة وخاصة، فالعامة قائمة على ركيزتي: الاعتبار والهداية من حيث العموم لجميع ما قصه الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه، والخاصة: ما يخص كل قصة على حدة من دروس وعبر.

وقد جاء ذكر الزمان والغاية في كلام الله عَزَّوَجَلَّ على العموم، وفي قصص القرآن على الخصوص في غير موضع.

ثانيًا: ربانية المصدر والغاية:

والقصص والأخبار ربانيَّة المصدر بمعنى: أنها منسوبة إلى الرب جَلَّوَعَلَا، فمصدرها رباني. و(رباني) مصدر صناعي منسوب إلى الرب، زيدت فيه الألف والنون، على غير قياس.

قال سيبويه رَحِمَهُٱللَّهُ: "زادوا ألِفًا ونونًا في (الرَّبَّاني)، إذا أرادوا تخصيصًا بعلم الرَّبِّ، دون غيره من العلوم، وهذا كما قالوا: (شَعْراني)، و(لِحْيانِي)، و (رَقَباني): إذا

خُصَّ بكثرة الشَّعْر، وطول اللِّحْيَة، وغِلظ الرَّقَبَة. فإذا نسبوا إلى الشَّعْر، قالوا: (شَعْرِي)، وإلى الرَّقَبَة: (رَقَبِي)، وإلى اللِّحْيَة: (لِحْيِي).

وقال ابنُ الأعرابي رَحِمَهُ اللَّهُ: الرباني: العالم الْمُعَلِّم، الذي يَغْذُوا الناسَ بصِغار العلوم قبل كبارها.

وقال المبرد رَحِمَهُ اللَّهُ: الربّانِيُّون: أرباب العلم، وأحدهما: رَبّاني، وهو: الذي يَرُبُّ العِلم، ويَرُبُّ الناسَ؛ أي: يعلمهم ويصلحهم، ويقوم بأمورهم.

والأَلِف والنُّونُ: للمبالغة؛ كما قالوا: (رَيّان)، و(عطشان)، و(شبعان)، ثم ضمَّت إليه ياءُ النسبة، فقيل: (لِحياني)، و(رقَباني).

فعلى قول سيبويه رَحِمَهُ اللَّهُ: الرَّبّاني: منسوب إلى الرَّبِّ؛ على معنى التخصيص بعلم الرَّبِّ، أي: يَعْلَم الشريعة، وصفات الرب جَلَّ وَعَلَا. وعلى قول ابن الأعرابي، والمبرد: الرّبّانِي: من الرَّبِّ، الذي هو بمعنى: التربية [١].

وقال أبو عبيدة رَحِمَهُ اللَّهُ: "لم يعرفوا ربانيين [٢]، وأحسب الكلمة ليست بعربية إنما هي عبرانية أو سريانية. وذلك أن أبا عبيدة رَحِمَهُ اللَّهُ زعم أن العرب لا تعرف: (الربانيين)، وإنما عرفها الفقهاء وأهل العلم" [٣].

---

(١) انظر: التفسير البسيط (٥/٣٨١-٣٨٣)، الكتاب، لسيبويه (٣/٣٨٠)، وانظر: المقتضب، للمبرد (٣/١٤٤).

(٢) مجاز القرآن (١/٩٧).

(٣) تهذيب اللغة (١٥/١٣٠).

والحاصل أن أصل الرباني يرجع إلى قولين:

أحدها: أنه الذي يربُّ أمور الناس بتدبيره.

والثاني: منسوب إلى الرَّبِّ؛ لأن النسب إلى الشيء إنما يكون لمزيد اختصاص المنسوب بالمنسوب إليه، فقيل لصاحب العلم الذي أمر به الرب: ربَّاني.

قال جار الله الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفيه: أن من علم ودرس العلم ولم يعمل به فليس من الله عَزَّوَجَلَّ في شيء، وأن السبب بينه وبين ربه جَلَّوَعَلَا منقطع، حيث لم يثبت النسبة إليه إلا للمتمسكين بطاعته"(١).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله: (وفيه أن من علم) يعني: أدمج فيه هذا المعنى وأشير إليه؛ لأن المعنى الذي سيقت له الآيات هو ما يقال: لا يصح ولا يستقيم للبشر أن يمنح الكتاب، ويرزق الحكم والنبوة، ثم يقول للناس: اعبدوني من دون الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن الواجب عليه أن يقول: كونوا عباد الله عَزَّوَجَلَّ وحده، فعدل عنه إلى قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿كُونُواْ رَبَّنِيِّـۧنَ﴾؛ ليستقيم ترتب الحكم على تلك الصفة؛ لأن الرَّباني، أي: المتمسك بالدين والطاعة المعتصم بحبل الله عَزَّوَجَلَّ المتين، لا يكون إلا عالما عاملًا معلمًا، فالمعنى المدمج: إيجاب طلب العلم على كل أحد من عباد الله عَزَّوَجَلَّ، ثم العمل به، ثم إرشاد الناس إلى الطريق المستقيم" (٢).

---

(١) الكشاف (١/٣٧٨).

(٢) حاشية الطيبي على الكشاف (٤/١٥٨).

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (التفسير): "وقيل: كونوا متخصصين بالله عَزَّوَجَلَّ تخصصًا تُنسبون إليه، وتوصفون بعامة أوصافه، نحو: الجواد، والودود، والرحيم.

وقيل: كونوا من المتخصصين بالله عَزَّوَجَلَّ الذين وُصِفوا بقوله: «**فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به**» الحديث [(١)].

وقيل: كونوا متخصصين بالله عَزَّوَجَلَّ غير ملتفتين إلى الوسائط، كأبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما قال حين موت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واضطربت أسرار عامة الناس: «**من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإنَّ الله حَيٌّ لَا يَمُوتُ**» [(٢)]، وقد قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ الآية [آل عمران:١٤٤]" [(٣)].

وقال بعضهم في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝٧٩﴾ [آل عمران: ٧٩]: معناه: كونوا حكماء علماء. وقيل: حكماء أتقياء. وقيل: كونوا فقهاء علماء. وقيل: علماء حلماء. وقيل: فقهاء معلِّمون.

والرَّبانيون المعرفون بالعلم والتَّقوى هم عماد النَّاس في الفقه والعلم وأمور الدِّين والدُّنيا؛ ولذلك قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهم فوق الأحبار؛ لأنَّ الأحبارَ هم العلماء.

---

(١) صحيح البخاري [٦٥٠٢].

(٢) صحيح البخاري [١٢٤١، ٣٦٦٨، ٤٤٥٤].

(٣) تفسير الراغب الأصفهاني (٢/٦٧٢-٦٧٣).

و(الرَّبانيُّ): الجامعُ إلى العلم والفقه: البصرَ (١) بالسياسة والتدبير، والقيام بأمور الرعية، وما يصلحهم في دُنياهم ودينهم (٢).

وقيل: سموا بذلك؛ لعلمهم بالربِّ جَلَّ وَعَلَا (٣).

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿كُونُواْ رَبَّنِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران:٧٩]: حلماء فقهاء، ويقال: الرَّبانيُّ الذي يُرَبِّي النَّاس بِصِغَار العلم قبل كِبَاره (٤)، أي: بالتدريج، وقيل غير ذلك.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: "والمراد بصغار العلم: ما وضح من مسائله، وبكباره ما دقَّ منها. وقيل: يعلمهم جزئياته قبل كلياته، أو فروعه قبل أصوله، أو مقدماته قبل مقاصده.

وقال ابن الأعرابي رَحِمَهُ اللَّهُ: لا يقال للعالم: رباني حتى يكون عالما معلمًا عاملًا" (٥).

فالعالم الرَّباني قائم على أمور الناس، مصلح لأحوالهم، ومرشد لهم إلى ما فيه صلاحهم.

والعالم المتصف بهذه الصفة ينعكس ذلك على عمله وسلوكه وأخلاقه.

---

(١) في المطبوع من (البحر) (٣/٢٣٢): "النظر".

(٢) انظر: تفسير الطبري (٦/٥٤٤).

(٣) فتح الباري، لابن حجر (١/١٢١).

(٤) انظر: صحيح البخاري (١/٢٤)، شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١/١٥١).

(٥) فتح الباري، لابن حجر (١/١٦٢).

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الرباني: منسوب إلى (الرب) بزيادة الألف والنون؛ للمبالغة وهو العالم الراسخ في العلم والدين الذي أمر به الله عَزَّوَجَلَّ، والذي يطلب بعلمه وجه الله عَزَّوَجَلَّ. قال بعضهم: الشارع الرباني العالم العامل المعلم" (١).

وقيل: هو من الرب بمعنى: التربية، كانوا يربون المتعلمين بصغار العلوم قبل كبارها -كما تقدم-.

والقصص والأحاديث في القرآن الكريم وصحيح السنة مصدرها رباني، وهي ربانية الغاية والوجهة؛ لاتصال الغاية بما يرضي الرب جَلَّوَعَلَا، من حيث ما تحققه تلك القصص في المكلفين من صلة بالله عَزَّوَجَلَّ، فهي تورث الهداية والاعتبار، وتعزّز الصِّلة بالله عَزَّوَجَلَّ، وتؤثر في سلوك المكلف، وفي استقامة سيره إلى مولاه جَلَّوَعَلَا، حيث تكون غاية كدحه في الحياة: ما يرضي الله عَزَّوَجَلَّ، فيسير وفق ما شرع من عبادات ومعاملات وأخلاق، فيستقيم حاله، ويثمر عمله، مدركًا الغاية من الوجود في الحياة الدنيا، ومؤمنًا بالبعث والانتقال إلى الآخرة.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ٦﴾ [الانشقاق:٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ١٨ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ١٩﴾ [الإسراء:١٨-١٩].

---

(١) الفائق في غريب الحديث والأثر (٢/٢٩)، وانظر: الكشاف (١/٣٧٨).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ۝٢٠﴾ [الشورى: ٢٠].

وللربانية ثمرات عظيمة، فهي من أسباب التبصر بحقيقة الحياة الدنيا، ومعرفة الغاية الوجود، والاهتداء إلى الفطرة التي فطر الله عَزَّوَجَلَّ الإنسان عليها، والسلامة من الضلال والانحراف والتخبط، والتحرر من عبودية غير الله عَزَّوَجَلَّ، ومن الهوى والشهوات، ونزغات الشياطين، ومن الخضوع والاستسلام لمطالب النفس المادية، ورغباتها الشخصية، دون تشوف إلى المعاني السامية التي تضفيها صفة الربانية، من المحبة والإيثار، والتطلع إلى حسن الثواب في الآخرة، فهذه صفة العالم الرباني، العامل بما علم.

والمنهج الرباني يتميز بأنه ليس من صنع بشر تحكمه الأهواء والأعراف، والأزمان والبلدان، والبيئة المحيطة، وطبيعة النشأة، وليس نتيجة لإرادة حزب أو فئة، فهو لا يخضع لوجهة جهة من الناس تتفاوت آرائهم من زمن لآخر، ومن بلد لآخر، ومن اعتبار لآخر، بل هو منهج الله عَزَّوَجَلَّ الذي شرعه لعباده، وهو أعلم بما فيه صلاح حالهم في حياتهم الدنيا وفي مآلهم، ولا تبديل لكلماته.

ولا ريب أن ذلك المنهج الرباني ينعكس على سلوك الإنسان وسلوكه، فالأخلاق الإسلامية قد حدد المنهج الرباني أصولها التي تُكَوِّنُ معالمَ الشخصية الإسلامية التي لا تزال ترتقي في مدراج الكمال، ومعالي الأخلاق والآداب إذا سارت على ذلك النهج الرباني.

ثالثًا: إثبات الوحدانية لله عَزَّوَجَلَّ، والتحرر من العبودية لغيره:

إن من أعظم مقاصد القصص والأخبار في الكتاب والسنة: تحرير الإنسان من العبودية لغير الله عَزَّوَجَلَّ، وإثبات الوحدانية لله جَلَّوَعَلَا، قال الله عَزَّوَجَلَّ مبينًا المقصد الأعظم من بعثة الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٦﴾ [النحل:٣٦]، وقد دلت الآية على أن تجريد العبادة لله عَزَّوَجَلَّ وحده هو المقصد المشترك والأعظم الذي دعا إليه جميع الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وأن النظر والاعتبار سبيل إلى الهداية.

وقد قال كل رسول لقوله: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩]، فقد تكررت هذه الآية في سياق القصص في القرآن الكريم؛ لبيان القاسم الأهم والمشترك من بعثة الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وإن من أصول العقيدة، وأعظم أسباب النجاة: تحقيق التوحيد الخاص لله عَزَّوَجَلَّ، واعتقاد أنَّ كُلَّ ما يصيب الإنسان من فتنة وبلاء إنما هو بقضاء الله عَزَّوَجَلَّ وقَدَرِه.

فلا بُدَّ من تجريد التوحيد لله عَزَّوَجَلَّ، والترحل بالفكر في الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم، والعلم بأن كل شيء لا يضر ولا ينفع إلا بإذن الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ

لِفَضۡلِهِۦۚ﴾ [يونس:١٠٧]، وقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لعبد الله بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك**»(١)، فإذا جرَّدَ العبدُ التوحيدَ فقد خرج من قلبه خوفُ ما سواه، وكان عدوُّه أهونَ عليه من أن يخافه مع الله عَزَّوَجَلَّ، بل يفرد الله عَزَّوَجَلَّ بالمخافة، ويرى أن إعماله فكره في أمر عدوه، وخوفه منه، واشتغاله به من نقص توحيده، وإلا فلو جرَّدَ توحيدَه لكان له فيه شغل شاغل، والله عَزَّوَجَلَّ يتولَّى حفظه، والدفع عنه؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ يدافع عن الذين آمنوا.

فالتوحيد حصن الله عَزَّوَجَلَّ الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين، قال بعض السلف: من خاف الله عَزَّوَجَلَّ خافه كل شيء، ومن لم يخف الله عَزَّوَجَلَّ أخافه الله عَزَّوَجَلَّ من كل شيء.

وقال ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ: "الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ هو أعظم الفساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، ومخالفة أمره. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٤١﴾ [الروم:٤١]، قال عطية (٢) في الآية: ولا تعصوا في الأرض فيمسك الله عَزَّوَجَلَّ المطر،

(١) أخرجه أحمد [٢٦٦٩]، والترمذي [٢٥١٦]، وقال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: أبو يعلى [٢٥٥٦]، والحاكم [٦٣٠٣]، وقال: "هذا حديث كبير عال من حديث: عبد الملك بن عمير، عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا"، وأخرجه أيضًا: الضياء [١٣].

(٢) انظر: الكشف والبيان، للثعلبي (٤/٢٤٠)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، للواحدي (٣٧٧/٢)، تفسير البغوي (١٩٩/٢)، الخازن (٢١١/٢).

ويهلك الحرث بمعاصيكم. وقال غير واحد من السَّلف: إذا قحط المطر فالدواب تلعن عصاة بني آدم فتقول: اللهم العنهم فبسببهم أجدبت الأرض، وقحط المطر. وبالجملة فالشرك والدعوة إلى غير الله عَزَّوَجَلَّ وإقامة معبود غيره، أو مطاع متبع غير الرسول صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولأهلها إلا أن يكون الله عَزَّوَجَلَّ وحده هو المعبود، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسول الله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فإن أمر بمعصيته فلا سمع ولا طاعة، فإن الله عَزَّوَجَلَّ أصلح الأرض برسوله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ودينه، وبالأمر بالتوحيد، ونهى عن فسادها بالشرك به، ومخالفة رسوله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

ومن تدبَّر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه: توحيد الله عَزَّوَجَلَّ، وعبادته، وطاعة رسوله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. وكل شَرٍّ في العالم وفتنة وبلاء وقَحْط وتسليط عدو وغير ذلك؛ فسببه: مخالفة الرسول صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والدعوة إلى غير الله عَزَّوَجَلَّ. ومن تدبر هذا حق التدبر وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه وفي غيره عمومًا وخصوصًا -ولا حول ولا قوة إلا بالله-" (١). وقال ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ في موضع آخر: "والشرك أعظم الفساد، كما أن التوحيد أعظم الصلاح، فأصل الصلاح: التوحيد والإيمان، وأصل الفساد: الشرك والكفر" (٢).

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/٢٤-٢٥)، وانظر: بدائع الفوائد، لابن القيم (٣/١٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١٨/١٦٢).

والإيمان: قول وعمل ونية، فلا بدَّ من الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، ولا بدَّ من العمل بما أمر، ومن البعد عما نهى، ومن النية والاحتساب والاستقامة والثبات.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والمشهور عن السلف وأهل الحديث أن الإيمان: قول وعمل ونية، وأن الأعمال كلها داخلة في مسمى: (الإيمان)" [١].

وأعظم أسباب النَّجاة والأمن والسعادة: تحقيق التوحيد الخاص لله عَزَّوَجَلَّ، الذي هو حَقُّ الله عَزَّوَجَلَّ على العبيد، والبعد عن البدع والضَّلالات، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨٢].

والمراد بالظلم ها هنا: الشرك؛ لما جاء في (الصحيح): أن الآية لما نزلت شقَّ على أصحاب رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وقالوا: أَيُّنَا لا يَظْلِمُ نفسَه؟ فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**ليس هو كما تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هو كما قال لُقْمَانُ لابنه:** ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣]» [٢].

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أنه قال: قيل يا رسول الله: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن**

---

(١) جامع العلوم والحكم (١٠٤/١)، وانظر: الكواكب الدراري، لشمس الدين الكرماني (٧٦/١)، الكشف والبيان، للثعلبي (٢١٣/٣)، تفسير سفيان الثوري (ص:١٥)، الأحكام الشرعية الكبرى، لابن الخراط (٩٥/١)، الحاوي الكبير، لأبي الحسن الماوردي (٣١٤/١٥).

(٢) صحيح البخاري [٣٢، ٤٦٢٩، ٦٩٣٧].

هذا الحديث أحد أول منك؛ لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة: من قال: لا إله إلا الله، خالصًا من قلبه، أو نفسه» (١).

وقد عبد ناس الشجر والحجر، وعبد آخرون الشمس والقمر...إلى غير ذلك.

فإذا خلا القلب من الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، اشتغل بالإيمان بسواه من العبودية للمخلوق أو الهوى؛ فإنَّ الهوى إلهٌ يعبدُ من دون الله عَزَّوَجَلَّ، وما ترك الطريق المستقيم من تركه إلَّا لأنه قد اتبع هواه، فالعقل البشري لا يمكن أن يخلو من الشَّيء وضدِّه، فإذا خلا من الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ اشتغل تلقائيًّا بالإيمان بسواه، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان:٤٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية:٢٣]. ويقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**تعس عبد الدينار، والدرهم، والقطيفة، والخميصة**» (٢).

والقرآن يشير إلى هذا المعنى في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢]، أي: أنَّه لا فراغ، ولا يمكن أن يرتفع النقيضان. إما إيمان بالله عَزَّوَجَلَّ أو إيمان بسواه. وقد قال النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا**» (٣).

---

(١) أخرجه البخاري [٩٩، ٣٣٦٠، ٣٤٢٨، ٣٤٢٩، ٤٦٢٩، ٤٧٧٦، ٦٩١٨، ٦٩٣٧]، مسلم [١٢٤].

(٢) صحيح البخاري [٢٨٨٦، ٢٨٨٧].

(٣) صحيح مسلم [٥٥٦].

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (النونية):

هربوا من الرِّق الذي خلقوا له ... فبلو برقِّ النَّفس والشَّيطان

لا ترض ما اختاروه هم لنفوسهم ... فقد ارتضوا بالذل والحرمان

لو ساوت الدنيا جناح بعوضة ... لم يسق منها الرب ذا الكفران (١)

إنَّ الإنسان إن لم يكن مستجيبًا لله عَزَّوَجَلَّ ولرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو متبعٌ للهوى، وليس هناك منزلة بين المنزلتين، ولا طريقٌ بين الطريقين. فإمَّا أن تتبعَ الحقَّ، أو تتبعَ الهوى، فقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ الخطأ واتباع الهوى قرينين، وجعل الصواب ومخالفة الهوى قرينين.

وأحد الأمرين يرفع صاحبه، والآخر يهوي به -كما قال الله عَزَّوَجَلَّ:- ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف:١٧٦].

إنَّ اتباع الهوى يتناقض مع سلوك طريق الحق والعدل؛ فإن أساس العدل: اتباع الحق، وهو سببٌ لمحبة الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنه جَلَّ وَعَلَا يحبُّ المقسطين. وفي المقابل فإنَّ اتباع الهوى سببٌ للضلال عن سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، والضلالُ سببٌ في العذاب الشديد يوم القيامة. يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص:٢٦]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ [النساء:١٣٥].

---

(١) متن القصيدة النونية (ص:٣٠٨).

رابعًا: إثبات الوحي والرسالة:

يعلم من قصص القرآن الكريم أيضًا: صِحَّة ما جاء به النبي الخاتم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واتصال الرسالات السماوية، ودعوتها الواحدة -كما تقرر في غير موضع-، فيصدق كل رسول من كان قبله، وقصص القرآن الكريم فيها تأكيد لما في كتب أهل الكتاب قبل أن يطالها التحريف والتغيير والتبديل، ففيها تصدق لما سبق، وتصحيح لما فيها من أخطاء، وقد تكفل الله عَزَّ وَجَلَّ بحفظ آيات القرآن حيث كان آخر رسالات السماء.

وإن القصص والأخبار فيها دلالة بينة على إثبات الوحي والرسالة، ويستدل على ذلك بأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، ولم يتعلم من أحد من البشر، وكان في أمية، وذلك من أعظم دلائل نبوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه أتى بالعلوم الجمة، من الإخبار عن المغيبات، وقصص الغابرين، وغير ذلك، من غير قراءة ولا كتابة، وقد دلت الآثار، وقامت الدلائل والشواهد على صدق تلك الأخبار.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٤٨ بَلْ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَۚ﴾ [العنكبوت:٤٨-٤٩]، أي: ما كنت قرأت الكتُب، ولا كُنْتَ كاتبًا، وكذلك أنزلنا إليك الكتاب، والحال أنك أمي ما كنت تتلو من قبله من كتاب، ولا تخطه بيمينك، بل ذلك الإنزال معجزة خارقة للعادات، وهي كونها في نفسها آيات بينات؛ لبلاغتها وفصاحتها، وكونه اختص بأن حوفظ عليه في صدور العلماء دون سائر الكتب. وكذلك صفة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

عندهم في التوراة والإنجيل، كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن ذلك بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة:٢]، وقد تقدم بيان قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ**».

وفي (صحيح الإمام البخاري رَحِمَهُٱللَّهُ): عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في التوراة؟ قال: «**أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥﴾ [الأحزاب:٤٥]، **وحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أنت عبدي ورسولي، سَمَّيْتُكَ: المتَوَكِّلَ، ليس بِفَظٍّ ولا غَلِيظٍ، ولا سَخَّابٍ في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يُقِيمَ به المِلَّةَ العَوْجَاءَ، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أَعْيُنًا عُمْيًا، وآذَانًا صُمًّا، وقُلُوبًا غُلْفًا**» (١).

وقال جَلَّوَعَلَا في بيان ما يفيد تحقيق النبوة، وإقامة الحجة عليهم لما يأتيهم به مما أخفوا منه: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٤٤﴾ [آل عمران:٤٤].

---

(١) صحيح البخاري [٢١٢٥، ٤٨٣٨].

قال أبو إسحاق الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي: الأخبار التي قصصناها عليك في زكريا ويحيى ومريم وعيسى عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ من أنباء الغيب، أي: من أخبار ما غاب عنك، وفي هذا دليل على تثبيت نبوّة النَبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه أنبأ بما لا يعلم إلا من كتاب أو وحي، وقد أجمعوا أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أميًّا، فإنباؤه إياهم بالأخبار التي في كتبهم على حقيقتها من غير قراءة الكتب دليل على أنه نبي، وأن الله عَزَّ وَجَلَّ أوحى إليه بها" (١).

وقال جار الله الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإن قلت: لم نفيت المشاهدة وانتفاؤها معلوم بغير شبهة؟ وترك نفي استماع الأنباء من حفاظها وهو موهوم؟ قلت: كان معلومًا عندهم علمًا يقينًا أنه ليس من أهل السماع والقراءة، وكانوا منكرين للوحي، فلم يبق إلا المشاهدة، وهي في غاية الاستبعاد والاستحالة، فنفيت على سبيل التهكم بالمنكرين للوحي، مع علمهم بأنه لا سماع له ولا قراءة. ونحوه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ [القصص:٤٤]، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ [القصص:٤٦]، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ﴾ [يوسف:١٠٢].." (٢).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وخلاصة الجواب: أن المراد من نفي المشاهدة: إثبات الحجة والاحتجاج على أهل الكتاب بطريق التقسيم الحاصر، ولا شك أن عدم السماع والقراءة محقق عند اليهود، وقد علموا ذلك علمًا يقينيًا لا شك فيه،

---

(١) معاني القرآن وإعرابه (١/٤١٠).

(٢) الكشاف (١/٣٦٢).

وإنما كانوا ينكرون الوحي فأريد إثبات المطلوب بطريق برهاني، فقيل: طريق العلم فيما أنبئكم به، إما السماع والقراءة، وإما الوحي والإلهام، وإما الحضور والمشاهدة، فالأولان منفيان عندكم، بقي الثالث، فنفى تهكمًا بهم، وإنما خص هذه دون الأولى؛ للتهكم؛ لأنه لو نفى الأولى لم يكن من التهكم في شيء؛ لمجال الوهم فيه دونه" (١).

ونحوه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِىۖ﴾ [البقرة: ١٣٣]، فهو من باب التقسيم الحاصر (٢).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف:١٠٢]. وفي ذلك أيضًا احتجاج على صحة نبوة محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بإخباره بالغيوب؛ فإن قوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ [يوسف:١٠٢] الخطاب فيه للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ لتأكيد حجته.

قال أبو إسحاق الزجاج رَحِمَهُٱللَّهُ: "هذا خطاب للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، المعنى: الذي قصصنا عليك من أمر يوسف عَلَيْهِٱلسَّلَامُ وإخوته من الأخبار التي كانت غائبة عنك. فأنزلت عليه؛ دلالة على إثبات نبوته، وإنذارًا وتيسيرًا بتفصيل قصص الأمم السالفة" (٣).

---

(١) حاشية الطيبي على الكشاف (٤/١٠٦-١٠٧).

(٢) انظر: حاشية الطيبي على الكشاف (٣/١٠٦)، الكشاف (٢/٥٠٧).

(٣) معاني القرآن وإعرابه (٣/١٣٠).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المعنى: أن هذا النبأ غيب لم يحصل لك إلا من جهة الوحي؛ لأنك لم تحضر بني يعقوب حين أجمعوا أمرهم، وهو إلقاؤهم أخاهم في البئر، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ﴾ [يوسف:١٥]، وهذا تهكم بقريش وبمن كذبه؛ لأنه لم يخف على أحد من المكذبين أنه لم يكن من حملة هذا الحديث وأشباهه، ولا لقي فيها أحدًا، ولا سمع منه، ولم يكن من علم قومه، فإذا أخبر به، وقص هذا القصص العجيب الذي أعجز حملته ورواته، لم تقع شبهة في أنه ليس منه، وأنه من جهة الوحي، فإذا أنكروه تهكم بهم. وقيل لهم: قد علمتم يا مكابرة أنه لم يكن مشاهدًا لمن مضى من القرون الخالية" (١).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله: (وهذا تهكم بقريش)، يعني: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾ [يوسف:١٠٢] الآية، وذلك أنه صلوات الله عليه أخبرهم بهذه القصة العجيبة التي عجزت عنها رواته من غير أن يخرم منها حرفًا، فصدقوه في ذلك، مع استمرارهم على إنكار الوحي، فخوطب به صلوات الله عليه معرضًا بهم على سبيل التهكم، استركاكًا لعقولهم، وإليه الإشارة بقوله: (يا مكابرة)، يعني: أيها المكابرون، إنه لم يخف عليكم أنه لم يكن من حملة هذا الحديث، ولا لقي فيها أحدًا، ولا سمع منه، ولم يكن من علم قومه، ولم يكن مشاهدًا لذلك أيضًا، فلم يبق إلا الوحي، فإذا أنكرتم الوحي لزم أنكم لم تصدقوه فيما صدقتموه، وإليه الإشارة بقوله: (فإذا أنكروه)،

---

(١) الكشاف (٢/٥٠٧).

أي: الوحي، (تهكم بهم)؛ لأنه لزمهم نفي ما أثبتوه؛ فإن التهكم ينتزع من نفس التضاد.

وأحسن منه قول القاضي البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من نبأ يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والخطاب للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو مبتدأ، وقوله: ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ خبران له، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ﴾ الآية: كالدليل عليهم، والمعنى: أن هذا النبأ غيب لم تعرفه إلا بالوحي؛ لأنك لم تحضر إخوة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين عزموا على ما هموا به من أن يجعلوه في غيابة الجب، وهم يمكرون به، وبأبيه؛ ليرسله معهم، ومن المعلوم الذي لا يخفى على مكذبيك أنك ما لقيت أحدًا سمع ذلك، فتعلمه منه، وإنما حذف هذا الشق؛ استغناء بذكره في غير هذه القصة، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود:٤٩]" (١).

ويقال في قصص القرآن الكريم ما قيل في عموم آياته، من حيث بلاغة الألفاظ، ودقة المعاني، وقد قامت الدلائل والشواهد على صدق الأخبار في القرآن الكريم، وصحيح السنة، ومطابقتها للواقع، فالسنة من وحي الله عَزَّ وَجَلَّ إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ [النجم:٤-٥].

---

(١) حاشية الطيبي على الكشاف (٨/٤٤٣)، تفسير البيضاوي (٣/١٧٧-١٧٨).

والقرآن الكريم محكم التنزيل، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كما قال المولى جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾ [فصلت:٤١-٤٢].

فما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ به من القصص وغيرها في كتابه المنزل فهي حق لا مرية في ذلك، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ﴾ [آل عمران:٦٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ۝٨٧﴾ [النساء:٨٧].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ۝١٢٢﴾ [النساء:١٢٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف:٣].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ﴾ [آل عمران:٤٤].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ﴾ [الأعراف:١٠١].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾ [هود:٤٩].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ۝٩٩﴾ [طه:٩٩].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف:١١١].

فما كان هذا القرآن حديثًا مختلقًا، ولكنه تصديق للكتب السماوية التي قبله، وفيه تفصيل لكل ما يحتاج إليه المكلفون، من حيث إنه مصدر التشريع الأول، والقانون الذي يستند إليه في التشريع، من أمور الدين من الحلال والحرام، والحجاج، والاعتبار؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ لم يفرط في الكتاب من شيء من الأحكام، والحدود، والقصص، والمواعظ والأمثال، وغير ذلك.

وقيل: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من واقعة يوسف عَلَيْهِٱلسَّلَامُ مع أبيه وإخوته.

قال الواحدي رَحِمَهُٱللَّهُ(١): وعلى التفسيرين فهو ليس على عمومه؛ لأن المراد به الأصول والقوانين وما يؤول إليها.

﴿وَهُدًى﴾ في الدنيا. ﴿وَرَحْمَةً﴾ في الآخرة. ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾؛ لأنهم هم المنتفعون بذلك.

ويستدل بالآثار على صحيح القصص والأخبار.

و(علم الآثار) من العلوم الهامة التي أغفلها المسلمون في عصرنا الحاضر، حتى تفوق غيرهم عليهم في هذا المجال، مع أن الاستدلال بالآثار على صحيح ما جاء من الأخبار مما يوثق المسموع منها بالدليل الحسي المشاهد.

---

(١) انظر: التفسير البسيط، لأبي الحسن الواحدي (١٢/٢٧٥- ٢٧٦)، غرائب القرآن (٤/١٣٣-١٣٤).

والاستقراء في التواريخ، والكتب المدونة، والمخطوطات، والآثار كل ذلك مما يوثق الأخبار، ويقوي الإيمان، ويزيد اليقين.

وما شاع في العصور المتأخرة من هدم الآثار بدعوى التقديس فهو من الجهل والتخلف؛ إذ إن رفع شوائب الشرك إنما يكون بالفكر والتوعية والتبصير، ومحاربة الجهل والتخلف، وليس بهدم الآثار التي هي من العلامات والأدلة على صدق الأخبار، وهي أيضًا من البواعث على التأمل والاعتبار لكل ذي بصيرة، وليس في الأمم المتحضرة من يهدم الآثار التي تدل على التاريخ والهوية.

خامسًا: إثبات البعث والجزاء:

ومن مقاصد القصص في القرآن والسنة إثبات البعث والجزاء في الآخرة؛ ليتحقق الإيمان باليوم الآخر الذي هو أحد أركان الإيمان، ومبانيه العظام، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء:١٣٦].

وفي الحديث: قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره**» رواه الشيخان.

وفي لفظ عندهما: «**الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ولقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث الآخر**».

وروى الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره حديث: «**لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه**»(١).

وعن رِبْعِيّ بن حِرَاشٍ عن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، وبالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر**»(٢).

ومن قصص القرآن الكريم التي وردت في سياق إثبات البعث والجزاء: قوله جَلَّ وَعَلَا في قصة بقرة بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟

---

(١) أخرجه الترمذي عن جابر [٢١٤٤]، وقال: "هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث: عبد الله بن ميمون، وعبد الله بن ميمون منكر الحديث. كما أخرجه ابن جرير: عن جابر". ولكن الحديث قد ورد مفرقًا في أحاديث.

(٢) أخرجه الطيالسي [١٠٨]، وأحمد [٧٥٨]، وعبد بن حميد [٧٥]، وابن ماجه [٨١]، والترمذي [٢١٤٥]، وقال: "حدثنا محمود بن غيلان قال: حدثنا النضر بن شميل، عن شعبة، نحوه، إلا أنه قال: ربعي، عن رجل، عن علي. حديث أبي داود، عن شعبة عندي أصح من حديث النضر، وهكذا روى غير واحد، عن منصور، عن ربعي، عن علي، حدثنا الجارود، قال: سمعت وكيعًا، يقول: بلغنا أن ربعيا لم يكذب في الإسلام كذبة" اهـ. وأخرجه أيضًا: ابن أبي عاصم في (السنة) [١٣٠]، والبزار [٩٠٤]، وأبو يعلى [٥٨٣]، وابن حبان [١٧٨]، والحاكم [٩٠] وصححه، ووافقه الذهبي. كما أخرجه: تمام [١٤٤٢]، والبيهقي في (القضاء والقدر) [١٨٩]، والضياء [٤٤٠].

بَقَرَةًۖ﴾ [البقرة:٦٧]، إلى قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٧٣﴾ [البقرة:٧٣].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ في قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْۚ﴾ [البقرة:٢٤٣].

وقال جَلَّوَعَلَا مخبرًا عن استدلال إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ على إثبات المعاد، وإقامة الحجة على منكريه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٥٨ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٥٩﴾ [البقرة:٢٥٨-٢٥٩].

وقال جَلَّوَعَلَا في قصة أصحاب الكهف: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ﴾ [الكهف:١٩].

سادسًا: تثبيت فؤاد النبي ﷺ، وأمته:

إن من أهم مقاصد القصص والأخبار: تثبيت فؤاد النبي ﷺ وتسليته، وحمله على الصبر على مشاق الدعوة، كما صبر أولو العزم من الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وتثبيت قلوب المؤمنين على سلوك طريق الدعوة، وتحمل المشاق، والصبر على الابتلاء، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود:١٢٠].

ومن المواساة المتجددة: ما ذكره الله عَزَّ وَجَلَّ في القرآن من قصص الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، حيث صبروا على مشاق الدعوة والتبليغ، وما كانوا يلقونه من الإيذاء.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥]، أي: على تكذيب قومهم لهم. والمراد بأولى العزم: ما ذكر في كل من سورتي: الأحزاب، والشورى.

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب:٧].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَاۚ﴾ [الأنعام:٣٤]، ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ [آل عمران:١٨٤].

ويستفاد من قصص القرآن الكريم: أن الله عَزَّ وَجَلَّ لا يتخلى عن رسله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ولا عن أتباعهم، ولكن تأخر النصر له أسباب ومقاصد، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا

ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾ [يوسف:١١٠]. ومن أسباب تأخر النصر قد تكون بسبب التمحيص والابتلاء، وهي سنة الله عَزَّوَجَلَّ في المكلفين، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣﴾ [العنكبوت:١-٣]، فالفتنة والابتلاء هما الميزان الذي يميز الصادق عن الكاذب، وأشد الناس بلاء الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ ثم الأمثل فالأمثل، وزيادة البلاء مع الصبر والاحتساب هو دأب الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ ومن سار على نهجهم، وهو من أسباب رفعة الدرجات، وعلوم المنزلة في الجنة.

وفي قصص القرآن تثبيت للمؤمنين، وتسلية لهم بأن ما أصابهم من شدة وبلاء إنما هو سنة جارية على أصحاب الحقِّ في كل زمان ومكان، فإذا كان الرسل والأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ قد أصابهم ما أصابهم من البلاء والشدة، وهم صفوة الله عَزَّوَجَلَّ من خلقه، فلم تكن حياتهم رغدًا ولا نعيمًا وإنما كانت صبرًا وجهادًا وتحملًا لكل أنواع العذاب. فإذا جرى هذا على صفوة الخلق، فلن يتخلف على من دونهم ممن يسير على نهجهم، فقد يتعرض أتباع الرسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ للشدائد لا لتقصير منهم، ولكن لجريان سنة الله عَزَّوَجَلَّ في الابتلاء والتمحيص، ولأن في أهل الباطل أو في نسلهم أناس سيكونون من أهل الحقِّ، فيكون الصبر على الشدة سببًا لاكتمال الدين.

وكم خرج في الإسلام من فرسان خاضوا معارك في المشرق والمغرب مع الكفر وأهله في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، ونصرة لدينه، وقد تأخر إسلامهم، وكانوا من قبل يحاربون الإسلام، وينكلون بأهله.

وقد كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حريصًا كل الحرص على هداية الناس، فكانت بعثته رحمة للعالمين، وكان شديد الشفقة على الناس أجمعين، حتى خاطبه ربه جَلَّ وَعَلَا بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف:٦]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء:٣].

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والمراد: بيان حرصه على إسلام قومه وتهالكه عليه، وأنه لو استطاع أن يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها؛ رجاء إيمانهم" (١).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝١٢٨﴾ [التوبة:١٢٨].

ومن شأن المؤمن أن يكون حريصًا على هداية الناس، ودعوتهم إلى الخير، وأن يتحمل في سبيل الكثير من المشاق.

إن المؤمن يريد للناس الهداية والخير والرشاد، وهو يدعوهم بقلب مشفق، وبرفق ولين؛ فإن السمات الأخلاقية أعظم سلاح.

---

(١) الكشاف (٢/١٩).

ويحرص المنهج الإسلامي في الدعوة البحث عن أدنى وسيلة لإدخال الناس في دين الله عَزَّوَجَلَّ، بينما يبحث الغلاة للمسلم عن أدنى شبهة لإخراجه من دين الله جَلَّوَعَلَا.

فمن شأن المسلم أن يحرص على تشجيع الناس وترغيبهم في الإسلام والتآلف والمحبة والتعاضد والتعاون، ومن شأن الغلاة البحث والتنقير عن شبهات منفرة وصادة.

وفي (الصحيح) قال عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كأني أنظر إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يحكي نبيًّا من الأنبياء، ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**» (١).

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قسم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غنائم حنين بالجعرانة، قال: فازدحموا عليه، قال: فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ عبدًا من عباد الله بعثه الله** عَزَّوَجَلَّ **إلى قومه، فكذبوه وشجوه، فجعل يمسح الدم عن جبينه، ويقول: رب اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون**». قال: قال عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فكأني أنظر إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمسح جبهته، يحكي الرجل (٢).

---

(١) صحيح البخاري [٣٤٧٧، ٦٩٢٩]، مسلم [١٧٩٢].

(٢) أخرجه أحمد [٤٠٥٧]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٧٥٧]، كما أخرجه البخاري في (صحيحه) [٣٤٧٧] مختصرًا، وكذلك مسلم [١٧٩٢]. وأخرجه أيضًا: أبو يعلى [٥٠٧٢].

وفي (الصحيح) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حدثته أنها قالت للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: «**لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال؛ لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي، ثم قال: يا محمد، فقال، ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئًا**» (١).

ولتثبيت قلب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صور متعددة ذكرتها مفصلة في الجزء الأول من كتاب: (تذكرة وبيان من علوم القرآن).

---

(١) صحيح البخاري [٣٢٣١]، مسلم [١٧٩٥]. و«الأخشبين» هما: جبلا مكة أبو قبيس، والجبل الذي يقابله.

سابعًا: الاقتداء بأئمة الهدى والاعتبار بحال أهل الضلال ومآلهم:

إنَّ للقدوة أثرًا في تحديد وجهة الإنسان في فكره وسلوكه؛ ولذلك فإن القدوة الحسنة تهدي إلى الحقِ، وإلى البرِّ والتقوى، والصَّلاح والإصلاح، كما أنَّ للقدوة السَّيئة من الأثرِ في الشَّرِّ والإفسادِ والضَّلال والإضلال ما لا يخفى على أولي البصائر.

ويوصف الإمام بأنه أُسوة وقدوة للمأمومين، فإذا كان إمامًا في الخير والصلاح أثَّر في أتباعه، فأثمر الاقتداءُ والتأسي: قيمًا وأخلاقًا واستقامة، وإذا كان إمامًا في الشَّر أثَّر فيهم، فأورث انحرافًا وضلالًا عن الحقِّ.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء:٧٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة:٢٤].

وفي المقابل: قال الله عَزَّوَجَلَّ في بيان حال أهل الضلال ومآلهم: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص:٤١-٤٢]. فهم يقودون أتباعهم إلى النار، ويضلونهم عن سواء السبيل.

ولذلك فإن من أهم مقاصد القصص والأخبار في الكتاب والسنة الاقتداء بأئمة الهدى. وخير أسوة للنَّاس في الخير والاستقامة هم الرسل عَلَيْهِمُ‌ٱلسَّلَامُ، كما بيَّن الحق جَلَّوَعَلَا في الآيات التالية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ [الأنعام:٩٠].

فهؤلاء هم القدوة النافعة التي تهدي إلى سواء السبيل، إلى صراط العزيز الحميد.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤]، أي: قد كان لكم أيها المؤمنون أُسوة حسنة في إبراهيم خليل الرحمن عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، تقتدون به، والذين معه من أنبياء الله عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ [الممتحنة:٦].

وخير الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ هو النبي محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وخير سيرة هي سيرته صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وخير الهدي هديه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب:٢١]؛ ولذلك فإن أعظم مقصد من مقاصد القصص والأحاديث والأخبار والسير: تحقيق الاقتداء بسنَّة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في أخلاقه، وآدابه، ونوافله وتطوعاته، وأكله وشربه، ولباسه، وحسن معاشرته للناس، وغير ذلك من آدابه الكاملة، وأخلاقه الطاهرة، والاعتناء بمعرفة سيرته وأيامه، إلى غير ذلك.

وقد قيدت الأسوة في الآيات السابقة بكونها حسنة؛ احترازًا عن القدوة السيئة التي هي من أهم أسباب الضلال، ومعوقات الهداية، ومن أسباب التطرف في الفكر والسلوك. وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام:٣٤]. قال الحافظ

ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي: من خبرهم كيف نصروا وأيدوا على من كذبهم من قومهم، فلك فيهم أسوة، وبهم قدوة" (١).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٨٩-٩٠].

وقد ضلَّ كثيرون بسبب اقتفائهم لآثار فلاسفة قد حادوا عن الحق، فكثرت أقوالهم، وتباينت مناهجهم، وتأثر أتباعهم، فعاشوا في تخبط وضلال، وأعرضوا عن منهج الله عَزَّوَجَلَّ، وصراطه المستقيم، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:١٥٣].

وقد جاء في القرآن الكريم بيان عاقبة أهل ومن تبعهم وسار على نهجهم: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ﴾ [النحل:٢٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت:١٢-١٣].

والأمة بأمسِّ الحاجة إلى القدوة الحسنة. وأعظم قدوة للناس رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ -كما تقدم-، ثم وُرَّاثُ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من الصَّحابة والتَّابعين والسَّلف الصالح، ومن سار على هديهم، واقتفى أثرهم، ودعا إلى هذا الدين، وهو

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/٢٥٢).

على بصيرة وبينة من العلماء الصالحين، والقادة المخلصين.. فهم بناة الأجيال الحقيقيون، والهداة إلى سواء السبيل.

وقد جاء في قصص القرآن الكريم بيان عاقبة المكذبين ممن ضلَّ وأعرض عن الهداية، ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام:٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنفال:٥٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس:١٣-١٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس:٩٠-٩٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ

فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةً يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ۝٤١ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ۝٤٢﴾ [القصص:٣٨-٤٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ۝٤٣﴾ [القصص:٤٣].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ۝٢١﴾ [غافر:٢١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ﴾ [السجدة:٢٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ۝١٣٦ وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝١٣٨﴾ [الصافات:١٣٦-١٣٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٥٥ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ۝٥٦﴾ [الزخرف:٥٥-٥٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٢٧﴾ [الأحقاف:٢٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ۝٩ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ

فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر:٦-١٤].

والآيات في ذلك كثيرة، وقد بينت أن سبب هلاكهم هو تكذيبهم للرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، وإعراضهم عن الهداية، ومن أعظم أسباب الهلاك: الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، والظُّلم والطُّغيان، والتَّقليد الأعمى.. إلى غير ذلك.

وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بالنظر في الأدلة، والاعتبار بحال الأمم الغابرة، فقال: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر:٢].

قالوا: والاعتبار ردُّ الشيء إلى نظيره بأن يحكم عليه بحكمه؛ ولذا سمي الأصل الذي تردُّ إليه النظائر عبرة، وهذا يشمل: الاتعاظ، والقياس العقلي والشرعي، وسوق الآية للاتعاظ، فتدل عليه عبارة وعلى القياس إشارة فلا ينافي كونه دليلًا على حجية القياس" (١)؛ لأنَّ الاتِّعاظ يكون ثابتًا بطريق المنطوق مع أنَّ سياق الكلام له، والقياس بطريق المنطوق من غير أن يكون سياق الكلام له. سلمنا أنَّ الاعتبار هو الاتِّعاظ لكن يثبت القياس دلالة، و(العبرة لعموم اللَّفظ لا لخصوص السَّبب).

قال ابن عابدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فسِّر الاعتبار بالتَّأمل، وإن كان المراد منه -والله أعلم-: ردَّ أنفسنا إلى أنفسهم في استحقاق العقوبات عند مباشرة تلك الأسباب؛

---

(١) انظر: التوضيح في حل عوامض التنقيح (٢/١١٦)، تيسير التحرير (٤/١٠٨)، التقرير والتحبير (٣/٢٤٤)، شرح التلويح على التوضيح، للسعد التفتازاني (٢/١٠٨)، حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي (٨/١٧٥).

لأنَّ هذا الرَّد إنما يتحقَّق بالتَّأمل في أحوالهم، ولما كان التَّأمل هو المؤدي إلى هذا الردِّ جعل التَّأمل نفسه إقامة للسَّبب مقام المسبَّب" (١).

وتمام الكلام على ذلك في الكتب الأصولية.

ومن الآيات الدالة على الاعتبار وعلى بيان جريان سُنَّة الله عَزَّوَجَلَّ في المستقبل لكلِّ من عصى وفعل سوءًا كما كانت جارية في الماضي: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [فاطر:٤٣-٤٤]. وسيأتي ذكر آيات كثيرة دالَّة على الاعتبار في بيان (معرفة سنن الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الكون).

فتبين مما سبق أن من مقاصد القصص والأخبار: الاعتبار والاتعاظ بما حاق بالأمم السابقة من الظالمين ومن المكذبين الضالين، وأن العاقبة للمتقين، مهما طال ليل الظلم وأرخى سدوله، وامتدَّ رواقه.

ثامنًا: بيان أن ما جاء به الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يخرج من مشكاة واحدة:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ﴾ [البقرة:٩١].

---

(١) انظر: حاشية نسمات الأسحار على شرح إفاضة الأنوار على متن أصول المنار (ص:١٤٦-١٤٧).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران:٣-٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم﴾ [النساء:٤٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء:١٦٣-١٦٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ [المائدة:٤٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [المائدة:٤٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٣﴾ [النحل:١٢٣].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ [الحج:٧٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ﴾ [فاطر:٣١].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى:١٣].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٩].

وقال عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [آل عمران:٥٠].

وقال لقومه: ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٍ يَأۡتِى مِنۢ بَعۡدِى ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ [الصف:٦].

تاسعًا: معرفة سنن الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الكون:

ومن مقاصد القصص والأخبار في الكتاب والسنة: معرفة سنن الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الكون، ومن هذه السنن: نصر المؤمنين الصادقين ولو بعد حين، ونهاية الظالمين مهما امتد أمد الظلم، وطال ليله، فلا بدَّ للحقِّ في النهاية أن يعلو وينتصر، وللباطل من أن يضمحل ويندثر.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الرعد:١٧].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ٨١﴾ [الإسراء:٨١].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ﴾ [الأنبياء:١٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٤﴾ [الشورى:٢٤].

وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بالاعتبار بقصص السابقين، وما مضى فيهم من أمر الله عَزَّوَجَلَّ فقال: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٢﴾ [الحشر:٢]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ [يوسف:١١١]، وقد تقدم بيان الأمر بالاعتبار وآيات كثيرة دالة عليه.

وما من أمة مضت إلا وقد جاءها من يعظها ويذكرها بالله عَزَّوَجَلَّ، وينذرها من شديد عقابه للكافرين، ويبشرها بواسع رحمته وثوابه للمتقين.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤﴾ [فاطر:٢٤].

فقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ﴾ أهل عصر. ﴿إِلَّا خَلَا﴾ مضى.

﴿فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤﴾ من نبي أو عالم ينذر عنه، يقيم عليهم حجة الله عَزَّوَجَلَّ، ويقطع أعذار الخلق. والاكتفاء بذكره للعلم بأن النذارة قرينة البشارة.

وقال جَلَّ وَعَلَا في آية أخرى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١﴾ [الفرقان:١]. قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا

﴿١﴾: "على أن الناس إلى الإنذار والتخويف أحوج منهم إلى التبشير؛ لتماديهم في الغفلة، وإنهماكهم في الشهوات" (١).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء:١٦٣-١٦٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ﴾ [غافر:٧٨].

وقد تعاقبت الرسل عَلَيۡهِمُ‌ٱلسَّلَامُ مبشرين ومنذرين، وهم يدعون إلى عقيدة واحدة، ويبينون للناس ما يحتاجون إليه من أمور الدنيا والدين، وأيدهم بالدلائل القاطعة على صدقهم، وعلى أن ما يأتون به إنما هو من عند الله عَزَّوَجَلَّ القادر على إثابتهم وعقوبتهم، العالم بما في ضمائرهم، الذي لا تخفى عليه خافية من أسرارهم، فمن آمن بهم وعمل بما يرشدون إليه كان ناجيًا، ومن أعرض عن هديهم كان هالكًا، كما جاء بيان ذلك في آيات متعددة.

قال جَلَّوَعَلَا: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة:٢١٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٤٨﴾ [الأنعام:٤٨].

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٤/١٢٨٤).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ١٢﴾ [الليل:١٢] أي: إن علينا أن نظهر الحق ونعليه؛ ليتميز عن الباطل، وأن نبين الطاعة من المعصية، فلا يمكن للعقل البشري أن يستقل بمعرفة الهدى.

ومن رحمة الله عَزَّوَجَلَّ بعباده حين خلقهم أن أمدهم بما يهديهم إلى صراطه المستقيم الذي كلفهم بالاستقامة عليه، فزودهم بالفطرة التي ترشدهم إلى الحق، وتدلهم عليه.

ومن فضله جَلَّوَعَلَا على الإنسان أنه لم يتركه في الحياة يستهدي بما أودعه فيه من فطرة سليمة، تقوده إلى الخير، وترشده إلى البر فحسب، بل بعث إليه بين فترة وأخرى رسولًا يحمل من الله عَزَّوَجَلَّ كتابًا يدعوه إلى عبادة الله عَزَّوَجَلَّ وحده، ويبشر وينذر، ويصحح لهم عقائدهم، ويبشرهم إلى ما فيه الخير والصلاح لهم؛ ليقطع الأعذار في المحاسبة.

وما زال الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ يتتابعون حتى بعث الله عَزَّوَجَلَّ الرسول الخاتم صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وأنزل معه القرآن الكريم، فأكمل الله عَزَّوَجَلَّ به رسالته إلى الناس، فكان النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ خاتم الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، وكان القرآن خاتم الكتب السماوية.

وقبل الإسلام كانت الشرائع محلية ومرحلية، فعندما يتطور الواقع فتنسخ شريعة سابقة، يأتي رسول جديد بشريعة جديدة، لكن أما وقد بلغت الإنسانية سن الرشد، وشاء الله عَزَّوَجَلَّ ختم رسالات السماء جاءت الشريعة المحمدية لتقف عند الثوابت والأطر والقواعد والكليات، ومرونة النصوص تترك التجديد للفقه الإسلامي، فكم

هي الأحكام المستجدة التي لم يعرفها السلف؟ كذلك فإن الإعجاز ألوانه مختلفة ومتجددة، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣]، فأراد الله عَزَّوَجَلَّ لرسالة محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن تشرق على الوجود، فبعثه على فترة من الرسل؛ ليكمل صرح إخوانه الرسل السابقين عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ بشريعته العامة الخالدة، وكتابه المنزَّل عليه، وهو القرآن الكريم. وقد جاء في الحديث: «**إنَّ مَثَلِي ومَثَلَ الأنبياء من قَبْلِي، كمَثَل رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَه وأَجْمَلَه، إلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ من زاوِيَة، فجعلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ به، ويَعْجَبُونَ له، ويقولون هَلَّا وُضِعَتْ هذه اللَّبِنَة؟ قال: فأنا اللَّبِنَة وأنا خاتم النَّبِيِّين**» (١).

وقد بلَّغ كلُّ رسول ما أنزل إليه من ربه جَلَّوَعَلَا، ثم حمل الدعاة (أمانة التبليغ)، فكانوا وُرَّاثًا للرسل عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ، وحُرَّاسًا للدين، وموقِّعون عن الله عَزَّوَجَلَّ في خلقه، فبلغوا وبينوا رسالة الله عَزَّوَجَلَّ بأمانة، ودون كتمان، ولا تبديل، ولا إحداث، ولا تدليس، ولا مداهنة، وحمل الناس (أمانة التكليف).

فمن بدَّل في دين الله عَزَّوَجَلَّ، أو أحدث فيه ما ليس منه، أو نافق، أو داهن، أو كتم عند حاجة الناس إلى التبليغ والبيان، أو دلَّس على الناس وغشهم كان خائنًا لما أؤتمن عليه، ومن بلغته الرسالة فأعرض عن الاستجابة، واتبع هواه كان خائنًا لدينه.

---

(١) صحيح البخاري [٣٥٣٥]، مسلم [٢٢٨٦].

ومن بلغته الدعوة صحيحة، وطال عمره فقد أعذر غاية الإعذار، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر:٣٧]، فالآية توبيخ لهم، وإقامة للحجة عليهم. وقد قيل: إن مدة التذكير: ستون سنة. وقيل: أربعون. وقيل: البلوغ.

وفي (صحيح الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ): باب: (من بلغ ستين سنة، فقد أعذر الله عَزَّوَجَلَّ إليه في العُمُر)؛ لقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر:٣٧]: يعني الشيب. وفيه: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أَعْذَرَ اللَّهُ إلى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ، حتَّى بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً**» (١)، قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي: أعذر إليه غاية الإعذار، الذي لا إعذار بعده؛ لأن الستين قريب من معترك العباد، وهو سن الإنابة والخشوع والاستسلام لله عَزَّوَجَلَّ، وترقب المنية ولقاء الله جَلَّوَعَلَا، فهذا إعذار بعد إعذار في عمر ابن آدم؛ لطفًا من الله عَزَّوَجَلَّ لعباده حين نقلهم من حالة الجهل إلى حالة العلم، وأعذر إليهم مرة بعد أخرى، ولم يعاقبهم إلا بعد الحجج اللائحة المبكتة لهم، وإن كانوا قد فطرهم الله عَزَّوَجَلَّ على حب الدنيا، وطول الأمل، فلم يتركهم مهملين دون إعذار لهم وتنبيه، وأكبر الإعذار إلى بنى آدم بعثه الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ إليهم، واختلف السلف في تأويل قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر:٣٧]، فروي عن علي ابن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو قول ابن زيد، وجماعة. وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أنه الشيب. وحجة القول الأول: أن

---

(١) صحيح البخاري [٦٤١٩].

الله عَزَّوَجَلَّ بعث الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مبشرين ومنذرين إلى عباده؛ قطعًا لحجتهم، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [الإسراء:١٥]. ولقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن النذير: الشيب وجه يصح؛ وذلك أن الشيب يأتي في سن الاكتهال، وهو علامة لمفارقة سن الصبا الذي هو سن اللهو واللعب، فهو نذير أيضًا.." [١].

وقال سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لو رأيت رجلًا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مُصْفِحٍ عنه، فبلغ ذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**أتعجبون من غَيْرَةِ سَعْدٍ، والله لأنا أغير منه، والله أغير مني، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أَحَبُّ إليه العذر من الله** عَزَّوَجَلَّ، **ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين، ولا أحد أَحَبُّ إليه المِدْحَةُ من الله** عَزَّوَجَلَّ، **ومن أجل ذلك وعد الله** عَزَّوَجَلَّ **الجنة**» [٢].

فقوله: «**ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين**» إشارة إلى العذر. ومعناه: الإعذار للمكلفين. فمن رحمة الله عَزَّوَجَلَّ بعباده أنه لا يعذب أحدًا من خلقه إلا بعد إقامة الحجة عليه، وقطع عذره، فلا بدَّ أن تبلغه الدعوة، وأن تبلغه صحيحة، وأن يكون عنده أهلية للنظر فيها.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [الإسراء:١٥]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء:١٦٥]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَآ

---

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/١٥٢-١٥٣).

(٢) صحيح البخاري [٧٤١٦]، مسلم [١٤٩٩].

أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾﴾ [الشعراء:٢٠٨]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩].

وقد جاء الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بالعلامات البينة الدالة على صدق رسالتهم وصحتها، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [المائدة:٣٢]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد:٢٥].

ومن دَأْبِ أَهْلِ الباطل في كل عصر معاداة الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، والمجادلة بغير الحق، والاستهزاء والسخرية، وإيذاء الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وأتباعهم، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف:٥٦-٥٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام:٣٤]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ﴾ [الحج:٤٢-٤٤]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ [فاطر:٢٥-٢٦]، يقول تعالى ذكره مسليًا نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يلقى من مشركي قومه من التكذيب والشدة: وإن يكذبك يا محمد مشركو قومك

فقد كذب الذين من قبلهم من الأمم الذين جاءتهم رسلهم بحجج من الله عَزَّوَجَلَّ واضحة، وبالكتب من عند الله عَزَّوَجَلَّ التي تنير لهم طريق الحق.

ويعلم من قصص القرآن الكريم: أن سلوك البشرية على مسار التاريخ يتشابه، وأن حجج أهل الباطل تتشابه في كل زمان ومكان، وهي حجج واهية يتلقاها خلفهم عن سلفهم.

ويعلم كذلك أن سنة الله عَزَّوَجَلَّ واحدة، وهي جارية في كل زمان ومكان في حقِّ من كذَّب المرسلين، وهي الهلاك؛ لرفضهم شرعة الله عَزَّوَجَلَّ، ومنهاجه القويم، الذي حمل أمانة تبليغه الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وأتباعهم مذكِّرين ومبشِّرين ومنذرين، فأنفت نفوسهم الإذعان والاتباع جملة وتفصيلًا؛ كِبرًا، واستعلاء، وتماديًا في الباطل، بمعنى أن الإخلال بمبدأ التوحيد الذي دعا إليه جميع الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لم يكن هو السبب الوحيد لهلاك الأمم التي ذكرها الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه، فذكر القرآن الكريم سبب إهلاك قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، وسبب إهلاك قوم شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وسبب إهلاك عاد وثمود، فالقاسم المشترك في الإهلاك: الإخلال بالتوحيد، والتوغل في هدم القيم الأخلاقية، وطغيان الشهوة، وإنكار ما علم من الدين بالضرورة.

وقد يكون سبب تأخر النصر: كثرة الفساد في البر والبحر، وعدم اكتمال أسباب النصر.

وقد تقدم أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يتخلى عن رسله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ولا عن أتباعهم، ولكن تأخر النصر له أسباب ومقاصدكما تقدم أن الفتنة والابتلاء هما الميزان الذي يميز الصادق عن الكاذب.

وفي قصص القرآن تثبيت للمؤمنين، وتسلية لهم بأن ما أصابهم من شدة وبلاء إنما هو سنة جارية على أصحاب الحقّ في كل زمان ومكان، فإذا كان الرسل والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قد أصابهم ما أصابهم من البلاء والشدة، وهم صفوة الله عَزَّوَجَلَّ من خلقه، فلم تكن حياتهم رغدًا ولا نعيمًا وإنما كانت صبرًا وجهادًا وتحملًا لكل أنواع العذاب. فإذا جرى هذا على صفوة الخلق، فلن يتخلف على من دونهم ممن يسير على نهجهم.

وقد تقدم بيان ذلك في ذكر (تثبيت فؤاد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمته).

وقد وعد الله عَزَّوَجَلَّ المؤمنين بالنصر والتمكين، وبين في غير آية أن العاقبة للمتقين فقال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس:١٣-١٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يونس:١٠٢-١٠٣].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ١٣٧﴾ [الأعراف:١٣٧].

وبشر الله عَزَّوَجَلَّ المؤمنين بحسن العاقبة أيضًا في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ [الروم:٤٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤﴾ [البقرة:٢١٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ١٤﴾ [إبراهيم:١٣-١٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾ [يوسف:١١٠].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ [الأنبياء:٨٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾ [الأنبياء:١٠٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [القصص:٥-٦].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر:٧٤].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر:٥١].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة:٢١].. إلى غير ذلك من الآيات.

وقال في فرعون وقومه مما بغى وظلم: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف:١٣٧].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ﴾ [الإسراء:١٦-١٧].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحج:٤٢-٤٥].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج:٤٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾ [الفرقان:٣٦-٤٠].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الشعراء:١٧٢-١٧٣].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ۗ﴾ [النمل:٥١-٥٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات:١٣٦-١٣٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت:١٥-١٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾﴾ [محمد:١٠].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾ [الحاقة:٥-١٠] ....

إلى غير ذلك من الآيات، وقد تقدم ذكر كثير منها.

فمن سلك طريق المتقين فقد وعده الله عَزَّوَجَلَّ بالحياة الطيبة وحسن العاقبة، ومن بغى وتكبر وسلك سبيل فرعون وهامان وقارون وقوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الأيكة وقوم تبع وغيرهم مما أعرض وظلم وتكبر فإن سنة الله عَزَّوَجَلَّ جارية فيهم كما جرت فيمن قبلهم، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾﴾ [محمد:١٠].

وأصحاب البصائر يعتبرون بأحوال السابقين، ويهتدون بآيات الله عَزَّوَجَلَّ، وينظرون في سننه الماضية في هذا الكون، والتي لا تبديل لها، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران:١٣٧].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء:٧٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلٗا ٦٢﴾ [الأحزاب:٦٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ٤٣﴾ [فاطر:٤٣].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلٗا ٢٣﴾ [الفتح:٢٣].

وفي النهاية سيجازى كل على ما كسب إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، وقد أفلح من اعتبر فسلك طريق النجاة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٣٤﴾ [البقرة:١٣٤].

والسنن الإلهية في هذا الكون تتسم بالاطراد، فلا تتخلف مع وجود مسبباتها، ومع انتفاء ما يمنعها، ويتحقق ذلك على وفق ما قرر في الشرع.

وقد جاء في الحديث: «**ما منع قوم الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسنين**» (١)، أي: بالجدب والقحط.

وعن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: قال: أقبل علينا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال: «**يا معشر المهاجرين، خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم**

---

(١) أخرجه الطبراني في (الأوسط) [٤٥٧٧]. قال الهيثمي (٣/٦٦): "رواه الطبراني في (الأوسط)، ورجاله ثقات". وأخرجه أيضًا: تمام في (الفوائد) [٩٤٠].

تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أخذوا بالسنين، وشدة المئونة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله، وعهد رسوله، إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم» (١).

وفي رواية: عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ما نقض قوم العهد قط، إلا كان القتل بينهم، ولا ظهرت الفاحشة في قوم قط، إلا سلط الله عليهم الموت، ولا منع قوم الزكاة، إلا حبس الله عنهم القطر»** (٢).

فمن سنن الله عَزَّ وَجَلَّ أن البلاء يقع بسبب المجاهرة بالمعاصي، وبسبب الظلم وسفك الدماء، ونقض العهود والمواثيق.

وما أصاب الأمة ما أصابها من البلاء إلا بسبب المجاهرة المعاصي، والإقرار بها، وترك الإنكار، فلما كثرت المظالم، ولم يُنكر على الظالم، وانتشرت الرشوة، وشاع

---

(١) أخرجه ابن ماجه واللفظ له [٤٠١٩]، والبزار [٦١٧٥]، والحاكم [٨٦٢٣]، وقال: "صحيح الإسناد". وأخرجه أيضًا: أبو نعيم (٣٣٣/٨)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٣٠٤٢]، وابن عساكر (٢٦٠/٣٥). قال الهيثمي (٣١٧/٥): "رواه البزار ورجاله ثقات".

(٢) أخرجه البزار [٤٤٦٣]، والحاكم [٢٥٧٧]، واللفظ له، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (السنن) [٦٣٩٧]، وفي (شعب الإيمان) [٣٠٤٠]. قال الهيثمي (٢٦٩/٧): "رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح غير رجاء بن محمد وهو ثقة".

شراء الذمم، وفسد القضاء، وأهدرت الحقوق، وبغى الناس بعضهم على بعض، أصاب الأمة ما أصابها من البلاء والفقر والتخلف. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ [يونس:٢٣].

وقد جاء في الحديث: «**إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب**» (١).

وفي رواية: «**إذا رأوا المنكر**» (٢).

وفي رواية: «**ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرون على أن يغيروا، ثم لا يغيروا، إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب**» (٣).

وإنَّ الله جَلَّ وَعَلَا يمهل الظالم ولا يهمله، كما جاء في الحديث: عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله لَيُمْلِي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْه**»، قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ [هود:١٠٢] (٤).

---

(١) أخرجه أحمد [٢٩]، وابن حميد [١]، وأبو داود [٤٣٣٨]، والترمذي [٢١٦٨]، والبزار [٦٥]، وابن حبان [٣٠٤]، والبيهقي [٢٠١٨٩]، والحميدي [٣]. قال الإمام النووي: "إسناده صحيح". رياض الصالحين (ص:٩٧)، الأذكار (ص:٣٣١).

(٢) أخرجه أحمد [١، ١٦، ٥٣]، وابن ماجه [٤٠٠٥]، والنسائي في (الكبرى) [١١٠٩٢]، وأبو يعلى [١٢٨]، وابن حبان [٣٠٥]، والضياء [٥٨].

(٣) أخرجه أبو داود [٤٣٣٨]، والبيهقي [٢٠١٩١].

(٤) صحيح البخاري [٤٦٨٦]، مسلم [٢٥٨٣].

قوله ﷺ: «**إن الله لَيُمْلِي**» أي: ليمهل، و(الإملاء): الإمهال والتأخير، وإطالة العمر، «**للظالم**»؛ زيادة في استدراجه؛ ليطول عمره، ويكثر ظلمه، فيزداد عقابه: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ١٧٨﴾ [آل عمران:١٧٨]. ووقوع العفو عن بعض أفراد الظلمة يكون مع تعويض المظلوم فهو نصر أيضًا، وفيه: تحذير شديد من الظلم، وأن مراتعه وخيمة، ومصائبه عظيمة (١).

فمن سنن الله عَزَّوَجَلَّ: استدراج الظالم، وابتلاء المظلوم، "فمن الاستدراج: أن يملى للإنسان في ظلمه، فلا يعاقب سريعًا؛ حتى تتكدس عليه المظالم، فإذا أخذه الله عَزَّوَجَلَّ لم يفلته، أخذه أخذ عزيز مقتدر.

ومن سنن الله عَزَّوَجَلَّ: أن المكر السيء يحيق بأهله، وأن الجزاء من جنس العمل، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ٤٣﴾ [فاطر:٤٣]، أي: لا يحيط وبال المكر السيء إلا بمن مكره ودبره، كما قيل: من حفر حفرة لأخيه وقع فيها.

قال بعض السلف: ثلاث من كُنَّ فيه كُنَّ عليه: المكر والبغي والنكث. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦۚ﴾، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ [يونس:٢٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ﴾ [الفتح:١٠].

(١) انظر: فيض القدير (١/١٤١)، (٢/٢٦٤).

وقال مكحول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أربع من كن فيه كن له، وثلاث من كن فيه كن عليه، فالأربع اللاتي له: فالشكر، والإيمان، والدعاء، والاستغفار، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ﴾ [النساء:١٤٧]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝٣٣﴾ [الأنفال:٣٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ﴾ [الفرقان:٧٧].

وأما الثلاث اللاتي عليه: فالمكر والبغي والنكث، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ﴾ [الفتح:١٠]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ [فاطر:٤٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ [يونس:٢٣]"(١).

وقليل من عباد الله عَزَّوَجَلَّ شكور لنعمه الوافرة، يقابل ذلك الإحسان والفضل بالاجتهاد فيما يرضي ربه جَلَّ وَعَلَا، ويصبر على ما أصابه من البلاء، شاكرا لله عَزَّوَجَلَّ في السراء والضراء، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ:١٣]، وقال عن نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ۝٣﴾ [الإسراء:٣].

وإن من سنن الله عَزَّوَجَلَّ الكونيَّة التي لا تتبدل ولا تتغير: أنَّ العصيان يجلبُ الانتقام، وأنَّ الطَّاعة تجلبُ الرَّحمةَ والرِّضوان، وأنَّ من أكبر أسبابِ زوال النعمةِ: كفرانها، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ۝٧﴾ [إبراهيم:٧]، ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا ۝٨ فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٥/٤٢٦-٤٢٧)، حلية الأولياء (٥/١٨١)، تاريخ دمشق (٦٠/٢٢٥-٢٢٦).

خُسۡرًا ۝٩﴾ [الطلاق:٨-٩]، وقال: ﴿وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢١١﴾ [البقرة:٢١١]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال:٥٣].

وقال في بيان عاقبة من كفر نعمه: ﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ۝٢٨ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ۝٢٩﴾ [إبراهيم:٢٨-٢٩].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ في بيان عاقبة الإعراض عن طاعته وكفران نعمه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ۝١١٢﴾ [النحل:١١٢]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ۝١٥ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ۝١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ۝١٧﴾ [سبأ:١٥-١٧]. وقد جاء بيان ذلك مفصلًا في كتاب: (الإرشاد إلى أسباب النجاة).

عاشرًا: القرآن الكريم إنما يعنى بالمهمات:

يتناول القرآن الكريم قصص الأنبياء والمرسلين عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ وغيرهم، ولا يُعْنى غالبًا بتحديد زمان ولا مكان، ولا ذكر أشخاص، ولا تسجيل مجرد للحوادث والأشخاص، وإنما الغرض من ذلك الهداية والعظة والعبرة، وتقرير قواعد هذه الهداية

في النفوس ... الخ. فمثلًا: أين كان نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ وأين كان داود عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ لا يقول؛ لأنَّه ليس المكان الذي يشكِّلُ الحدث، وليس الزَّمانُ هو الذي يشكِّلُ الحدث، وليس اسم الشَّخص يشكِّلُ الحدث؛ ولذلك لا يصرَّح حتى بذكر اسم الشَّخص، فيقول: (فرعون) مثلًا، وهو لقبٌ لكلِّ ملوك (مصر) القدماء، و(تُبَّع) لكلِّ ملوك (اليمن) -مثلًا-، فالقرآن لا يُعني إلَّا بالمهمَّات، فتحديد المكان فضلًا عن المسافة الدَّقيقة لا دخل له في تشكيل الحدث.

فعندما أتصوَّر -مثلًا- أنَّ محمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سينادي الكفَّار كما يقول الله عَزَّ وَجَلَّ له: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ١﴾ [الكافرون: ١]، صحيح أن محمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جسم محسوس، والكفَّار أجسام محسوسة، ولكن ما قيمة أن يقال: إنَّ محمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو ينادي كان بينه وبين الكفَّار الَّذين يناديهم مسافة كذا؟ فما قيمة هذا حتى يُعنى به القرآن؟ فلمَّا كان ملاحظة المكان الحسيِّ شيءٌ يسقط من قصد القرآن؛ لأنَّه لا صلة له بتشكيل الأحداث، والقرآن إنما يعنى بموطن العبرة والحكمة، وكذلك في النِّداءات الَّتي بين المخلوق والمخلوق لا يلاحظ المسافة الحسيَّة.

والأصلُ في أكثر الألفاظ الموضوعة لمعانٍ أنَّها جاءت موضوعة أصلًا لمحسٍّ مشاهد، وأنَّها لا تصرف إلى ما ليس حسيًّا مشاهدًا إلَّا بنوعٍ من الإطلاق بعد التَّقييد؛ لأنَّ الأصل أنَّ الواضع عندما يضعُ اللفظ إنما يضعه؛ ليكونَ وسيلةَ تفاهمٍ بينه وبين مخاطَبه، ولا بُدَّ من اللَّفظ؛ لأنَّ الإشارة وحدها لا تكفي فقد يكون الشَّخص بعيدًا لا يرى الإشارة..

القرآن لا يُعنى إلَّا بالمهمَّات أصلًا، والمكان والمسافة ليس من المهمَّات؛ ولذلك نجد القرآن الكريم عندما يسوقُ القصص لا يأتي بالمكانِ المحدَّد بالضَّبط.

والاعتبار والهداية هما ركيزتا القصد من القصص، والأحاديث، والأخبار في الكتاب والسنة -كما تقرَّر في غير موضع-، فهما المقصد الأساس الذي ينبغي أن يلتفت إليه، دون التفات في الغالب إلى الزمان والأشخاص والمسافات، وإن كان في النصوص اعتبار للزمن فلنكتة ظاهرة، لا تخفى على متأمل من أولي البصائر.

حادي عشر: إبراز كثير مما أخفاه أهل الكتاب:

وفي ذلك إشارة إلى التبديل والتغيير والتحريف الذي وقع في الكتب السابقة؛ لأنها كانت محليَّة ومرحليَّة، وعندما يتطور الواقع فتنسخ شريعة، يأتي رسولٌ جديد بشريعة جديدة، كما قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

ولكن أمَا وقد بلغت الإنسانية سنَّ الرشد، وشاء الله عَزَّوَجَلَّ ختم رسالات السماء جاءت الشريعة المحمدية لتقف عند الثوابت والأطر والقواعد والكليات، وتترك التجديد والتطوير ومواكبة العصور للفقه الإسلامي الذي هو علم الفروع، فكان اهتمام العلماء بعلم المقاصد التي تعطي آفاقًا واسعة لفهم النَّص بما يفي بمقتضيات عصر تجدد.

وجاء به الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يخرج من مشكاة واحدة -كما تقدم-، فالأصول واحدة؛ ولذلك كانت الرسالة الخاتمة لرد الناس إلى تلك الأصول بعد أن عبثت بها يد التحريف، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [آل عمران:٦٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة:١٥-١٦].

فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [المائدة:١٥]، أي: من نحو بعثة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وبشارة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ به، وكثيرًا من تلك الأحكام التي بدلت، أو حذفت؛ ولذلك تميز القرآن الكريم بالحفظ من التبديل أو التغيير إلى قيام الساعة، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر:٩]؛ لأنه آخر الكتب السماوية، والنبي محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هو خاتم النبيين، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ﴾ [الأحزاب:٤٠].

وقد كان الناس الحال قبل بعثة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في فترة انقطاع من الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ حيث إن الرسالات السابقة وبسبب ما حدث فيها من التبديل والاختلاف

لم يعد لها أي أثر في الواقع، فكثرت النسخ عن تلك الكتب واختلفت وتناقضت، بل إن العهد الجديد لم يعد فيه أي تكليف.

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ عن تلك الفترة من الانقطاع: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ﴾ [المائدة:١٩]، والمراد من الفترة: انقطاع ما بين الرسولين -كما سيأتي في ألفاظ الزمن-؛ "لأن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بعث بعد انقطاع الرسل عَلَيۡهِمُٱلسَّلَامُ؛ لأن الرسل عَلَيۡهِمُٱلسَّلَامُ كانت إلى وقت رفع الله عيسى عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ تَتْرى، أي: متواترة، يجيءُ بعضها في إثر بعض.

وقد جاء في القرآن الكريم ذكر بعض ما أخفاه أهل الكتاب، ومن ذلك قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ﴾ [المائدة:٤٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ [الفتح:٢٩].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ [الصف:٦].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ في وصف حالهم من إخفاء الحق وكتمانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة:١٤٦].

ثاني عشر: تنبيه الإنسان من الغفلة:

إنَّ أخطرَ شيءٍ في حياةِ الإنسانِ هو الغفلةُ، والغفلةُ عن ماذا؟ الغفلةُ عن أعظمِ شيءٍ في الوجود، ألا وهو الصِّلة بالله عَزَّوَجَلَّ، وطاعته والتقرُّب إليه، فالغفلةُ عن الله عَزَّوَجَلَّ مُهلكةٌ للإنسان، فكم من غافلٍ عن مولاه لم يستفق إلا وهو صريعٌ بين الأموات، فما ينفعُه وقتَها النَّدمُ، ولا تنفعُهُ الحَسَرات!

إن الغفلة تورد صاحبها المهالك، فإذا دهم الغافلَ الموتُ فإنه يتحسر على التَّفريط في الطاعة، ثم يتمنى الرجعة إلى الدنيا؛ لتدارك ما فاته، فيأتيه الجواب: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الكون آيات جليلة دالة على عظمته ووحدانيته غفل عنها كثير من الناس، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس:٩٢]، فكم من آية بينة في نفسها يغفل الناس عنها؟! كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف:١٠٥].

وحقيقة المرور: الاجتياز، ويستعار للتغافل وعدم الاكتراث للشيء، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ﴾ [يونس:١٢]، أي: نسى دعاءنا،

وأعرض عن شكرنا؛ لأن المار بالشيء لا يقف عنده، ولا يسائله، أي: لا يستعلم عنه.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ حكاية عن المشركين حين رأوا معجزة انشقاق القمر: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ [القمر:٢].

ثم أعقب ذلك ببيان سبب الغفلة، وأنه متابعة أهواءَهم الباطلة، وما زيَّن لهم الشيطان من دفع الحق بعد ظهوره فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْۚ﴾ [القمر:٣].

وقصص القرآن الكريم توجه الأنظار إلى التأمل والاعتبار من خلال النظر إلى آثار الأمم الغابرة، وما حلَّ بهم من عقاب الله عَزَّوَجَلَّ بسبب الإعراض والغفلة عن آيات الله عَزَّوَجَلَّ، كما جاء في قصة غرق فرعون وجنوده في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةًۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ۝٩٢﴾ [يونس:٩٠-٩٢].

فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ۝٩٢﴾، أي: لا يتفكرون، ولا يتعظون بها.

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال بعضهم: ﴿نُنَجِّيكَ﴾، أي: نرفعك على نجوة من الارض فَنُظْهِرُكَ؛ لأنه قال: ﴿بِبَدَنِكَ﴾، ولم يقل: بروحك" [(١)].

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (نجا) (٦/٢٥٠١).

والمراد: اليوم نجعلك على نَجْوةٍ من الأرض ببدنك، ينظر إليك هالكًا من كذَّب بهلاكك.

قال أبو إسحاق الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإنما كان ذلك آية؛ لأنه كان يدعي أنه إله وكان يعبده قومه، فبين الله عَزَّوَجَلَّ أمره وأنه عبد.

وفيه من الآية أنه غرق القوم وأخرج هو من بينهم، فكان في ذلك آية" (١).

وقال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس:٩٢]، أي: لمن بعدك من الناس عبرة يعتبرون بك،، فينزجرون عن معصية الله عَزَّوَجَلَّ، والكفر به، والسعي في أرضه بالفساد" (٢).

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس:٩٢]، يعني: عن حججنا وأدلتنا على أن العبادة والألوهة خالصة لله عَزَّوَجَلَّ وحده.

وأخبر الله عَزَّوَجَلَّ في آيات أخرى عن غفلة فرعون وجنوده عن الآيات البينات التي جاءهم بها موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ

---

(١) معاني القرآن وإعرابه (٣/٣٢).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٥/١٩٤-١٩٨).

بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص:٣٦-٤٢].

ثالث عشر: الإرشاد إلى آداب المناظرة والحوار، وإقامة الحجة على المخالف:

إن قصص القرآن فيها إرشاد إلى آداب المناظرة والحوار، ودروس في الأخلاق والسلوك.

ومن ذلك ما قصه الله عَزَّوَجَلَّ من قوله جَلَّوَعَلَا لموسى وهارون عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ مرشدًا لهما، ومعلِّمًا للعباد أرفع أسلوب في الدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ من خلال الحوار: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه:٤٣-٤٤].

ومن ذلك ما قصه الله عَزَّوَجَلَّ من قصص الأنبياء عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ وحوارهم مع أقوامهم، وإقامة الحجة عليهم في دحض ما يعبدون من دون الله عَزَّوَجَلَّ، والآيات في ذلك كثيرة، وهاك ذكر أنموذج من حوار إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ مع قومه:

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ

لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم:٤١-٤٥].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء:٦٩-٨٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات:٨٣-٨٧].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ

إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء:٥١-٦٧].

وفي القرآن الكريم تعليم لكل باحث عن الحق لنصب الأدلة والبراهين، وإبانة الحق دون شائبة، وإلزام الخصم، ومن ذلك: ما حكاه الله عَزَّوَجَلَّ عن اليهود والنصارى من قولهم: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ [المائدة:١٨].

قال الإمام محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وعطف: ﴿وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ على ﴿أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ﴾ أنهم قصدوا أنهم أبناء محبوبون؛ إذ قد يكون الابن مغضوبًا عليه.

وقد علَّم الله عَزَّوَجَلَّ رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن يبطل قولهم بنقضين:

أولهما: من الشريعة، وهو قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ﴾ يعني: أنَّهم قائلون بأن نصيبًا من العذاب ينالهم بذنوبهم، فلو كانوا أبناء الله عَزَّوَجَلَّ وأحباءه لما عذبهم بذنوبهم، وشأن المحب أن لا يعذب حبيبه، وشأن الأب أن لا يعذب أبناءه. روي أن الشبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سأل أبا بكر بن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أين تجد في القرآن أن المحب لا يعذب حبيبه؟ فلم يهتد ابن مجاهد، فقال له الشبلي في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ﴾ [1].

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: وهذا الذي قاله حسن، وله شاهد من السنة. وله شاهد في (المسند) للإمام أحمد: عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قال: مرَّ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في نفر من أصحابه، وصبي في الطريق، فلما=

وليس المقصود من هذا: أن يرد عليهم بوقوع العذاب عليهم في نفس الأمر، من تقدير العذاب لهم في الآخرة على كفرهم؛ لأن ذلك لا يعترفون به فلا يصلح للرد به؛ إذ يصير الرد مصادرة (١)، بل المقصود: الرد عليهم بحصول عذاب يعتقدون حصوله في عقائد دينهم، سواء كان عذاب الآخرة أم عذاب الدنيا. فأما اليهود فكتبهم طافحة بذكر العذاب في الدنيا والآخرة (٢)، كما في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]. وأما النصارى فلم أر في الأناجيل ذكرًا لعذاب الآخرة إلَّا أنهم قائلون في عقائدهم بأن بني آدم كلهم استحقوا العذاب الأخروي

=رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ، فأقبلت تسعى وتقول: ابني ابني، وسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله، ما كانت هذه لتلقي ابنها في النار. قال: فخفضهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «لا، والله ما يلقي حبيبه في النار» تفسير ابن كثير (٣/٦٩). والحديث أخرجه أحمد [١٢٠١٨، ١٣٤٦٧]، والبزار [٦٥٧٩]، قال الهيثمي (١٠/٢١٣): "رواه أحمد، والبزار، ورجالهما رجال الصحيح"، وأخرجه أيضًا: أبو يعلى [٣٧٤٧]، والحاكم [١٩٤]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي. كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٦٧٣١]، وقد فصلتُ القول في ذلك في كتاب: (المحبة صورها وأحكامها).

(١) يعني: مصادرة على المطلوب. هي عبارة عن أقوال، أو مبادئ، أو قضايا يفترض الباحث صحتها في أوَّل بحثه، وهي قضايا ليست يقينية بنفسها، كما لا يمكن أن يُبَرْهن عليها، ولكن يصادر عليها، أي: يطالب بالتسليم بها؛ لأن من الممكن أن نستنتج منها نتائج لا حصر لها دون الوقوع في إحاله، فصحَّتُها إذن لتبَّين من نتائجها، أما مصطلح: (المصادرة على المطلوب) عند المناطقة والأصوليين، فالمراد به أن تجعل النتيجة جزء القياس أو تلزم النتيجة من جزء القياس نحو: الإنسان بشر، وكل بشر ضحاك فينتج أن: الإنسان ضحاك.

(٢) وقد ذكرت جملة من هذه النصوص في كتاب: (المحبة صورها وأحكامها).

بخطيئة أبيهم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فجاء عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ مخلِّصًا وشافعًا، وعرض نفسه للصلب؛ ليكفر عن البشر خطيئتهم الموروثة، وهذا يلزمهم الاعتراف بأن العذاب كان مكتوبًا على الجميع لولا كفارة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فحصل الرد عليهم باعتقادهم به بله اعتقادنا.

ثم أخذت النتيجة من البرهان بقوله: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾، أي: ينالكم ما ينال سائر البشر. وفي هذا تعريض أيضًا بأن المسيح بشر؛ لأنه ناله ما ينال البشر من الأعراض والخوف، وزعموا أنه ناله الصلب والقتل" [(١)].

ومن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]، فهو كناية عن قضاء الحاجة؛ لأن الذي يأكل الطعام يحتاج إلى قضاء الحاجة، فهو محتاج من ناحيتين، ومن كان هكذا حاله لا يصلح أن يكون ربًّا، وهو ما ينفي بأبلغ عبارة الألوهيَّة عن الرَّسول المحتاج إلى الطعام وإلى دفعه، وفيه دلالة على البون الشَّاسع بين (مقام الألوهيَّة) و(مقام النُّبوَّة).

وفي الآية: اختصار بليغ؛ إذ يصح أن يراد المعنى المجازي، كما يصح أن يراد المعنى الحقيقي معه؛ إذ إن دلالة كل منهما واحدة، وهي العجز والافتقار؛ والآية تدل على ذلك عليهما معًا؛ إذ إن أحدهما مسبب عن الآخر، ولا ينفك عنه، وفيها: عدم التصريح بما يستقبح ذكره، والإشارة إليه بما هو مسبب عنه.

---

(١) التحرير والتنوير (٦/١٥٥-١٥٦).

قال ابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ هذا من الاختصار والكناية، وإنما نبَّه بأكل الطعام على عاقبته، وعلى ما يصير إليه، وهو الحدَث؛ لأن مَن أَكَلَ الطعام فلا بدَّ له من أن يُحدث. ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥﴾ [المائدة:٧٥]، وهذا من ألطف ما يكون من الكناية" [١].

أما من قال: ليس في هذا كناية فقد اعترض على هذا بالاستدلال بصريح الآية، وهو يدل على المعنى، وهو أنهما يعيشان بالغذاء، كما يعيش سائر الآدميين، فكيف يكون إلهًا من لا يقيمه إلا أكل الطعام؟!

وقد فصَّلتُ القول في ذلك مع تحرير القول فيه في كتاب (مجاري الكناية).

رابع عشر: كشف خفاء واقعة ذات حلقات المتتابعة:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾ [هود:٤٩].

---

(١) غريب القرآن، لابن قتيبة (ص:١٤٥)، وانظر: الوسيط، للواحدي (٢/٢١٣)، تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٢/٥٦)، المحرر الوجيز (٤/٧٥)، غرائب التفسير، للكرماني (١/٣٣٦)، تفسير البغوي (٣/٨٣).

خامس عشر: الدَّعوة إلى الخير والإصلاح، والنهي عن الفساد في الأرض:

ومن ذلك ما جاء في قصة شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ -على سبيل المثال- من قوله لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ﴾ [الأعراف:٨٥] إلى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف:٩٢-٩٣].

وقال لهم: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ﴾ [هود:٨٨].

ومن ذلك ما جاء في قصة ابني آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ من قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ [المائدة:٢٧]، إلى قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ﴾ [المائدة:٣٢] الآية، ثم جاء بعدها بيان عاقبة الذين يحاربون الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويسعون في الأرض فسادًا.

إلى غير ذلك من القصص التي نصَّت أو دلَّت على الأمر بالصلاح والإصلاح، وهي كثيرة.

سادس عشر: محاربة اليأس القنوط:

إن النصوص التي تبعث الأمل في النفوس، وتحارب: الاكتئاب والانطواء على النفس؛ انتظارًا للموت، أو هربًا من الواقع كثيرة.

وخير مثال على ذلك: ما جاء في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ من قصص الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وما فيها من الفرج بعد الضيق.

ودونكم سيرة النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وصحابته الكرام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، فما هي عنكم ببعيد، وكيف فرج الله عَزَّوَجَلَّ عنهم الكرب الشديد، فبينما هم مستضعفون في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس، إذ جاءهم نصر الله عَزَّوَجَلَّ وفتحه فتدثروا من العزة والتمكين بأزهى اللباس، فمن طائفة مستضعفة إلى خلفاء وملوك وفاتحين، وصلوا لكافة أصقاع الدنيا، ونشروا بمبادئهم وسيرتهم العطرة: العدل والمحبة والسلام، فدخل الناس في دين الله عَزَّوَجَلَّ أفواجًا.

ولقد كان النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إمامًا في التفاؤل، والثقة بوعد الله عَزَّوَجَلَّ، وكان يحارب اليأس والتشاؤم، ويصنع الحياة، ويزرع الأمل.

وقد علَّم النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أمته التفاؤل بسلوكه وقوله، ففي قصة الهجرة - مثلًا- عندما أحدقت الأخطار بالغار، وأحاط المشركون به، وعلى الرغم من هذه الشدائد والأخطار كان النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ آمنًا مطمئنًا، متوكلًا على ربه عَزَّوَجَلَّ، واثقًا بنصره وحفظه. يقول أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: كنت مع النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الغار فرأيت آثار المشركين، قلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا، قال: «**ما ظنك**

باثنين الله ثالثهما» [(١)]. يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ﴾ [التوبة:٤٠].

إنَّ المؤمن مهما تفاقم الشر، وتعاظم الضرر فإنه يعلم أن ما قضى الله عَزَّوَجَلَّ كائن، وما لم يشأ لم يكن، ولا يحكم به يحِق، لا رافع لما وضع، ولا واضع لما رفع، ولا معطي لما منع، ولا مضل لمن هدى، فلا جزع ولا هلع، وإنما صبر وشكر، وما عند الله عَزَّوَجَلَّ خير وأبقى.

ورُبَّ مِحْنَةٍ أورثت مِنْحَةً، وربَّ نورٍ يَشِعُّ من كَبِد الظَّلام؛ فإنَّ النصر مع الصبرِ، وإنَّ الفرج مع الكرب، وإنَّ مع العسر يسرًا، فما بعد دياجير الظلام إلَّا فلقُ الصبح المشرق.

فمن اليقينِ باللهِ عَزَّوَجَلَّ، والثقةِ بوعدة ينبثقُ الفجرُ، وتنجلي سُحُبُ الظلامِ واليأسِ. يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [يوسف:١١٠].

وقد وعد الله عَزَّوَجَلَّ الصابرين بأنه معهم بعنايته ورعايته، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة:١٥٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال:٤٦].

---

(١) صحيح البخاري [٤٦٦٣]، مسلم [٢٣٨١].

وبيَّنَ أن الصَّبر من أعظم أسباب النصر، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١٢٦﴾ [آل عمران:١٢٥-١٢٦].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾ [الأعراف:١٢٨-١٢٩].

وقد تقدم أن مقاصد القصص والأخبار في الكتاب والسنة: معرفة سنن الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الكون، ومن هذه السنن: نصر المؤمنين الصادقين ولو بعد حين.

وفي قصص القرآن نماذج كثيرة للفرج بعد الضيق، وللنصر بعد الصبر، ما يبعث في النفوس الأمل بأن فرج الله عَزَّوَجَلَّ قريب، وأن العاقبة للمتقين، مهما طال ليل الظلم والبغي، فلا بد للحق أن يعلو وينتصر.

ومن هذه القصص التي تتجلى فيها حقائق الفرج بعد الضيق: ما جاء في قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من نحو قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [يوسف:١٨].

وقد كانت عناية الله عَزَّوَجَلَّ مع يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ فنجاه من كل ما أحدق به من المخاطر، كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن ذلك في نحو قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا

وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف:٢٢]، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف:٢٤].

وقد كان يعقوب عَلَيْهِٱلسَّلَامُ على بصيرة وثقة من فرج الله عَزَّوَجَلَّ، حيث قال لأبنائه: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف:٨٧].

فلم ينقطع الأمل عن يعقوب عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، وبقي واثقًا بالله عَزَّوَجَلَّ، مطمئنًا بأنه لن يخذله وإن طال الزمن، وقد تحقق ما كان ما كان يعقوب عَلَيْهِٱلسَّلَامُ على ثقة منه، من

الفرج عنه وعن يوسف عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ، كما أخبر المولى جَلَّوَعَلَا عن ذلك في قوله: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًاۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ [يوسف:٩٤-٩٨].

وكما جاء في خاتمة قصة يوسف عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ

ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ [يوسف:١٠٠-١٠١].

وهذا خليل الله عَزَّوَجَلَّ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فبعد أن أحكمت الشدة عليه قبضتها أمر الله عَزَّوَجَلَّ النار أن تكون عليه بردًا وسلامًا، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٦٨ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ٧٠ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ٧١ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ٧٢﴾ [الأنبياء:٦٨-٧٢].

وهذا نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي دعا قومه ليلًا ونهارًا، فما زادهم ذلك إلا فرارًا، ولبث في قومه ﴿أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾ [العنكبوت:١٤] يدعوهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ولم ييأس، ولم يفتر، ومع ذلك ما آمن معه إلا قليل، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾ [هود:٣٨]، إلى قوله: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٨ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ٤٩﴾ [هود:٤٨-٤٩].

وقال الله جَلَّوَعَلَا عن نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٦ وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٧٧﴾ [الأنبياء:٧٦-٧٧].

وهذا نبي الله أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ صبر على ما أصابه، وشكر الله عَزَّوَجَلَّ، فكشف الله عَزَّوَجَلَّ عنه الضر والكروب، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء:٨٣-٨٤].

وذا النون عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي كان من المسبحين، اجتباه الله عَزَّوَجَلَّ، وجعله من الصالحين، ونجاه من الكرب العظيم، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ عن زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٨٩-٩٠].

وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ العاقبة للمتقين، كما جاء في غير موضع من القرآن الكريم، ومن ذلك: ما جاء في قصة قارون من قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ﴾ [القصص:٧٦].. إلى قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص:٨٣].

ومن ذلك: ما جاء في نبأ الإفك والزور الذي رميت به المتدثرة بثوب العفة والطهور رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا؛ فإن فرج شدتها مسطر في سورة النور، في آيات بينة تتلى إلى يوم القيامة.

وذكر تفاصيل قصص من جعل الله عَزَّوَجَلَّ له بعد عسر يسرًا فيها إطالة، فنكتفي بما سبق من الإشارة إلى ذلك والإحالة.

والحاصل أن في قصص القرآن دروس وعبر، وأن المسلم لا ييأس ولا يقنط من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، فهو يوقن بأن ما يقع في الأرض إنما يقع بقدرة الله عَزَّوَجَلَّ، ووفق إرادته، وهو خير في جانب من جوانبه، ولله عَزَّوَجَلَّ فيه حِكَمٌ. ويعلمُ كذلك أن الفتنة والابتلاء هما الميزان الذي يميز الصادق عن الكاذب. والمسلم يتفاءل بوعد الله عَزَّوَجَلَّ، ويسعى لتحقيق النصر، ودفع الظلم، وإزالة الباطل.

فعليك أيها المسلم أن تحسنَ الظنَّ بخالقك، وأن يمتلئَ قلبُك بالفأل الصادق، والأملِ المشرق الذي يوسِّع ما ضيَّقته الخطوبُ والنَّوازل، فبالأمل تذوقُ طعم السَّعادة، وبالتفاؤل تحسُّ ببهجة الحياة. فالتَّفاؤل سُنَّة نبويَّة، وصفة إيجابيَّة للنفس السويَّة، يترك أثره على تصرفات الإنسان ومواقفه، ويمنحه سلامةَ النفس، والهمةَ العالية، ويزرع فيه الأمل، ويحفزه على الانبعاث إلى العمل.

والتفاؤل ما هو إلَّا تعبير صادق عن الرُّؤية الطيبة والإيجابية للحياة.

قال الشاعر:

أعلِّل النَّفــس بالآمــال أرقبــها ... ما أضيق العيش لولا فسحة الأملِ [1]

فالأمل يبعث الحياة في الناس، واليأس يقتلهم.

---

(١) البيت يعزى للوزير مؤيد الدين الطغرائي. انظر: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص (٢/١٤٢)، خزانة الأدب وغاية الأرب (١/١٨٧)، الكشكول (١/٣٠٢).

واليأس يوقع الناس صرعى كالأموات، ويقتل النبوغ والخصال الحميدة، ويصرف عن التأمل والتبصر في العاقبة، والأمل يعزز الثقة بالنفس، وينهض بها من بين الأموات، وهو يحتاج إلى رعاية مستمرة، وتنمية متواصلة، ومراقبة دائمة؛ حتى لا ينحرف إلى إفراط يقع بالإنسان في طول الأمل، والركون إلى الدنيا، والغفلة عن الآخرة، أو ينحرف إلى تفريط يقع بالإنسان في اليأس والقنوط من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ.

والدعاة بوصفهم الدالين على طريق الله عَزَّوَجَلَّ، الآخذين بأيدي السالكين إلى صراطه المستقيم، ولكونهم أكثر الفئات احتكاكًا مع مشاكل الناس وحاجاتهم اليومية والاجتماعية، فهم مطالبون بالوقوف على مسؤوليتهم الدعوية والدينية والاجتماعية في نشر ثقافة الأمل في عالم ساده الإحباط، وعمَّه اليأس، وغلبه القنوط، بسبب كثرة الإخفاقات والهزائم والانكسارات..

والداعية الفطن يجب أن يبثَّ رسائل الأمل في قلوب المدعوين، وأن يكون خطابه الدعوي في أوقات الأزمات، واشتداد الخطوب، وكثرة الإحباطات، قائمًا على محاربة اليأس والقنوط.

وإن التفاؤل يقوي العزائم، ويبعث على الجد، ويعين على الظفر، وينتشل السالكين من دروب الضياع، وبراثن الضلال، ويقاوم المرض، فقد ثبت طبيًّا أن الذين يعيشون تفاؤلًا هم أسرع من غيرهم على تجاوز الأمراض أو الامتثال للشفاء.

والتفاؤل يدفع الإنسان لتجاوز المحن، ويحفِّزُه للعمل، ويورثه طمأنينة النفس، وراحة القلب، وهو السلوك الذي يصنع به الرجال مجدهم، ويرفعون به رؤوسهم،

فهو نور وقت شدة الظلمات، ومخرج وقت اشتداد الأزمات، ومتنفس وقت ضيق الكربات، وهو منبثق من الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، والتوكل عليه، والثقة بوعده.

فمن اليقين بالله عَزَّوَجَلَّ والثقة بوعده ينبثق الفجر، وتنجلي سحب الظلام واليأس. يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾ [التوبة:١١٨]، ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾ [يوسف:١١٠]، ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿۞قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزمر:٥٣].

والمتفائل لا يبني من المصيبة سجنًا يحبس فيه نفسه، لكنَّهُ يتطلَّعُ للفرج الذي يعقب كل ضيق، ولليسر الذي يَتْبَعُ كل عسر.

سابع عشر: بيان قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، وإحاطته بكل شيء علمًا:

وفي قصص القرآن ما يدل على قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وعلى سعة علمه، فلا تخفى عليه خافية، وهو يعلم ما تُكِنُّ صدرو الناس وما يعلنون، ويدل على ذلك ما قصة لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث قال لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا

ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾ [لقمان:١٦]. -وسيأتي بيان ذلك في ذكر (وصايا لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ)-.

ومن ذلك: ما جاء في قصَّة الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٥٩﴾ [البقرة:٢٥٨-٢٥٩].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ في قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت: ﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ﴾ [البقرة:٢٤٣].

وقال جَلَّ وَعَلَا مخبرًا عن استدلال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ على إثبات المعاد، وإقامة الحجة على منكريه: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨ أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى

ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة:٢٥٨-٢٥٩].

وقال جَلَّوَعَلَا في قصة أصحاب الكهف: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الكهف:١٩].

وقد تقدم بيان ذلك.

ومن ذلك: ما جاء في خلق آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وما جاء في ولادة عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وما جاء في تحوُّل عصا موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إلى حية تلقف ما يأفكون، وما جاء في قصة موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مع العبد الصَّالح.... إلى غير ذلك.

ثامن عشر: التحذير من المهلكات:

جاء في كثير من قصص القرآن الكريم التحذير من المهلكات، ولا سيما في قصص الرسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ في دعوتهم لأقوامهم، فكان كل رسول يحذر قومه من المعاصي المهلكات، ولا سيما ما فشا في زمنه، ويذكرهم بالله عَزَّوَجَلَّ وبما ينجيهم من العذاب.

وقد دعا الرسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ أقوامهم إلى توحيد الله عَزَّوَجَلَّ ونبذ الشرك، وكانوا حريصين على تقويم سلوك الناس، وتصحيح معاملاتهم وأخلاقهم.

ولقد أمروهم بكل معروف فيه صلاح أحوالهم في الدارين، ونهوهم عن كل منكر يضرهم في الدنيا والآخرة.

ومن ذلك: ما جاء في إنكار موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على قوم فرعون تزويرَهم للحقائق، وإضلالهم للناس، فقال لهم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ٧٧﴾ [يونس:٧٧]، وقال لهم: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ٦١﴾ [طه:٦١].

وهود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنكر على قومه الشرك، كما أنكر عليهم اغترارهم بقوتهم، ومفاخرتهم بعمرانهم، وتباهيهم بأموالهم، وهم القائلون: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ [فصلت:١٥]، فبين لهم أن الله عَزَّوَجَلَّ أقوى منهم، وحذرهم من مغبة كِبرهم وعبثهم وبطشهم، وقال منكرًا عليهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ١٢٩ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ١٣٠ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٣١﴾ [الشعراء:١٢٨-١٣١].

وأنكر صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على قومه الشرك، والسرف في العمران والمفاخرة به بطرًا، وأنكر عليهم الفساد في الأرض، وطاعة المفسدين، مبينًا لهم مقومات الصلاح والإصلاح، فقال لهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٤٣ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٤٤ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٤٥ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ١٤٦ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ١٤٧ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ١٤٨ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ١٤٩ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٥٠ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ١٥١ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ١٥٢﴾ [الشعراء:١٤٣-١٥٢].

وقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ٦١﴾ [هود:٦١].

وأما قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد انتشرت فيهم الفواحش، وكانوا يجاهرون بها، فكانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء، ويقطعون الطريق، ويرتكبون المنكرات، فأنكر عليهم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ وأرشدهم إلى ما هو أطهر لهم، وأصلح لحالهم ومآلهم، فقال لهم: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأعراف:٨٠-٨١].

وقال لهم: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل:٥٤-٥٦].

وقال لهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ﴾ [هود:٧٨].

وقال لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ﴾ [العنكبوت:٢٨-٢٩].

ومن ذلك: تحذير شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه، حيث حذرهم من الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، كما حذرهم من التطفيف في الكيل والبخس في الميزان، وأنكر عليهم قطع الطريق، والإفساد في الأرض، والصدَّ عن سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، مع دعوته إياهم إلى توحيد الله عَزَّوَجَلَّ، وإلى الإصلاح، محذرًا لهم من أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم من الأمم ممكن بغى وكذب وأفسد في الأرض، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن

كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأعراف:٨٥-٨٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [هود:٨٤-٨٥].

وقال شعيب عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ [هود:٨٨].

وقال لهم: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾﴾ [هود:٨٩-٩٠].

وقال لهم: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾﴾ [هود:٩٣].

وقال لهم: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [العنكبوت:٣٦] ... إلى غير ذلك من القصص التي نصت على التحذير من المهلكات.

ومن هذه القصص: ما جاء من التحذير من اتباع خطوات الشيطان، وإبراز عداوته القديمة لبني آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث كان أسلوب القصة في جميع ما تقدم أوقع أثرًا في النفس، وأكثر تنبيهًا للعاطفة، وفيها إيقاظ لكل ذي لبٍّ من أصحاب البصائر، وهداية لكل مسترشد.

المطلب الرابع: صحة النقل:

تكفل الله عَزَّوَجَلَّ بحفظ هذا الدين، وحفظ كتابه المبين، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر:٩]، وقد كان القرآن ولا يزال محفوظًا في الصدور، وقد نقل نقلًا متواترًا، ولم يتبدل أو يتغير منه شيء على مرِّ السنين؛ لأنه الكتاب الخاتم، فأنى لأيدي العبيد أن تغير أو تبدل ما تكفل الله عَزَّوَجَلَّ بحفظه؟! ولم يحفظ كتاب في الصدور كما حفظ القرآن على مرِّ التاريخ.

وقد تبدلت الكتب من قبله؛ لأنها كانت محليَّة ومرحليَّة؛ -كما تقرَّر في غير موضع-.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ [النساء:٨٢].

وفي قصص البشر قد تكون القصة صادقة، وقد تكون كاذبة، والأصل أن تكون القصة صادقة؛ لما يحتف بها من القرائن والآثار، ولأن المؤمن لا يكذب، ولا

ينقل القصص والأخبار عن الكذابين، فإذا ذكر قصة لا تصح بيَّن ما يعتريها من الضعف أو الوضع؛ لأجل التحذير منها.

وقد دعا القرآن الكريم إلى التثبت في النقل، وإلى نصب الأدلة والبراهين على صحة الخبر، وصدق المخبر، من نحو: النظر في الدلائل والقرائن، ومن ذلك: مشاهدة الآثار التي خلَّفها أهلها في الأرض، والتي تعبر بلسان حالها عن تلك الأمم، وما كانوا عليه من قوة، وما نزل بهم من عقاب حتى أصبحت بيوتهم خاوية، وتركوا الملك والقصور والأموال. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۗ﴾ [يوسف:١٠٩]، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ﴾ [النمل: ٥١-٥٢].. إلى غير ذلك من الآيات التي تقدم ذكرها.

وينبغي على طالب العلم أن لا يتعجل بالنقل أو التحديث دون تثبت، وأن لا يروي عن الضعفاء والمتهمين. قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كفى بالمرء كذبًا أن يُحَدِّث بكلِّ ما سَمِعَ**» (١). وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن كذبًا علي ليس ككذب على أحد، من كذب عليَّ متعمدًا، فليتبوأ مقعده من النار**» (٢).

---

(١) صحيح مسلم (١/١٠) [٤].

(٢) صحيح البخاري [١٢٩١]، مسلم [٤].

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بحسب المرء من الكذب أن يحدث بكل ما سمع [(١)].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سيكون في آخر أمتي أناس يُحَدِّثُونَكُمْ ما لم تسمعوا أنتم، ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم**» [(٢)].

وعن سفيان بن حسين، قال: سألني إياس بن معاوية رَحِمَهُ اللَّهُ، فقال: إني أراك قد كلفت بعلم القرآن، فاقرأ علي سورة، وفسر حتى أنظر فيما علمت، قال: ففعلت، فقال لي: احفظ علي ما أقول لك: إياك وَالشَّنَاعَةَ في الحديث، فإنه قلما حملها أحد إلا ذَلَّ في نفسه، وَكُذِّبَ في حديثه [(٣)].

والشناعة: القبح. ومعنى كلامه: أنه حذره أن يحدث بالأحاديث المنكرة التي يشنع على صاحبها، وينكر وَيَقْبُحُ حال صاحبها، فيكذب، أو يستراب في رواياته، فتسقط منزلته، ويذل في نفسه -والله أعلم- [(٤)].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يكون في آخر الزمان دجالون كذابون، يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم، ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم، لا يضلونكم، ولا يفتنونكم**» [(٥)].

---

(١) ونحوه عن عبد الله. صحيح مسلم [٥].

(٢) صحيح مسلم [٦].

(٣) مقدمة صحيح مسلم (١/ ١١).

(٤) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١/ ٧٦).

(٥) صحيح مسلم [٧].

قال ابن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن هذا العلم دين، فانظروا عَمَّن تأخذون دينكم (١).

وعنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة، قالوا: سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم (٢).

وعن سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن مسعر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: سمعت سعد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: لا يحدث عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا الثقات (٣).

فينبغي تحريرُ الأخبار وتوثيقها، والتَّثبتُ من صحَّتها وسلامتها، والإعراض عن سماع الشائعات، والتحذير منها، وعدم الإصغاء إلى الشائعات من أسباب الوقاية من آفاتها، وهي خير من العلاج؛ لأن الدَّاء إذا تفشى عَسُرَ علاجه، وقد ذمَّ الله عَزَّ وَجَلَّ اليهود ونعاهم بأنهم: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ﴾ [المائدة:٤١].

فيلزم الناقلَ التَّبينُ والتَّبصر لكلِّ أمر مشتبهٍ وملتبس، واجتنابُ التَّحديث والإخبار لمجرد السَّماع من غير تبين. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات:٦].

---

(١) مقدمة صحيح مسلم (١/١٤).

(٢) المصدر السابق (١/١٥).

(٣) المصدر السابق (١/١٥).

وينبغي زجر من يحدث بكل ما سمع دون تبين ولا تثبت، أو يشيع شائعة، والتحذير منه، ومطالبته بالدليل. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةً وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤﴾ [النور:٤]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٣﴾ [النور:١٣].

فكل كلمة تقال دون تثبت وتبصر فهي شائعة وزعم مذموم، كما جاء في الحديث: «**بئسَ مَطِيَّةُ الرَّجل زَعَمُوا**» (١).

قال الخطابي رَحِمَهُٱللَّهُ: "أصل هذا: أن الرجل إذا أراد الظَّعنَ في حاجة، والمسير إلى بلد ركب مطيته، وسار حتى يبلغ حاجته، فشبَّهَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ما يقدِّمُ الرجل أمام كلامه، ويتوصل به إلى حاجته من قولهم: «**زعموا**» بالمطيَّة التي يتوصل بها إلى الموضع الذي يؤمه ويقصده. وإنما يُقال: زعموا في حديث لا سند له، ولا ثبت فيه، وإنما هو شيء يحكى عن الألسن على سبيل البلاغ، فذمَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من الحديث ما كان هذا سبيله، وأمر بالثبت فيه، والتوثق لما يحكيه من ذلك، فلا يرويه حتى يكون مَعْزُوًّا إلى ثبت، ومرويًّا عن ثقة" (٢).

---

(١) أخرجه أبو داود [٤٩٧٢]، قال الإمام النووي: "أخرجه أبو داود بإسناد صحيح" انظر: الأذكار (ص:٣٧٩- ٣٨٠)، وانظر: (المقاصد الحسنة) (ص:٢٤٣).

(٢) معالم السنن (٤/١٣٠)، وانظر: الأذكار، للنووي (ص:٣٧٩-٣٨٠).

وقد أرشد القرآن الكريم من وردت على سمعه شائعة إلى أن يصون لسانه عن نقلها، وأن يُعْرِض عن قائلها وينهاه، ويقول له: ما يكون لي أن أتكلّم بهذا، سبحانك ربي هذا بهتان عظيم. قال الله عَزَّوَجَلَّ لمن خاض فيما أشيع عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور:١٦].

والمسلم يعلم أن الإنسان مؤاخذ بما يقول، فلا يقول إلا حقًّا، ولا ينطقُ إلا صدقًا، فهو يوقن بقول الله عَزَّوَجَلَّ بأنه: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق:١٨].

المطلب الخامس: الأهداف التربوية للقصة (قصة لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ أنموذجًا):

إن من مقاصد القصة في القرآن الكريم: الهداية، والموعظة الحسنة، ومن مقاصدها: التربية على بناء العقيدة على أسس راسخة من الإيمان، والثبات، والاستقامة في الفكر والسلوك، والصبر على الابتلاء، وعلى مشاقِّ الدعوة. وفي القصص القرآنية: حثٌّ على مكارم الأخلاق، والصفات الفاضلة، وبيان للقدوة الحسنة التي يُقتدى بها، وفيها: التحذير من القدوة السيئة التي تضل الناس عن سواء السبيل.

وإن من قصص القرآن الهادفة والنبيلة: ما جاء في القرآن الكريم من ذكرٍ لوصايا لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ الجامعة والنافعة.

فقد كان لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ مربِّيًا حكيمًا وناصحًا، آتاه الله عَزَّوَجَلَّ الحكمة، وأثنى عليه، وأمره أن يشكر الله عَزَّوَجَلَّ على هذه النعمة العظيمة؛ فإن الحكمة من يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا، كما قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ﴾ [البقرة:٢٦٩].

ومن الدروس المستفادة من وصايا لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: الوصية بالشكر لله عَزَّوَجَلَّ على نعمه الوافرة، والشكر للوالدين، وذكر فائدة الشكر، وأنها تعود على العبد، وأن الله جَلَّوَعَلَا غنيٌّ عن العباد، وهم الفقراء إليه، وحاجتهم الدنيويَّة، وكذلك الأخرويَّة هي التي تحوجهم إلى هذه الدينونة له بالعبادة، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان:١٢].

وقال جَلَّوَعَلَا في آية أخرى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر:١٥].

وقد سجَّل القرآن الكريم نصيحة لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنه؛ لما تتضمن من الهداية والإرشاد والنصح.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣]، فنادى لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ابنه ناصحًا ومرشدًا، نصيحة محبٍّ، ومشفق، وحريص على سلامة ابنه ونجاته وعافيته في دنياه وفي آخرته، ناداه

باللفظ المحبب، والذي يحرِّك العاطفة فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾، فكانت هذه الدروس العظيمة الفائدة.

فناداه بهذه الصِّيغة التي تحرك العاطفة، والتي فيها: الموعظة، والنُّصح والتَّوجيه والإرشاد، والتَّحبب، والشَّفقة، فماذا يريد الوالد لولده إلا الخير؟

ومن الدروس المستفادة من وصايا لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: **بناء العقيدة على التوحيد الخالص لله** عَزَّوَجَلَّ، **والنَّهي عن الشرك، وبيان أن الإيمان قول، وعمل.**

وقد تقدم أن إثبات الوحدانية لله عَزَّوَجَلَّ، والتَّحرر من العبودية لغيره من أعظم مقاصد القصص والأخبار في القرآن الكريم.

كما تقدم أنَّ أعظم أسباب النَّجاة والأمن والسعادة: تحقيق التوحيد الخاص لله عَزَّوَجَلَّ، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٨٢﴾ [الأنعام:٨٢].

والمراد بالظلم ها هنا: الشرك؛ لما جاء في (الصحيح): أن الآية لما نزلت شقَّ ذلك على الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وقالوا: أَيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليس ما تَظُنُّونَ إنما هو ما قال لقمان لابنه:** ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ [لقمان:١٣]» (١). فبين لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنه قبح الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، وسوء عاقبته، فالشرك أعظم ذنبٍ عُصِيَ الله عَزَّوَجَلَّ به، وهو أعظم ما نهى الله عَزَّوَجَلَّ عنه،

---

(١) صحيح البخاري [٣٢، ٤٦٢٩، ٦٩٣٧].

وأقبح السيئات وأشنعها عند الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء:١١٦].

ثم جاء في الآيات: ذكر الوصية بالوالدين، والحثُّ على برّهما، وشكر الله عَزَّوَجَلَّ والوالدين، فقرن الله عَزَّوَجَلَّ شكره بشكرهما، وأمر بمصاحبتهما في الدنيا بالمعروف.

وخصَّ الإحسان إلى الوالدين من بين أوجه الإحسان الأخرى؛ لبيان مكانة الوالدين، ولا سيَّما الأم التي حملت ابنها وهي تزداد ضعفًا على ضعف؛ إذ الحمل يُضعفها، ويزيدها الحمل والولادة والإرضاع ضعفًا، فصوَّرَ القرآن الكريم ما تعانيه الأم في حملها، وفي ولادتها، وفي إرضاعها.

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: جاء رجل إلى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فقال: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «**أمك**» قال: ثم من؟ قال: «**ثم أمك**» قال: ثم من؟ قال: «**ثم أمك**» قال: ثم من؟ قال: «**ثم أبوك**» [1].

وقد أكَّد القرآن الكريم على ضرورة الإحسان إلى الوالدين تأكيدًا لا تجد نظيرًا له في الديانات الأخرى، فقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بعبادته وتوحيده، وجعل برَّ الوالدين مقرونًا بذلك، كما قرن شكره بشكرهما. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ [الإسراء:٢٣]، وقال: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ [لقمان:١٤]، أي: وَصَّيْنَاه بشكرنا وبشُكْر والديه، وكفى بهذا دلالة على تعظيم حقِّهما، ووجوب برِّهما،

---

(١) صحيح البخاري [٥٩٧١]، مسلم [٢٥٤٨].

والإحسان إليهما. فأوجب الله عَزَّوَجَلَّ شكر نفسه، وشكر الوالدين. ولما حصل الإجماع على أن شكر الوالدين بدوام طاعتهما، وألا يكتفى فيه بمجرد النطق بالثناء عليهما علم أنَّ شكر الحقِ لا يكفي فيه مجرَّد القول ما لم تكن فيه موافقه العمل، وذلك بالتزام الطاعة، واستعمال النعمة في وجه الطاعة [١].

وبِرُّ الوالدين فرضُ عينٍ، ولا يختصُّ بكونهما مسلمين، بل حتى لو كانا فاسقين أو كافرين يجبُ برُّهما والإحسان إليهما ما لم يأمرا بشرك أو معصية. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ [لقمان:١٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨﴾ [الممتحنة:٨].

وفي (الصحيح): عن أسماء بنت أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، قالت: قدمت عليَّ أمي وهي مشركة في عهد قريش، إذ عاهدوا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ومدتهم مع أبيها، فاستفتت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقلت: يا رسول الله إن أمي قدمت علي وهي راغبة [٢] أفأصلها؟ قال: «**نعم صليها**» [٣].

---

(١) انظر: لطائف الإشارات (١٣١/٣)، مفاتيح الغيب (٧٦/١٠).

(٢) قولها: «وهي راغبة» جملة حالية: أي: راغبة عن الإسلام وكارهة له. وقيل معناه: طامعة فيما أعطيها من الإحسان وحريصة عليه.

(٣) صحيح البخاري [٣١٨٣، ٥٩٧٩].

ومن الدروس المستفادة من قصة لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: **التربية بالقدوة**: المتمثلة في شخص الواعظ، العامل، الصالح، الناصح.

ثم جاء عقب الوصية بالوالدين: الأمر باتباع سبيل الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ **والصالحين**، والسير على نهجهم، كما في قوله: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان:١٥]، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام:٩٠]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ١٠٠﴾ [التوبة:١٠٠]، فرضي الله عَزَّوَجَلَّ عمن اتبع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم وسار على نهجهم إلى يوم القيامة، فدلَّ ذلك على أن من تابعهم فهو عامل بما يرضي الله عَزَّوَجَلَّ، وسائر في طريق الهداية والنجاة، وفيه دلالة على أن مخالفة نهجهم مفضٍ إلى الضلال والكفر، وقد قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ١١٥﴾ [النساء:١١٥]، وقد فصَّل الله عَزَّوَجَلَّ الآيات، وبيَّنَها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيما بيان، فاستبان طريق المؤمنين الصالحين من طريق المجرمين المفسدين، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ٥٥﴾ [الأنعام:٥٥]، وقال موسى لأخيه هارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٤٢﴾ [الأعراف:١٤٢].

وينبِّه لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ **ابنه على عدم استصغار الذنوب والاستهانة بالمعاصي،** فمعظم النار من مستصغر الشرر، فالمعصية تبدأ صغيرة، ثم ما تلبث أن تصير كبيرة، وتنتهي بصاحبها إلى الهلاك في الدنيا والآخرة، فيذكر ابنه بالآخرة، وبما ينجيه من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ، وبقدرة الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وبسعة علمه وإحاطته بكل شيء، فلا تخفى عليه خافية، فيقول له: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾ [لقمان:١٦]. وفي قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان:١٦] دلالة على عظيم قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، وواسع علمه، فهو جَلَّوَعَلَا يعلم تلك الحبة ويأتي بها إذا شاء، ويأتي بجزاء ما يَزِنُها من خيرٍ أو شرٍّ فيجازي عليه. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾ [النساء:٤٠]، وقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ٤٧﴾ [الأنبياء:٤٧].

وقد حذَّرنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الاستهانة بصغائر الذنوب، فقال: «**إياكم ومُحَقَّرَات الذنوب؛ فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد، فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود، ثم حملوا ما أنضجوا به خبزهم، وإن مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ متى يُؤْخَذْ بها صَاحِبُهَا تُهْلِكْه**»(١).

---

(١) الحديث مروي عن سهل بن سعد، وعن عبد الله بن مسعود بألفاظ متقاربة. حديث سهل: أخرجه أحمد [٢٢٨٠٨]، والروياني [١٠٦٥]، والطبراني في (الكبير) [٥٨٧٢]، و(الأوسط) [٧٣٢٣]، و(الصغير) [٩٠٤]، والرامهرمزي في (أمثال الحديث) (ص:١٠٥)، والبيهقي في (شعب الإيمان)=

فقوله ﷺ: «**إياكم ومُحَقَّرَات الذنوب**»، "أي: صغائرها؛ لأن صغارها أسباب تؤدي إلى ارتكاب كبارها، كما أن صغار الطاعات أسباب مؤدية إلى تحري كبارها، فالصغائر إذا اجتمعت ولم تُكَفَّر - بأن لم يوجد لها مكفرًا- أهلكت؛ لمصيرها كبائر بالإصرار" (١).

قال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "صغائر المعاصي يجر بعضها إلى بعض حتى تفوت أهل السعادة بهدم أصل الإيمان عند الخاتمة" (٢).

=[٦٨٨١]. قال الهيثمي: (١٠/١٩٠): "رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، ورواه الطبراني في الثلاثة من طريقين، ورجال إحداهما رجال الصحيح غير عبد الوهاب بن عبد الحكم وهو ثقة". حديث ابن مسعود: أخرجه الطيالسي [٤٠٠]، وأحمد [٣٨١٨]، والطبراني في (الكبير [١٠٥٠٠]، وفي (الأوسط) [٢٥٢٩]، وأبو الشيخ [٣١٩]، والبيهقي في (الكبرى) [٢٠٧٦٢]، و(شعب الإيمان) [٢٨١]. وقال المناوي: "قال الحافظ العراقي: إسناده جيد، وقال العلائي: حديث جيد على شرط الشيخين" فيض القدير (٣/١٢٨)، قال الهيثمي (١٠/١٨٩): "رواه أحمد، والطبراني في (الأوسط)، ورجالهما رجال الصحيح غير عمران بن داود القطان، وقد وثق". وقال ابن حجر: التعبير بالمحقرات وقع في حديث: سهل بن سعد رفعه. وقد أخرجه أحمد بسند حسن، ونحوه عند أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود. وعند النسائي وابن ماجه عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ قال لها: «يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب؛ فإن لها من الله طالبًا». وصححه ابن حبان" فتح الباري، لابن حجر (١١/٣٢٩).

(١) انظر: فيض القدير (٣/١٢٧)، التيسير بشرح الجامع الصغير (١/٤٠٥).

(٢) إحياء علوم الدين (٣/٦٠).

وفي (الصحيح): عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «**إنكم لتعملون أعمالًا، هي أدَقُّ في أعيُنِكُم من الشَّعَر، إن كنَّا لنعدُّها على عهد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الموبقات**».
قال أبو عبد الله: "يعني بذلك: المهلكات" (١).

وقد قيل:

خَلِّ الذُّنوب صغيرها ... وكبيرها ذاك التقى
واصنع كماشٍ فوق أر ... ض الشَّوك يحذر ما يرى
لا تَحْقِرَنَّ صغيرة ... إنَّ الجبال من الحصا

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "كثيرٌ من الناس يتسامحون في أمور يظنونها قريبة، كإطلاق البصر؛ هوانًا بتلك الخطيئة، وكفتوى من لا يعلم؛ لئلَّا يقال: هو جاهل، ونحو ذلك مما يظنه صغيرًا، وهو عظيم" (٢).

---

(١) صحيح البخاري [٦٤٩٢].

(٢) صيد الخاطر (ص:١٤٩) بتصرف. وقد حدَّث النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذنوبٍ يظنُّ البعض أنها هينة، ولكنها ليست كذلك، فقد مَرَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحائط من حيطان المدينة، أو مكة، فسمع صوت إنسانين يعذبان في قبورهما، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يعذبان، وما يعذبان في كبير»، ثم قال: «بلى، كان أحدهما لا يستتر من بوله، وكان الآخر يمشي بالنميمة» صحيح البخاري [٢١٦، ٢١٨، ١٣٦١، ٦٠٥٢، ٦٠٥٥]، مسلم [٢٩٢]. قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وما يعذبان في كبير» ذكر العلماء فيه تأويلين أحدهما: أنه ليس بكبير في زعمهما، والثاني: أنه ليس بكبير تركه عليهما. وحكى القاضي عياض تأويلًا ثالثًا، أي: ليس بأكبر الكبائر. شرح النووي على صحيح مسلم (٢٠١/٣)، إكمال المعلم، للقاضي عياض (٦٤/٢).

وفي قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾ [لقمان:١٦] دلالة على علم الله عَزَّوَجَلَّ بدقائق الأمور وجزئياتها، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾، أي: ﴿لَطِيفٌ﴾ باستخراج الحبة من موضعها حيث كانت ﴿خَبِيرٞ ١٦﴾ بموضعها ومستقرها.

وقد روى: "أنَّ أن ابن لقمان سأل لقمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فقال: أرأيت الحبة تكون في مَقْلِ البحر، أي: في مغاص البحر أيعلمها الله؟ -يقال: مَقَلَ يمْقُل: إذا غاص-، فأعلمه أن الله عَزَّوَجَلَّ يعلم الحبة حيث كانت، وفي أخفى المواضع؛ لأن الحبة في الصخرة أخفى من الماء، ثم أعلمه أنها حيث كانت يعلمها بلطفه عَزَّوَجَلَّ وخبرته. وهذا مثل لأعمال العباد أن الله عَزَّوَجَلَّ يأتي بأعمالهم يوم القيامة" (١).

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٥ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ [آل عمران:٥-٦]. وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩﴾ [الأنعام:٥٩].

وفي قصة لقمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ **دلالة على أن الدنيا دار ابتلاء،** وأن حقيقة الإيمان لا تكون إلا بالصبر على المكاره، والتزام أمر الله عَزَّوَجَلَّ من نحو: إقام الصلاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ فإن ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾، أي: مما أمر الله عَزَّوَجَلَّ

---

(١) معاني القرآن وإعرابه (١٩٧/٤).

به على وجه العزم والإيجاب، أو من مكارم الأخلاق التي يعزم عليها أهلُ الحزم والجد، السَّالكون طريق النجاة.

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في آية أخرى: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ١٨٦﴾ [آل عمران:١٨٦]، أي: ستقع عليكم المحن، فيعلم المؤمن من غيره، والميزان الذي يميز المؤمن الصادق عن المدعي الكاذب هو ميزان التقوى والصبر.

وفي قصة لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: دلالة على أن الحياة الدنيا هي ميدان العمل، وأن الدار الآخرة هي الدار الباقية، وتذكير بالحساب والجزاء، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ١٤﴾ [لقمان:١٤]، أي: فأجازي من شكر، وأعاقب من كفر. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٥﴾ [لقمان:١٥].

ثم أوصى لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ابنه بالاستقامة على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، والتزام أمره، وخصَّ الصلاة بالذكر من بين سائر الطاعات؛ لأنها عمود الدِّين، والصِّلة الدَّائمة بين العبد وربه جَلَّوَعَلَا، وهي دليلٌ على محبَّة العبدِ لربِّه عَزَّوَجَلَّ، وتقديره لنعمه التي لا تُحصى.

فالصلاة هي سنام الطاعات، والمحافظة عليها من أسباب التوفيق في الدنيا، كما أنها من أعظم المنجيات من العذاب في الآخرة، كما دلَّت النُّصوص على ذلك.

وهي تنمي في العبد شعور المراقبة لله عَزَّوَجَلَّ، فتنهاه عن الفحشاء والمنكر، كما أخبر الحق عَزَّوَجَلَّ عن ذلك بقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت:٤٥]؛ لأنها تجعل العبد مراقبًا لله عَزَّوَجَلَّ في سائر أعماله وأقواله وأحواله.

والمواظبة على الصلاة عنوان فلاح المؤمن في الدنيا والآخرة، وقد وصف الله عَزَّوَجَلَّ عباده الأخيار بأنهم ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩٢﴾ [الأنعام:٩٢]، ووصفهم بأنهم: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣﴾ [المعارج:٢٣]، وبأنهم مهتمون بالصلاة، وحريصون على أدائها في أوقاتها. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ۝١٠٣﴾ [النساء:١٠٣]، فالصلاة تعلم العبد التواضع والشكر، وتملأ قلبه بالرحمة، وفيها تدريب على النظام، والانتفاع من الزمن.

والصلاة تمد المؤمن بقوة روحية تعينه على تحمل الشدائد والمكاره، فقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أن خير ما يستعان به على ذلك: الصبر والصلاة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة:٤٥]؛ ولذلك أوصى لقمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ابنه بالصلاة وبالصبر على ما أصابه.

وقد كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة [(١)].

---

(١) جاء في الحديث: عن حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا حزبه أمر، صلَّى» أخرجه أحمد [٢٣٢٩٩]، وأبو داود [١٣١٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٢٩١٢]. قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) (١٧٢/٣): "أخرجه أبو داود بإسناد حسن".

وكان الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة، كما في حديث: صهيب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ فيما حكاه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ عن نبي من الأنبياء السابقين: «**فقام إلى الصلاة، وكانوا إذا فزعوا، فزعوا إلى الصلاة**» (١).

والصلاة هي الغذاء الروحي الذي يعين على مقاومة الجزع إذا مسَّ الإنسانَ الضُّرُّ، والمنع والإمساك إذا مَسَّهُ الخيرُ. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ٢٢ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ٢٣﴾ [المعارج:١٩-٢٣]، أي: إلا الذين يطيعون الله عَزَّ وَجَلَّ بأداء ما افترض عليهم من الصلاة، وهم على أداء ذلك مقيمون لا يضيعون منها شيئًا.

ثم أوصى لقمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ابنه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو القطب الأعظم في الدين، وهو الْمُهِمُّ الذي ابتعث الله عَزَّ وَجَلَّ له النبيين أجمعين، ولو طوي بساطه وأهمل علمه وعمله؛ لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، كما قال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢). وكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر، وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتحذير من الفساد

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٤٨٠]، وأحمد بإسناد صحيح [١٨٩٣٧]، والبزار [٢٠٨٩]، والنسائي في (الكبرى) [١٠٣٧٥]، وابن حبان [١٩٧٥]، والضياء [٥٢]، وقال: "إسناده صحيح".

(٢) انظر: إحياء علوم الدين، للغزالي (٢/٣٠٦).

ومحاربته، والصلاح والإصلاح طريق العزة، وعنوان الفلاح، وهو سبيل النجاة في الآخرة، والحياة الطيبة في الدنيا.

وقد تقدم بيان مكانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثم أوصاه بالصبر والثبات؛ لأن من استقام على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وسار على نهج النبيين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والمصلحين فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر فإنه سيتعرض للإيذاء والشدة كما تعرض من قبله من خيرة الخلق؛ فلذلك أمره بالصبر. وقد تقدم بيان مكانة الصبر.

فمن الدروس المستفادة من قصة لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: أنه أوصى ابنه بالصبر وبالشكر -كما تقدم-، وبين الشكر والصبر تلازم.

فقد ذكر غير واحد من الأئمة رَحِمَهُمُ اللَّهُ وجه التلازم بين الصبر والشكر، فمن ذلك: قول الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: "الشكر واجب، وترك الواجب حرام، وفي شغل النفس بفعل الواجب صبر على فعل الحرام، والحاصل أن الشكر يتضمن الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية. قال بعض الأئمة: الصبر يستلزم الشكر لا يتم إلا به، وبالعكس فمتى ذهب أحدهما ذهب الآخر، فمن كان في نعمة ففرضه: الشكر والصبر، أما الشكر فواضح، وأما الصبر فعن المعصية، ومن كان في بلية ففرضه: الصبر والشكر، أما الصبر فواضح، وأما الشكر فالقيام بحق الله عَزَّوَجَلَّ عليه

في تلك البلية؛ فإن لله جَلَّوَعَلَا على العبد عبودية في البلاء، كما له عليه عبودية في النعماء" (١).

ومن ذلك: قول الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الصبر قد يكون على الطاعة وعن المعصية وفيهما يتحد الصبر والشكر؛ لأن الصبر على الطاعة هو عين شكر الطاعة؛ لأن الشكر يرجع إلى صرف نعمة الله عَزَّوَجَلَّ إلى ما هو المقصود منها بالحكمة، والصبر يرجع إلى ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى، فالصبر والشكر فيه اسمان لمسمى واحد باعتبارين مختلفين، فثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى يسمى: (صبرًا) بالإضافة إلى باعث الهوى، ويسمى: (شكرًا) بالإضافة إلى باعث الدين؛ إذ باعث الدين إنما خلق لهذه الحكمة، وهو أن يصرع به باعث الشهوة، وقد صرفه إلى مقصود الحكمة فهما عبارتان عن معنى واحد فكيف يفضل الشيء على نفسه؟!" (٢).

ومن ذلك: قول العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن العبد لا يخلو قط من أن يكون فى نعمة أو بلية، فإن كان فى نعمة ففرضها: الشكر والصبر. أما الشكر فهو قيدها وثباتها، والكفيل بمزيدها، وأما الصبر فعن مباشرة الأسباب التى تسلبها، وعلى القيام بالأسباب التي تحفظها، فهو أحوج إلى الصبر فيها من حاجة المبتلى. ومن هنا يعلم سر مسألة الغنى الشاكر والفقير الصابر، وأن كلًّا منهما محتاج إلى الشكر والصبر،

---

(١) فتح الباري، لابن حجر (٣٠٥/١١)، وانظر: الكواكب الدراري (٢٢٨/٢٢).

(٢) إحياء علوم الدين (١٣٩/٤).

وأنه قد يكون صبر الغنى أكمل من صبر الفقير. كما قد يكون شر الفقير أكمل، فأفضلهما: أعظمهما شكرًا وصبرًا، فإن فضل أحدهما في ذلك فضل صاحبه.

فالشكر مستلزم للصبر لا يتم إلا به، والصبر مستلزم للشكر لا يتم إلا به. فمتى ذهب الشكر ذهب الصبر، ومتى ذهب الصبر ذهب الشكر، وإن كان في بلية ففرضها الصبر والشكر أيضًا: أما الصبر فظاهر، وأما الشكر فللقيام بحق الله عَزَّوَجَلَّ عليه في تلك البلية؛ فإن لله جَلَّوَعَلَا على العبد عبودية في البلاء كما له عليه عبودية في النعماء، وعليه أن يقوم بعبوديته في هذا وهذا. فعلم أنه لا انفكاك له عن الصبر، ما دام سائرًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ" (١).

وأخبر الله عَزَّوَجَلَّ أن الصبر والشكر من أسباب التدبر والاعتبار، والإنابة إلى الواحد القهار، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾ [إبراهيم:٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٣١﴾ [لقمان:٣١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝١٩﴾ [سبأ:١٩]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ۝٣٢ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٣٣﴾ [الشورى:٣٢-٣٣].

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص:٢٦٥).

وقد قسم ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ الصبر باعتبار محله، وبحسب اختلاف قوته وضعفه، وباعتبار متعلقه، وباعتبار تعلق الأحكام الخمسة به.

فقال: الصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام: صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها، وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها، وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها.

وهذه الثلاثة قد وقعت الإشارة إليها بآية: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ [لقمان:١٧] (١).

وقد فصلت القول في ذلك في الجزء الثاني من كتاب: (الإرشاد إلى أسباب النجاة).

وإن من أعظم المنجيات من الفتن وسوء العاقبة: صبر المؤمن على ما يقع عليه من البلاء في الحياة الدنيا.

فيحتاج المؤمن إلى الصبر في جميع أحواله، ولا سيما إذا نزل به ضُرٌّ، من نحو: فقر، أو مرض، أو محنة، أو بلية.

وفي الحديث: عن صهيبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عجبًا لأمر المؤمن، إنَّ أمره كُلَّهُ خيرٌ، وليس ذاك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن أصابته سَرَّاءُ شَكَرَ، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضَرَّاءُ، صَبَرَ فكان خيرًا له**» (٢).

---

(١) انظر ذلك مفصلًا في (عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين) (ص:٢٢-٣٣).

(٢) صحيح مسلم [٢٩٩٩]، وقد تقدم.

فقوله ﷺ: «**إنَّ أمره كُلَّهُ خيرٌ**» أي: خير له في المآل وإن كان بعضه شرًّا صوريًّا في الحال.

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المؤمن هنا هو العالم بالله عَزَّ وَجَلَّ، الراضي بأحكامه، العامل على تصديق موعوده، وذلك أن المؤمن المذكور إما أن يبتلى بما يضره، أو بما يسره، فإن كان الأول صبر واحتسب ورضي، فحصل على خير الدنيا والآخرة وراحتهما، وإن كان الثاني، عرف نعمة الله عَزَّ وَجَلَّ عليه، ومنَّته فيها، فشكرها وعمل بها، فحصل على نعيم الدنيا ونعيم الآخرة.

وقوله: «**وليس ذلك إلا للمؤمن**» أي: المؤمن الموصوف بما ذكرته؛ لأنه إن لم يكن كذلك لم يصبر على المصيبة، ولم يحتسبها، بل يتضجر ويتسخط، فينضاف إلى مصيبته الدنيوية مصيبته في دينه، وكذلك لا يعرف النعمة، ولا يقوم بحقها، ولا يشكرها، فتنقلب النعمة نقمة والحسنة سيئة -نعوذ بالله من ذلك-" (١).

وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما حُضِرَتْ بِنْتٌ لرسول الله ﷺ صَغِيرَةٌ، فأخذها رسول الله ﷺ فضمَّها إلى صدره، ثم وضع يده عليها، فقضت وهي بين يدي رسول الله ﷺ، فبكت أم أيمن، فقال لها رسول الله ﷺ: «**يا أم أيمن، أتبكين ورسول الله** ﷺ **عندك**»، فقالت: ما لي لا أبكي ورسول الله ﷺ يبكي، فقال رسول الله ﷺ: «**إني لست أبكي، ولكنها رحمة**»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**المؤمِنُ بِخَيْرٍ على كُلِّ حالٍ تُنْزَعُ نَفْسُهُ من**

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦/٦٣٠).

بين جَنْبَيْهِ وهو يَحْمَدُ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ»[١]، يعني: أن أحوال المؤمن كلها خير له، سواء كانت سرَّاء، أم ضرَّاء؛ إذ يُثاب على كلِّ أحواله، ففي السرَّاء يُثاب على شكره، وفي الضرَّاء يثاب على صبره.

وقوله: «**تُنْزَعُ نَفْسُهُ**» ببناء الفعل للمفعول، أي: تخرُج روحه. «**من بين جَنْبَيْهِ، وهو يَحْمَدُ اللهَ** عَزَّوَجَلَّ»، أي: فهو في هذه الحالة في ثواب عظيم، حيث رضي بقضاء ربِّه، ولم يَجزَع، بل حمده على ما أصابه، فوَفَّاه أجرَه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠].

والمصائبُ التي يُبْتلى بها المؤمنُ في الدنيا من أسباب تكفير السيئات، ورفعة الدرجات، كما جاء في الحديث: عن أبي سعيد، وأبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنهما سمعا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، يقول: «**ما يصيب المؤمن من وَصَبٍ، ولا نَصَبٍ، ولا سَقَمٍ، ولا حَزَنٍ حتَّى الْهَمِّ يُهِمُّهُ، إلَّا كُفِّرَ من سيئاته**»[٢].

وفي قصة لقمان عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: **النَّهي عن الكبر، والحثُّ على التواضع والاعتدال في القول والسلوك،** وقد عبر عن ذلك بأسلوب بليغ، حيث قال لقمان عَلَيْهِٱلسَّلَامُ لابنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝١٨ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ

---

(١) أخرجه أحمد [٢٧٠٤]، وهناد [١٣٢٨]، وعبد بن حميد [٥٩٣]، والنسائي [١٨٤٣]، واللفظ له.
وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٢٩١٤]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٦٨٢]، والضياء [١٨١]، ورمز السيوطي في (جامعه) لحسنه.

(٢) صحيح مسلم [٢٥٧٣].

﴿١٩﴾ [لقمان:١٨-١٩]، فنهى ابنه عن تصعير الخدِّ، وعن المشي في الأرض مرحًا، أي: لا تول الناس خدك وتعرض عنهم تكبرًا عليهم، ولا تمش في الأرض مُخْتالًا، واعتدل في مشيك ولا تتسرع فيه إسراعًا يدل على الطيش والخفة، ولا تبطئ إبطاء يدل على الفخر والكبر.

وبيَّن له أن الله عَزَّوَجَلَّ ﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾، أي: المختال في هيئته، والفخور بلسانه وقوله، فهو بهيئته مختال؛ في ثيابه، في ملابسه، في مظهره، في مشيته، فخور بقوله ولسانه، والله عَزَّوَجَلَّ لا يحب هذا، وإنما يحب المتواضع الخفي التقي.

وفي الحديث: «**بينما رجل يَجُرُّ إزارَهُ من الخُيلاَء، خُسِفَ به، فهو يَتَجَلْجَلُ في الأرض إلى يوم القيامة**» (١).

وفي الحديث: عن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة، قال: «**إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس**» (٢).

فمن الصفات المذمومة التي لا يحبها الله عَزَّوَجَلَّ: ما جاء في الحديث من بيان صفات أهل النار: «**إن أهل النار: كل جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ مستكبر جَمَّاعٍ مَنَّاعٍ، وأهل**

---

(١) صحيح البخاري [٣٤٨٥].

(٢) صحيح مسلم [٩١]. و«بطر الحق»: دفعه وإنكاره؛ ترفعًا وتجبرًا، و«غمط الناس»: احتقارهم.

الجنة: **الضعفاء المغلوبون**» (١). ويقابلها صفات أهل الجنة التي يحبها الله عَزَّوَجَلَّ من نحو: الصبر، والتقوى، والتواضع.

و(الجعظري): -بفتح الجيم والظاء المعجمة بينهما عين مهملة وآخره راء مكسورة ثم تحتانية ثقيلة-. قيل: هو الفظ الغليظ المتكبر. وقيل: الجسيم الغليظ الأكول الشروب، أو السمين الثقيل من الشره والتنعم. وقيل: الذي يتمدح بما ليس فيه أو عنده (٢).

و(الجواظ) -بفتح جيم وتشديد واو وظاء معجمة-: الضخم المختال في مشيته (٣).

---

(١) الحديث مروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص وعن سراقة بن مالك. حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: أخرجه أحمد [٧٠١٠]، قال الهيثمي (٣٩٣/١٠): "رجاله رجال الصحيح"، وأخرجه أيضًا: الحاكم [٣٨٤٤]، وقال: "صحيح على شرط مسلم". ووافقه الذهبي. حديث سراقة بن مالك: أخرجه أحمد [١٧٥٨٥]، والطبراني في (الكبير) [١٧٥٨٥]، و(الأوسط) [٣١٥٧]، والحاكم [٦٥٩٧]، والبيهقي في (الشعب) [٧٨٢٠]. قال الهيثمي (٢٦٥/١٠): "إسناده حسن". وفي (الصحيحين): «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار: كل عتل، جواظ مستكبر» صحيح البخاري [٤٩١٨، ٦٠٧١]، مسلم [٢٨٥٣].

(٢) انظر: فتح الباري، لابن حجر (٦٦٣/٨)، فيض القدير (١٠١/٣)، النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (جعظر) (٢٧٦/١)، معالم السنن (١١٠/٤)، شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١٨٨/١٧).

(٣) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (جوظ) (١١٧١/٣).

و(الجواظ) فيه تفاسير متعددة(١).. قيل: إنه الجموع المنوع، يعني: الذي يجمع المال ويمنع ما يجب فيه.

والظاهر أن الجواظ هو الرجل الذي لا يصبر، وهو دائمًا في أنينٍ وحزنٍ وهمٍّ وغمٍّ، معترضًا على القضاء والقدر، لا يخضع له، ولا يرضى بالله عَزَّوَجَلَّ ربًّا. فجواظ يعني: جزوع لا يصبر على شيء، ويرى أنه في قمة أعلى من أن يمسه شيء.

و(الجماع) -بالتشديد-، أي: كثير الجمع للمال. و(المنوع) أي: كثير المنع له والشح والتهافت على كنزه.

ثم بين لقمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لابنه الصفة المحمودة، وهي التواضع وحسن الخلق، والتي تقابل تلك الصفة المذمومة، وهي التكبر وسوء الخلق، فبين له هيئة التواضع المحببة، وأنها تكون بالقول والفعل، فقال: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ [لقمان:١٩]، وهي مشية المتواضع لربه جَلَّوَعَلَا، وللناس، وهي الحال والهيئة المتوسطة التي يحبها الله عَزَّوَجَلَّ. ويكره ما يقابلها من مشية أهل الخيلاء، وأمَرَه أنْ يغضَّ من صوته، وأن يرفعه قدر الحاجة؛ إذ رفعُه بلا حاجة يُؤذي السامع، وخفضه أوقر للمتكلم؛ إذ إن أقبح الأصوات، وأشنعها صوت الحمار، فنهاه عن رفع الصوت؛ مبينًا له أن من يفعل ذلك فإنما يتشبه بأقبح الصفات التي تنكرها النفوس، وتنفر منها. قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والحمار مثل في الذم البليغ والشتيمة، وكذلك نهاقه. ومن استفحاشهم لذكره مجرَّدًا وتفاديهم من اسمه: أنهم يكنون عنه، ويرغبون عن

(١) انظر ما قيل في ذلك مفصلًا في (مرقاة المفاتيح) (٣١٧٦/٨).

التصريح به، فيقولون: الطويل الأذنين، كما يكنى عن الأشياء المستقذرة: وقد عدَّ في مساوي الآداب: أن يجرى ذكر الحمار في مجلس قوم من أولى المروءة. ومن العرب من لا يركب الحمار؛ استنكافًا وإن بلغت منه الرجلة (١)، فتشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير، وتمثيل أصواتهم بالنهاق، ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه، وإخراجه مخرج الاستعارة، وأن جعلوا حميرًا وصوتهم نهاقًا؛ ومبالغة شديدة في الذم والتهجين، وإفراط في التثبيط عن رفع الصوت والترغيب عنه. وتنبيه على أنه من كراهة الله عَزَّوَجَلَّ بمكان" (٢).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾ [لقمان:١٩] تعليل للأمر بغض الصوت على الاستئناف، كأنه قيل: لم أغض الصوت؟ فأجيب: لأنك إذا رفعت صوتك كنت بمنزلة الحمار في أخس أحواله. ثم ترك المشبه وأداة التشبيه ووجهه، وأخرج المشبه به مخرج الاستعارة المصرحة المركبة العقلية، أو التمثيلية" (٣).

---

(١) قوله: (منه الرجلة) أي: المشي برجله، يعني: وإن أتعبه المشي وعدم الركوب. وفي (الصحاح): (الرجل) -بالتحريك-: مصدر قولك: رجل -بالكسر- أي: بقي راجلًا. الانتصاف (٣/٤٩٨)، وانظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (رجل) (٤/١٧٠٥).

(٢) الكشاف (٣/٤٩٨).

(٣) حاشية الطيبي على الكشاف (١٢/٢٩٩).

والحاصل أنه يستفاد من قصة لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: أهمية غرس الإيمان بالله عَزَّ وَجَلَّ في نفوس الإبناء من أول النشأة، وأهمية تعليمهم ونصحهم وإرشادهم، وهي أهم صفات المربِّي في بناء الشخصية المتكاملة لأبناءه ومريديه بما يصلح حالهم ومآلهم.

وقد جمعت وصايا لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنه خير الدُّنيا والآخرة، من صلاح حال العبد فيما بينه وبين ربه جَلَّ وَعَلَا، وبينه وبين الخلق.

المطلب السادس: الأسلوب التأثيري للقصة:

تتنوع أساليب القرآن الكريم في الدعوة إلى الهدى والرشاد، وهذا التنوع يتلاءم مع العقول المتفاوتة بما ينسجم مع اختلاف أحوال الإنسان، وهي طرق ترشد الدعاة إلى مناهج الدعوة التي تنير العقول، وتؤثر في الوجدان.

ومن هذه الأساليب: سرد القصص، وهو أقرب الوسائل التربوية إلى فطرة الإنسان، وإلى جذب انتباهه، وأكثر العوامل النفسية تأثيرًا فيه؛ وذلك لما فيها التشويق من حيث التدرج في حلقاتها المترابطة، والتي تتكامل ببلوغ الخاتمة.

وإن مما يدلل على أهمية القصة في القرآن الكريم: أنها توضح سير الدعوة الدينية في الحياة منذ فجر الخليقة، والعقبات التي اعترضتها، ويذكر فيها الجوانب الهامة في حياة أشرف الخلق، وهم الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ودعوتهم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، ومواقف الأمم السابقة من الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وفي ذلك ما فيه من العبرة والعظة، والتثبيت والتسرية لكل مرسل وداعية، ولا سيما تثبيت فؤاد النبي الخاتم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من طريق إيراد

سوابق تاريخية من قصص الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وما تعرَّضوا له من الصَّد والإيذاء والإعراض، وحرصهم على الدعوة والإرشاد، بما أتوا به من بيلغ الحجة، وصدق البيان.

وفيها نصب المثال الأعلى، والقدوة الحسنة في الاتباع -كما تقدم-.

كما أن القصة في القرآن توضح الصراع القديم بين الحق والباطل، ويقتبس كل داعية من حياة الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ما يشد عضده، ويقوي عزيمته، ويوضح له طريق الحق من بين سبل متفرقة، وفلسفات متناقضة يهدم بعضها بعضًا؛ فإن تظافر الأدلة يرشد إلى إبصار الحق، ويريح النفس التي تتشوف دائمًا إلى الحقيقة، وتتطلع إلى معرفة المستقبل وما يصيبها من خير أو شر.

كما أن النظر إلى حياة الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من لدن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى خاتم الأنبياء صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما سجَّل القرآن الكريم من وصاياهم ونصائحهم وإرشادهم لأممهم ينصب أمام كل داعية المثال الأعلى، والقدوة الحسنة حيث يجد كلامًا متناسقًا، وهدفًا منسجمًا، ووحدة في الغاية والهدف.

كذلك فإن النظر إلى ما سجله القرآن على الأمم السابقة يعين كل متبصر على التمييز بين مآلات مخزية، وبين من كتب الله عَزَّوَجَلَّ له النجاة، وأورثه السعادة والحياة الباقية.

وإن سرد القصص له تأثير في نفس المخاطَب يجعله أقرب إلى تأمُّل الخطاب، والعمل بمقتضاه.. الخ؛ فإن فيها -على سبيل المثال- بيانًا لسنَّة من سنن الله عَزَّوَجَلَّ

في الطُّغاة والظَّلمة، بأنَّ مصيرهم إلى الهلاك مهما تحصَّنوا، ومهما بلغت قوَّتهم، وتنبيهًا وتحفيزًا على الاتِّعاظ والاعتبار، وأن الجزاء من جنس العمل، ففرعون -مثلًا- كما كان في الدُّنيا إمامًا من أئمَّة الظُّلم والطُّغيان فإنه سيكون يوم القيامة هو وجنوده من أئمَّة النَّار، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص:٣٩-٤٢].

فكان فرعون وملؤه أسوة في الشرِّ والضلال والجبروت، يَقتدي بهم أهلُ العتو والكفر بالله عَزَّوَجَلَّ، فهم يحثون على فعل الشرور والمعاصي، وتدسية النفوس بالفسوق والآثام التي تلقي بفاعلها في النار.

وما كفاهم أن كانوا ضالين كافرين بالله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، بل دأبوا على إضلال سواهم، وتحسين العصيان لهم، وبذلك فإنهم قد ارتكبوا جريمتين، فباؤوا بجزاءين: جزاء الضلال، وجزاء الإضلال.

وكما كانوا في الدنيا أئمَّة في الشر والجبروت والضَّلال، فإنهم سيكونون كذلك في الآخرة أئمَّة وقادة، لكن إلى النَّار، فكانوا عبرة لكل معتبر، فقد نزل بهم عقاب الله عَزَّوَجَلَّ في الحياة الدنيا، فلم يدفع عنهم ملكهم ولا أحد ممن تبعهم ما حلَّ بهم، فباؤوا بالخزي في الحياة الدنيا، قال الله عَزَّوَجَلَّ في بيان عاقبتهم: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ

إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ۝٤١ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةًۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ۝٤٢﴾.

وقد جاء في الحديث الشريف: «**من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**» (١).

وجاء في كتاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى هرقل -عظيم الروم- يدعوه إلى الإسلام: «**سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين..**» الحديث (٢).

ومن الأحاديث الواردة في ذمّ (القدوة السيئة) قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سُنَّةَ الجاهليَّة، وَمُطَّلِبُ دم امرئ بغير حق؛ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**» (٣). فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ومبتغ في الإسلام سُنَّةَ الجاهليَّة**»، أي: ما كان عليه أهلها من الاعتقادات والأعمال الباطلة.

---

(١) صحيح مسلم [١٠١٧].

(٢) صحيح البخاري [٧، ٢٩٤١، ٤٥٥٣]، مسلم [١٧٧٣].

(٣) صحيح البخاري [٦٨٨٢].

ومن الأحاديث الواردة في ذمِّ (القدوة السيئة): ما جاء عن كعب بن عُجْرَة قال: قال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أُعِيذُكَ بالله يا كعب بن عُجْرَةَ من أمراء يكونون من بعدي، فمن غَشِيَ أبوابهم فَصَدَّقَهُمْ في كذبهم، وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه، ولا يرد عَلَيَّ الحوض، ومن غَشِيَ أبوابَهم أو لم يَغْشَ ولم يُصَدِّقْهُمْ في كذبهم، ولم يُعِنْهُمْ على ظلمهم، فهو مِنّي وأنا منه، وسَيَرِدُ عَلَيَّ الحَوْضَ..**» الحديث (١).

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ عن عاقبة أئمة الضلال: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾ [النحل:٢٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت:١٢-١٣].

والقرآن قد جاء يهدي جميع متبعي الملل والأديان السابقة إلى استعمال عقولهم مع ضمائرهم؛ للوصول إلى العلم والهدى في الدين، وألا يجمدوا على ما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم؛ فإن الحقَّ أحقُّ أن يُتَّبع. يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ * قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ

---

(١) أخرجه الترمذي [٦١٤]، وقال: "حسن غريب"، وأخرجه أيضًا: الطبراني في (الكبير) [٢١٢].

كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الزخرف:٢٢-٢٥]. فدلت الآيات على أنهم آثروا القدوة السيئة على الحسنة فضلوا، فاستحقوا العذاب.

والأمة بأمسِّ الحاجة إلى القدوة الحسنة. وأعظم قدوة للناس رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، ثم وُرّاثُ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ من الصَّحابة والتَّابعين والسَّلف الصالح، ومن سار على هديهم، واقتفى أثرهم، ودعا إلى هذا الدين، وهو على بصيرة وبينة من العلماء الصالحين، والقادة المخلصين.. فهم بناة الأجيال الحقيقيون، والهداة إلى سواء السبيل.

ويوصف الإمام بأنه أُسوة وقدوة للمأمومين، فإذا كان إمامًا في الخير والصلاح أثَّر في أتباعه، فأثمر ذلك الاقتداء والتأسي: قيمًا وأخلاقًا واستقامة، وإذا كان إمامًا في الشَّر أثَّر فيهم، فأورث انحرافًا وضلالًا عن الحقِّ.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ عن الرُّسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ الَّذين يدعون النَّاس إلى الخير، ويأمرونهم بإقامة الصَّلاة، وأداء ما وجب عليهم من الحقوق لله عَزَّ وَجَلَّ، ومن حقوق العباد: ﴿وَجَعَلۡنَـٰهُمۡ أَئِمَّةً يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: ٧٣]. ودلَّت الآيات على أنَّ التَّاريخ لا يذكر الظَّالمين إلا بسوء. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَتۡبَعۡنَـٰهُمۡ فِي هَـٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةًۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص:٤٢]. ودلَّت الآيات كذلك على سنَّة من سنن الله عَزَّ وَجَلَّ في إرسال الرُّسل والأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، فكلَّما تنقضي فترة من الزَّمن، ويصبح النَّاس بحاجة إلى هدايةٍ يبعث الله عَزَّ وَجَلَّ رسولًا؛ ليعيد النَّاس إلى عبادة الله عَزَّ وَجَلَّ الواحد الأحد.

من أجل هذا كانت القصة في القرآن الكريم ركيزة قوية من ركائز الدعوة الإسلامية، القائمة على الإقناع العقلي، بما تدعو إليه من الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، ورسله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وكتبه، واليوم الآخر، وبما تحمل من مُثُل في مجال الجهاد، والكفاح، والبذل، والتضحية والفداء في سبيل الدعوة إلى الحق، والتوجيه إلى الخير والهدى، والتنكر للباطل والضلال، والصمود في وجه الظلم والطغيان.

فانظر إلى عظيم ما يستفاد من القصص التي تتضمن: (الاتِّعاظ والاعتبار)، وأنَّ ما جاء في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ فيه الاعتبار والموعظة التي يتَّعظ بها العبد، وفيه بيان ما ينفعه وما يضره في حاله ومآله، فمن اتبع هدي القرآن الكريم فإنه يغتنم ما فيه الخير والنفع، ويجتنب ما فيه الشر والضر. يقال: (وعظته فاتَّعظ)، أي: انتفع، وترك ما فيه مضرَّته إلى ما فيه مصلحته.

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣١].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء:٥٨].

وتأمَّل في قول كلِّ رسولٍ لقومه: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾ [الذاريات:٥١]، وكذلك ما كان في معناه، وكم كُرِّر في خطاب الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؟ فإن دلَّ ذلك فإنما يدلُّ على أهميَّة الموضوع.

ولكن من أعرض عن التبصر فأنى له الذِّكرى؟ يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ٣٧﴾ [فاطر:٣٧]، ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ [الفجر:٢٣]، فأنى يكون له الذِّكرى في هذا اليوم الَّذي رأى فيه ما أُخبر عنه يقينًا؟! وأنى له الاتِّعاظ وقد فات الأوان؟!

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ٥٦ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٥٧ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٩﴾ [الزمر:٥٦-٥٩].

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿طه ١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ٣﴾ [طه:١-٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ ٧٣﴾ [الواقعة:٧٣]، ﴿لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ١٢﴾ [الحاقة:١٢]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩﴾ [المزمل:١٩]، أي: عظةٌ للخلق يجبُ الاتِّعاظ بها، والعمل بموجبها.

وفي ذلك من الاتِّعاظ والاعتبار ما يوجب مبادرة الازدجار عن مخالفة الملك القهَّار. فانظر إلى لطف الله عَزَّوَجَلَّ بهذه الملة المحمديَّة؛ إذ جعل توبتها في الإقلاع عن الذَّنب، والنَّدم عليه، والعزم على عدم المعاودة إليه.

ودراسة (علم التاريخ) توسع آفاق الباحث عن الحق، وتطلعه على أحوال الأمم وسير الرجال، وتقلب الأيام، ويرى الباحث سنن الله عَزَّوَجَلَّ الكونية، وعاقبة الأمم والمجتمعات والحضارات، وانتصار أو انهزام الدعوات، فالتاريخ مرآة مصقولة تتجلى فيها عاقبة الإيمان والتقوى، ونهاية الكفر والفجور، فهو أصدق شاهد على دعوة الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وأتباعهم.

ولا شك أن القصص من أساليب الدعوة التي تؤثر في نفوس المدعوين، وتنبه القلوب والأذهان؛ فإن الداعية إذا أحسن دراسة التاريخ والإفادة منه كان أعون له في تثبيت المعاني والقيم التي يدعو إليها، ولا سيما إذا تماثلت الظروف، وتشابهت الدوافع أو الوقائع.

ومن هذه أساليب التأثير في قصص وأخبار القرآن الكريم: الاعتناء بفن التصوير، فقد حكى القرآن أحوال الأمم السابقة في صورة ناطقة تتضمن الحوار والإقناع، والموعظة الحسنة، والاعتبار، فكان لقصص القرآن الكريم أبلغ تأثير في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق.

وإن الإبداع في التصوير يحدث أثرًا في النفس يحمله على التأمل والإعجاب، فيؤثر في المتلقي الرضا النفسي والإقناع؛ فإن مبنى الطبائع على أن الشيء إذا ظهر من موضع لم يعهد ظهوره منه كان ميل النفوس إليه أكثر، وهي بالشغف به أجدر.

المطلب السابع: التنويه بجوانب الإعجاز في قصص القرآن الكريم:

يستفاد من قصص القرآن من حيث العموم: ما يظهر في سبك الكلام وبلاغته من مظهر الجلال والربوبية كما هو شأن آيات القرآن الكريم ففيه من البلاغة والإعجاز ما يدل على أنه كلام الله عَزَّوَجَلَّ الذي يعجز البسر عن الإتيان بمثله.

وجوانب الإعجاز في قصص القرآن متعددة، منها ما يتصل بجوانب البلاغة والفصاحة، ومنها: ما هو من قبيل الإخبار عن المغيبات، ومنها: ما هو من قبيل حكاية ما أتى به كل رسول من معجزة بينة من جنس ما برع به قومه، تحداهم بها؛ ليدلل على صدق ما أتى به.

وقد قالوا: إن الله عَزَّوَجَلَّ قد جعل معجزة كل نبي فيما كان أغلب على الذين بعث فيهم، وفيما كانوا يتباهون به، وكانت عوامهم تعظم به خواصهم، قالوا: إنما لما كان السحر الغالب على قوم فرعون، ولم يكن قد استحكم في زمان استحكامه في زمانه، جعل جَلَّوَعَلَا معجزة موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ في إبطاله وتوهينه، ولما كان الغالب على زمان عيسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ الطب، جعل الله جَلَّوَعَلَا معجزته في إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، والبلاغة الفصاحة في مدة محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فأراهم الله عَزَّوَجَلَّ المعجزة من جنس ما برع به قومه، وكان ذلك دليلًا على صدقه (١).

---

(١) انظر: دلائل الإعجاز (٤٧٥/١)، المحرر الوجيز (٥٣/١).

و"مراتب الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ متفاوتة، وذلك لأنه جَلَّ وَعَلَا اتخذ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ خليلًا، وأعطى داود عَلَيْهِ السَّلَامُ الملك والنبوة، وسخر لسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ الجن والإنس والطير والريح. وخصَّ محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالبعث إلى الثقلين، وكونه خاتم النبيين إلى سائر خصائصه. هذا إذا حملنا الدرجات على المناصب والمراتب.

أما إذا حملناها على المعجزات ففيه أيضًا وجه وذلك أن كل واحد من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أوتي نوعًا آخر من المعجزة لائقًا بزمانه، فمعجزات موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي قلب العصا حية، واليد البيضاء، كانت شبيهة بما عليه أهل زمانه من السحر، ومعجزات عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وهي إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، كانت شبيهة بما كان أهل ذلك العصر متقدمين فيه، وهو الطب، ومعجزة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي القرآن كانت من جنس البلاغة، والفصاحة، والخطب، والأشعار، وبالجملة فالمعجزات متفاوتة بالقلة والكثرة، وبالبقاء وعدم البقاء، وبالقوة وعدم القوة، وفيه وجه ثالث، وهو أن يكون المراد بتفاوت الدرجات ما يتعلق بالدنيا، وهو كثرة الأمة والصحابة وقوة الدولة، فإذا تأملت الوجوه الثلاثة علمت أن محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان مستجمعًا للكل، فمنصبه أعلى، ومعجزاته أبقى وأقوى، وقومه أكثر، ودولته أعظم وأوفر" [1].

---

(١) مفاتيح الغيب (٥٢٧/٦)، غرائب القرآن (٧/٢-٨).

وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من الأنبياء نَبِيٌّ إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله** عَزَّ وَجَلَّ **إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**» (١).

ومن أوجه الإعجاز في القرآن الكريم: أنه قد اشتمل على أخبار كثيرة لا سبيل لبشر أن يعلمها أو يتعلمها، كيف والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب؟! قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٤٨ بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ﴾ [العنكبوت:٤٨-٤٩]، فصدور الذين أوتوا العلم تعي أنَّ القرآن الكريم كلام لا يصدر مثله عن بشر، مع تظافر الأدلة على أنه كلام الله عَزَّ وَجَلَّ. والإعجاز الغيبي ثلاثة أقسام: (**الأول**: غيب الماضي، **الثاني**: غيب الحاضر. **الثالث**: غيب المستقبل).

وسيأتي بيان ذلك في (مبحث الإعجاز).

المطلب الثامن: فوائد أخرى متفرقة وبيان بلاغة التكرار:

ذكر الإمام محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ أن القصص في القرآن الكريم بثت بأسلوب بديع، إذ ساقها في مظان الاتعاظ بها مع المحافظة على الغرض الأصلي الذي جاء به القرآن من تشريع وتفريع، قال: فتوفرت من ذلك عشر فوائد:

---

(١) صحيح البخاري [٤٩٨١، ٧٢٧٤]، مسلم [١٥٢].

فمن هذه الفوائد التي ذكرها: أن قصارى علم أهل الكتاب في ذلك العصر كان معرفة أخبار الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وأيامهم، وأخبار من جاورهم من الأمم، فكان اشتمال القرآن على تلك القصص التي لا يعلمها إلا الراسخون في العلم من أهل الكتاب تحديًا عظيمًا لأهل الكتاب، وتعجيزًا لهم بقطع حجتهم على المسلمين، فكان حملة القرآن بذلك أحقاء بأن يوصفوا بالعلم الذي وصفت به أحبار اليهود، وبذلك انقطعت صفة الأمية عن المسلمين في نظر اليهود، وانقطعت ألسنة المعرضين بهم بأنهم أمة جاهلية، وهذه فائدة لم يبينها من سلفنا من المفسرين.

ومن هذه الفوائد: أن من أدب الشريعة معرفة تاريخ سلفها في التشريع من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بشرائعهم، فكان اشتمال القرآن على قصص الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وأقوامهم تكليلًا لهامة التشريع الإسلامي بذكر تاريخ المشرعين، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران:١٤٦] الآية. وهذه فائدة من فتوحات الله عَزَّوَجَلَّ لنا أيضًا. وقد رأيت من أسلوب القرآن في هذا الغرض: أنه لا يتعرض إلا إلى حال أصحاب القصة في رسوخ الإيمان وضعفه، وفيما لذلك من أثر عناية إلهية أو خذلان. وفي هذا الأسلوب لا تجد في ذكر أصحاب هذه القصص بيان أنسابهم، أو بلدانهم؛ إذ العبرة فيما وراء ذلك من ضلالهم أو إيمانهم. وكذلك مواضع العبرة في قدرة الله عَزَّوَجَلَّ في قصة أهل الكهف: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾ [الكهف:٩] إلى قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۝١٣﴾ [الكهف:١٣] الآيات، فلم يذكر أنهم من أيّ قوم، وفي أي

عصر. وكذلك قوله فيها: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾ [الكهف:١٩]، فلم يذكر أي مدينة هي؛ لأن موضع العبرة هو انبعاثهم، ووصول رسولهم إلى المدينة إلى قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٞ﴾ [الكهف:٢١].

ومن هذه الفوائد: ما فيها من فائدة التاريخ من معرفة ترتب المسببات على أسبابها في الخير والشر والتعمير والتخريب؛ لتقتدي الأمة وتحذر، وما فيها من فائدة ظهور المثل العليا في الفضيلة وزكاء النفوس أو ضد ذلك.

ومن هذه الفوائد: أن في حكاية القصص سلوك أسلوب التوصيف والمحاورة، وذلك أسلوب لم يكن معهودًا للعرب، فكان مجيؤه في القرآن ابتكار أسلوب جديد في البلاغة العربية، شديد التأثير في نفوس أهل اللسان، وهو من إعجاز القرآن؛ إذ لا ينكرون أنه أسلوب بديع ولا يستطيعون الإتيان بمثله؛ إذ لم يعتادوه، انظر إلى حكاية أحوال الناس في الجنة والنار والأعراف في سورة الأعراف.

ومن هذه الفوائد: أن العرب بتوغل الأمية والجهل فيهم أصبحوا لا تهتدي عقولهم إلا بما يقع تحت الحس، أو ما ينتزع منه ففقدوا فائدة الاتعاظ بأحوال الأمم الماضية، وجهلوا معظمها، وجهلوا أحوال البعض الذي علموا أسماءه، فأعقبهم ذلك إعراضا عن السعي لإصلاح أحوالهم بتطهيرها مما كان سبب هلاك من قبلهم، فكان في ذكر قصص الأمم توسيع لعلم المسلمين بإحاطتهم بوجود الأمم ومعظم أحوالها، قال مشيرا إلى غفلتهم قبل الإسلام: ﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ﴾ [إبراهيم:٤٥].

ثم قال بعد ذلك: وفوائد القصص تجتلبها المناسبات، فتذكر القصة كالبرهان على الغرض المسوقة هي معه، فلا يعد ذكرها مع غرضها تكريرًا لها؛ لأن سبق ذكرها إنما كان في مناسبات أخرى. كما لا يقال للخطيب في قوم، ثم دعته المناسبات إلى أن وقف خطيبًا في مثل مقامه الأول فخطب بمعان تضمنتها خطبته السابقة: إنه أعاد الخطبة، بل إنه أعاد معانيها، ولم يعد ألفاظ خطبته. وهذا مقام تظهر فيه مقدرة الخطباء فيحصل من ذكرها هذا المقصد الخطابي.

ثم تحصل معه مقاصد أخرى.

منها: رسوخها في الأذهان بتكريرها.

ومنها: ظهور البلاغة، فإن تكرير الكلام في الغرض الواحد من شأنه أن يثقل على البليغ فإذا جاء اللاحق منه إثر السابق مع تفنن في المعاني باختلاف طرق أدائها من مجاز، أو استعارات، أو كناية. وتفنن الألفاظ وتراكيبها بما تقتضيه الفصاحة وسعة اللغة باستعمال المترادفات، وتفنن المحسنات البديعية المعنوية واللفظية ونحو ذلك كان من الحدود القصوى في البلاغة.

وذكر من هذه المقاصد:

أن تلك القصص تختلف حكاية القصة الواحدة منها بأساليب مختلفة ويذكر في بعض حكاية القصة الواحدة ما لم يذكر في بعضها الآخر وذلك لأسباب:

منها: تجنب التطويل في الحكاية الواحدة، فيقتصر على موضع العبرة منها في موضع، ويذكر آخر في موضع آخر، فيحصل من متفرق مواضعها في القرآن كمال القصة، أو كمال المقصود منها، وفي بعضها ما هو شرح لبعض.

ومنها: أن يكون بعض القصة المذكور في موضع مناسبًا للحالة المقصودة من سامعيها، ومن أجل ذلك تجد ذكرًا لبعض القصة في موضع، وتجد ذكرًا لبعض آخر منها في موضع آخر؛ لأن فيما يذكر منها مناسبة للسياق الذي سيقت له؛ فإنها تارة تساق إلى المشركين، وتارة إلى أهل الكتاب، وتارة تساق إلى المؤمنين، وتارة إلى كليهما، وقد تساق للطائفة من هؤلاء في حالة خاصة، ثم تساق إليها في حالة أخرى. وبذلك تتفاوت بالإطناب والإيجاز على حسب المقامات.

ومنها: أنه قد يقصد تارة التنبيه على خطأ المخاطبين فيما ينقلونه من تلك القصة، وتارة لا يقصد ذلك...إلى غير ذلك [١].

"وإن إطلاق كلمة تكرار هنا فيها كثير من التسامح والتساهل؛ فإن تعرض القرآن لما حدث مع نبي من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مع قومه في أكثر من موضع ليس هو تكرارًا بالمعنى الحقيقي، إنما هو استشهاد بالقصة لأغراض متعددة؛ لذلك لا نجد القصة تعاد كما هي، وإنما يذكر الجزء المناسب للغرض والمقصد الذي اقتضى الاستشهاد بالقصة باستعراض سريع. أما جسم القصة فلا يكرر إلَّا نادرًا، ولاستنباط دروس وعبر جديدة منه مما يجعله على الحقيقة غير مكرر.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (١/٦٤-٦٩).

وهكذا وردت قصة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ في ست مواضع من القرآن تثير العبر حول خطر اتباع الهوى ومخالفة أمر الله عَزَّوَجَلَّ، وضعف الإنسان أو توبته وقبول توبته.. وهكذا.

كذلك وردت قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في نحو عشرين موضعًا، تثير في كل موضع عبرة ودرسًا، في التوحيد، أو الإنابة، أو تأسيس البيت العتيق، أو الأذان في الحج.. إلى آخر ما هنالك.." (١).

فالقصة في كل سورة فيها من المعاني والحكم ما لا يوجد في سورة أخرى، وسياق السور وظرفها يحددان في موضع العبرة من القصة. فليس من السهل أن يقال: في كل سورة جاءت فيها قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع فرعون: إنها قصة واحدة، بل الواجب أن ندرس القصة في كل سورة؛ ليتبين السياق الذي جاءت من أجله، والعبرة التي هدفت لها، والحكمة التي قصدت منها.

كما في قصة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث إنها وردت في ست سور، في (البقرة، والأعراف، والحجر، وطه، وص).

وفي (سورة الأعراف) وردت هذه القصة في سياق أن الناس قليلًا ما يشكرون الله عَزَّوَجَلَّ الذي مكنهم في الأرض، وجعل فيها معايش؛ ولذلك أسهبت القصة في موقف إبليس من الإنسان.

---

(١) انظر: علوم القرآن الكريم، لنور الدين العتر (ص:٢٤٩)، مطبعة الصباح، دمشق [١٤١٤هـ].

وفي (سورة الحجر) وردت القصة في سياق خلق الإنسان من طين، والجن من نار، فليست مادة أفضل من مادة، وهذا ما ركزت عليه القصة.

أما (سورة الإسراء) فقد وردت قصة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ في سياق فتنة الناس؛ ولذلك كان الإسهاب في حسد إبليس وأعدائه لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وذريته [١].

وقد نقل الدكتور جوستاف عن (دائرة المعارف البريطانية) تحت مادة: قرآن: ليس هناك مهارة أدبية عظيمة واضحة في التكرير الذي لا لزوم له لنفس الكلمات والجمل في القرآن.

والرد على ذلك من وجوه:

أولًا: إن لكل لغة منهجًا مختارًا، وللمتكلمين بها ذوقًا خاصًّا..ومن هنا يخطأ متكلم بلغة ما حين يطعن في أسلوب لغة أخرى لم يألفها لسانه، ولم يدرك سرها حجاه.

فينبغي أن يذكر في الترجمة إلى لغة أخرى: الجزء المناسب للغرض والمقصد الذي اقتضى الاستشهاد بالقصة في كلِّ موضع، وبيان أنه يغاير الموضع الآخر في كذا وكذا، وأن القصة لا تعاد كما هي كما سبق؛ فإن ذلك من (فقه اللغة) الذي لا يدركه بالترجمة الحرفية من يجهل فقهها.

---

(١) بتصرف عن (مجلة لواء الإسلام)، السنة الرابعة (ص:٥٣٧-٥٥٤)، مقالة الشيخ محمد خضر حسين.
انظر: (الرد على قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية)، د. فضل حسن عباس (ص:١٤١-١٤٢)، ط: جمعية عمال المطابع التعاونية، الأردن [١٤١٠هـ].

ثانيًا: إن التكرار في موضع اللجاج والجحود المتتابع أسلوب مرغوب فيه في اللغة العربية، ومعروف منذ عهودها الأولى.

والقرآن الكريم كتابها الأعلى، وحجتها البالغة، وإنما جاء في الذروة من أساليبها بلاغة وإعجازًا وسحرًا.

وهاك ما ورد في (سورة الرحمن) –مثلًا–؛ فإن كل آية أو اثنتين من هذه السورة تضمنت تذكيرًا بنعمة من نعم الله عَزَّوَجَلَّ السابغة على الناس في الدنيا والآخرة، فناسب أن يكرر هذا التساؤل التذكيري الذي يذكر الناسي.

على أننا نلاحظ التكرار؛ لفاصلة الأناشيد الوطنية والحربية في سائر اللغات، وعند كافة الأمم للتركيز على معنى خاص مقصود لذاته؛ لأجل التذكير به، وبيان أهميته.

فلماذا يعاب في لغة القرآن الكريم ما لا يعاب في سواها؟! [١].

وقد تكلم كثيرون في بلاغة التكرير، ومن أبرزهم: أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فذكر مقاصد التكرار وأسراره، وما فيه من ألوان البلاغة، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "كانت وفود العرب ترد على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للإسلام، فيقرئهم المسلمون شيئًا من القرآن، فيكون ذلك كافيًا لهم.

---

(١) بتصرف عن (كتاب أحكمت آياته)، أحمد محمد جمال (ص:١٢١)، ط: إدارة الصحافة والنشر، مكة المكرمة.

وكان يبعث إلى القبائل المتفرّقة بالسُّور المختلفة، فلو لم تكن الأنباء والقصص مثنَّاة ومكرَّرة لوقعت قصَّة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى قوم، وقصة عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى قوم، وقصة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى قوم، وقصة لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى قوم.

فأراد الله عَزَّوَجَلَّ بلطفه ورحمته، أن يشهر هذه القصص في أطراف الأرض، ويلقيها في كل سمع، ويثبتها في كل قلب، ويزيد الحاضرين في الإفهام والتحذير.

قال: وأما تكرار الكلام من جنس واحد وبعضه يجزىء عن بعض، كتكراره في: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون:١]، وفي (سورة الرحمن) بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ [الرحمن:١٣] فقد أعلمتك أنَّ القرآن نزل بلسان القوم، وعلى مذاهبهم. ومن مذاهبهم: التكرار؛ إرادة التوكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم الاختصار؛ إرادة التخفيف والإيجاز؛ لأن افتتان المتكلم والخطيب في الفنون، وخروجه عن شيء إلى شيء أحسن من اقتصاره في المقام على فنٍّ واحد.

وقد يقول القائل في كلامه: والله لا أفعله، ثم والله لا أفعله. إذا أراد التوكيد وحسم الأطماع من أن يفعله. كما يقول: والله أفعله، بإضمار: (لا) إذا أراد الاختصار.... إلى آخر ما ذكره في بيان بلاغة التكرار" (١).

وقد كتب في بلاغة التكرار المؤلفات والرسائل الكثيرة -قديمًا وحديثًا-، ولا سيما في كلية اللغة العربية في (جامعة الأزهر).

---

(١) انظر: تأويل مشكل القرآن، لأبي محمد بن قتيبة (ص:١٤٩-١٥٩).

وللسجلماسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ [١] نظرة جديدة وموسعة إلى بلاغة التكرير في القرآن الكريم.

وقد ذكر منهجه وطريقته: الدكتور عبد الله علي محمد حسن في كتابه: (السجلماسي ونظرة جديدة إلى بلاغة التكرير) في كلية اللغة العربية في (جامعة الأزهر).

وقد جاء في (أوله) أن التكرير طريق من طرق الإطناب لا يأتي عبثًا أو لغوًا أو تطويلًا بدون داع، وإنما جاء لهدف بلاغي كالتأكيد، أو لزيادة التنبيه، أو لطول الفصل، أو لتعدد المتعلق.

ومن المعروف أن التكرير هو ذكر الشيء مرتين أو أكثر لفائدة.

وقد اعتبر علماء البلاغة أن اللفظة أو الجملة إذا كررت دون أن تضيف جديدًا فإنه عيب يخل بفصاحة الكلام.

فقد قيل في قول الشاعر:

إِنِّي وأَسْطار سُطِرْنَ سَطْرًا ... لَقائلٌ يا نَصْرُ نَصْرا نَصْرًا [٢]:

أنه لا يفيد معنى –سوى التأكيد–، ولا ينبئ عن غرض، ولا يحمل عاطفة.

وقد ذكر البلاغيون الكثير من أغراض التكرير:

---

(١) انظر: السجلماسي ونظرة جديدة إلى بلاغة التكرير، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، ط: مركز فجر لخدمات الطباعة، القاهرة.

(٢) البيت من الرّجز، وهو في (ديوان رؤبة بن العجاج) (ص:١٧٤)، اعتنى بتصحيحه وترتيبه: وليم بن الورد البروسي، طبع ليبسج، ودار ابن قتيبة للطباعة والنشر، الكويت.

ومن هذه الأغراض: تأكيد الإنذار في نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ [التكاثر:٣-٤]. وفي ﴿ثُمَّ﴾ دلالة على أن الإنذار الثاني أبلغ وأشد، تنزيلًا لبعد المرتبة بعد الزمان، واستعمالًا للفظ: ﴿ثُمَّ﴾؛ للدلالة على التدرج في الإنذار.

ومن هذه الأغراض: استمالة المخاطب لقبول الخطاب: كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝٣٨ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ [غافر: ٣٨-٣٩] فقد كرر قوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾؛ لاستمالتهم وحملهم على قبول الرشاد.

ونحوه: الاستعطاف، كما في نحو قوله جَلَّوَعَلَا عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في دعوته لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ۝٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۝٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۝٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ۝٤٥﴾ [مريم:٤٢-٤٥].

وكما في قوله جَلَّوَعَلَا عن لقمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في نصحه لابنه: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ [لقمان:١٣]، ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ [لقمان:١٦]، ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان:١٧].

ومن هذه الأغراض: طول في الكلام، كما في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ

﴿١١٩﴾ [النحل:١١٩]، وفي قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٠﴾ [النحل:١١٠].

ومن هذه الأغراض: تعدد المتعلق، كما كرره الله عَزَّوَجَلَّ من قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾ [الرحمن:١٣]؛ لأنه جَلَّ وَعَلَا ذكر نعمة عقيب نعمة غير الغرض من ذكره عقيب نعمة أخرى.

ونحوه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٥﴾ [المرسلات:١٥]؛ لأنه جَلَّ وَعَلَا ذكر قصصًا مختلفة، وأتبع كل قصة بهذا القول، فصار كأنه عقب كل قصة: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ بهذه القصة.. إلى غير ذلك [(١)].

وقد عدَّ النورسيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ التكرار في أسلوب القرآن الذي حسبه الجاهلون مطعنًا فيه وجهًا آخر من وجوه إعجازه، وبين حكم التكرار، وذكر منها:

١- أن القرآن الكريم كتاب ذكر ودعاء ودعوة، فالذِّكر يكرَّر، والدُّعاء يردد، والدعوة تؤكد.

٢- ومن جهة أخرى فإنه لا يمكن لكل أحد في كل وقت قراءة تمام القرآن الذي هو دواء وشفاء لكل أحد في كل وقت؛ فلهذا أدرج الحكيم الرحيم أكثر المقاصد القرآنية في أكثر سوره، ولا سيما الطويلة منها، حتى صارت كل سورة قرآنًا

---

(١) انظر: الإيضاح في علوم البلاغة (٣/٢٠٠)، عروس الأفراح (١/٦٠٨)، مختصر المعاني (ص:١٧٧)، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم (٢/٨٧-٨٨)، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح (١/٦٥٩)، حاشية الدسوقي على مختصر المعاني (٢/٦٩٦).

صغيرًا، فسهَّل السبيل لكل أحد، دون أن يحرم أحدًا، فكرَّر التوحيد والحشر، وقصة موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ" (١).

٣- تكراره يناسب حاجات الإنسان المعنوية. فتكرار المعاني دون الألفاظ يجيء في القرآن إذن؛ للدلالة على تكرّر الاحتياج؛ وللإشارة إلى شدَّة الاحتياج إليها؛ ولتنبيه عرق الاحتياج وإيقاظه؛ وللتشويق على الاحتياج؛ ولتحريك اشتهاء الاحتياج إلى تلك الأغذية المعنوية.

٤- إن القرآن مؤسس لهذا الدين، ولا بدَّ للمؤسس من التكرير؛ للتثبيت، ومن الترديد؛ للتكرير للتأكيد، ومن التكرير للتقرير والتأييد.

٥- بحثه في المسائل العظيمة والحقائق الدقيقة يتطلب تكرارها؛ لتتقرر في القلوب، وتثبت في أفكار العامة.

ويخلص النورسي رَحِمَهُٱللَّهُ إلى أنه لا تكرار حقيقي في القرآن الكريم، فلكل آية حد ومطلع، ولكل قصة وجوه وأحكام وفوائد ومقاصد، فتذكر في موضع لوجه، وفي آخر لآخر.

يقول الجاحظ مبيّنًا الفائدة منه: "إن الناس لو استغنوا عن التكرير، وكفوا مؤونة البحث والتنقير، لقلَّ اعتبارهم، ومن قلَّ اعتباره قلَّ علمه، ومن قلَّ علمه قلَّ فضله، ومن قلَّ فضله كثُر نقصه، ومن قلَّ علمه وفضله وكثُر نقصه لم يُحمد على

(١) بديع الزمان سعيد النورسي، المكتوبات (٢/٢٦٧-٢٦٨)، المؤتمر العالمي لبديع الزمان النورسي (ص:٢٧٣)، [Sok Bilge cad. sanayi-BASIM-YAYIN .BOSNA/ISTANBUL Y].

خير أتاه، ولم يُذمَّ على شرٍّ جناه، ولم يجد طعم العزِّ، ولا سرور الظفر، ولا روح الرجاء، ولا برد اليقين ولا راحة الأمن.." (١).

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإن قلت: ما فائدة تكرير قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٩ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٤٠﴾ [القمر:٣٩-٤٠]؟

قلت: فائدته: أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ادكارًا واتعاظًا، وأن يستأنفوا تنبهًا واستيقاظًا، إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه، وأن يقرع لهم العصا مرات، ويقعقع لهم الشن تارات (٢)؛ لئلَّا يغلبهم السهو، ولا تستولي عليهم الغفلة، وهكذا حكم التكرير، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ [الرحمن:١٣] عند كل نعمة عدها في (سورة الرحمن)، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾ [المرسلات:١٥] عند كل آية أوردها في (سورة والمرسلات)، وكذلك تكرير

---

(١) رسائل الجاحظ (٣/١٨١).

(٢) الشَّنُّ والشَّنَّة: الْقِرْبَةُ الْخَلَقُ، وكأنها صغيرة، وجمع الشَّنِّ: (شِنَانٌ). وفي المثل: (لا يُقَعْقَعُ لي بالشِّنَان). انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (شنن) (٥/٢١٤٥-٢١٤٦). والمثل المذكور يضرب للرجل الشرس الصعب، أي: لا يهدد ولا يفزع. والقعقعة: تحريك الشيء يسمع له صوت، والشنان: جمع شن، وهي القربة البالية. قال الصفدي: الشَّنُّ: القِربة الخَلَق اليابسة، وكل وعاء أَخْلَقَ من أدَمٍ وجف فهو شَنٌّ، ولا تقل: شِنٌّ، بالكسر. وأصل المثل: أنهم كانوا إذا أرادوا حث الإبل على السير حركوا قربة بالية يسمع لها صوت فتفزع الإبل وتسرع. انظر: الكامل، للمبرد (١/٣٠٢)، المستقصى في أمثال العرب، للزمخشري (٢/٢٧٤)، تصحيح التصحيف، للصفدي (ص:٣٤٢)، الأمثال، للهاشمي (ص:٢٨١)، الزاهر في معاني كلمات الناس (٢/٣٩٦).

الأنباء والقصص في أنفسها؛ لتكون تلك العبر حاضرة القلوب، مصورة للأذهان، مذكورة غير منسية في كل أوان" [١].

(١) الكشاف (٤/٤٣٩).

المبحث الرابع عشر

الإعجاز

بين الإقناع والإمتاع

المطلب الأول: تحقيق المراد من الإعجاز في اللغة والاصطلاح:

أولًا: المراد من الإعجاز في اللغة:

الإعجاز في اللُّغة: نسبة العجز إلى الغير. يقال: "أعجزني فلان: إذا عجزت عن طلبه وإدراكه. والعجزُ: نقيض الحزم. وعَجَزَ يَعْجِزُ عَجْزًا فهو عاجزٌ ضعيفٌ" (١).

والعجز: الضعف. تقول: عَجَزْتُ عن الشَّيْءِ عَجْزًا وَمَعْجِزَةً وَمَعْجَزَةً، ومعجزًا -بالفتح- أيضًا على القياس.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ﴾ [المائدة:٣١].

وعَجَزَت المرأة تَعْجُزُ بالضم عجوزا، أي صارت عجوزا. وعَجِزَتْ بالكسر تَعْجَزُ عَجَزاً وعُجْزًا -بالضم-: عظمت عَجيزتُها.

و(أَعْجَزَهُ) الشَّيْءُ فَاتَهُ. و(عَجَّزَهُ تَعْجِيزًا) ثَبَّطَهُ أَوْ نَسَبَهُ إِلَى الْعَجْزِ. و(الْمُعْجِزَةُ) وَاحِدُ مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. والعَجوز: المرأة الكبيرة. قال ابن السكيت: ولا تقل عجوزة. والعامة تقوله. والجمع عجائز وعجز (٢).

---

(١) انظر: كتاب العين، مادة: (عجز) (١/٢١٥).

(٢) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (عجز) (٣/٨٨٣-٨٨٤)، إصلاح المنطق، لابن السكيت (١/١٤١)، تهذيب اللغة (١/٢٢٠)، معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٢/١٦٧)، إعراب القرآن، لأبي جعفر النحاس (١/٢٦٦).

ثانيًا: المراد من الإعجاز في الاصطلاح:

كثر ما قيل في تحرير المراد من الإعجاز في القرآن الكريم، مع الاتفاق على تحققه فيه من وقت نزوله، وبقاء ذلك الإعجاز المقترن بالتحدي إلى يوم القيامة، واختلاف في القدر المعجز منه.

وهاك أهم ما جاء في ذلك، مع بيان ما يترجح من هذه التعريفات.

فمن ذلك قول الشريف الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "حد الإعجاز: هو أن يرتقي الكلام في بلاغته إلى أن يخرج عن طوق البشر، ويعجزهم عن معارضته" (١).

ومن ذلك قول الفيروزآبادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومعجزة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أعجز به الخصم عند التحدي، والهاء للمبالغة" (٢).

وفي (شرح المقاصد): "المعجزة في العرف: أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي مع عدم المعارضة" (٣).

وعرَّف القاضي عبد الجبار رَحِمَهُ ٱللَّهُ الإعجاز بقوله: فمعنى قولنا في القرآن الكريم: "إنه معجِز: أن يتعذَّر على المتقدِّمين في الفصاحة فعل مثله، في القدر الذي اختصَّ به" (٤). وسيأتي ذكر ما قيل في القدر المعجز من القرآن الكريم.

---

(١) التعريفات (ص:٨٣).

(٢) القاموس المحيط (ص:٥١٦)، وانظر: الكليات (ص:١٤٩).

(٣) شرح المقاصد في علم الكلام، لسعد الدين التفتازاني (١٧٦/٢)، وانظر: الإتقان في علوم القرآن (٣/٤).

(٤) المغني في أبواب التوحيد والعدل، إعجاز القرآن (٢٢٦/١٦).

وعرفه الأستاذ الدكتور فهد الرومي بأنه: "عجز المخاطبين بالقرآن وقت نزوله ومن بعدهم إلى يوم القيامة عن الإتيان بمثل هذا القرآن، مع تمكنهم من البيان، وتملكهم لأسباب الفصاحة والبلاغة، وتوفر الدواعي، واستمرار البواعث" (١).

وقال مالك بن نبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الظاهرة القرآنية): "أهل اللغة يرون أن الإعجاز هو الإيقاع في العجز. وأهل الاصطلاح يرون أن الإعجاز هو الحجة التي يقدمها القرآن إلى خصومه من المشركين؛ ليعجزهم بها" (٢).

وعرفه أستاذنا الدكتور محمد سالم أبو عاصي بأنه: "تمتع البنية القرآنية بطاقات وخصوصيات خارجة عن طوق البشر، وعن طوق رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفسه، ومن ثم لا يكون إلا من خالق القوى والقُدَر" (٣).

وقال الأستاذ مصطفى صادق الرافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإنما الإعجاز شيئان: ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة ومزاولتها على شدة الإنسان واتصال عنايته، ثم استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدمه، فكأن العالم كله في العجز إنسان واحد ليس له غير مدته المحدودة بالغة ما بلغت" (٤).

---

(١) دراسات في علوم القرآن الكريم (ص:٢٦٣).

(٢) الظاهرة القرآنية، لمالك بن نبي (ص:٦٠).

(٣) لا يأتون بمثله، للأستاذ الدكتور محمد سالم أبو عاصي (ص:٩)، ط١، دار الحرم، القاهرة [٢٠١٧م].

(٤) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي (ص:٩٨).

والقرآن قد سما في علوه إلى شأو بعيد بحيث تعجز القدرة البشرية عن الإتيان بمثله، سواء كان هذا العلو في بلاغته، أو تشريعاته، أو في الإخبار عن الغيوب المستقبلة.

يقال: (أعجزه الشَّيء): عجز عنه. وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ٥١﴾ [الحج:٥١]، معناه: ظانِّين أنَّهم يعجزوننا؛ لأنَّهم ظنُّوا أنَّهم لا يبعثون، ولا جنَّة ولا نار. وقيل في التَّفسير: معاجزين: معاندين. وفي التَّنزيل: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾ [العنكبوت:٢٢]. قيل معناه: ما أنتم بمعجزين في الأرض، ولا أهل السَّماء بمعجزين. وقيل: معناه: وما أنتم بمُعجزين في الأرض، ولا لو كنتم في السَّماء، وليس يُعْجِز الله عَزَّوَجَلَّ خلق في السَّماء ولا في الأرض، ولا ملجأ منه إلا إليه [(١)].

قال ابن جرير الطَّبريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢﴾ [الحج:٥٢]: "وذلك أنَّ من عجز عن آيات الله عَزَّوَجَلَّ، فقد عاجز الله عَزَّوَجَلَّ، ومن معاجزة الله عَزَّوَجَلَّ التَّعجيز عن آيات الله عَزَّوَجَلَّ، والعمل بمعاصيه وخلاف أمره، وكان من صفة القوم الَّذين أنزل الله هذه الآيات فيهم أنهم كانوا يبطِّئون النَّاس عن الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، واتِّباع رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، ويغالبون رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، يحسبون أنَّهم يعجزونه ويغلبونه، وقد ضمن الله عَزَّوَجَلَّ له نصره عليهم،

---

(١) انظر: معاني القرآن، للأخفش (ص:٥٥٦)، معاني القرآن، للفرَّاء (٣١٥/٢)، معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (١٦٥/٤)، تهذيب اللغة، مادة: (عجز) (٢١٩/١)، المحكم، لابن سيده (٢٩٨/١).

فكان ذلك معاجزتهم الله عَزَّوَجَلَّ. وأمَّا (المعاجزة) فإنها المفاعلة من العجز، ومعناه: مغالبة اثنين، أحدهما صاحبه أيهما يعجزه فيغلبه الآخر ويقهره. وأمَّا (التعجيز): فإنَّه التَّضعيف، وهو التَّفعيل من العجز" [١].

والحاصلُ أنَّ معنى (إعجاز القرآن): عجز الإنس والجنِّ عن الإتيان بمثله، فكلمة (إعجاز) مصدر، وإضافتها إلى القرآن من إضافة المصدر إلى فاعله، فكأنَّ التَّقدير: أعجزَ القرآنُ النَّاس عن الإتيان بمثله. والتَّعجيز مشتقٌّ من مادَّة: (عجز)، وهو من النِّسْبَة إلى العَجْزِ. يقال: عَجَّزَ فلانٌ رأْيَ فلان، إذا نسبَه إلى العَجْز. فهو التَّفعيل من العجز. ومُعجِزَة القرآن ما أَعْجَزَ به الخصمَ عند التَّحدِّي.

ولكن يبقى النَّظر هل التَّعجيز مقصود لذاته، أم أنَّه لبيان أنَّ القرآن حقٌ، وأنَّ ما جاء به الرَّسول صدقٌ؟ والجواب: أنه لا شكَّ أنَّ التَّعجيز المذكور ليس مقصودًا لذاته، بل المقصود لازمه، وهو إظهار أنَّ هذا الكتاب حقٌّ، وأنَّ جاء به الرَّسول صدقٌ.

ثالثًا: الترجيح الذي نختاره:

وبناء على ما تقدم فإن ما يترجح من معنى الإعجاز ينبغي أن يبنى على ما يلي:

---

(١) تفسير الطَّبري (١٨٦/١٧).

١ – تقرير أن الإعجاز في القرآن الكريم إنما هو صفة الكلام نفسه، من حيث ارتقاؤه في البلاغة والصفات إلى أن يخرج عن طوق البشر.

٢ – اقتران الإعجاز بالتحدي.

٣ – العجز عن المعارضة مع توفر الدواعي، واستمرار البواعث.

وقد تقرر أن التعريف (بالحد) الذي يتناول الذاتيات أقوى من التعريف بالعرض (بالرسم)؛ فلذلك يقدَّم تعريف الشريف الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ على غيره، ونحوه قول أستاذنا الدكتور محمد سالم، وهو من أوفى ما قيل في تعريف للإعجاز.

وبعض ما قيل من تعريفات أخرى يلاحظ في بعضها عدم الوفاء بتمام المعنى، وبأخرى أنها من قبيل التعريف باللازم [١]، وقد عملت ما فيه.

وعليه فإن من الباحثين من ذهب إلى القول بأن وجه إعجاز القرآن هو الصرفة، أي: صرف الله عَزَّوَجَلَّ العرب عن معارضته على حين أنه لم يتجاوز في بلاغته مستوى طاقتهم البشرية. ولا نقول بهذا أبدًا. وقد نبَّه القاضي أبو بكر الباقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى بطلان هذا القول في قوله: "ومما يبطل ما ذكروه من القول بالصرفة أنه لو كانت المعارضة ممكنة –وإنما منع منها الصرفة– لم يكن الكلام معجزًا. وإنما يكون المنع هو المعجز، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه" [٢].

---

(١) التعريف باللازم شرطه: اللزوم البين من حيث هو لازم، وإلا يلزم الدور. انظر: البحر المحيط في أصول الفقه (٧/١١).

(٢) إعجاز القرآن، للباقلاني (ص:٣٠).

وأوجه الإعجاز في القرآن الكريم متعددة ومتنوعة -كما سيأتيك-.

المطلب الثاني: تعدد جوانب الإعجاز في القرآن الكريم:

تعددت جوانب الإعجاز في القرآن الكريم، وقد أفرد كثير من العلماء قديمًا وحديثًا كتبًا كثيرة في بيان جوانب الإعجاز، أو في بيان جانب من جوانبه -كما سيأتيك-.

فمنهم من اعتنى بالجانب الجانب البياني، ومنهم من اعتنى بالإعجاز التشريعي أو الإصلاحي، ومنهم من اعتنى بالجانب العلمي، حيث تتبع ما جاء في الآيات ذكر حقائق وظواهر كونية وعلمية ثبتت في العلوم التجريبية، ولم تكن مدركة في زمن النبي ﷺ بالوسائل البشرية على سبيل التصريح أو الإشارة.

ومنهم من اعتنى بالجانب النفسي والذوقي، فقد تكون المعجزة ذوقية حدسية، كما هي معجزة القرآن، ويدرك ذلك أرباب القلوب، ومن أنار الله عَزَّوَجَلَّ بصائرهم.

وعليه فقد قال قوم: "إن وجه الإعجاز راجع إلى التأليف الخاص به، لا مطلق التأليف، وهو بأن اعتدلت مفرداته تركيبًا وزنة، وعلت مركباته معنى، بأن يوقع كل فن في مرتبته العليا في اللفظ والمعنى.

وقال آخرون: ما فيه من الإخبار عن الغيوب المستقبلة، ولم يكن ذلك من شأن العرب.

وقال آخرون: ما تضمن من إخباره عن قصص الأولين، وسائر المتقدمين حكاية من شاهدها وحضرها.

وقال آخرون: إخباره عن الضمائر من غير أن يظهر ذلك منهم بقول أو فعل كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عمران:١٢٢]، وقوله: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ﴾ [المجادلة:٨]، وقوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال:٧].

وقال آخرون: وهو الذي عليه الجمهور والحذاق: أن التحدي إنما وقع بنظمه، وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه. ووجه إعجازه: أن الله عَزَّوَجَلَّ أحاط بكل شيء علمًا، وأحاط بالكلام كله علمًا، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى، ويتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر يعمهم الجهل والنسيان والذهول. ومعلوم بالضرورة أن أحدًا من البشر لا يحيط بذلك، وبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة، وبهذا النطق يبطل قول من قال: إن العرب كان في قدرتها الإتيان بمثله ولكنهم صرفوا عن ذلك.

والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين؛ ولهذا ترى البليغ ينقح الخطبة أو القصيدة حولًا، ثم ينظر فيها فيغير فيها، وهلمَّ جرًّا. وكتاب الله عَزَّوَجَلَّ لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم توجد، ونحن تتبين لنا البراعة في أكثره، ويخفي وجهها في مواضع؛ لقصورنا عن مرتبة

العرب يومئذ في سلامة الذوق، وجودة القريحة، وقامت الحجة على العالم بالعرب؛ إذ كانوا أرباب الفصاحة، ومظنة المعارضة، كما قامت الحجة في معجزة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالأطباء، وفي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالسحرة؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ إنما جعل معجزات الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بالوجه الشهير أبرع ما تكون في زمن النبي الذي أراد إظهاره؛ فكان السحر في مدة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قد انتهى إلى غايته، وكذا الطب في زمان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والفصاحة في مدة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقال آخرون: إن وجه الإعجاز الفصاحة، وغرابة الأسلوب، والسلامة من جميع العيوب، وغير ذلك، مقترنًا بالتحدي. واختاره الإمام فخر الدين رَحِمَهُ اللَّهُ وهو قريب مما سبق.

وقال آخرون: ما فيه من النظم والتأليف والترصيف، وأنه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب، ومباين لأساليب خطاباتهم... [(١)].

ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خصت بالمعجزة العقلية الباقية؛ ليراها ذوو البصائر، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إلَّا أُعْطِيَ ما مِثْلهُ آمَنَ عليه البَشَرُ، وإنَّما كان الَّذي أُوتيتُ وحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إلَيَّ، فأرجو أن أكونَ أكثرهُمْ تابِعًا يوم القيامة**» [(٢)]. وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣].

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/٩٤-٩٩)، الإتقان (٤/٣-٧).

(٢) صحيح البخاري [٤٩٨١]، مسلم [١٥٢].

قيل: "إن معناه: أن معجزات الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ انقرضت بانقراض أعصارهم، فلم يشاهدها إلا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة وخرقه العادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون يدل على صحة دعواه" (١).

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ما من الأنبياء نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا»** يعني: أن كل رسول أيد بمعجزة تدل على صحة رسالته، فيظهر صدقه، وتثبت حجته، كما قد علم من أحوالهم، بما أخبرنا الله عَزَّ وَجَلَّ به وبينه عنهم، غير أن معجزاتهم تنقرض بانقراضهم، فلا يبقى منها بعدهم إلا الإخبار بها، وذلك قد يخفى مع توالي الأعصار.

ونبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإن كان قد أعطي من كل نوع من أنواع معجزات الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قبله، كما قد أوضحناه في كتابنا المسمى بـ: (الإعلام بصحة نبوة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام)، لكنه فضل على جميعهم بالمعجزة العظمى الباقية ما بقيت الدنيا، وهي: الكتاب العزيز الذي أعجزت السورة منه الجن والإنس أي تعجيز، فإعجازه مشاهد بالعيان، متجدد ما تعاقب الجديدان، فمن ارتاب الآن في صدق قوله، قيل له: فائت بسورة من مثله، ولما كانت هذه المعجزة قاطعة الظهور، مستمرة مدى الدهور، اشترك في معرفتها المتقدمون والمتأخرون، واستوى في معرفة

(١) الإتقان في علوم القرآن (٣/٤).

صدق محمد صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ السابقون واللاحقون، فدخل العقلاء في دينه دخولًا متتابعًا، وحقق الله عَزَّوَجَلَّ له رجاءه، فكان أكثر الأنبياء عَلَيْهِمُالسَّلَامُ تابعًا" [١].

وقيل: المعنى: أن المعجزات الواضحة الماضية كانت حسية تشاهد بالأبصار كناقة صالح عَلَيْهِالسَّلَامُ، وعصا موسى عَلَيْهِالسَّلَامُ، ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة، فيكون من يتبعه لأجلها أكثر؛ لأن الذي يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده، والذي يشاهد بعين العقل باق، يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمرًا.. [٢].

والله عَزَّوَجَلَّ هو خالق العجز في الخلق على الحقيقة، وتسمية فعل غيره معجزًا، كـ: (فلق البحر) و(إحياء الميت) فإنما هو بطريق التجوز والتوسع.

قال الراغب رَحِمَهُاللَّهُ: "المعجزات التي أتى بها الأنبياء عَلَيْهِمُالسَّلَامُ ضربان: حسي وعقلي:

فالحسي: ما يدرك بالبصر، كناقة صالح، وكطوفان نوح، ونار إبراهيم، وعصى موسى عَلَيْهِمُالسَّلَامُ.

والعقلي: ما يدرك بالبصيرة، كالإخبار عن الغيب..، والإتيان بحقائق العلوم التي حصلت عن غير تعلم، فأما الحسي: فيشترك في إدراكه العامة والخاصة، وهو أوقع عند طبقات العامة، وآخذ بمجامع قلوبهم، وأسرع لإدراكهم، إلا أنه لا يكاد يفرق بين ما يكون معجزة في الحقيقة، وبين ما يكون كهانة، أو شعبذة، أو سحرًا،

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦/٥٠).

(٢) انظر: الإتقان في علوم القرآن (٤/٣-٤)، الكليات (ص:١٤٩-١٥٠).

أو سببًا اتفاقيًّا، أو مواطأة، أو احتيالًا هندسيًّا، أو تمويهًا وافتعالًا إلا ذو سعة في العلوم التي يعرف بها هذه الأشياء.

وأما العقلي: فيختص بإدراكه كملة الخواص من ذوي العقول الراجحة، والإفهام الثاقبة، والروية المتناهية، الذين يغنيهم إدراك الحق.

وجعل الله عَزَّوَجَلَّ أكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسيَّة؛ لبلادتهم، وقلة بصيرتهم.

وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية؛ لفرط لذكائهم، وكمال أفهامهم، ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على وجه الدهر غير معرضة للنسخ، وكانت العقليات باقية غير مبتذلة، جعل أكثر معجزاتها مثلها باقية.

وما أتى به النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من معجزات حسية قد حواها وأحصاها أصحابه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وأما العقليات: فمن تفكر فيما أورده صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من الحكم التي قصرت عن بعضها أفهام حكماء الأمم بأوجز عبارة، اطلع على أشياء عجيبة، ومما خصه الله عَزَّوَجَلَّ به من المعجزات القرآن: وهو آية حسية، عقلية، صامتة ناطقة، باقية على الدهر، مبثوثة في الأرض؛ ولذلك قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [العنكبوت:٥٠-٥١]، ودعاهم ليلاً ونهاراً مع كونهم أولى بسطه في البيان إلى معارضته بنحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٣]، وفي موضع آخر: ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ

ﱡﭐﱚﱛﱜﱝ﴾ [يونس:٣٨]، وقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾ [الإسراء:٨٨]. فجعل عجزهم علمًا للرسالة، فلو قدروا ما أقصروا، وبذلوا أرواحهم في إطفاء نوره، وتوهين أمره، فلما رأيناهم تارة يقولون: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ [فصلت:٢٦]، وتارة يقولون: ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال:٣١]، وتارة يصفونه بأنه ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٥﴾ [الأنعام:٢٥]، وتارة يقولون: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ [الفرقان:٣٢]، وترة يقولون: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾ [يونس:١٥] كل ذلك عجزًا عن الإتيان بمثله، علمنا قصورهم عنه.

ومحال أن يقال: إنه عورض فلم ينقل، فالنفوس مهتزة لنقل ما دقَّ وجلَّ، وقد رأينا كتبًا كثيرة صنفت في الطعن على الإسلام قد نقلت وتدوولت" [(١)].

ثم ذكر الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يتبين به الإعجاز، وسيأتي بيان ما يتحقق به الإعجاز، وما يتبين به.

والقرآن هو المعجزة الكبرى الَّتي تحدَّى الله عَزَّوَجَلَّ بها النَّاس أجمعين، يأتي به نبيٌّ أميٌّ لا يعرف القراءة والكتابة..، ولم يتَّصل بأحد من علماء أهل الكتاب حتَّى يطلع على أنباء الأمم وأخبار السَّابقين، متحدِّيًا أئمّة الفصاحة، وفرسان البلاغة، وطلب منهم معارضة القرآن الكريم بعباراتٍ قويّة، ولهجاتٍ واخزة تستفزُّ العزيمة، وتدفع إلى

---

(١) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني (١/٤٢-٤٦).

المباراة. وأمَّا أسلوب القرآن الكريم في التَّحدي فقد تنزَّل معهم من التَّحدي بجميع القرآن إلى التَّحدي بعشر سور مثله، ثمَّ إلى التَّحدي بسورة واحدة من مثله، وهم واجمون لا ينبسون ببنت شفة، وهم رغم هذا التَّحدي ينتقلون من عجز إلى عجز.." [(١)].

وقضية الإعجاز متجددة ومتنوعة، ففي كل زمان هناك من مسائل الإعجاز ما يتلاءم مع الواقع والتطور والرقي.

والمعجزة إما حسية تدهش العقل، وهي معجزة وقتية ينتفع بها من شاهدها، وتعد بعد وقوعها من جملة الأخبار، فهي وإن كانت من مناهج الاستدلال، ولكن إذا زال المؤثر، أو تقادم العهد ربما زالت الدهشة، وإذا بقي المؤثر ربما حولها الإلف إلى شيء عادي عند كثير من الناس، كغيرها من المظاهر الكونية الكبرى التي ألف الإنسان رؤيتها فأزال عنها الإلف مثيرات والدهشة والعجب، ومحفزات الاتباع.

إذن فما هو السبيل لأن تكون المعجزة خالدة ومتجددة تتناسب مع كل عصر؟

حتى تكون كذلك ينبغي أن يستمر أثرها، وتفي بمتطلبات عصر تجدد.

فما الذي يميز معجزة الرسالة الخاتمة عن الشرائع السابقة؟

---

(١) بتصرُّفٍ عن (التِّبيان في علوم القرآن) (ص:٩٣–٩٤)..

إن القرآن الكريم معجزة خالدة تستحث العقل على التأمل والنظر، إذن فنحن أمام طورٍ جديد من أطوار الإنسانية. ففي الإسلام بلغت الإنسانية سنَّ الرُّشد، ولم تعد المعجزة إدهاشًا للعقل كما كانت من قبل.

وقد تقدم أن الشرائع قبل الإسلام محليَّة ومرحليَّة، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**وكانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إلى قومه خَاصَّةً، وبُعِثْتُ إلى النَّاس كَافَّةً**»(١).

ولأن الشرائع قبل الإسلام محليَّة ومرحليَّة، فعندما يتطور الواقع تنسخ تلك شريعة، ويأتي رسولٌ جديد بشريعة جديدة، كما قال عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

ولكن أمَا وقد بلغت الإنسانية سنَّ الرشد، وشاء الله عَزَّوَجَلَّ ختم رسالات السماء جاءت الشريعة المحمدية لتقف عند الثوابت والأطر والقواعد والكليات، وتترك التجديد والتطوير ومواكبة العصور للفقه الإسلامي الذي هو علم الفروع، فكان اهتمام العلماء بعلم المقاصد التي تعطي آفاقًا واسعة لفهم النَّص بما يفي بمقتضيات عصر تجدد.

وسنة الله عَزَّوَجَلَّ في معجزات أنبيائه عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ: أن تكون من جنس ما اشتهر عند قومهم، فكانت معجزات موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مناسبة لما اشتهر به قومه من السحر، ومعجزات عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما اشتهر به قومه من البراعة في الطب، ومعجزة نبي الله صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من بيئة القوم الصحراوية، وكانت معجزة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العظمى

---

(١) صحيح البخاري [٣٣٥، ٤٣٨]، مسلم [٥٢١].

من جنس ما اشتهر به العرب يومئذٍ، حيث بلغت الفصاحة والبلاغة شأوًا بعيدًا عندهم، فربما ارتفعت مكانة القبيلة ببيت من الشعر، وربما نزلت إلى الحضيض بسبب قصيدة هجاهم فيها شاعر من الشعراء.

فتحداهم القرآن المرة تلو المرة أن يأتوا بمثله، أو بمثل عشر سور مثله، أو بمثل سورة فعجزوا، ولجؤوا إلى إغراء رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لترك دعوته بالمال والجاه والنساء، كما لجؤوا أحيانًا إلى التهديد، والوعيد، وإلى المساومة، كل ذلك والقرآن يتحداهم فرادى ومجتمعين أن يأتوا بمثله إن كانوا يزعمون أن محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يؤلفه، وهم حريصون على إبطال دعوته، وكشف حقيقته. فإن عجزوا فعليهم أن يستسلموا ويقروا بأن القرآن منزل من عند الله عَزَّ وَجَلَّ.

وقد أخبر الحق جَلَّ وَعَلَا عن الحكمة من الإعجاز في قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣].

فأنواع الإعجاز التي تتضمنها آيات القرآن الكريم، وما تحمله من بلاغة، وحكم تشريعية، وحقائق علمية، وأخبار غيبية تؤكد أن القرآن الكريم حق، وأنه كلام الله عَزَّ وَجَلَّ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وبالإضافة إلى ذلك تتمثل حكمة الإعجاز القرآني في تثبيت وطمأنة قلوب المؤمنين بهذا الدين، وفي مساعدتهم على محاججة غيرهم وإقناعهم بصحة الإسلام، وصِدق رسالته خاصة أولئك الذين يحتاجون إلى دلائل مادية، وبراهين علمية، وذلك بالنظر إلى الجانب العلمي.

ومن حكمة الإعجاز أيضًا: أنه يفتح الباب أمام المسلمين للنظر والبحث والاستكشاف في مختلف الظواهر والعلوم الكونية، وآيات الخلق، ويمدهم بالإشارات اللازمة للانطلاق في هذا المجال.

والتعبير بالإعجاز إنما هو لإثبات العجز، ويراد به لازمه، وهو إظهار عجز الثقلين؛ فإن إعجاز القرآن هو بلوغه طورًا غير مألوف ولا معتاد.

وقضية الإعجاز تعدُّ من المسائل التي يكون الإقناع فيها موجهًا إلى الإنسانية في مفهومها الشمولي، فكل من المؤمن والكافر مدعو للتأمل والتفكر في آيات القرآن وما فيها من ضروب الإعجاز المتنوعة.

والقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد من بين الكتب السماوية الذي بقي سالما من التبديل والتحريف، فقد تكفل الله عَزَّوَجَلَّ بحفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر:٩]. وقد نقل متواترًا، ووصل إلى المكلفين بأعلى درجات النقل.

وبين النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ للناس ما نزِّل إليهم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾ [النحل:٤٤]، فبيَّن المراد من آيات الله عَزَّوَجَلَّ، ورفع عن الناس ما قد يكون مظنة اختلاف، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٦٤﴾ [النحل:٦٤]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ [النساء:٨٣]، وقال جَلَّوَعَلَا:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء:٦٥].

ولا خلاف أن الحديث الشريف هو المصدر الثاني من مصادر التشريع، وقد خضعت رواية الحديث لمنهج علمي دقيق، من حيث النظر في سند الحديث، ومراتبه، وأحوال الرِّجال جرحًا وتعديلًا بما لا يدع مجالًا للريبة أو الشك في صحة النسبة، وبما يوجب الأخذ به في البيان والأحكام؛ لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر:٧]، وبذلك تتميز الرواية في هذه الأمة من حيث النظر الدقيق في سند الحديث ومراتبه وحكمه.

أما الكتب السماوية السابقة فمما يدلل على أنها مرحليَّة: أنها لم تصل سالمة من التبديل والتغيير والتحريف والاختلاف.

والإعجاز يفيد المسلم، كما يفيد الباحث عن الحقِّ من حيث التنبه إلى الدليل، والبعد عن الغفلة، فيثمر في الباحث غير المؤمن إيمانًا عن اقتناع، ويزيد المؤمن إيمانًا واقتناعًا.

وإجمال ما تقدَّم من تنوع أوجه الإعجاز في القرآن الكريم يتلخص فيما يلي:

١ - أن التحدي وقع بنظمه، وبلاغته، وفصاحته، وصحة معانيه، وسلامته من جميع العيوب.

٢ - أن الإعجاز يتحقق كذلك بما يتصل بالجانب التشريعي.

٣ - أن الإعجاز يتحقق كذلك بما يتصل بالجانب العلمي.

٤ – أن الإعجاز يتحقق كذلك بما يتصل بالجانب النفسي والذوقي.

٥ – أن الإعجاز يتحقق كذلك بما يتصل بجانب الإخبار عن الغيوب المستقبلة

٦ – أن الإعجاز يتحقق كذلك بما يتصل بجانب الإخبار عن قصص الأولين، وسائر المتقدمين حكاية من شاهدها وحضرها.

٦ – أن الإعجاز يتحقق كذلك بما يتصل بالإخبار عن الضمائر.

٧ – أن الإعجاز يتحقق كذلك بسلامة القرآن من التبديل والتحريف.

٨ – أن الإعجاز يتحقق كذلك ببقاء ذلك الإعجاز المقترن بالتحدي على صفحات الدَّهر إلى قيام الساعة.

المطلب الثالث: العناية بمسائل الإعجاز:

إنَّ كل وجه من وجوه الإعجاز جدير بأن يفرد بالبحث وفق ضوابط وشروط التفسير.

وما خطه وبينه جلة فحول المفسرين والباحثين في علوم القرآن والتفسير يدل على مدى عنايتهم واهتمامهم بعلوم القرآن الكريم، واستيعابهم لذلك المفهوم.

وإن اهتمام الباحثين بمسائل الإعجاز قديمًا وحديثًا، وما كتب في جملة من مسائلة، أو تناول موضوعًا من موضوعاته بالدراسة والبحث مما يصعب حصره.

وأتناول في هذا المطلب أبرز من أفرد مسائل الإعجاز، أو جانبًا من جوانبه بالبحث والدراسة، ومن هؤلاء:

١ – الجاحظ المتوفى سنة [٢٢٥هـ]:

وقد أفرده (الجاحظ) بالتأليف في (نظم القرآن)، ولم يصلنا هذا الكتاب [(١)].

٢ – محمد بن زيد الواسطي المتوفى سنة [٣٠٧هـ]:

ومنهم: (الواسطي)، وهو أبو عبد الله محمد بن زيد الواسطي، من كبار علماء الكلام. معتزلي. أصله من (واسط). سكن (بغداد) وتوفي بها. وله كتاب في الإعجاز سماه: (إعجاز القرآن) [(٢)]. وشرحه الشيخ عبد القاهر بن عبد الله الجرجاني. المتوفى: سنة أربع وسبعين وأربعمائة. شرحين: كبيرًا، وسماه: (المعتضد)، وصغيرًا [(٣)].

(١) انظر: طبقات المفسرين، للداوودي (٢/١٦)، كشف الظنون (٢/١٩٦٤).

(٢) انظر: الأعلام (٦/١٣٢)، طبقات المفسرين، للأدنه وي (ص:٢٦٢)، لسان الميزان (٥/١٧٢)، وفيات الأعيان (١/٤٨)، الوافي بالوفيات (٣/٦٩)، معجم المؤلفين (١٠/١٣).

(٣) كشف الظنون (١/٨١)، الفهرست، لابن النديم (ص:٥٨)، تاريخ آداب العرب، لمصطفى صادق الرافعي (٢/١٠١).

قال ابن النديم: "أبو عبد الله محمد بن زيد الواســـطي من جلة المتكلمين وكبارهم، أخذ عن أبي علي الجبائي، وإليه كان ينتمي، وكان في زمانه عليَّ الصوت، كثير الأصحاب.." [(١)].

توفي سنة سبع وثلاثمائة، وقيل: سنة ست وثلاثمائة.

٣ - علي بن عيسى الرماني المتوفى سنة [٣٨٤هـ]:

ومنهم: (الرماني)، وهو أبو الحســن علي بن عيســى، ورســالته: (النكت في إعجاز القرآن)، باحث معتزلي، مفسر، أصولي، فلكي، منطقي، من كبار النحاة. أصله من (سامراء)، ومولده ووفاته ببغداد. له نحو مائة مصنف [(٢)]، وكان معاصرًا للخطابي المتوفى سنة [٣٨٨هـ]، ولأبي عليٍّ الفارسي المتوفى سنة [٣٧٧هـــ]. وقد

---

(١) الفهرست، لابن النديم (ص:٢١١).

(٢) انظر: الأعلام (٣١٧/٤)، الأنساب (٨٩/٣)، الإكمال، لابن ماكولا (١٢٥/٤)، البلغة فى تراجم أئمة النحو واللغة (ص:٤٤)، سير أعلام النبلاء (٥٣٣/١٦)، طبقات المفسرين، للأدنه وي (ص:٨٧)، معجم المؤلفين (١٦٢/٧)، شذرات الذهب (١٠٩/٣). وفي (الميزان) (١٤٩/٣): "علي بن عيسى الرماني، صاحب العربية. لقى ابن دريد، معتزلي رافضي..". وفي (وفيات الأعيان) (٢٩٩/٣): "والرماني: بضم الراء وتشديد الميم وبعد الألف نون، هذه النسبة يجوز أن تكون إلى الرمان وبيعه، ويمكن أن تكون إلى قصر الرمان، وهو قصر بواسط معروف، وقد نسب إلى هذا وهذا خلق كثير". وفي (تاريخ بغداد) (٣٧٦/٤): "في حديثه مناكير".

عمَّر زمنًا طويلًا قضاه في البحث والدراسة، حتى صار علمًا من أعلام النحو في عصره، وقورن بأبي عليٍّ الفارسي.

وذكر أن وجوه الإعجاز تظهر من سبع جهات: ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدي للكافة، والصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة، ونقض الحاجة، وقياسه بكل معجزة [١].

وقد اعتبر البلاغة من أهم مظاهر الإعجاز، وهناك علاقة بين البلاغة والتأثير النفسي، فالبلاغة ليست مقصودة لذاتها، وإنما هي أداة لإيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ.

وأورد الخصوصيات البلاغية في القرآن، كالإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتجانس، والمبالغة، والتعريف، وأورد شواهد من القرآن تؤكد عظمة الأسلوب البلاغي في القرآن.

وقد جمع بين علم الكلام وبين العربية، وله تفسير للقرآن الكريم. وقد أخذ الأدب عن أبي بكر بن دريد، وأبي بكر بن السراج، وروى عنه أبو القاسم التنوخي، وأبو محمد الجوهري.

---

(١) ثلاث رسائل، النكت، للرماني (ص:٧٥).

وكانت ولادته ببغداد سنة ست وتسعين ومائتين، ووفاته سنة أربع وثمانين وثلاثمائة [١].

٤ – أبو سليمان الخطابي المتوفى سنة [٣٨٨هـ]:

ومنهم: (الخطابي)، وهو أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم ابن الخطاب البستي، وله رسالة في (بيان إعجاز القرآن) [٢]. وقد رد في فاتحتها على من يقولون بفكرة الصرفة، وأن إعجاز القرآن إنما يرجع إلى أن الله عَزَّوَجَلَّ صرف العرب عن معارضته [٣]، كما أنه رد على من يقولون بأن إعجاز القرآن يرجع إلى ما تضمنه من الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة.

وقال: إنما يرجع إلى بلاغته، وأخذ في وصفها مقررًا أن أساليب الكلام الجيد منها: البليغ الرصين، ومنها: الفصيح السهل، ومنها: الجائز الطلق، وبلاغة قرآن تجمع بين هذه الأساليب جمعًا لا يتاح للبشر مثله. ويقول: إن أجناس الكلام مختلفة، ومراتبها في نسب البيان متفاوتة: فمنها: البليغ الرصين الجزل، ومنها: الفصيح القريب

---

(١) انظر: طبقات المفسرين، للسيوطي (ص:٨١)، طبقات المفسرين، للأدنه وي (ص:٨٧)، الموسوعة القرآنية المتخصصة (ص:٦٥٦-٦٥٧).

(٢) انظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني (ص:١٢)، تحقيق: محمد خلف أحمد، د. محمد زغلول سلام، ط:٣، دار المعارف، القاهرة [١٩٧٦م].

(٣) سيأتي بيان ما يدل على بطلان تفسير إعجاز القرآن بالصرفة، ويثبت الإعجاز الذاتي للقرآن الكريم، وبيان القدر المعجز منه.

السهل، ومنها: الجائز الطلق المرسل، وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود، فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه، والقسم الثاني أوسطه وأقصده، والقسم الثالث أدناه وأقربه، فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة، وأخذت من كل نوع من أنواعها بشعبة، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة، وهما على الانفراد في نعوتهما كالمتضادين؛ لأن العذوبة نتاج السهولة، والمتانة والجزالة تعالجان نوعًا من الوعورة فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نبو كل واحد منهما عن الآخر فضيلة خص بها القرآن. ثم يتحدث عن السر الذي يكمن وراء الإعجاز القرآني فيقول: وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمور منها: أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وأوضاعها التي هي ظروف المعاني، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم باستيفاء جميع وجوه النظوم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض فيتوصلوا باختيار الأفضل من الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم ورباط لهما ناظم. وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئًا من الألفاظ أفصح، ولا أجزل، ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظمًا أحسن تأليفًا وأشد تلاؤمًا وتشاكلًا من نظمه. وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل في نعوتها

وصفاتها إلى أن يقول: واعلم أن القرآن إنما صار معجزًا؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنًا أصح المعاني [١].

ويذكر الباحث شوقي ضيف في كتابه: (البلاغة تطور وتاريخ) [٢] أنه -أي: الخطابي- قد ردَّ على من يقولون بأن إعجاز القرآن يرجع إلى تضمنه للأخبار المستقبلية، وقال: إنما يرجع إلى بلاغته.. اهـ.

ويلاحظ أن الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يفرق بين إعجاز وإعجاز من حيث الشمول وعدمه، ويرى أن الإعجاز البلاغي أعم وأكثر شمولًا.

فالخطابي لا ينكر كون الإخبار عن الأمور المستقبلية من الإعجاز، ولكن ليس على سبيل الحصر، بل هناك أوجه أخرى للإعجاز، كما أن الإخبار عن الأمور المستقبلية إنما هو في آيات قليلة ومحدودة.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وزعمت طائفة أن إعجازه إنما هو فيما يتضمنه من الإخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان نحو قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ [الروم:١-٤].

يقول: ولا يشك في أن هذا وما أشبهه من أخباره نوع من أنواع إعجازه، ولكنه ليس بالأمر العام الموجود في كل سورة من سور القرآن. وقد جعل الله جَلَّ وَعَلَا

---

(١) انظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، الرسالة الأولى: بيان إعجاز القرآن، لأبي سليمان الخطابي (ص:٢٦- ٢٧)، وانظر: البرهان (١٠٢/٢)، الإتقان (١٥/٤)، المعجزة الكبرى (ص:١١٤).

(٢) البلاغة تطور وتاريخ (ص:١٠٣).

في صفة كل سورة أن تكون معجزة بنفسها لا يقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثلها فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة:٢٣]" (١).

٥ – القاضي أبو بكر الباقلاني المتوفى سنة [٤٠٣هـ]:

ومنهم: (الإمام القاضي أبو بكر الباقلاني)، وهو القاضي محمد بن الطيب بن محمد البصري المتكلم، من أهل البصرة، سكن بغداد، وكان متكلمًا على مذهب الأشعري، كان أعرف الناس بالكلام، وأحسنهم خاطرًا، وأجودهم لسانًا، وأوضحهم بيانًا، وأصحهم عبارة، وله التصانيف الكثيرة المنتشرة...وكان يضرب المثل بفهمه وذكائه. وكان ثقة إمامًا بارعًا، صنف في الرد على الرافضة والمعتزلة، والخوارج والجهمية والكرامية. كان جيد الاستنباط، سريع الجواب. وجهه عضد الدولة سفيرًا عنه إلى ملك الروم، فجرت له في القسطنطينية مناظرات مع علماء النصرانية بين يدي ملكها.

وانتصر لطريقة أبي الحسن الاشعري، وقد يخالفه في مضائق؛ فإنه من نظرائه، وقد أخذ علم النظر عن أصحابه.

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، بيان إعجاز القرآن، للخطابي (ص:٢٣-٢٤).

وقد ذكره القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (طبقات المالكية) [١]، فقال: هو الملقب بسيف السنة، ولسان الأمة، المتكلم على لسان أهل الحديث.. الخ [٢].

وقد بين في مقدمة كتابه وجه الحاجة إلى فقه الإعجاز، وأن العلم بمباحثه يقيم الدليل والبرهان، وينصب الحجة، ويكشف ما خفي أو التبس، ويدفع شبه الخصوم، بعد أن يفقه الباحث مناهج البحث وآليات المناظرة، وترتيب الحجج، فالحاجة إلى فقه الإعجاز، والدراية بمباحثه أشد من الحاجة إلى المباحث اللغوية والعربية.

والحقيقة أن الباقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ أتى بما لم يأت به من قبله، وحقق من المسائل ما لم يسبق إليه، وكتابه في الإعجاز -وعلى الرغم من تقادم الزمن- لا يزال مرجعًا، فقد صاغه أحسن صياغة، ورتبه أحسن ترتيب، وأحكم الحجة فيه أيما إحكام.

قال الرافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وبالجملة فقد وضع ما لم يكن يمكن أن يوضع أوفى منه في عصره، بيد أن القرآن كتاب كل عصر، وله في كل دهر دليل من الدهر على الإعجاز" [٣].

---

(١) ترتيب المدارك (٤/٥٨٥- ٥٨٦).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (١٧/١٩٠)، الأنساب (١/٢٦٦)، تاريخ بغداد (٥/٣٧٩)، وفيات الأعيان (٤/٢٦٩)، الأعلام (٦/١٧٦).

(٣) انظر: تاريخ آداب العرب (٢/١٠١-١٠٢)، انظر: إعجاز القرآن، للباقلاني (ص:٣) فما بعد، البلاغة تطور وتاريخ (ص:١٠٧-١١٤)، وانظر: الدراسات التي دارت حول (الباقلاني) في (مناهج التحليل=

٦ - القاضي عبد الجبار المتوفى سنة [٤١٥هـ]:

ومنهم: (القاضي عبد الجبار)، وهو عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار بن أحمد بن الخليل بن عبد الله القاضي أبو الحسن الهمذاني الأسد آبادي. قال السبكي: "وهو الذي تلقبه المعتزلة(١): قاضي القضاة، ولا يطلقون هذا اللقب على سواه، ولا يعنون به عند الإطلاق غيره. كان إمام أهل الاعتزال في زمانه، وكان ينتحل مذهب الشافعي في الفروع، وله التصانيف السائرة والذكر الشائع بين الأصوليين، عمر دهرًا طويلًا حتى ظهر له الأصحاب، وبعد صيته، ورحلت إليه الطلاب، وولي قضاء الري وأعمالها. توفي في ذي القعدة سنة خمس عشرة وأربعمائة بالري، ودفن في داره" (٢).

=البلاغي عند علماء الإعجاز من الرماني إلى عبد القاهر الجرجاني)، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في البلاغة والنقد، عبد الله عبد الرحمن بانقيب (ص:٦)، جامعة أم القرى بمكة المكرمة [١٤٢٨هـ].

(١) قال الذهبي: "كان من غلاة المعتزلة" ميزان الاعتدال (٢٣٨/٤)، كذا في (لسان الميزان)، لابن حجر (٥٤/٥)

(٢) طبقات الشافعية الكبرى (٩٧/٥)، وانظر: طبقات المفسرين، للأدنه وي (ص:١٠٤)، طبقات المفسرين، للسيوطي (ص:٤٨)، لسان الميزان (٥٤/٥)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (٣٧٦/٢٨)، وانظر: الدراسات التي دارت حول (القاضي عبد الجبار): وانظر: الدراسات التي دارت حول (الباقلاني) في (مناهج التحليل البلاغي عند علماء الإعجاز من الرماني إلى عبد القاهر الجرجاني)، عبد الرحمن أحمد بانقيب (ص:٦). وانظر: البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف (ص:١١٥-١٢٠). وله: المغني في أبواب التوحيد والعدل، وقد طبع بتحقيق: أبو العلا عفيفي، =

وله جهد واضح في تفصيل وجوه الإعجاز، وبيان صحة التحدي بالكلام الفصيح [١]، وبيان أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد تحدى بالقرآن، وجعله من الدلائل على نبوته [٢]، والدلالة بأن القرآن معجز [٣]، والدلالة على أنهم لم يعارضوه؛ لتعذر المعارضة عليهم [٤]، واختصاص القرآن بمزية في رتبة الفصاحة خارجة عن العادة [٥]، وبيان وجوه الإعجاز [٦]، والرد على مطاعن المخالفين [٧].. إلى غير ذلك.

قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "القاضي عبد الجبار، العلامة، المتكلم، شيخ المعتزلة، وصاحب التصانيف، من كبار فقهاء الشافعية، وتصانيفه كثيرة، تخرج به خلق في

=في (وزارة الأوقاف والإرشاد القومي)، القاهرة [١٣٨٢هـ]. وقد رد على النصارى في الجزء الخامس منه، وله: (تثبيت دلائل النبوة) مطبوع في جزئين، بتحقيق د. عبد الكريم عثمان، وقد رد على النصارى في الجزء الأول منه. وله: (رد النصارى) ذكره مورتز في (الأدب الجدلي والدفاعي) (ص:١١٤).

(١) انظر: المغني في أبواب التوحيد والعدل، للقاضي عبد الجبار، إعجاز القرآن، تحقيق: أمين الخولي (٢١٤/١٦).

(٢) انظر: المصدر السابق (٢٣٦/١٦).

(٣) انظر: المصدر السابق (٢٤٦/١٦).

(٤) انظر: المصدر السابق (٢٥٠/١٦- ٢٦٤).

(٥) انظر: المصدر السابق (٣١١/١٦).

(٦) انظر: المصدر السابق (٣١٦/١٦).

(٧) انظر: المصدر السابق (٣٣٧/١٦).

الرأي الممقوت، مات في ذي القعدة، سنة خمس عشرة وأربع مائة، من أبناء التسعين" (١).

ومن كتبه: (المغني في أبواب التوحيد والعدل)، و(تثبيت دلائل النبوة)، و(متشابه القرآن).

وله كتاب: (تنزيه القرآن عن المطاعن)، وهو يحتوي كثيرًا من الفوائد، على رغم تعصبه المذهبي، وعدم عنايته بالتفسير كما يجب (٢).

قال الأستاذ الدكتور محمد محمد أبو موسى: "ومن أهم آثار المعتزلة الباقية في الدراسات القرآنية كتاب: (تنزيه القرآن عن المطاعن)، للقاضي عبد الجبار، وقسم كبير من هذا الكتاب رد على اعتراضات الطاعنين، وعلى ما يمكن أن يتعلق به أصحاب الشبه في الكتاب العزيز، وكأن هذا الجزء من الكتاب موجَّه إلى غير المسلمين، والقسم الآخر من مادته العلمية دراسة اعتزالية للآيات التي يتعلق بها معارضوا هذا المعتقد الاعتزالي" (٣).

ولا ينبغي إغفال تلك الفوائد التي ذكرها -ولا سيما في باب الإعجاز-، كشأن غيره من علماء المعتزلة، ولا يجيد ذلك الإنصاف في الحكم، والانتفاع من

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٧/٢٤٤-٢٤٥).

(٢) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/٧٤)، التفسير والمفسرون، لمحمد السيد حسين الذهبي (١/٢٧٨)، الأعلام (٣/٢٧٣-٢٧٤).

(٣) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية (ص:١١٣)، ط:٢، مكتبة وهبة، القاهرة [١٤٠٨هـ].

الجوانب المشــرقة في التراث إلا من وهبه الله عَزَّوَجَلَّ رســوخًا في العلم، ودقة النظر، وسعة في الأفق.

ومما يعاب على البعض أنهم يسلطون الضوء علـى جوانب ويغفلون أخرى -وإن علا شـأنها-، وليس هذا من الإنصاف، وليس من شـأن أولي البصـائر، العاكفين على الدراسة والبحث، فلا يخفى على ذي مسكة من عقل ما خطه جلة فحول الباحثين من العلماء الراسـخين في التفسـير وبيان الإعجاز، وما تركوا من تراث، وإن كان منه ما يرد فلا يسـقط جواهر ما برز في كتبهم كالبلاغة، والبراعة في جوانب كثيرة من التفسير، كجار الله الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره، فلا يحط من جهد هؤلاء وقدرهم إلا جاهل غافل.

٧ - عبد الملك بن محمد الثعالبي المتوفى سنة [٤٢٩هـ]:

ومنهم: (الثعالبي)، وهو عبد الملك بن محمد الثعالبي، وله: (إعجاز الإيجاز) (١)، ومختصره: للإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي. قيل: مات سنة ثلاثين وأربع مائة، وله ثمانون سنة (٢). وقد قسمه إلى عشرة أبواب، الأول منها في

(١) والكتاب مطبوع بعنوان: (الإعجاز والإيجاز)، في (مكتبة القرآن) في القاهرة، بتحقيق: محمد إبراهيم سليم. وقد طبع من قبل في المطبعة العمومية بمصر سنة [١٨٩٧هـ].

(٢) كشف الظنون (١/٨١). وانظر: وفيات الأعيان (٣/١٧٨)، سير أعلام النبلاء (١٣/١٤٦)، الوافي بالوفيات (١٩/١٣٠)، مغاني الأخيار (٣/٣٩٢)، ديوان الإسلام (٢/٥٥)، الأعلام (٤/١٦٣)، هدية العارفين (١/٦٢٥).

بعض ما نطق به القرآن من الكلام الموجز المعجز، والثاني في جوامع الكلم عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ... الخ.

٨ - عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة [٤٧١هـ]:

ومنهم: (الإمام عبد القاهر الجرجاني)، وهو عبد القاهر بن عبد الرحمن الشيخ أبو بكر الجرجاني النحوي المتكلم على مذهب الأشعري، الفقيه على مذهب الشافعي، أخذ النحو بجرجان عن أبي الحسين محمد بن الحسن الفارسي ابن أخت الشيخ أبي علي الفارسي، وصار الإمام المشهور المقصود من جميع الجهات مع الدين المتين، والورع والسكون. قال السلفي: كان ورعًا قانعًا، دخل عليه لص -وهو في الصلاة- فأخذ ما وجد وعبد القاهر ينظر ولم يقطع صلاته..ومن مصنفاته: (المغني في شرح الإيضاح) في نحو من ثلاثين مجلدًا، واختصره في شرح آخر سماه: (المقتصد في شرح الإيضاح) في ثلاث مجلدات، وله: (إعجاز القرآن الكبير) و(إعجاز القرآن الصغير) و(العوامل المائة)، و(العمدة في التصريف)، وغير ذلك.. توفي سنة إحدى وسبعين، وقيل: أربع وسبعين وأربعمائة" (١).

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى (٥/١٤٩-١٥٠)، بغية الوعاة (٢/١٠٦)، طبقات الشافعية، لابن قاضي شهبة (١/٢٥٢)، شذرات الذهب (٣/٣٤٠)، فوات الوفيات (٢/٣٦٩)، طبقات المفسرين، للأدنه وي (ص:١٣٣)، وانظر: الدراسات التي دارت حول (عبد القاهر الجرجاني) في =

وقد تناول الشيخ عبد القاهر الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ من مباحث الإعجاز من منظورين؛ الأول: بيان ما فيه من تناسق المنهج، وقوة المنطق.

والثاني: أنه تناول مسألة الإعجاز من الناحية البيانية.

فألف أولًا: (الرسالة الشافية) (١)، ثم (دلائل الإعجاز).

فتناول في الأولى المنهج الجدلي المبني على قوة الحجة والمنطق، يقول في مقدمة: (الرسالة الشافية): "وهذه جمل من القول في بيان عجز العرب حين تحدوا إلى معارضة القرآن، وإذعانهم وعلمهم أن الذي سمعوه فائق للقوى البشريَّة، ومتجاوز للذي يتسع له ذرع المخلوقين، وفيما يتصل بذلك مما له اختصاص بعلم أحوال الشعراء والبلغاء ومراتبهم، وبعلم الأدب جملة، قد تحريت فيها الإيضاح والتبيين، وحذوت الكلام حذوًا هو بعرف علماء العربية أشبه، وفي طريقهم أذهب، وإلى الأفهام جملة أقرب" (٢).

فالمقصد من الرسالة: إثبات حقيقة الإعجاز؛ فلذلك فإنه يرد على من قال بالصرفة (٣). كما أنه تناول مسألة: (التحدي وبيان العجز عن المعارضة) في كلام

= (مناهج التحليل البلاغي عند علماء الإعجاز من الرماني إلى عبد القاهر الجرجاني) عبد الله عبد الرحمن بانقيب (ص:٧).

(١) (الرسالة الشافية) مطبوعة ضمن (ثلاث رسائل في الإعجاز) (ص:١١٥-١٥٩).

(٢) الرسالة الشافية (ص:١١٧).

(٣) انظر: المصدر السابق (ص:١٤٦).

مطول، وأورد في ذلك أسئلة وأجاب عنها، كما فند شبهات المخالفين [١]. وكذلك فإنه يستعمل أسلوب القياس والتمثيل. وفي المناقشة يستدل بأدلة عقلية على نهج المتكلمين، ويستخدم أسلوب السؤال إلى غير ذلك. وتعرض للإعجاز من حيث النظم، وفصل ذلك وأحكمه في (الدلائل).

وتناول في الثانية -أعني: الدلائل- مسألة الإعجاز من الناحية البيانية، حيث فصل آراءه في فكرته البارعة: (فكرة النظم) التي وضح فيها أن مهمة النحو لا تتعلق بجوانب الصحة في التركيب النحوي للجملة فقط، وإنما تتعدى ذلك إلى المعنى والعلاقات بين الجمل، وإلى طريقة رصف الكلام والمعرفة بمواضعه، واستغلال أساليب الاستعارة والكناية والتمثيل والتشبيه والمجاز التي هي من مقتضيات النظم، وإدراك آلة البيان.

وقد بين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أهمية (علم البيان): "ثم إنك لا تَرى عِلمًا هو أرسخُ أصلًا، وأبسقُ فرعًا، وأحلى جَنى، وأعذبُ وِردًا، وأكرمُ نَتاجًا، وأنورُ سراجًا من (علم البيان) الذي لولاه لم تَرَ لسانًا يَحُوكُ الوَشيَ، ويصوغُ الحَلْيَ، ويلفُظُ الدُّر، وينفَثُ السِّحرَ، ويقري الشَّهْدَ، ويُريكَ بدائعَ منَ الزَّهر، ويُجنيكَ الحلوَ اليانعَ من الثَّمر. والذي لولا تحفِّيهِ بالعُلومِ وعنايَتُه بها وتصويرهُ إيَّاها لبقيت كامنةً مستورة، ولَما اسْتَبنتْ لها يدَ الدَّهرِ صُورةً، ولاستمرَّ السَّرار بأَهِلَّتِها، واسْتَولى الخَفاءُ على جُملتِه..إلى فوائدَ لا يُدركُها الإحصاءُ، ومحاسنَ لا يحصُرُها الاستقصاءُ، إلَّا أنَّك لن ترى على ذلك نوعًا

(١) انظر: المصدر السابق من (ص:١١٧) فما بعد.

من العلم قد لقيَ من الضَّيْم ما لَقِيَهُ، ومُنِيَ منَ الحَيْفِ بِما مُنِيَ به، ودَخل على الناسِ منَ الغلطِ في مَعْناهُ ما دخلَ عليهم فيهِ، فقد سَبقتْ إلى نُفوسهم اعتقاداتٌ فاسِدةٌ، وظنونٌ رديَّة، وركِبَهُم فيه جهلٌ عظيم، وخطأٌ فاحشٌ..ترى كثيرًا منهم لا يَرى له معنًى أكثرَ ممَّا يُرى للإشارة بالرأس والعين، وما يجده للخط والعَقْد" (١).

واستخرج من (نظرية النظم) شعب: (علم المعاني)، وتقترن بكلمة البيان في الكتاب كلمتا: (الفصاحة والبلاغة)، وكأنها جميعًا ذات دلالة واحدة.. وواضح أنه كان يرى أن علوم البلاغة: علم واحد تتشعب مباحثه. وسمى في (الدلائل): (علم المعاني) باسم (النظم)، وهو اصطلاح كان يشيع في بيئة الأشاعرة، فكان مما يعللون به إعجاز القرآن نظمه كما بين ذلك الباقلاني رحمه الله في (إعجاز القرآن)..(٢). ومن البين أنهم لا يقتصرون على تعليل إعجاز القرآن على النظم فحسب. وجزء كبير من أهمية الكتاب لا يعود لمعالجته الإعجاز القرآني من وجهة نظر بيانية جمالية فقط، وإنما يأتي كذلك من طرح الجرجاني لفكرة النظم وتطويره وطريقة معالجته وعرضه لها.

وقد أسس لعلم المعاني وعلم البيان، وأثر ذلك كله على معاصريه، وعلى من جاء بعده من المفسرين والنقاد والبلاغيين كالزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد استفاد مما كتبه

---

(١) دلائل الإعجاز (ص:٢٢- ٢٣)، دار الكتاب العربي، بيروت [١٩٩٥م]، تحقيق: د. محمد التنجي، وانظر: طبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة [١٤١٣هـ] (ص:٥-٦).

(٢) انظر: البلاغة تطور وتاريخ (ص:١٦٠) فما بعد، كشف الظنون (١/ ٧٥٩).

عبد القاهر الجرجاني فكان ما كتبه في (الكشاف) منهجًا تطبيقيًّا لما أسس له من قبل الإمام عبد القاهر الجرجاني، وكان (الكشاف) أنموذجًا لإبراز النهج البلاغي الذي استفاد منه من أتى بعد الزمخشري فزاد أو اختصر أو حقق.

والحاصل أنه فصل القول في الإعجاز وأحكمه، وأسس لنظرية النظم، وشرح وبيَّن وحقَّق وناقش، وعرض أمثلة ونماذج للتدليل على ما قرره.

٩ – أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري المتوفى سنة [٥٣٨ هـ]:

ومنهم: جار الله الزمخشري، وهو الإمام، العلامة، أبو القاسم، محمود بن عمر الزمخشري، الخوارزمي.

ولد في (زمخشر) -من قرى خوارزم- في رجب سنة سبع وستين وأربعمائة، وسافر إلى (مكة)، فجاور بها زمنًا فلقب بجار الله. وتنقل في البلدان، ثم عاد إلى (الجرجانية) -من قرى خوارزم- فتوفي فيها.

ومن أبرز كتبه: (الكشاف، عن حقائق التنزيل)، وقد فرغ من تأليفه: صحوة يوم الإثنين، الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر، في عام: ثمان وعشرين وخمسمائة.

قال في خطبته: "إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح [١]، وأنهضها بما يبهر [٢] الألباب القوارح [٣]، من غرائب نكت يلطف مسلكها، ومستودعات أسرار يدق سلكها: علم التفسير، الذي لا يتم لتعاطيه [٤] وإجالة النظر فيه كل ذي علم، كما ذكر الجاحظ، في (نظم القرآن). فالفقيه، وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم، وإن بز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار، وإن كان من ابن القرية أحفظ، والواعظ، وإن كان من الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ أوعظ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه رَحِمَهُ اللَّهُ واللغوي، وإن علك اللغات بقوة لحييه، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجل قد تبرع في علمين مختصين بالقرآن، وهما: (علم المعاني)، و(علم البيان).

---

(١) "جمع قريحة، وهي أول ما يخرج من البئر. فاستعمل في محله مجازًا، ثم استعير للطبيعة من حيث صدور العلوم منها، كالماء للبئر، يقال: لفلان قريحة، ويراد منه أنه مستنبط للعلوم" حاشية الطيبي (٦٥٤/١).

(٢) "أي: أقومها، من قولهم: نهض النبت إذا استوى. و(يبهر): يغلب" حاشية الطيبي (٦٥٤/١).

(٣) "قوله: (القوارح)، وهي جمع: القارحة. والقارح: هو الكامل السن من الخيل إذا بلغ خمس سنين" حاشية الطيبي (٦٥٥/١).

(٤) "قوله: (لا يتم لتعاطيه)، أي: لا يستبد ولا يستقل لتناوله كل صاحب علم، ولا يتصدى له إلا رجل برع في العلمين المختصين بالقرآن" حاشية الطيبي (٦٥٥/١).

وتعب في التنقير عنهما أزمنة، بعد أن يكون آخذًا من سائر العلوم بحظ، جامعًا بين أمرين: (تحقيق) و(حفظ)، كثير المطالعات، طويل المراجعات، فارسًا في علم الإعراب، مقدمًا في حملة الكتاب، متصرفًا ذا دربة بأساليب النظم والنثر، مرتاضًا غير ريض بتلقيح نبات الفكر، قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف، وكيف ينظم ويرصف، طالما دفع إلى مضايقه، ووقع في مداحضه ومزالقه..." (١).

قال ابن خلكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هو الإمام الكبير في التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان؛ كان إمام عصره من غير ما دفع، تشد إليه الرحال في فنونه، صنف التصانيف البديعة: منها: (الكشاف في تفسير القرآن العزيز)، لم يصنف قبله مثله.

وكان معتزلي الاعتقاد. وأول ما صنف كتاب (الكشاف) كتب استفتاح الخطبة: الحمد لله الذي خلق القرآن. فقيل له: متى تركته على هذه الهيئة هجره الناس! فغيره بقوله: الحمد لله الذي جعل القرآن. وجعل عندهم، بمعنى: خلق" (٢).

وقال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (حاشيته على البيضاوي) بعد ذكره لقدماء المفسرين: "ثم جاءت فرقة أصحاب نظر في علوم البلاغة التي يدرك بها وجه الإعجاز وأسرار البلاغة التي هي لحلل التراكيب طراز.

---

(١) انظر مقدمة تفسير الكشاف (١/٢-٣)، البحر المحيط في التفسير (١/١٩)، حاشية السيوطي على البيضاوي (١/٥).

(٢) وفيات الأعيان (٥/١٦٨-١٧٠)، وانظر: تاريخ الإسلام، للذهبي (١١/٦٩٧)، كشف الظنون (٢/١٤٧٥).

وصاحب (الكشاف) هو سلطان هذه الطريقة، والإمام السالك في هذا المجاز إلى الحقيقة؛ فلذا طار كتابه في أقصى الشرق والغرب، ودار عليه النظر؛ إذ لم يكن لكتابه نظير في هذا الضرب.

ولما علم مصنفه أنه بهذا الوصف قد تحلَّى وترقَّى إلى مرتبة ما دنا إليها غيره ولا تدلى قال -تحدثًا بنعمة ربه جَلَّوَعَلَا وشكرًا، لا علوًّا في الأرض ولا فخرًا-:

إنَّ التَّفاسير في الدُّنيا بلا عدد ‏ وليس فيها لعمري مثل كشافي

إن كنت تبغي الهدى فالزم قراءته ‏ فالجهل كالداء والكشاف كالشافي [١]

ولقد صدق وبر، ورسخ نظامه في القلوب وقر.

وقال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (بغية الوعاة): "كان الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ واسع العلم، كثير الفضل، غاية في الذكاء وجودة القريحة، متفننًا في كل علم، معتزليًّا قويًّا في مذهبه، مجاهرًا به، حنفيًّا" [٢].

ولما كان كتاب (الكشاف) بهذه المنزلة اشتهر في الآفاق، واعتنى الأئمة المحققون بالكتابة عليه ما لم يحظ به كتاب في التفسير، فمن مميز لاعتزال، ومن مناقش له فيما أتى به من وجوه الإعراب. ومن محش: وضح، ونقح، واستشكل،

---

(١) حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي (نواهد الأبكار وشوارد الأفكار) (١/٣-٤).

(٢) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة (٢/ ٢٧٩).

وأجاب. ومن مخرج لأحاديثه: عَزَا، وأسند، وصحح، وانتقد. ومن مختصر: لخص، وأوجز، وأضاف [١].

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ في (حاشيته على الكشاف): "إن كتاب الله عَزَّوَجَلَّ المجيد هو قانون الأصول الدينية، ودستور الأحكام الشرعية، وهو المختص من بين سائر الكتب السماوية بصفة البلاغة، التي تقطعت عليها أعناق العتاق، وونت عنها خطى الجياد في السباق. والموفق من العلماء الأعلام، وأنصار ملة الإسلام من كانت مطامح نظره، ومسارح فكره، الجهات التي تضمنت لطائف النكت المكنونة، واشتملت على أسرار المعاني المصونة، فلم يوفق لتصنيف أجمع لتلك الدقائق، و تأليف أنفع لدرك تلك الحقائق، وأكشف للقناع عن وجه إعجاز التنزيل، وأعون في مداحض الكلام على تعاطي التفسير والتأويل إلا الحبر الهمام: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ، شكر الله عَزَّوَجَلَّ سعيه؛ إذ مصنف: (الكشاف عن حقائق التنزيل)، مصنف لا يخفى مقداره، ولا يشق غباره، اتضح بيانه، وأضاء برهانه، وعمت أضواؤه، وانجلت سماؤه، تغرق الأفكار في بحار عباراته، ولا تنتهي الأوهام إلى ساحل إشاراته، هزت أريحية الفضل من أعطاف الفضلاء؛ لاعتلاء ذروته الشامخة، وابتغاء غاياته الباذخة، فكل غاص في تياره لاستخراج درر معان أبهج من

---

(١) انظر: كشف الظنون (٢/١٤٧٥).

نيل الأماني في ظل صحة وأمان؛ فإن من أراد عظيمًا خاطر بعظيمته، ومن رام جسيمًا راهن بكريمته، ومن هاب خاب، ومن أحجم أخفق" (١).

وقال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "كان الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ رأسًا في البلاغة والعربية والمعاني والبيان، وله نظم جيد" (٢).

قال السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "كان يضرب به المثل في علم الأدب والنحو، لقي الأفاضل والكبار، وصنف تصانيف في التفسير، وشرح الأحاديث، وفي اللغة، سمع الحديث من المتأخرين، وديوان شعره سائر. وتوفي بجرجانية خوارزم ليلة عرفة من سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة" (٣).

وفي (البلغة): "العلامة، إمام اللغة والنحو والبيان بالاتفاق" (٤).

---

(١) مقدمة حاشية العلامة الطيبي على الكشاف، (فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب) (١/٦١٠-٦١١).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢٠/١٥٤-١٥٥).

(٣) الأنساب، لعبد الكريم السمعاني المروزي (٦/٣١٥-٣١٦)، وانظر: طبقات المفسرين، للسيوطي (١/١٢٠)، طبقات المفسرين، للأدنه وي (ص:١٧٢)، ديوان الإسلام، لشمس الدين الغزي (٢/٣٩٠)، الجواهر المضية (٢/١٦٠)، تاريخ الإسلام، للذهبي (١١/٦٩٧)، توضيح المشتبه (٢/١٣٠)، نزهة الألباء في طبقات الأدباء (ص:٢٩٠)، الوفيات، لابن قنفذ (ص:٢٧٨)، الأعلام (٧/١٧٨).

(٤) البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، لمجد الدين الفيروزآبادي (١/٢٩٠).

قال الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى: "والتفسير كما يتصوره الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ باب من أبواب المعارف العليا التي لا ينهض بها من الخاصة إلا أوحدهم؛ لأنه في حقيقته: لمح لمحاسن النكت، ودرك للطائف المعاني، وبصر بغوامض الأسرار.

وقد قرر الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ ضرورة توافر أوصاف مهمة في المفسر، بعضها يرجع إلى فطرته وجبلته، وبعضها يحصل بالكسب والدأب" (١).

و"قد ذاع كتاب: (الكشاف) وصاح صيته في شرق العالم الاسلامي وغربه، واهتم به المثقفون اهتمامًا يكاد يكون منفردًا في كتب اللغة، والأدب، والتفسير. ففزع منه أهل السنة والجماعة، وشرعوا أقلامهم لمناقشته، والرد على مسائل الاعتزال وبدعه -كما يعتقدون-، وهم مقدرون أن الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ معتزلي خطير المكانة في العلم والعقيدة، وأنه قادر على أن يدس البدع فى كلامه الحسن الفصيح. وكانوا مع هذه المعارضة القوية يشهدون له بطول الباع، ونفاذ البصر، والتبحر في جميع العلوم، وتميزه بلطائف المحاورة، ونفائس المحاضرة" (٢).

١٠ - القاضي عياض بن موسى المتوفى سنة [٥٤٤هـ]:

ومنهم: القاضي عياض، وهو عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل، عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته. كان من أعلم الناس

---

(١) انظر ذلك في (البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية) (ص:٩٣).

(٢) انظر: المصدر السابق (ص:٩٥-٩٦).

بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم. ولي قضاء سبتة، ومولده فيها، ثم قضاء غرناطة. وتوفي بمراكش مسموما، قيل: سمه يهودي. ومن تصانيفه: (الشفا بتعريف حقوق المصطفى)، وقد ذكر فيه "أن كتاب الله عَزَّوَجَلَّ العزيز منطو على وجوه من الإعجاز كثيرة. وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه:

أولها: حسن تأليفه، والتئام كلمه، وفصاحته وجوه إيجازه، وبلاغته الخارقة عادة العرب.." [(١)].

"**الوجه الثاني**: صورة نظمه العجيب، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه، ووقفت مقاطع آيه، وانتهت فواصل كلماته إليه.. ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له، ولا استطاع أحد مماثلة شيء فيه منه، بل حارت فيه عقولهم، وتدلهت [(٢)] دونه أحلامهم، ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم، من نثر، أو نظم، أو سجع، أو رجز، أو شعر.." [(٣)].

"**الوجه الثالث**: ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات، وما لم يكن ولم يقع، فوجد كما ورد على الوجه الذي أخبر" [(٤)].

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض (٥٠٠/١)، دار الفيحاء، عمان [١٤٠٧هـ]. الشفا بتعريف حقوق المصطفى مذيلًا بالحاشية المسماة: (مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء)، للشمني (٢٥٨/١)، دار الفكر [١٤٠٩هـ].

(٢) تدلهت: بفتح الدال المهملة واللام المشددة، أي: اندهشت وفي نسخة: (تولهت) بواو بدل الدال.

(٣) المصدر السابق (٥١١/١)، مع الحاشية (٢٦٤/١).

(٤) المصدر السابق (٥١٨/١)، مع الحاشية (٢٦٨/١).

"**الوجه الرابع**: ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة والشرائع الداثرة [١]، مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلَّا الفذ [٢] من أحبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك. فيورده النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على وجهه، ويأتي به على نصه، فيعترف العالم بذلك بصحته وصدقه، وأن مثله لم ينله بتعليم. وقد علموا أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمي لا يقرأ ولا يكتب، ولا اشتغل بمدارسة ولا مثافنة [٣]، ولم يغب عنهم، ولا جهل حاله أحد منهم، وقد كان أهل الكتاب كثيرا ما يسألونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذا فينزل عليه من القرآن ما يتلو عليهم منه ذكرًا" [٤].

قال: "ومنها: الروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته؛ لقوة حاله وإنافة [٥] خطره. وهي على المكذبين به أعظم.. حتى كانوا يستثقلون سماعه ويزيدهم نفورًا.." [٦].

---

(١) الداثرة: بدال مهملة وثاء مثلثة، من دثر إذا اندرس ولم يبق له أثر.

(٢) الفذ: الفرد المتوحد المنفرد عن أقرانه.

(٣) مثافنة: بضم الميم وتليها مثلثة ثم ألف وفاء ونون، أي: مداومة طلب ومجالسة تحتك فيها الركب بالركب حتى يؤثر فيها الاحتكاك، وهو عبارة عن كثرة الجلوس مع أهل العلم بالأخبار والشرائع للتعلم منهم، وهو مجاز من ثفن البعير: إذا برك.

(٤) المصدر السابق (١/٥٢٢-٥٢٣)، مع الحاشية (١/٢٦٩).

(٥) أي: علو مرتبته.

(٦) المصدر السابق (١/٥٢٩)، مع الحاشية (١/٢٧٣).

١١ - فخر الدين الرازي المتوفى سنة [٦٠٦هـ]:

ومنهم: الإمام فخر الدين الرازي، وهو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أبو عبد الله، الامام المفسر. أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل. وهو قرشي النسب. أصله من (طبرستان)، ومولده في (الري) وإليها نسبته، ويقال له: (ابن خطيب الري). رحل إلى (خوارزم) و(ما وراء النهر) و(خراسان)، وتوفي في (هراة). أقبل الناس على كتبه في حياته يتدارسونها. وكان يحسن الفارسية.

من تصانيفه: (مفاتيح الغيب)، وهو المعروف بالتفسير الكبير. ومن كتبه: (أسرار التنزيل)، و(أساس التقديس)، و(المطالب العالية) في علم الكلام، و(المحصول في علم الاصول)، و(نهاية الايجاز في دراية الإعجاز)، و(الأربعون في أصول الدين)، و(نهاية العقول في دراية الأصول)، و(تعجيز الفلاسفة) بالفارسية، إلى غير ذلك، فهي كثيرة ومتنوعة [١]، وهي تدل في تنوعها وعمقها على سعة اطلاعه، وواسع فهمه، وتبحره في العلوم، فهو إمام في المعقولات. وجهوده في بيان الإعجاز جديرة بأن تفرد بالبحث، وهو يبني على مقدمات بينة ومرتبة على نهج علماء المنطق والكلام، فتأتي النتائج على أكمل وجه من البيان والإحكام، فهو على دراية تامة بآداب البحث والمناظرة، وقواعد المنطق، وسائر في علوم البلاغة، وإمام لا يجارى في المناظرة.

---

(١) انظر: الأعلام (٣١٣/٦)، وانظر: طبقات المفسرين، للأدنه وي (ص:٢١٣)، طبقات المفسرين، للسيوطي (ص:١٠٠)، طبقات الشافعية، لابن قاضي شهبة (٢/ ٦٥).

وقال تاج الدين السبكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنه: "إمام المتكلمين، ذو الباع الواسع في تعليق العلوم والاجتماع بالشاسع من حقائق المنطوق والمفهوم، والارتفاع قدرًا على الرفاق، تنوع في المباحث وفنونها، وترفع فلم يرض إلا بنكت تسحر ببيونها، وأتى بجنات طلعها هضيم، وكلمات يقسم الدهر أن الملحد بعدها لا يقدر أن يضيم..." (١) إلى آخر كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذكر وصفه، وبيان جهده وفضله.

قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الأصولي المفسر كبير الأذكياء والحكماء والمصنفين. انتشرت تواليفه في البلاد شرقًا وغربًا، وكان يتوقَّد ذكاء، وقد سقت ترجمته على الوجه في (تاريخ الاسلام) (٢). قال: وقد بدت منه في تواليفه بلايا، وعظائم، وسحر، وانحرافات عن السنة، والله يعفو عنه؛ فإنه توفي على طريقة حميدة -والله يتولى السرائر-" (٣).

- مكانة تفسير الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وتحرير القول في أنه لم يتمه:

يطلق على فخر الدين الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لقب: (الإمام) في التفسير، كما جاء ذلك في (روح المعاني)، للألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكذا في غيره، كما يطلق عليه لقب: (الإمام) في (علم الأصول) عند عامة أرباب هذا الفن.

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى (٨/٨١-٨٢).

(٢) انظر: تاريخ الإسلام، للذهبي (٤٣/ ٢١١-).

(٣) سير أعلام النبلاء (٢١/٥٠١).

ويعد تفسيره عمدة التفاسير العقلية، وهو في غالبه من التفسير بالرأي المحمود المستند إلى الدليل، والمبني على قواعد التفسير والمنطق، ومع ذلك فهو لا يهمل المنقول، بل يجمع بين المنقول والمعقول..، وله عناية فائقة بعلم المناسبات، وإبراز بلاغة النظم، واستخدام العلوم المختلفة، وتوليد المسائل، والموضوعية في عرض أدلة الخصم.. إلى غير ذلك.

إلا أنه لم يكمل التفسير على ما حققه كثيرون، فسَرَت بعض الطعون إليه من مواضع لم تثبت نسبتها إليه، وألصقها البعض به جاهلًا عدم صحة النسبة إليه.

كما تكلف بعضهم القول في نسبة التفسير بتمامه إليه -كما سيأتي-.

قال القاضي شمس الدين بن خلكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه: "الفقيه الشافعي، فريد عصره ونسيج وحده، فاق أهل زمانه في علم الكلام والمعقولات وعلم الأوائل، له التصانيف المفيدة في فنون عديدة منها تفسير القرآن الكريم جمع فيه كل غريب وغريبة، وهو كبير جدا لكنه لم يكمله، وشرح سورة الفاتحة في مجلد..." (١)، وتصانيفه في علم الكلام والمعقولات سائرة في الآفاق، وله (تفسير) كبير لم يتممه (٢). وتفسيره الكبير في اثنتي عشرة مجلدة كبار، سماه: (فتوح الغيب)، أو (مفاتيح الغيب)، وفسر (الفاتحة) في مجلد مستقل (٣).

---

(١) وفيات الأعيان (٤/٢٤٩).

(٢) تاريخ الإسلام، للذهبي (٤٣/٢١٣)، وانظر: كشف الظنون (٢/١٧٥٦).

(٣) تاريخ الإسلام (٤٣/٢١٦).

وقد قال كثيرون: إنه بلغ فيه (سورة الأنبياء).

وقد اختلف فيمن أتمه، فقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأكمل تفسير الإمام فخر الدين الرازي أحمد بن محمد بن أبي الحزم مكي نجم الدين المخزومي الْقَمُولِي، المتوفى سنة [٧٢٧]، وهو من أبناء الثمانين" [١].

وفي (كشف الظنون): "وصنف الشيخ نجم الدين أحمد بن محمد القمولي (تكملة) له.

وقاضي القضاة شهاب الدين بن خليل الخويي، الدمشقي كمل ما نقص منه أيضًا، وتوفي سنة [٦٣٩]" [٢].

وقال الأديبُ المؤرّخ صلاح الدين الصفدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وكمل القَاضِي نجم الدّين الْقَمُولِيّ الشَّافِعِي تفسير ابن الخطيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ" [٣].

ونحوه قول أبي بكر بن أحمد، تقي الدين بن قاضي شهبة الشهبي الدمشقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (طبقات الشافعية) [٤].

---

(١) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (٣٦٠/١).

(٢) كشف الظنون (١٧٥٦/٢)، وانظر: التفسير والمفسرون، للدكتور محمد السيد حسين الذهبي (٢٠٧/١).

(٣) الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي (٦١/٨)، وكذلك في (أعيان العصر وأعوان النصر)، للصفدي أيضًا (٣٦٣/١).

(٤) طبقات الشافعية، لابن قاضي شهبة (٢٥٤/٢).

وكذا قول أبي المحاسن يوسف بن تغري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المنهل الصافي) (١).

ونلاحظ أن بعض المعاصرين يرى نسبة التفسير بتمامه إلى الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو قول مجانب للصواب، والتحقيق ما قاله شمس الدين بن خلكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأقره عليه الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وحاجي خليفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (كشف الظنون).

وقد قرأت في مذكرة مدونة من دروس الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه يرى هذا الرأي الذي ذهب إليه ابن خلكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومن وافقه.

ونلحظ ما يرجح ذلك الرأي في كثير من التباينات بين ما جاء فيما صحت نسبته إلى الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وبين ما اختلف في نسبته، بل إن ما ورد من اعتراضات وتعقيبات إنما كانت غالبًا القسم الذي لم تثبت النسبة فيه للفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ومن ذلك على سبيل المثال مما لا تصلح نسبته للفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما جاء في تفسير قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١]، وفيه: "فنقول خلق النساء من النعم علينا وخلقهن لنا وتكليفهن لإتمام النعمة علينا لا لتوجيه التكليف نحوهن مثل توجيهه إلينا، وذلك من حيث النقل والحكم والمعنى، أما النقل فهذا وغيره، وأما الحكم فلأن المرأة لم تكلف بتكاليف كثيرة كما كلف الرجل بها، وأما المعنى فلأن المرأة ضعيفة الخلق سخيفة، فشابهت الصبي لكن الصبي، لم يكلف فكان يناسب أن لا تؤهل

---

(١) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي (٢/١٦٥).

المرأة للتكليف، لكن النعمة علينا ما كانت تتم إلا بتكليفهن؛ لتخاف كل واحدة منهن العذاب، فتنقاد للزوج، وتمتنع عن المحرم، ولولا ذلك لظهر الفساد" (١).

فلا يصح مثل هذا، ولا تصلح نسبته إلى الفخر الرزاي رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ ولذلك أهمله عامة من نقل عن الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بل هو خلاف رأيه ومنهجه، كما هو بيّنٌ في تفسيره لآيات أخرى ذات صلة؛ حيث يقول -مثلًا- فيما صحت نسبته إليه: "واعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ في إيجاد حب الزوجة والولد في قلب الإنسان حكمة بالغة؛ فإنه لولا هذا الحب لما حصل التوالد والتناسل، ولأدى ذلك إلى انقطاع النسل.." (٢).

ويقول: "أمـا حصول هذا العمل -يعني: الجماع- بين الرجل والمرأة فإنه يوجب استحكام الألفة والمودة، وحصول المصالح الكبيرة كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١]" (٣).

وقال: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل:٧٢]: اعلم أن هذا نوع آخر من أحوال الناس، ذكره الله عَزَّوَجَلَّ؛ ليستدل به على وجود الإله المختار الحكيم، وليكون ذلك تنبيهًا على إنعام الله عَزَّوَجَلَّ على عبيده بمثل هذه النعم" (٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٥/٩١).
(٢) مفاتيح الغيب (٧/١٦٢).
(٣) مفاتيح الغيب (١٤/٣١٠-٣١١).
(٤) مفاتيح الغيب (٢٠/٢٤٤).

ومما قال في تفسير قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلٗا ٧٠﴾ [الإسراء:٧٠]: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ﴾ لا بد من بيان الفرق بين هذا التكريم والتفضيل، وإلا لزم التكرار، والأقرب أن يقال: إنه جَلَّ وَعَلَا فضل الإنسان على سائر الحيوانات بأمور خلقية طبيعية ذاتية، مثل: العقل، والنطق، والخط، والصورة الحسنة، والقامة المديدة. ثم إنه جَلَّ وَعَلَا مكنه بواسطة ذلك العقل والفهم من اكتساب العقائد الحقة، والأخلاق الفاضلة، فالأول هو التكريم، والثاني هو التفضيل" (١)، وفوق هذا فإن مسألة خلق النساء والتكليف على التسليم بصحة النسبة للفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإن محل ذكرها في نظائرها من آيات الخلق المتقدمة، كيف وقد تأخر ذكر ذلك فيما دوّن من التفسير، وما فيه من وصف للنساء بما تقدم إلى (سورة الروم)؟! وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ: في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة:٢١]، وقال في مطلع سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾ [النساء:١]، وقال في النحل: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ﴾ [النحل:٧٢].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢١/ ٣٧٥).

ولذلك نلحظ النقل عنه من المفسرين وغيرهم لمثل هذه التفسيرات النفسية -الآنفة الذكر- التي صحت نسبتها إليه، وإهمال تلك الأقوال السقيمة التي لم تصح نسبتها إليه [١].

- كتاب: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز:

وللفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) [٢]، ذكر فيه أن الإمام عبد القاهر رَحِمَهُ ٱللَّهُ استخرج أصول هذا العلم وقوانينه، ورتب حججه وبراهينه، وبالغ في الكشف عن حقائقه، وصنف في ذلك: كتابين لقب أحدهما: (بدلائل الإعجاز).

والثاني: (بأسرار البلاغة)، وجمع فيهما من القواعد، لكنه أهمل رعاية ترتيب الفصول والأبواب، فالتقطت منهما مقاعد فوائدهما على مقدمة وجملتين [٣].

وقد قسم المقدمة إلى فصلين تحدث في أولهما عن السرِّ في إعجاز القرآن، وتحدث في الثاني عن شرف علم الفصاحة.

---

(١) انظر: روح المعاني (١١٢/٨)، السراج المنير، للخطيب الشربيني (٣٢٣/٢)، اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل (٧٤/٥)، (٣٤١/١٢)، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، للقسطلاني (٢٥٢/٩).

(٢) والكتاب مطبوع بتحقيق: الأستاذ الدكتور نصر حاجي مفتي أوغلي، دار صادر، بيروت [١٤٢٤هـ]، وطبع بتحقيق: الأستاذ الدكتور أحمد حجازي السقا، المكتب الثقافي للنشر والتوزيع، الأزهر، القاهرة، الطبعة الأولى [١٩٨٩م]، دار الجيل، بيروت.

(٣) كشف الظنون (١٩٨٦/٢-١٩٨٧).

ورتبه على جملتين؛ جملة خاصة بالمفردات، وجملة خاصة بالنظم أو التأليف.

ووزع خاتمة الكتاب على أربعة فصول، تحدث في الأول منها عن وجه الإعجاز في (سورة الكوثر)، والثاني: وجه الحكمة في المتشابهات، وفي الثالث رد بعض مطاعن الملاحدة ممن يزعمون أن في الذكر الحكيم تناقضًا، وفي الرابع رد على مطاعنهم في القرآن من جهة التكرار والتطويل.

وقد ذكرتُ الكثير مما حققه وحرره من مسائل في التفسير والبلاغة في كل من الجزء الأول من (تذكرة وبيان)، وفي كتاب: (مجاري الكناية)، كما أوردت تعقيبات على بعض ينسب له أو يفهم عنه على غير الوجه الصحيح.

– وصية الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قبل رحيله عن الدنيا:

وفي الختام آثرت أن أذكر بعض ما ذكره الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قبل رحيله عن الدنيا؛ لما في ذلك من نفع لا يخفى، من عَلَمٍ يذكر موعظة نافعة لكل مريد للهداية والنجاة بعد حياة عامرة بالعلم، فيقول في (وصيته): "يقول العبد الراجي رحمة ربه الواثق بكرم مولاه محمد بن عمر بن الحسن الرازي، وهو أول عهده بالآخرة، وآخر عهده بالدنيا، وهو الوقت الذي يلين فيه كل قاس، ويتوجه إلى مولاه كل آبق، أحمد الله بالمحامد التي ذكرها أعظم ملائكته في أشرف أوقات معارجهم، ونطق بها أعظم أنبيائه عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ في أكمل أوقات شهاداتهم، وأحمده بالمحامد التي يستحقها، عرفتها

أو لم أعرفها؛ لأنه لا مناسبة للتراب مع رب الأرباب. وصلواته على ملائكته المقربين، والأنبياء والمرسلين عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، وجميع عباد الله الصالحين.

اعلموا أخلائي في الدين وإخواني في طلب اليقين أن الناس يقولون: إن الإنسان إذا مات انقطع عمله وتعلقه عن الخلق، وهذا مخصص من وجهين:

الأول: أنه إن بقي منه عمل صالح صار ذلك سببًا للدعاء، والدعاء له عند الله عَزَّوَجَلَّ أثر.

الثاني: ما يتعلق بالأولاد، وأداء الجنايات.

أما الأول فاعلموا أني كنت رجلًا محبًّا للعلم، فكنت أكتب من كل شيء شيئًا لأقف على كميته وكيفيته، سواء كان حقًّا أو باطلًا، إلا أن الذي نطق به في الكتب المعتبرة أن العالم المخصوص تحت تدبير مدبره، منزه عن مماثلة المتحيزات، موصوف بكمال القدرة، والعلم، والرحمة.

ولقد اختبرت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن؛ لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال لله عَزَّوَجَلَّ، ويمنع عن التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات، وما ذاك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى في تلك المضايق العميقة والمناهج الخفية؛ فلهذا أقول: كل ما ثبت بالدلائل الظاهرة من وجوب وجوده، ووحدته، وبراءته عن الشركاء، كما في القدم، والأزلية، والتدبير، والفعالية، فذلك هو الذي أقول به، وألقى الله عَزَّوَجَلَّ به، وأما ما ينتهي الأمر فيه إلى الدقة والغموض، وكل ما ورد في القرآن والصحاح، المتعين للمعنى

الواحد فهو كما قال، والذي لم يكن كذلك أقول يا إله العالمين: إني أرى الخلق مطبقين على أنك أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، فكل ما مده قلمي، أو خطر ببالي فأستشهد وأقول: إن علمت مني أني أردت به تحقيق باطل، أو إبطال حق فافعل بي ما أنا أهله، وإن علمت مني أني ما سعيت إلا في تقديس (١) اعتقدت أنه الحق، وتصورت أنه الصدق، فلتكن رحمتك مع قصدي، لا مع حاصلي، فذاك جهد المقل، وأنت أكرم من أن تضايق الضعيف الواقع في زلة، فأغثني، وارحمني، واستر زلتي، وامح حوبتي، يا من لا يزيد ملكه عرفان العارفين، ولا ينقص ملكه بخطأ المجرمين، وأقول: ديني متابعة الرسول محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكتابي القرآن العظيم، وتعويلي في طلب الدين عليهما، اللهم يا سامع الأصوات، ويا مجيب الدعوات، ويا مقيل العثرات أنا كنت حسن الظن بك، عظيم الرجاء في رحمتك، وأنت قلت أنا عند ظن عبدي بي وأنت قلت: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٢]، فهب أني ما جئت بشيء فأنت الغني الكريم، فلا تخيب رجائي، ولا ترد دعائي، واجعلني آمنًا من عذابك قبل الموت، وبعد الموت، وعند الموت، وسهل علي سكرات الموت؛ فإنك أرحم الراحمين.

وأما الكتب التي صنفتها واستكثرت فيها من إيراد السؤالات فليذكرني من نظر فيها بصالح دعائه على سبيل التفضل والإنعام، وإلا فليحذف القول السيء؛ فإني ما أردت إلا تكثير البحث، وشحذ الخاطر، والاعتماد في الكل على الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) في تاريخ الإسلام (٤٣/٢٢١): "في تقرير".

الثاني: وهو إصلاح أمر الأطفال فالاعتماد فيه على الله عَزَّوَجَلَّ.

ثم إنه سرد وصيته في ذلك إلى أن قال: وأمرت تلامذتي ومن لي عليه حق إذا أنا مت يبالغون في إخفاء موتي، ويدفنوني على شرط الشرع، فإذا دفنوني قرأوا عليَّ ما قدروا عليه من القرآن، ثم يقولون: يا كريم جاءك الفقير المحتاج فأحسن إليه اهـ. هذا آخر الوصية" [(١)].

١٢ - عبد الواحد بن عبد الزملكاني المتوفى سنة [٦٥١هـ]:

ومنهم: الزملكاني، وهو عبد الواحد بن عبد الكريم بن خلف الانصاري الزملكاني [(٢)]، أبو المكارم، كمال الدين، ويقال له: ابن خطيب زملكا: أديب، من القضاة. له شعر حسن.

ولي قضاء (صرخد)، ودرس مدة (ببعلبك)، وتوفي (بدمشق).

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين السبكي (٨/٩٠-٩٢)، وانظر: طبقات الشافعيين، لابن كثير (ص:٧٨١)، تاريخ الإسلام، للذهبي (٤٣/٢٢٠-٢٢٣)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، لابن أبي أصيبعة (ص:٤٦٦).

(٢) بفتح الزاي واللام والميم الساكنة، نسبته إلى (زملكاني) قرية بغوطة دمشق.

قال السبكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان فاضلًا خبيرًا بالمعاني والبيان والأدب، مبرزًا في عدة فنون [١].

له رسالة في (الخصائص النبوية). وله: (التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن)، مختصر، وعليه كتاب: للشيخ أبي المطرب: أحمد بن عبد الله المخزومي، سماه: (التنبيهات على ما في التبيان من التمويهات) [٢].

وقد بين أن وجه الإعجاز راجع إلى التأليف الخاص به لا مطلق التأليف، وهو رأي جيد يتنبه لخصوصية تأليفه التي تفارق طرق تأليف كلام العرب [٣].

١٣ - ابن أبي الأصبع المصري المتوفى سنة [٦٥٤هـ]:

ومنهم: ابن أبي الأصبع المصري، وهو عبد العظيم بن الواحد بن ظافر العدواني، البغدادي، ثم المصري: شاعر، من العلماء بالأدب.

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى (٣١٦/٨)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير وَالأعلام (٧١١/١٤)، الأعلام (١٧٦/٤)، معجم المؤلفين (٢٠٩/٦)، شذرات الذهب (٢٥٤/٥)، هدية العارفين (١٤٦/٤).

(٢) كشف الظنون (٣٤١/١)..

(٣) الوافي، أحمد الحفيان، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢١هـ]. وانظر: مناهج المفسرين، لمنيع بن عبد الحليم محمود (ص:١٩٣)، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت [١٤٢١هـ].

مولده ووفاته بمصر [١]. له تصانيف حسنة، منها: (تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن) [٢]، والآخر: (بديع القرآن) [٣]، و(الخواطر السوانح في كشف أسرار الفواتح)، و(البرهان في إعجاز القرآن) [٤].

١٤ – عز بن عبد السلام المتوفى سنة [٦٦٠هـ]:

ومنهم: الإمام النحرير وسلطان العلماء: عز بن عبد السلام. وهو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء: فقيه شافعي، بلغ رتبة الاجتهاد، ولد ونشأ في دمشق، ومناقبه وعلمه وفضله لا يخفى. وزار بغداد سنة [٥٩٩هـ]، فأقام شهرًا. وعاد إلى دمشق، فتولى الخطابة والتدريس بزاوية الغزالي، ثم الخطابة بالجامع الأموي.

ولما سلم الصالح إسماعيل ابن العادل قلعة (صفد) للفرانج اختيارًا أنكر عليه ابن عبد السَّلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولم يدع له في الخطبة، فغضب وحبسه. ثم أطلقه فخرج إلى

---

(١) انظر ترجمته في (الأعلام) (٣٠/٤)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للذهبي (٧٥٩/١٤)، معجم المؤلفين (٢٦٥/٥)، شذرات الذهب (٢٦٥/٥)، إيضاح المكنون (٢٣١/٣)، توضيح المشتبه (٦٣/١)، هدية العارفين (٥٨٥/٣)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (٥٦٧/١).

(٢) والكتاب مطبوع في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة [١٣٨٣هـ]، بتحقيق: حنفي محمد شرف.

(٣) والكتاب مطبوع في نهضة مصر للطباعة والنشر، بتحقيق: حنفي محمد شرف.

(٤) والكتاب مطبوع بتحقيق: د. أحمد مطلوب، د. خديجة الحديثي، الدار العربية للموسوعات.

مصر، فولاه صاحبها الصالح نجم الدين أيوب القضاء والخطابة، ومكَّنه من الأمر والنهي عن المنكر. ثم اعتزل ولزم بيته. ولما مرض أرسل إليه الملك الظاهر يقول: إن في أولادك من يصلح لوظائفك. فقال: لا. وتوفي بالقاهرة. من كتبه: (التفسير الكبير) و(الإلمام في أدلة الاحكام)، و(قواعد الشريعة)، و(الفوائد)، و(قواعد الأحكام في إصلاح الأنام)، و(الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز) في بيان مجاز القرآن... وغير ذلك [(١)].

وله تفسيران للقرآن الكريم [(٢)]، اختصر في أحدهما: (النكت والعيون) للماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وألف الثاني مستقلًّا، وله كتب أخرى كثيرة ومتنوعة في غاية النفع والنفاسة، وقد بلغ فيها الذروة في التحقيق والتحرير.

قال تاج الدين السبكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هو شيخ الإسلام والمسلمين، وأحد الأئمة الأعلام، سلطان العلماء، إمام عصره بلا مدافعة، القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمانه، المطلع على حقائق الشريعة وغوامضها، العارف بمقاصدها، لم ير مثل نفسه، ولا رأى من رآه مثله علمًا وورعًا وقيامًا في الحقِّ، وشجاعة، وقوة جنان، وسلاطة لسان" [(٣)].

---

(١) انظر: الأعلام (٢١/٤)، فوات الوفيات (٣٥٠/٢)، الوافي بالوفيات (٣١٨/١٨).

(٢) انظر: كشف الظنون (٤٣٨/١)، (٤٥٣/١).

(٣) طبقات الشافعية الكبرى (٢٠٩/٨).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الشيخ الإمام المجمع على إمامته وجلالته، وتمكنه في أنواع العلوم، وبراعته: أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام رحمه الله ورضي عنه" (١).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الشيخ الإمام العلامة، وحيد عصره: عز الدين أبو محمد السلمي الدمشقي، ثم المغربي، شيخ الشافعية، برع في المذهب، وفاق فيه الأقران والأضراب، وجمع من فنون العلوم العجب العجاب، من التفسير، والحديث، والفقه، والعربية، والأصول، واختلاف المذاهب والعلماء، وأقوال الناس ومآخذهم حتى قيل: إنه بلغ رتبة الاجتهاد، ورحل إليه الطلبة من سائر البلاد، وصنف المصنفات المفيدة، واختار وأفتى بالأقوال السديدة..." (٢).

وقال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "شيخ الإسلام، وبقية الأئمة الأعلام.." (٣).

ومن كتبه الهامة والنافعة: (الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز) في القرآن الكريم (٤)، حيث ذكر جماليات الإعجاز البياني في القرآن بأسلوب رائع، يدل على فهم ونظر ثاقب، وقد اشتمل الكتاب على فنون من البيان، والمعاني الرائقة.

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (٢٢/٣).

(٢) انظر: طبقات الشافعيين، لابن كثير (ص:٨٧٣)، طبقات الشافعية، لابن قاضي شهبة (١٠٩/٢-١١١)، وانظر: المنهل الصافي، ليوسف بن تغري بردي (٢٨٦/٧-٢٨٩).

(٣) انظر: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير وَالأعلام (٩٣٣/١٤).

(٤) والكتاب مطبوع في (المكتبة العامرة)، القاهرة [١٣١٣هـ]، ودار المعرفة، بيروت.

وكتابه في (مجاز القرآن) قد اختصره: الإمام جلال الدين السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وسماه: (مجاز الفرسان، إلى مجاز القرآن) (١).

١٥ – جمال الدين بن النقيب المتوفى [٦٩٨هـ]:

ومنهم: ابن النقيب، وهو جمال الدين محمد بن سليمان البلخي المقدسي الحنفي الشهير بابن النقيب، له تفسير كبير حافل، وقد جعل مقدمته في (علم البيان والمعاني، والبديع، وإعجاز القرآن) (٢).

حيث ذكر جملة من أوجه البيان والمعاني والبديع، ثم أفرد إعجاز القرآن في فصل مستقل، فذكر أن إعجازه في إيجازه، وفي حسن ترتيبه، وبديع ترتيب ألفاظه، وعذوبة مساقها، وجزالتها، وفخامة وفصل خطابه (٣)، وفي غرابة أسلوبه العجيب، وإعجازه بمجموع الأوجه الثلاثة السابقة (٤)، وبما فيه من المعاني الجليلة والخفية وفنون

---

(١) انظر: كشف الظنون (٢/١٥٩٠).

(٢) و(مقدمة تفسير ابن النقيب) مطبوعة بتحقيق: د. زكريا سعيد علي، مكتبة الخانجي، القاهرة. والمطبوع من قبل بعنوان: (الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان)، ونسب إلى ابن القيم خطأ.

(٣) انظر: المصدر السابق (ص:٥١٢).

(٤) انظر: المصدر السابق (ص:٥١٣).

العلوم النقلية والعقلية، وبما فيه من أخبار الأزمنة الحالية والماضية والمستقبلة، وإعجازه من جهة تأثيره في النفوس (١)، وإعجازه بحفظه من التبديل والتغيير (٢).

كما تناول مذهب القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان الإعجاز.

وتناول إعجاز القرآن والصرفة (٣).... إلى غير ذلك.

١٦ - يحيى بن حمزة المتوفى سنة [٧٤٥هـ]:

ومنهم: الإمام يحيى بن حمزة. وهو يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلوي الطالبي الملقب بالمؤيد بالله، من أكابر أئمة الزيدية وعلمائهم في اليمن. يروي أن كراريس تصانيفه زادت على عدد أيام عمره (٤).

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "واشتغل يحيى بن حمزة بالمعارف العلمية وهو صبي، فأخذ في جميع أنواعها على أكابر علماء الديار اليمنية، وتبحر في جميع العلوم وفاق أقرانه، وصنف التصانيف الحافلة في جميع الفنون.." (٥).

وله: **(الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز)**، ومن جملة ما قال: "اعلم أن ما يتعلق بالأسرار البيانية، والعلوم البلاغية، قد ذكرناه ورمزنا إلى أسراره

---

(١) انظر: المصدر السابق (ص:٥١٥).

(٢) انظر: المصدر السابق (ص:٥١٧).

(٣) انظر: المصدر السابق (ص:٥١٩).

(٤) انظر: الأعلام (١٤٣/٨)، معجم المؤلفين (١٩٥/١٣)، هدية العارفين (٥٢٦/٢).

(٥) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (٣٣١/٢).

ومقاصده، والذي نريد ذكره فى هذا الفن هو الكلام فيما يتعلق بأسرار القرآن، ونحن وإن ذكرناه على جهة التتمة والتكملة، فهو في الحقيقة المقصود، والغرض المطلوب، فنذكر فصاحته، وأنه قد وصل الغاية التى لا غاية فوقها، وأن شيئًا من الكلام وإن عظم دخوله فى البلاغة والفصاحة، فإنه لا يدانيه، ونذكر كونه معجزًا للخلق، وأن أحدًا لا يأتي بمثله، نذكر وجه إعجازه، ثم نذكر أقاويل العلماء فى ذلك، ثم نردفه بذكر المختار، فهذه أربعة فصول قد اشتمل عليها هذا الفن، نفصلها ونذكر ما تضمنته من الأسرار والتفاصيل -والله الموفق للصواب-" (١).

وقال في بيان ثمرة هذا العلم وبيان الغرض منه: "واعلم أنه يراد لمقصدين:

المقصد الأول منها: مقصد ديني: وهو الاطِّلاع على معرفة إعجاز كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، ومعرفة معجزة رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، إذ لا يمكن الوقوف على ذلك إلا بإحراز علم البيان، والاطِّلاع على غوره؛ فإن هذا العلم لَمِن أشرف العلوم في المنقبة، وأعلاها فى المرتبة، وأنورها سراجًا، وأوضحها منهاجًا، وأجمعها للفوائد، وأحواها للمحامد.

قال: **والمقصد الثاني: مقصد عام**: ولا يتعلق به غرض ديني، وهو الاطلاع على أسرار البلاغة والفصاحة في غير القرآن في منثور كلام العرب ومنظومه؛ فإن كل من لا حظَّ له في هذا العلم لا يمكنه معرفة الفصيح من الكلام، والأفصح، ولا يدرك التفرقة بين البليغ والأبلغ، والمنثور من كلام العرب أشرف من المنظوم، لأمرين:

---

(١) انظر: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (١١٩/٣).

أما أولًا: فلأن الإعجاز إنما ورد في القرآن بنظمه وبلاغته، ولم يرد بطريقة نظم الشعر وأسلوبه.

وأما ثانيًا: فلأن الله عَزَّوَجَلَّ شرَّفه عن قول الشعر ونظمه، وأعطاه البلاغة في المنثور من الكلام، وما ذاك إلا بفضل المنثور على المنظوم" [١].

وليحيى بن حمزة رَحِمَهُ ٱللَّهُ تأثر بكل من جار الله الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما خطَّه في (الكشاف)، والإمام السكاكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما خطَّه في (المفتاح).

فقد وضع الإمام يحيى بن حمزة العلوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابه (الطراز) في القرن الثامن، وقد أملاه على أصحابه بعد أن قرأوا تفسير (الكشاف)، فطلبوا منه أن يملي عليهم في إعجاز القرآن كتابًا، فأملاه عليهم [٢].

قال الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى: "فلم تغلب على صاحب (الطراز) الصبغة الأدبية كما غلبت في (المثل السائر) [٣]، ولم تغلب عليه الصبغة الكلامية كما غلبت فى اتجاه (المفتاح).

وواضح من عنوان الكتاب أن البحث فيه ينقسم إلى قسمين: قسم يتضمن أسرار البلاغة، وقسم يتضمن علوم حقائق الاعجاز.." [٤].

---

(١) انظر: المصدر السابق (١/٢٠-٢١).

(٢) اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، للأستاذ الدكتور فهد الرومي (٣/٨٧٥).

(٣) يعني: (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر)، لضياء الدين بن الأثير، وهو معروف.

(٤) انظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، للأستاذ الدكتور محمد أبو موسى (ص:٦٩١).

١٧ – سعد الدين التفتازاني المتوفى سنة [٧٩٢هـ]:

ومنهم: العلامة سعد الدين التفتازاني، وهو من أئمة العربية والبيان والمنطق.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو "مسعود بن عمر التفتازاني العلامة الكبير صاحب شرحي التلخيص، وشرح العقائد في أصول الدين، وشرح الشمسية في المنطق، وشرح التصريف العزي، ويقال: إنه أول تصانيفه، والإرشاد في النحو، اختصر فيه الحاجبية، والمقاصد في أصول الدين وشرحها، والتلويح في أصول فقه الحنفية، عمله حاشية على توضيح صدر الشريعة، وحاشية شرح المختصر، للقاضي عضد الدين، وحاشية الكشاف، وله غير ذلك من التصانيف في أنواع العلوم الذي تنافس الأئمة في تحصيلها والاعتناء بها. وكان قد انتهت إليه معرفة علوم البلاغة والمعقول بالمشرق، بل بسائر الأمصار، لم يكن له نظير في معرفة هذه العلوم، مات في صفر سنة [٧٩٢هـ]، ولم يخلف بعده مثله" (١).

والمتخصص في العلوم الإسلامية والعربية أينما ولَّى وجهه فسيجد السعد التفتازاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتربع على عرش ذلك التخصص، مما يدل على تبحره في العلوم، فهو مدرسة متكاملة في علوم متنوعة.

---

(١) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (٦/١١٢)، مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند [١٣٩٢هـ]، وانظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للإمام السيوطي (٢/٢٨٥)، المكتبة العصرية، لبنان، صيدا، شذرات الذهب (٨/٥٤٧)، الأعلام (٧/٢١٩). معجم المؤلفين (١٢/٢٢٨).

١٨ - محمد عبده المتوفى سنة [١٣٢٣هـ]:

هو محمد عبده بن حسن خير الله، من آل التركماني، مفتي الديار المصرية، ورائد مدرسة الإحياء والتجديد في العصر الحديث، ومن دعاة النهضة والإصلاح في العالم العربي والإسلامي.

وقد قيل: إن رسالة حياته تتلخص في أمرين:

١ - الدعوة إلى تحرير الفكر من قيد التقليد.

٢ - التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة، فيرى أنَّ ما أصاب الأمَّة من الوهن والضعف والذُّل لم يكن إلَّا بسبب عدم التمييز بين الحقَّين.

وقال: إن الوسطية هي جوهر الإسلام، وهي ليست خيارًا إنسانيًّا عند المسلمين، وإنما إرادة إلهيَّة. ويرى أنه لا بدَّ من فقه الحكم وفقه الواقع، فالذي لم يفقه الواقع لا ثقة بحكمه.

وله (تفسير القرآن الكريم) لم يتمه. وقد دعا إلى قراءة النقل بالعقل.

وقال: إن معجزة القرآن عقلية، وقد كانت معجزات النبوَّة السابقة قبل رسالة محمد ﷺ ماديَّة، والمعجزة الماديَّة تدهش العقل، وتشله عن التفكير، بينما القرآن الكريم معجزة عقلية خالدة، تستحث العقل. إذن نحن أمام طور جديد من أطوار الإنسانية؛ ولذلك نقول: في الإسلام بلغت الإنسانية سنَّ الرشد ولم تعد معجزتها إدهاشًا للعقل كما كانت من قبل.

ويرى محمد عبده رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن القرآن الكريم هو المعجز الخالد، دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم، فهو معجزة عرضت على العقل، وعرفته القاضي فيها، وأطلقت له حق النظر في أنحائها، ونشر ما انطوى في أثنائها، فالإسلام لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي، والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري، فلا يخدع الفكر بأطوار غير معتادة، ولا يخرس اللسان بقارعة سماوية، ولا يقطع صيحة الفكر بصيحة إلهية (١).

ومن رُبّي على التسليم بغير عقل، والعمل ولو صالحًا بغير فقه، فهو غير مؤمن. فليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير كما يذلل الحيوان، بل القصد منه أن يرتقي عقله وترتقي نفسه بالعلم، فيعمل الخير؛ لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضي لله عَزَّوَجَلَّ، ويترك الشر؛ لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته.

ويرى أن التنوير الإسلامي يطير بجناحين: العقل من جانب، والنقل من جانب آخر، وليس هناك تناقض بين الجانبين؛ لأن العقل كما يذكر الشيخ محمد عبده رَحِمَهُ ٱللَّهُ أثر من آثار الله عَزَّوَجَلَّ، وآثار الله عَزَّوَجَلَّ لا يمكن أن تتناقض مع بعضها.

وبالإضافة إلى أن محمد عبده كان يكره التقليد ويحذر منه فقد كان يريد أن ينقي مصادر التثقيف التي كانت سائدة في ذلك الوقت، فإن الكثير من الكتب

(١) انظر: الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده، للدكتور محمد عمارة (٣/١٥١-٢٧٩)، (٤/٤١٤)، الأعلام (٦/٢٥٢-٢٥٣)، معجم المؤلفين (١٠/٢٧٢-٢٧٣).

المنتشرة كانت مملوءة بالخرافات والضلالات والإسرائيليات فهي مصدر خطر يهدد العقل الإنساني.

وبناء على قد تقدم فقد تميزت مدرسته في التجديد والإصلاح بمزايا متنوعة، تشمل: الفقه، والتفسير، واللغة، والبلاغة، والأدب، والسياسة، وتأثر بها كثيرون، ولم تسلم من مآخذ، وسيأتي بيان منهجه في التفسير مفصَّلًا مع بيان المزايا والمآخذ، والأسس والدعائم التي قامت عليها هذه المدرسة.

وما كتب في عصرنا يصعب حصره، فمنهم من عني بجانب من جوانب الإعجاز، كالإعجاز التشريعي، أو الإصلاحي، أو البلاغي، أو العلمي، ومن أبرز هؤلاء:

١٩ - مصطفى صادق الرافعي المتوفى سنة [١٣٥٦هـ]:

فمنهم: مصطفى صادق الرافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي، عالم بالأدب، وشاعر، من كبار الكتاب. أصله من (طرابلس) الشام، ومولده في (بهتيم) بمنزل والد أمه، ووفاته في (طنطا) بمصر، وكتابه في إعجاز القرآن والبلاغة النبوية مشهور.

٢٠ - محمد عبد الله دراز المتوفى سنة [١٣٧٧هـ]:

ومنهم: الدكتور محمد عبد الله دراز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عالم أزهري مصري، نال الدكتوراه في جامعة السوربون الفرنسية، ولد سنة [١٨٩٤م]، في (محلة دياي) مركز دسوق، إحدى قرى دلتا مصر، بمحافظة (كفر الشيخ) حاليًا، وكان بيت أسرته بيت علم وخلق وورع، وكان والده من كبار علماء الأزهر. فحفظ القرآن الكريم، ولما لم يبلغ العاشرة من عمره، والتحق بالمعهد الديني في (الإسكندرية) سنة [١٩٠٥م]، ثم بالأزهر، وحصل على شهادة العالمية سنة [١٩١٦م]، وعيّن مدرّسًا فيه.

سافر في البعثة الأزهرية إلى (فرنسا) سنة [١٩٣٦م]، حيث درس علم الاجتماع، والفلسفة، والتاريخ، ومقارنة الأديان بجامعة السوربون، وحصل على الدكتوراه في الجامعة نفسها بمرتبة الشرف الممتازة سنة [١٩٤٧م] عن رسالتيه: الأولى منهما رئيسيَّة بعنوان: (الفلسفة الأخلاقية في القرآن)، والثانية فرعيَّة بعنوان: (المدخل إلى القرآن الكريم)[1]، وهي عرض تاريخي وتحليل مقارن (بالفرنسية) تحتوي على ثلاثة أقسام: تاريخي، وتحليلي، ونقدي جدلي، وقد أبدع فيما كتب وأجاد.

ومن كتبه النافعة: (النبأ العظيم) نظرات جديدة في القرآن [2].. وقد ذكر فيه أدلة عقلية وتاريخية على صدق القرآن الكريم، وبيان أنه كلام الله عَزَّوَجَلَّ الذي لا يأتيه

---

(١) والكتاب مطبوع في (دار القلم)، الكويت [١٤٠٤هـ].

(٢) والكتاب مطبوع في (دار القلم)، الكويت، وفي دار الثقافة في الدوحة، قطر [١٤٠٥هـ]، وغيرهما.

الباطل. والكتاب من أقوى ما يؤسس للإقناع، ويبدد الشكوك حول مصدر القرآن، وصدقه من حيث قوة الأدلة، وإحكام المنهج.

وله رسائل وموضوعات عميقة تدل على سعة علمه، ودقيق فهمه.

سافر في يناير سنة [١٩٥٨م] إلى (باكستان) لحضور المؤتمر الإسلامي في مدينة (لاهور)، وألقى فيه بحثًا بعنوان: (موقف الإسلام من الأديان الأخرى، وعلاقته بها)، وقد توفي في (لاهور) أثناء انعقاد المؤتمر سنة [١٩٥٨م، ١٣٧٧هـ].

٢١ - محمد الخضر الحسين المتوفى [١٣٧٧هـ]:

ومنهم: العلامة محمد الخضر الحسين شيخ الأزهر، وله مؤلفات حافلة ببيان إعجاز القرآن وبلاغته. وقد طبعت أعماله الكاملة مؤخرًا [١].

٢٢ - بديع الزمان سعيد النَّورسي المتوفى سنة [١٣٧٩هـ]:

ومنهم: بديع الزمان سعيد النَّورسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وله: (إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز) [٢]، وكتب أخرى كثيرة ومشهورة، وقد طبعت غير مرة.

---

(١) طبعت أعماله الكاملة في (دار النوادر)، دمشق وبيروت والكويت، الطبعة الأولى [١٤٣١هـ] جمعها وضبطها ابن أخيه المحامي علي الرضا الحسيني.

(٢) والكتاب مطبوع بتحقيق: إحسان الصالحي، تقديم: الدكتور محسن عبد الحميد، أستاذ التفسير والفكر الإسلامي في جامعة بغداد، الطبعة الأولى المطبوعة في العراق سنة [١٤٠٩هـ].

٢٣ – سيد قطب المتوفى سنة [١٣٨٦هـ]:

ومنهم: سيد قطب، وهو سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، كاتب وأديب، في كتابه: (في ظلال القرآن)، و(التصوير الفني في القرآن)، و(مشاهد يوم القيامة في القرآن)، وقد برع في التصوير والمعاني الوجدانية، فساق المعاني في أسلوب مشوق يحرك العاطفة، مبتعدًا عن المسائل العلمية، متفيئًا في ظلال النص تلك المعاني الأدبية والوجدانية التي أتقن فيها التشخيص، حيث كان اهتمامه بهذه الظاهرة هي السمة البارزة في كتبه، حتى إن القارئ ليلحظ جمال التصوير المشوق فيما خطه فيها.

وقد ذكر نماذج من القرآن الكريم بينة واضحة تعكس ما في النص من بلاغة التشخيص والحركة والحياة، فالتشخيص في أسلوب القرآن الكريم يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني، والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية.

فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر فيردها شاخصة حاضرة، فيها الحياة وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل.

وقد تقدم في (الجزء الأول) ذكر نماذج من روائع التشخيص والتصوير عند سيد قطب.

٢٤ - محمد الطاهر بن عاشور المتوفى سنة [١٣٩٣هـ]:

ومنهم: محمد الطاهر بن عاشور، إمام مفسري هذا العصر بلا منازع، ورئيس المفتين المالكيين بتونس، وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس. مولده ووفاته ودراسته بها. عين عام [١٩٣٢] شيخًا للإسلام مالكيًّا. وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة. له مصنفات مطبوعة من أشهرها: (مقاصد الشريعة الإسلامية)، و(أصول النظام الاجتماعي في الإسلام)، و(التحرير والتنوير) في تفسير القرآن، و(موجز البلاغة).. إلى غير ذلك (١).

ويتميز تفسيره بالدقة العلمية البالغة في تحرير المسائل، وبيانها، والحكم عليها مما يدل على تبحره في علوم متنوعة، ودقة نظره، حيث بلغ الذروة في علوم الشريعة، واللغة، والبلاغة، والأدب.

قال في مقدمة تفسيره: "فجعلت حقًّا عليَّ أن أبدي في تفسير القرآن نكتًا لم أر من سبقني إليها، وأن أقف موقف الحكم بين طوائف المفسرين تارة لها وآونة عليها؛ فإن الاقتصار على الحديث المعاد، تعطيل لفيض القرآن الذي ماله من نفاد. ولقد رأيت الناس حول كلام الأقدمين أحد رجلين: رجل معتكف فيما أشاده الأقدمون، وآخر آخذ بمعوله في هدم ما مضت عليه القرون، وفي كلتا الحالتين ضر كثير، وهنا لك حالة أخرى ينجبر بها الجناح الكسير، وهي أن نعمد إلى ما شاده

---

(١) انظر: الأعلام (١٧٤/٦).

الأقدمون فنهذبه ونزيده، وحاشا أن ننقضه أو نبيده، عالما بأن غمض فضلهم كفران للنعمة، وجحد مزايا سلفها ليس من حميد خصال الأمة، فالحمد لله الذي صدق الأمل، ويسر إلى هذا الخير ودل" [(١)].

وللإمام محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ عناية فائقة ببيان وجوه الإعجاز، ونكت البلاغة العربية، وأساليب الاستعمال، وبيان تناسب اتصال الآي بعضها ببعض، وبيان معاني المفردات في اللغة بضبط وتحقيق لم يسبقه أحد إليه -كما أخبر عن ذلك في قوله-: "إن معاني القرآن ومقاصده ذات أفانين كثيرة بعيدة المدى مترامية الأطراف موزعة على آياته فالأحكام مبينة في آيات الأحكام، والآداب في آياتها، والقصص في مواقعها، وربما اشتملت الآية الواحدة على فنين من ذلك أو أكثر. وقد نحا كثير من المفسرين بعض تلك الأفنان، ولكن فنا من فنون القرآن لا تخلو عن دقائقه ونكته آية من آيات القرآن، وهو فن دقائق البلاغة هو الذي لم يخصه أحد من المفسرين بكتاب كما خصوا الأفانين الأخرى، من أجل ذلك التزمت أن لا أغفل التنبيه على ما يلوح لي من هذا الفن العظيم في آية من آي القرآن كلما ألهمته بحسب مبلغ الفهم وطاقة التدبر.

---

(١) التحرير والتنوير (١/٧).

وقد اهتممت في تفسيري هذا ببيان وجوه الإعجاز، ونكت البلاغة العربية، وأساليب الاستعمال، واهتممت أيضًا ببيان تناسب اتصال الآي بعضها ببعض.." (١).

وقال: واهتممت بتبيين معاني المفردات في اللغة العربية بضبط وتحقيق مما خلت عن ضبط كثير منه قواميس اللغة. وعسى أن يجد فيه المطالع تحقيق مراده، ويتناول منه فوائد ونكتا على قدر استعداده، فإني بذلت الجهد في الكشف عن نكت من معاني القرآن وإعجازه خلت عنها التفاسير، ومن أساليب الاستعمال الفصيح ما تصبو إليه همم النحارير، بحيث ساوى هذا التفسير على اختصاره مطولات القماطير، ففيه أحسن ما في التفاسير، وفيه أحسن مما في التفاسير" (٢).

وبالجملة فقد اهتم الإمام محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ ببيان معاني المفردات في اللغة، وجوانب البلاغة والبيان، والمناسبات، مع اهتمامه بالجوانب العقلية، فأظهر الحجج في أبهى صورها، وعمق الاستدلال في مسائل تلك العلوم على تنوعها، ولم يغفل المأثور، وبيان القراءات، فكان تفسيره من خير ما كتب في العصر الحديث.

---

(١) المصدر السابق (١/٨).

(٢) المصدر السابق (١/٨).

٢٥ – محمد عبد الخالق عضيمة المتوفى سنة [١٤٠٤هـ]:

ومنهم: العلامة محمد عبد الخالق عضيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وله: (دراسات لأسلوب القرآن الكريم).

يقول محمود محمد شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ماذا يقول القائل في عمل قام به فرد واحد لو قامت به جماعة لكان مفخرة باقية؟!".

ويقول: وهذا العمل الجليل الذي تولاه أستاذنا الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة، والذي أفنى فيه خمسة وعشرين عامًا طوالًا.. لم يسبقه إلى هذا العمل أحد..

ويقول: فعسى أن يكون قد حان الحين للنظر في (إعجاز القرآن) نظرًا جديدًا لا يتم إلَّا بعد تحليل اللغة تحليلًا دقيقًا قائمًا على حصر الوجوه المختلفة لكل حرف من حروف المعاني، وتصاريف اللغة؛ لأن هذه الحروف وهذه التصاريف تؤثر في المعاني، وتؤثر في الأساليب، وتحدد الفروق الدقيقة بين عبارة وعبارة، وأثرها في النفس الإنسانية، وأثر النفس الإنسانية فيها وفي دلالاتها" (١).

٢٦ – محمد متولي الشعراوي المتوفى سنة [١٤١٩هـ]:

ومنهم فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وله: (الأدلة المادية على وجود الله عَزَّوَجَلَّ)، و(الآيات الكونية ودلالتها على وجود الله عَزَّوَجَلَّ)، و(معجزة القرآن)، و(تفسير حافل بذكر مسائل الإعجاز)

---

(١) مقدمة كتاب: (دراسات لأسلوب القرآن الكريم)، (ص:٥-٧)، دار الحديث، القاهرة [١٤٢٥هـ].

المختلفة، وتفصيلها وعرضها بأسلوب شيق ورائع، وله مؤلفات ومقالات ودروس في التفسير كثيرة جدًّا عرض فيها تفسير الآيات القرآنية وما فيها من الإعجاز بأسلوب علمي وعصري، وفيه ما فيه من التشويق والمهارة والتبسيط، فاجتمعت له القلوب، وانتشرت كتبه وخواطره وتسجيلاته في المشرق والمغرب.

خاتمة:

وفي عصرنا ظهرت كتابات وأبحاث ومقالات كثيرة ومتنوعة في الإعجاز أو جانب من جوانبه، فمن مهتم بالجوانب البلاغية، ومن مهتم بجوانب اللغة، ومن مهتم بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وقد حاد كثيرون عن الجادة في مسائل التفسير العلمي، ولامس الحق آخرون في مسائل، والقليل من حرَّر وحقق وفق قواعد وضوابط التفسير؛ وسيأتي بيان ذلك في (التفسير العلمي).

وقد أعرضت عن أولئك الذين قد علا صيتهم في وسائل الإعلام دون أن يكون عندهم رسوخ في العلم والتحرير، ولا تدرج في طلب العلم على وفق القواعد والأصول.

وقد ذكرت بعض من برز في جانب من الجوانب، وسَكَتُّ عن الحكم عليه في مسائل التفسير الأخرى؛ إذ إنها ليس محل البحث، أو لأنه لا يلتف بالنسبة للبعض إلا لما لوحت به إليك من أوجه العناية بجانب من الجوانب أو أكثر دون مسائل التفسير الأخرى.

المطلب الثالث: القدر المعجز من القرآن، وبطلان القول بالصرفة:

زعم قوم أن المتحدى به هو الكلام الأزلي القديم، وهذا قول بعيد وضعيف، فما لا يدرك كنهه كيف يتحدى به؟! ومَن له أدنى تعقل يدرك أن الإعجاز للقرآن، والقرآن كلام الله عَزَّوَجَلَّ، يشمل اللفظ والمعنى، وهو بلسان عربي مبين.. وزعم النظام وبعض القدرية أن الله عَزَّوَجَلَّ صرف العرب عن معارضة القرآن، وهو في إمكانهم، وروى أنهم سُلبوا القدرة على المعارضة، مردود؛ إذ لو كان كما زعم لم يكن الإعجاز للقرآن؛ بل هو لله عَزَّوَجَلَّ، وهو قول فاسد -كما ذكر الزركشي رَحِمَهُٱللَّهُ في (البرهان)، بدليل قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء:٨٨]؟! وقد أجمع العلماء على أن الإعجاز مضاف إلى القرآن، فكيف يكون معجزًا وليس فيه صفة إعجاز؟ بل المعجز حينئذ، هو الله عَزَّوَجَلَّ حيث سلبهم القدرة عن الإتيان بمثله. ولو كان الاجتماع مع سلب قدرة المجتمعين لم تكن للدعوة إليه فائدة؛ لمنزلته منزلة اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى بكبير يحتفل بذكره. وزعم قوم أنهم كانوا قادرين على الإتيان بمثل القرآن، والذي عجزوا عنه هو ترتيب ما يأتون به، وهذا في غاية البعد والضعف، فمن يقدر على الاختراع لا يعجز عن الترتيب.. الخ.

"ومما يبطل ما ذكروه من القول بالصرفة أنه لو كانت المعارضة ممكنة -وإنما منع منها الصرفة- لم يكن الكلام معجزًا. وإنما يكون المنع هو المعجز، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه -كما تقدم- [1].

وقد وقع خلاف في القدر المعجز من القرآن الكريم على أقوال مشهورة، نجمل القول فيها على النحو التالي:

القول الأول: أن الإعجاز متعلق بجميع القرآن لا ببعضه، قاله بعض المعتزلة. وهو قول مردود بمراحل التحدي التي نصَّ عليها القرآن الكريم.

القول الثاني: أن الإعجاز يتعلق بقليل القرآن وكثيره دون تقييد بالسورة؛ لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ﴾ [الطور:٣٤]، فالآية من القرآن معجزة بذاتها، وإن لم تبلغ في الطول سورة الكوثر؛ لتميز كلام الله عَزَّوَجَلَّ عن كلام البشر في الجلال والجمال؛ حيث يظهر ذلك في سبك الكلام وبلاغته، وما فيه من مظهر الجلال والربوبية، وجمال الأسلوب، وجريانه على نسق بديع خارج عن المألوف عند البشر.. إلى غير ذلك مما يتخصص به كلام الله عَزَّوَجَلَّ، فالتحدي واقع بجنس القرآن لا بالمقدار، وهو قول وجيه.

وقد قيل في تفسير قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣]، أي: شبيهة به في البلاغة، وحسن النظم، والإخبار عن الغيب، وصحة المعاني، ومصادقة الكتب،

---

(١) إعجاز القرآن، للباقلاني (ص:٣٠)، البرهان في علوم القرآن (٢/٩٤)، وانظر: الإتقان (٢/٣١٤)، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (ص:٢٣)، روح المعاني (١/٢٨)، الأصلان (ص:١٧٥).

وتفصيل العلوم؛ لأنكم مثلي في العربية، وتزيدون بالكتابة ومخالطة العلماء. ف: ﴿مِّن﴾ للبيان، أي: بسورةٍ كائنة ممن هو على حاله من كونه بشرًا أميًّا لم يقرأ الكتب، ولم يتعلم العلوم. والسورة قطعة لها أول وآخر، أقلها ثلاث آيات (١).

وذكر الشيخ الصاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (حاشيته على الجلالين) أن قوله: (أقلها ثلاث آيات) ليس من تمام التعريف، بل هو بيان للواقع؛ فإن أقصر سورة ثلاث آيات، ولو فرض أنها آيتان لعجزوا أيضًا (٢).

القول الثالث: أن الإعجاز متعلق بسورة تامة طويلة، أو قصيرة، وهذا رأي كثيرون، واستدلوا عليه بمراحل التحدي التي نصَّ عليها القرآن الكريم.

فقد وقع التحدي بالقرآن كله في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾ [الإسراء:٨٨].

وبعشر سور في قوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣﴾ [هود:١٣].

وبسورة واحدة في قوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٨﴾ [يونس:٣٨].

---

(١) انظر: تفسير الجلالين (ص:٦)، الكشاف (٢/٣٤٧)، نظم الدرر (٩/١٢٣)، حاشية الطيبي على الكشاف (٢/٣٢٠).

(٢) انظر: حاشية الشيخ الصاوي على الجلالين (١/١٤)، المطبعة العامرة [١٣١٨هـ].

وبحديث مثله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطور:٣٤].

قال القاضي أبو بكر الباقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ذهب عامة أصحابنا -وهو قول أبي الحسن الأشعري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتبه- إلى أن أقل ما يعجز عنه من القرآن السورة قصيرة كانت أو طويلة، أو ما كان بقدرها.

قال: فإذا كانت الآية بقدر حروف سورة، وإن كانت كسورة الكوثر فذلك معجز.

وأما قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطور:٣٤] فلا يخالف هذا؛ لأن الحديث التام لا تتحصل حكايته في أقل من كلمات سورة قصيرة" (١).

المطلب الرابع: بيان ما يتحقَّق به الإعجاز:

تقدم في الجزء الأول بيان ما يتحقَّق الإعجاز، إذا تحققت أمور أربعة:

الأول: التَّحدي:

أي: (طلب المباراة والمعارضة).

الثاني: أن يكونَ الدَّافعُ إلى ردِّ التَّحدي قائمًا.

الثالث: أن يكونَ المانعُ منتفيًا:

وتوضيح ذلك أنَّ هذا القرآن هو المعجزة الكبرى الَّتي تحدَّى الله عَزَّوَجَلَّ بها النَّاس أجمعين، يأتي به نبيٌّ أميٌّ لا يعرف القراءة والكتابة..، ولم يتَّصل بأحد من

---

(١) إعجاز القرآن، للباقلاني (ص:٢٥٤)، وانظر: البرهان، للزركشي (١٠٨/٢).

علماء أهل الكتاب حتَّى يطلع على أنباء الأمم وأخبار السَّابقين، متحِّديًا أئمّة الفصاحة، وفرسان البلاغة، وطلب منهم معارضة القرآن الكريم بعباراتٍ قويّة، ولهجاتٍ واخزة تستفزُّ العزيمة، وتدفع إلى المباراة. وأمَّا أسلوب القرآن الكريم في التَّحدي فقد تنزَّل معهم من التَّحدي بجميع القرآن إلى التَّحدي بعشر سور مثله، ثمَّ إلى التَّحدي بسورة واحدة من مثله، وهم واجمون [١] لا ينبسون ببنت شفة، وهم رغم هذا التَّحدي ينتقلون من عجز إلى عجز.." [٢].

الرابع: النظر إلى الكلام نفسه من حيث التركيب والبلاغة، واشتماله على الخصائص التي تميزه عن كلام البشر:

من نحو: الإخبار عن على الغيوب التي لا سبيل للبشر لمعرفتها، وعلى جملة من الأوجه البلاغية التي تجري على نسق بديع خارج عن المألوف، وعلى التراكيب التي تتآلف على مستوى رفيع واحد على الرغم من تنوع المعاني والموضوعات، ومن حيث صلاحية صياغته لمخاطبة الناس عامة على اختلاف ثقافاتهم وعصورهم؛ لكونه خطابًا عامًا للناس كلهم، وناسخًا لما قبله من الشرائع، ولأنه ختم رسالات السماء، فهو باق إلى يوم القيامة.. إلى غير ذلك من الخصائص والمميزات التي تدل عليها أوجه الإعجاز المتنوعة.

---

(١) (وجَمَ) من الأمر (يَجِمُ) (وُجُومًا) أمسك عنه وهو كارهٌ. انظر: المصباح المنير، مادَّة: (وجَمَ) (٢/٦٤٩).

(٢) انظر: التبيان في علوم القرآن (ص:٩٣–٩٤).

المطلب الخامس: ذكر جملة من أوجه إعجاز القرآن:

لقد وعد الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم بأن يكشف للناس عامة، وللعلماء خاصة حقيقة ما في هذا الكون من آيات بيّنة دالة على قدرة الله عَزَّوَجَلَّ وعلمه؛ لتكون دليلًا على حجة الله عَزَّوَجَلَّ البالغة في كتابه المنزل الذي دعا إلى التأمل والنظر والاعتبار، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١﴾ [يونس:١٠١]، وقال: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [فصلت:٥٣].

وجعل المنزل من الآيات لقوم يعقلون فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢﴾ [يوسف:٢].

وليخرج الناس من ظلمات الوهم والشك والاضطراب إلى نور العلم واليقين كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ [إبراهيم:١]. وجعل في آياته ما يهدي إلى ذلك الصراط من بلاغة وأسلوب، وإشارات وحقائق، وهدايات، وتشريعات وقصص وأخبار.

ولكن الإعراض يكون مع وضوح الدليل بسبب الغفلة، أو لاعتبارات أخرى، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ١٠٥﴾ [يوسف:١٠٥]. فكثيرة هي الآيات الواضحة البيّنة، ومع ذلك فإن كثيرًا من الناس معرضون عن تلك الآيات.

وعجبًا لغافل يعاجله الموت فينقضي أجله قبل النظر والعمل، فيتحسر على ما انقضى، ولا سبيل إلى الرجوع والتدارك، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [الأعراف:١٨٥].

والإعجاز دعوة للتأمل والنظر، ومحفر على الاجتهاد والعمل.

وهذه إشارة لجملة من وجوه الإعجاز؛ إذ لا يسع أيَّ باحث في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ أن يحيط بوجوه إعجازه كلها، ولا بأكثرها، قال الشيخ الزرقاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الناظر في هذا الكتاب الكريم بإنصاف تتراءى له وجوه كثيرة مختلفة من الإعجاز كما تتراءى للناظر إلى قطعة من الماس ألوان عجيبة متعددة بتعدد ما فيها من زوايا وأضلاع، ومختلفة باختلاف ما يكون عليه الناظر وما تكون عليه قطعة الماس من الأوضاع.. "[1].

أولًا: الإعجاز في الإخبار الغيبي:

والإعجاز الغيبي ثلاثة أقسام: (الأول: غيب الماضي، الثاني: غيب الحاضر، الثالث: غيب المستقبل).

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/٣٣٢).

١ – غيب الماضي:

فأما غيب الماضي فالمراد به: إنباء القرآن عن أخبار الماضين، وقصص السابقين، كقصة آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وغيرهم من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وذكر تفصيلات تلك القصص يدلُّ على أن القرآن كلام الله عَزَّوَجَلَّ، وليس كلام رسوله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه من المتفق عليه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أميٌّ، ولا علم له بأخبار السابقين.

والقرآن يذكِّر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنَّه لم يحضر هذه الحوادث، وفي ذلك تنبيه على أن القرآن الكريم كلام الله عَزَّوَجَلَّ، إذ كيف يخبر أميٌّ بأخبار غيب لم يشهدها..

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ٤٤﴾ [آل عمران:٤٤]، ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ١٠٢﴾ [يوسف:١٠٢]، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٤٤ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ٤٥ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٤٦﴾ [القصص:٤٤-٤٦]، ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨﴾ [العنكبوت:٤٨]، وقال الله

عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس:٩٤].

وما أتى به الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يتضمن من عالم الغيب ما لا يُعْلَم إلا من طريق الوحي، ولا يظهره الله عَزَّوَجَلَّ إلا لمن ارتضى من رسول، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:٢٦-٢٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود:٤٩].

فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾، أي: هي من أخبار الغيب التي لم تشهدها فتعلمها. ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ﴾ الوحي الذي نوحيه إليك.

﴿فَٱصْبِرْ ۖ﴾ على القيام بأمر الله عَزَّوَجَلَّ وتبليغ رسالته، وما تلقى من مشركي قومك، كما صبر نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾، أي: لمن اتقى الله عَزَّوَجَلَّ، فأدَّى فرائضه، واجتنب معاصيه، فهم الفائزون بما يؤمّلون من النعيم في الآخرة، والظفر في الدنيا بالطلبة، كما كانت عاقبة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ إذ صبر لأمر الله عَزَّوَجَلَّ، أنْ نجّاه من الهلكة مع من آمن به، وأعطاه في الآخرة ما أعطاه من الكرامة، وغرّق المكذبين به فأهلكهم جميعهم [(١)].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/٣٥٦).

أما قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ١٠٢﴾ [يوسف:١٠٢]، فقد تقدم بيانه، وكذلك الآيات ذات الصلة.

وقد أعلم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الناس أنه لا يملك خزائن الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يعلم من الغيب إلا أوحاه الله عَزَّوَجَلَّ إليه منه، وأن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يعطي ويمنع، ويعلم الغيب، وأنه جَلَّ وَعَلَا علام الغيوب، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:٥٠].

ومعلوم من حال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ "أنه كان أميًّا لا يكتب ولا يحسن ان يقرأ، وكذلك كان معروفًا من حاله أنَّه لم يكن يعرف شيئًا من كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم، ثم أتى بجمل ما وقع وحدث من عظيمات الأمور، ومهمات السير من حين خلق الله عَزَّوَجَلَّ آدم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ إلى حين مبعثه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فذكر في الكتاب الذي جاء به معجزة له: قصة آدم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، وابتداء خلقه، وما صار أمره إليه من الخروج من الجنة، ثم جملًا من أمر ولده وأحواله وتوبته، ثم ذكر قصة نوح عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، وما كان بينه وبين قومه، وما انتهى إليه أمرهم، وكذلك أمر إبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ إلى ذكر سائر الأنبياء عَلَيۡهِمُٱلسَّلَامُ المذكورين في القرآن والملوك والفراعنة الذين كانوا في أيام الأنبياء صلوات الله عليهم.

ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل إليه إلا عن تعلم. وإذ كان معروفًا أنه لم يكن ملابسًا لأهل الآثار، وحملة الأخبار، ولا مترددًا إلى التعلم منهم، ولا كان

ممن يقرأ فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه، علم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحي، ولذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٤٨﴾ [العنكبوت:٤٨]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾ [الأنعام:١٠٥]. وقد بينا أن من كان يختلف إلى تعلم علم ويشتغل بملابسه أهل صنعة لم يخف على الناس أمره، ولم يشتبه عندهم مذهبه، وقد كان يُعرف من يحسن هذا العلم -وإن كان نادرًا- وكذلك كان يُعرف فيهم من يختلف إليه للتعلم، وليس يخفي في العرف عالِمُ كلِّ صنعة ومتعلمها، فلو كان منهم لم يخف أمره" (١).

وقد تقدم أن (علم الآثار) من العلوم الهامة التي أغفلها المسلمون في عصرنا الحاضر، حتى تفوق غيرهم عليهم في هذا المجال، مع أن الاستدلال بالآثار على صحيح ما جاء من الأخبار مما يوثق المسموع منها بالدليل الحسي المشاهد.

والاستقراء في التواريخ، والكتب المدونة، والمخطوطات، والآثار كل ذلك مما يوثق الأخبار، ويقوي الإيمان، ويزيد اليقين.

٢ – غيب الحاضر:

وأما غيب الحاضر فإن المراد به: الإخبار القرآن عن عوالم الغيب الموجودة وقت نزوله.

---

(١) إعجاز القرآن، للإمام الباقلاني (ص:٣٤-٣٥).

وهو قسمان:

الأول: كلام القرآن عن عوالم الغيب الموجودة، والتي لم يرها الناس بأبصارهم ولم يتعاطوا معها بحواسهم، كالحديث عن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته وأفعاله، وكالحديث عن الملائكة والجن ومشاهد الموت والاحتضار...الخ.

الثاني: كشف القرآن لأسرار ومكائد المنافقين الذين كانوا يكيدون في الخفاء للإسلام وأهله، وينسجون المؤامرات للقضاء عليه.

ومع ذلك: كانت الآيات القرآنية تتنزل بكشف عوارهم، وإظهار ما يبطنون من النفاق والمكر. كالكشف عن حقيقة قصد المنافقين من مسجد الضرار، وسورة التوبة فيها من هذا الضرب شيء كثير، فقد توعدهم الله عَزَّوَجَلَّ فيها بقوله: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [التوبة:٦٤]، فإنه يعني: أن الله عَزَّوَجَلَّ مظهر عليكم أيها المنافقون ما كنتم تحذرون أن تظهروه، فأظهر الله عَزَّوَجَلَّ ذلك عليهم وفضحهم، وكانت تسمَّى هذه السورة: (الفَاضِحَة)، فاضحةَ المنافقين.

٣ – غيب المستقبل:

وأما غيب المستقبل فقد مثَّل له الشيخ الزرقاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المناهل) بأمثلة عشرة (١).

---

(١) انظر: مناهل العرفان (٢/٣٦٩).

منها: إخبار القرآن عن الروم بأنهم سينتصرون في بضع سنين -وسيأتي- إلى غير ذلك.

ومن غيب المستقبل: ما وعد الله عَزَّوَجَلَّ به نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه سيظهر دينه على الأديان، بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣﴾ [التوبة:٣٣] ففعل ذلك.

ويعلم ذلك الظهور من حيث الأثر والتمكن من النفس، وذلك بأن يصبح هيئة راسخة في النفس، فتأمل حال المسلمين بالمقارنة مع حال غيرهم، فمن الذي يحملهم على تحمل مشاق التكليف من الصلاة والصوم والحج والعبادات الأخرى؟ وما الذي يلزمهم بالمعاملات الإسلامية؟ وهل حال المساجد كحال الكنائس -مثلًا- من حيث الصلاة فيها والتردد إليها؟

وقد ذكر الباقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره على أن معنى الظهور ما يسَّر الله عَزَّوَجَلَّ له ولخلفائه من الفتوحات، ومن الإظهار على الجبابرة والأكاسرة، فقال: "كان أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إذا أغزى جيوشه عرَّفهم ما وعدهم الله عَزَّوَجَلَّ من إظهار دينه؛ ليثقوا بالنصر، ويستيقنوا بالنجح. وكان عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يفعل كذلك في أيامه، حتى وقف أصحاب جيوشه عليه فكان سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وغيره من أمراء الجيوش من جهته يذكر ذلك لأصحابه، ويحرضهم به، ويوثق لهم، وكانوا يلقون الظفر في مواجهاتهم حتى فتح إلى آخر أيام عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلى بلخ وبلاد الهند، وفتح في أيامه مرو الشاهجان، ومرو الروذ، ومنعهم من العبور إلى جيحون. وكذلك فتح

في أيامه فارس إلى إصطخر، وكرمان ومكران وسجستان، وجميع ما كان من مملكة كسرى، وكل ما كان يملكه ملوك فارس بين البحرين من الفرات إلى جيحون. وأزال ملك ملوك الفرس فلم يعد إلى اليوم، ولا يعود أبدًا إن شاء الله جَلَّ وَعَلَا، ثم إلى حدود إرمينية، وإلى باب الأبواب. وفتح أيضًا ناحية الشام والأردن وفلسطين وفسطاط مصر. وأزال ملك قيصر عنها، وذلك من الفرات إلى بحر مصر، وهو ملك قيصر. وغزت الخيول في أيامه إلى عمورية، فأخذ الضواحي كلها ولم يبق منها إلا ما حجز دونه بحر أو حال عنه جبل منيع أو أرض خشنة أو بادية غير مسلوكة" (١).

والمراد أن الفتح الإسلامي آخذ في الامتداد والتمكن، فهو الأظهر والأكثر إقناعًا.

ومن ذلك قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ١٢﴾ [آل عمران:١٢] فصدق فيه.

وقال في أهل بدر: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال:٧]، ووفى لهم بما وعد.

ومن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ٢٧﴾ [الفتح:٢٧].

---

(١) انظر: إعجاز القرآن، للباقلاني (ص:٣٣-٣٤).

وفي الحديث: ما يدل على أن الإسلام سيظهر وينتشر في الأسقاع، كما جاء في (صحيح البخاري) من قول خباب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: شكونا إلى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظلِّ الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: يا رسول الله، ألا تدعو الله، فقعد وهو محمر وجهه، فقال: «**لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد، ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه، فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، ما يخاف إلا الله** عَزَّوَجَلَّ، **أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**» (١).

وقال عدي بن حاتم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: بينا أنا عند النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا قطع السبيل، فقال: «**يا عدي هل رأيت الحِيرَةَ؟**»، قلت: لم أرها، وقد أنبئت عليها، قال: «**فإن طالت بك الحياة لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ ترتحلُ من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدًا إلا الله**»، قلت: فيما بيني وبين نفسي فأين دُعَّارُ طَيِّئٍ الذينَ قد سَعَّرُوا في البلاد؟! «**ولئن طالت بك حياة لَتُفْتَحَنَّ كنوز كسرى**». قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «**كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لَتَرَيَنَّ الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله فلا يجد أحدًا يقبله منه، وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له فيقولن: ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك؟ فيقول: بلى، فيقول: ألم أعطك مالًا**

---

(١) صحيح البخاري [٣٦١٢، ٣٨٥٢، ٦٩٤٣].

وولدًا وأفضل عليك؟ فيقول: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم». قال عَدِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«اتقوا النار ولو بِشِقَّةِ تَمْرَةٍ، فمن لم يَجِدْ شِقَّةَ تَمْرَةٍ فبكلمةٍ طَيِّبَةٍ»**. قال عَدِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم الحياة لَتَرَوُنَّمَا قال أبو القاسم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ»** (١).

ومن الآيات القرآنية التي بشَّرت المسلمين المستضعفين في مكة أنهم سينتصرون على عدوِّهم، وستقوم دولتهم: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر:٤٥].

ومن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥]، والمخاطب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأراد مكة؛ فإن معاد الرجل بلدته.

ومن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ﴾ [الروم:١-٥]. وجاء في التفسير: "عن نيار بن مكرم الأسلمي

---

(١) صحيح البخاري [٣٥٩٥]. و«الفاقة»: الفقر. و«الحيرة» بكسر الحاء المهملة وسكون الياء آخر الحروف وفتح الراء: بلد معروف قديمًا مجاور للكوفة. و«الظعينة» هو في الأصل اسم للهودج، ثم قيل للمرأة في الهودج، وقد تقال للمرأة مطلقًا. و«دعار» ضم الدال المهملة وتشديد العين المهملة جمع: داعر، وهو الخبيث المفسد الفاسق، والمراد بهم: قطاع الطرق. و«سعروا البلاد»: أشعلوا فيها نار الفتنة وأفسدوها. انظر: فتح الباري (٦/٦١٣)، أعلام الحديث، للخطابي (٣/١٥٩٩)، عمدة القاري (١٦/١٣٥).

قال: لما نزلت: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم؛ لأنهم وإياهم أهل كتاب. وفي ذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ﴾ [الروم: ٤-٥]، فكانت قريش تحب ظهور فارس؛ لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث، فلما أنزل الله عَزَّوَجَلَّ هذه الآية خرج أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يصيح في نواحي مكة: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ قال ناس من قريش لأبي بكر: فذلك بينا وبينكم زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارسًا في بضع سنين أفلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى -وذلك قبل تحريم الرهان-، فارتهن أبو بكر والمشركون، وتواضعوا الرهان، وقالوا لأبي بكر: كم تجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين، فسم بيننا وبينك وسطًا تنتهي إليه، قال: فسموا بينهم ست سنين، قال: فمضت الست سنين قبل أن يظهروا، فأخذ المشركون رهن أبي بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس، فعاب المسلمون على أبي بكر تسمية ست سنين؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾. قال: وأسلم عند ذلك ناس كثير. قال: هذا حديث صحيح حسن غريب من حديث: نيار بن مكرم لا نعرفه إلا من حديث: عبد الرحمن بن أبي الزناد" (١).

---

(١) أخرجه الترمذي في (السنن) [٣١٩٤] وحسنه.

ومن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١﴾ [المدثر:١١]، إلى قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦﴾ [المدثر:٢٦]، يعني: الوليد بن المغيرة المخزومي، وإنما خصه بالذكر -وإن كان الناس خلقوا مثل خلقه-؛ لاختصاصه بكفر النعمة بإيذاء الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا عن أبي لهب وامرأته: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [المسد:١-٥].

فقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿تَبَّتْ يَدَآ﴾ تعليم للمخاطَبين بإنشاء الدُّعاء عليه، أي: قولوا ذلك، فهو مصروفٌ إلى الخلق؛ لإعلامهم بأنه أهل لأن يدعى عليه. أو هو من قبيل الإخبار بما يؤول إليه حاله. والفائدة عدم اقتفاء أثر من كان حاله كذلك، والتَّحذير من سلوك طريقه، وفي ذكر المآل والعاقبة عبرة للمعتبر.

والقرآن إنما يعنى بالمقاصد العامَّة، فليس الأمر مجرَّد إنشاء للدُّعاء على فلان من الناس؛ فلذلك فإنَّ القرآن لا يعنى بذكر غالبًا بذكر أشخاص ولا أماكن ولا أزمنة ولا مسافات؛ لأن ذلك لا علاقة له بالحدث، وإنما يعنى بموضع العبرة. فعندما يذكر فرعون -مثلًا- وهو لقب لملوك مصر في تلك الحِقْبَةُ من الزمن لا يذكر من هو على وجه التحديد. وإذا نصَّ القرآن الكريم في القليلِ النَّادر على ذلك فإنما يكون لقصد عظيم.

وقد ذكر القرآن الكريم حكام مصر القدامى بلقب: (فرعون)، إلا في سورة يوسف فقد ذكر فيها حاكم مصر بلقب (ملك) في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ﴾ [يوسف:٤٣]، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ﴾ [يوسف:٥٠]، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾ [يوسف:٥٤].

وقد ذكر المؤرخون أن ملك مصر فى عهد يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كان من ملوك العرب المعروفين بالرعاة (الهكسوس). قال الإمام محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والتعريف في ﴿ٱلۡمَلِكُ﴾ للعهد، أي: ملك مصر. وسماه القرآن هنا: ملكا ولم يسمه فرعون؛ لأن هذا الملك لم يكن من الفراعنة ملوك مصر القبط، وإنما كان ملكا لمصر أيام حكمها (الهكسوس)، وهم العمالقة، وهم من الكنعانيين، أو من العرب، ويعبر عنهم مؤرخو الإغريق بملوك الرعاة، أي: البدو. وقد ملكوا بمصر من عام [١٩٠٠] إلى عام [١٥٢٥] قبل ميلاد المسيح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ" (١). فالتعبير في سورة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بالملك من دقائق إعجاز القرآن.

والملاحظ هنا أنه جرى ذكر أبي لهب لفائدة، وهي أن الآية تتضمن الإعجاز والتَّحدي، فمن الَّذي يملك أن يطلق هذا التَّهديد على صفحات الدَّهر، والقطع بأنه لن يتوب في حياته، فلو أنَّ أبا لهب قال: آمنت ولو كذبًا؛ ليثبت أنَّه قد محى

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/٢٨٠)، وانظر: تفسير المنار (١٢/٢٦١).

أسباب شقائه، أو بقصد تشكيك النَّاس بصحَّة هذا الإخبار لكان نسخًا للخبر، والنسخ لا يكون في الأخبار؛ لأنه يدل على كذب الخبر.

ومن جانب آخر جرى ذكره كأنموذج للشر والصد عن سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، فكان مثالًا وعظة وعبرة، وبيانًا لحال كل من نهج نهجه.

قال الباقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وجميع الآيات التي يتضمنها القرآن من الإخبار عن الغيوب يكثر جدًّا، وإنما أردنا أن ننبه بالبعض على الكل" (١).

ثانيًا: الإعجاز في خصائص القرآن الكريم وأسلوبه:

وقد ذكروا جملة من الأوجه الدالة على الإعجاز البلاغي، فمن ذلك:

١ - جريانه على نسق بديع خارج عن المألوف:

يعني: أنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحدِّ الذي يعلم عجز الخلق عنه.

ذلك أن جميع الفنون التعبيرية عند العرب لا تعدو أن تكون نظمًا أو نثرًا؛ وللنظم أعاريض وأوزان محددة معروفة، وللنثر طرائق من السجع والإرسال وغيرهما مبيَّنة ومعروفة.

---

(١) إعجاز القرآن، للإمام الباقلاني (ص:٣٤).

وقد تحيَّر العرب في أمره؛ إذ عرضوه على موازين الشعر فوجدوه غير خاضع لأحكامه، وقارنوه بفنون النثر فوجدوه غير لاحق بالمعهود من طرائقه، فكان أن انتهى الجاحدون منه إلى أنه السحر، واستيقن المنصفون منهم بأنه تنزيل من ربِّ العالمين [١].

٢ – جريانه على مستوى رفيع واحد على الرغم من تنوع المعاني والموضوعات:

إن التعبير القرآني يظلُّ جاريًا على نسقٍ رفيع من السموِّ في جمال اللفظ، ورقة الصياغة، وروعة التعبير، رغم تنقله بين موضوعات مختلفة من التشريع، والقصص، والمواعظ، والحجاج والوعد والوعيد، وتلك حقيقة شاقة، بل لقد ظلت مستحيلة على الزمن لدى جميع من عرفنا وسمعنا بهم من فحول علماء العربية والبيان.

ومهما رأينا بليغًا كامل البلاغة والبيان فإنه لا يمكن أن يتصرف بين مختلف الموضوعات والمعاني على مستوى واحد من البيان الرفيع الذي يملكه، بل يختلف كلامه حسب اختلاف الموضوعات التي يطرقها، فربما جاء بالغاية من البراعة في معنى من المعاني، فإذا انصرف إلى غيره انخذل عن تلك الغاية ووقف دونها.

---

(١) بتصرف عن كتاب (من روائع القرآن)، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي (ص:١١١-١١٣).

لكننا لا نرى هذا التفاوت في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، فإنا نقرأ آيات منه في الوصف، ثم غيرها في القصة، ثم مقطعًا في التشريع فلا نجد الصياغة إلا في أوج رفيع عجيب ورفيع من البيان (١).

بل إن ما يكتبه الباحث فيما يتعلق بموضوع واحد هو فيه ضليع وماهر يختلف باختلاف الزمان من حيث الصياغة والسبك، وانفتاح آفاق جديدة من الاطلاع، وسعة الخبرة، فقد لا يرتضي ما كتبه في الماضي، فيعيد صياغته، أو يزيد عليه، فيخلف أسلوبه في الكتابة في بداية ممارسته وشروعه فيما شرع عن أسلوبه بعد تمرسه. ولكنك لا تجد ذلك الاختلاف في القرآن الكريم.

قال الشيخ الزرقاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن القرآن جاء بهذا الأسلوب الرائع الخلاب الذي اشتمل على تلك الخصائص العليا التي تحدثنا عنها، والتي لم تجتمع بل لم توجد خاصة واحدة منها في كلام على نحو ما وجدت في القرآن، وكل ما كان من هذا القبيل فهو لا شك معجز، خصوصًا أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحدى به، فأعجز أساطين الفصحاء، وأعيا مقاويل البلغاء، وأخرس ألسنة فحول البيان، من أهل صناعة اللسان، وذلك في عصر كانت القوى فيه قد توافرت على الإجادة والتبريز في هذا الميدان، وفي أمة كانت مواهبها محشودة للتفوق في هذه الناحية، وإذا كان أهل الصناعة هؤلاء قد عجزوا عن معارضة القرآن فغيرهم أشد عجزًا، وأفحش عيًّا.

---

(١) بتصرف عن (المصدر السابق) (ص:١١٣-١١٤).

وها قد مرت على اللغة العربية من عهد نزول القرآن إلى عصرنا هذا أدوار مختلفة، بين علو ونزول، واتساع وانقباض، وحركة وجمود، وحضارة وبداوة، والقرآن في كل هذه الأدوار واقف في عليائه، يطل على الجميع من سمائه، وهو يشع نورًا وهداية، ويفيض عذوبة وجلالة، ويسيل رقة وجزالة، ويرف جدة وطلاوة، ولا يزل كما كان غضًّا طريًّا، يحمل راية الإعجاز، ويتحدى أمم العالم في يقين، وثقة قائلًا في صراحة الحق، وقوته وسلطان الإعجاز وصولته: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء:٨٨] "(١).

٣ – صلاحية صياغته لمخاطبة الناس عامة على اختلاف ثقافاتهم وعصورهم:

إنَّ معاني القرآن مصوغة بحيث يصلح أن يخاطب بها الناس كلهم على اختلاف مداركهم وثقافتهم، وعلى تباعد أزمنتهم وبلدانهم، ومع تطور علومهم واكتشافاتهم.

فإن أسلوب الآية يتضمن سطحًا قريبًا وعمقًا وجذورًا، فالعاميُّ يفهم منه السطح القريب، والمثقف يفهم العمق، والباحث المتخصص يفهم أعماق المعنى وجذوره.

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/٣٣٢-٣٣٣).

فمثلًا: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان:٦١]؛ فإن العامي يفهم منها أن كلًّا من الشمس والقمر يبعثان بالضياء. وإن المتأمل يدرك أن الشمس تجمع إلى النور الحرارة؛ فلذلك سمَّاها: سراجًا، والقمر يبعث بضياء لا حرارة فيه، والمتخصص الفلكي يفهم أن القمر يضيء بما ينعكس عليه من ضياء الشمس. وكل هذه المفاهيم تدل عليها الآية (١).

"وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئًا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظمًا أحسن تأليفًا، وأشد تلاؤمًا وتشاكلًا من نظمه.

وأما **(معانيه)** فكل ذي لب يشهد له بالتقديم في أبوابه، والرقي في أعلى درجاته. وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام، وأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه فلم توجد إلا في كلام العليم القدير الذي أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا.

فخرج من هذا أن القرآن إنما صار معجزًا؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنًا أصح المعاني من توحيد الله عَزَّوَجَلَّ وتنزيهه في صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان لطريق عبادته في تحليل وتحريم وحظر وإباحة. ومن وعظ وتقويم وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق وزجر عن مساويها، واضعًا كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه، ولا يتوهم في صورة العقل أمر

---

(١) بتصرف عن كتاب (من روائع القرآن) (ص:١١٤-١١٦).

أليق به منه، مودعًا أخبار القرون الماضية وما نزل من مثلات الله عَزَّوَجَلَّ بمن عصى وعاند منهم، منبئًا عن الكوائن المستقبلة في الأعصار الماضية من الزمان، جامعًا في ذلك بين الحجة والمحتج له، والدليل والمدلول عليه؛ ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه، وإنباء عن وجوب ما أمر به ونهى عنه. ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرتهم فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله، ومناقضته في شكله. ثم صار المعاندون له ممن كفر به وأنكره يقولون مرة: إنه شِعر لما رأوه منظومًا، ومرة: إنه سحر لما رأوه معجوزًا عنه، غير مقدور عليه. وقد كانوا يجدون له وقعًا في القلب، وقرعًا في النفس يريبهم ويحيرهم، فلم يتمالكوا أن يعترفوا به نوعًا من الاعتراف؛ ولذلك قالوا: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وكانوا مرة لجهلهم وحيرتهم يقولون: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥﴾ [الفرقان:٥] مع علمهم أن صاحبهم أميٌّ، وليس بحضرته من يملي أو يكتب شيئًا، ونحو ذلك من الأمور التي أوجبها العناد والجهل والعجز.

وقد حكى الله عَزَّوَجَلَّ عن بعض مردتهم -وهو الوليد بن المغيرة المخزومي- أنه لما طال فكره في القرآن، وكثر ضجره منه، وضرب له الأخماس من رأيه في الأسداس

فلم يقدر على أكثر من قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥﴾ [المدثر:٢٥] عنادًا وجهلًا به، وذهابًا عن الحجة وانقطاعًا دونها" [١].

قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقلت في إعجاز القرآن وجهًا آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وهو صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن منظومًا ولا منثورًا إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى، ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب [٢] والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدو لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة وكفرهم إيمانًا.

خرج عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من بيته يكيد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عامدًا لقتله فصار إلى دار أخته، وهي تقرأ: (سورة طه) فلما وقع في سمعه لم يلبث أن آمن.

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/١٠٢)، ثلاث رسائل في الإعجاز، رسالة الإمام الخطابي (ص:٢٨)، وانظر: الإتقان (٢/٣٢٠)، إعجاز القرآن، للباقلاني (ص:١٥).

(٢) الوجيب: خفقان القلب واضطرابه.

وبعث ملأ قريش عتبة بن ربيعة إلى رسول الله ﷺ؛ ليوافقه على أمور أرسلوه بها، فقرأ عليه رسول الله ﷺ آيات من: (حم السجدة)، فلما أقبل عتبة وأبصره الملأ من قريش قالوا: قد أقبل أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به.

ولما قرأ رسول الله ﷺ القرآن في الموسم على النفر حضروه من الأنصار آمنوا به وعادوا إلى المدينة فأظهروا الدين بها، فلم يبق بيت من بيوت الأنصار إلا وفيه قرآن. وقد روي عن بعضهم: فتحت الأمصار بالسيف، وفتحت المدينة بالقرآن.

ولما سمعته الجن لم تتمالك أن قالت: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن:١-٢].

ومصداق ما وصفناه في قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١].

وفي قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٣] .... إلى غير ذلك" (١).

---

(١) ثلاث رسائل في الإعجاز، رسالة الإمام الخطابي (ص:٧٠-٧١)، البرهان في علوم القرآن (١٠٧/٢)، وانظر: الحجة في بيان المحجة، لأبي القاسم الأصبهاني (٣٩٠/١)، الإتقان (٣٢١/٢)، نظم الدرر (٣٢٣/٤).

٤ – التناسق في ترتيب الآيات والسور:

إنَّ آيات القرآن الكريم وسوره قد رُتِّبَتْ ترتيبًا غاية في الائتلاف والتناسق، مع أنه نزل منجَّمًا في نحو ثلاث وعشرين سنة على حسب الوقائع والحوادث، ومقتضيات الأحوال، حتى إنَّ الناظر فيه دون أن يعلم بتنجيم نزوله لا يخطر على باله أنه نزل منجَّمًا.

أما مسألة (ترتيب السور على حسب النزول) فكما هي مجافية لمنطق المنقول فهي مجافية لمنطق المعقول.

قال أستاذنا الدكتور العلامة إبراهيم خليفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قد استندنا في أمر المعقول إلى واقع أمر القرآن الكريم، وأنه كان يتنزل على أثر أسباب نزول، يعني: وقائع تحدث فتعالجها نجوم الذكر الحكيم، وأن هذه النجوم لم يكن يراعى فيها إطلاقًا الترتيب النزولي، لأن الترتيب على حسب الوقائع غير ممكن.

يعني: أنتَ مثلًا عندما تحب أن ترتب تقول: (سرقة، لعان، قتل، زنا، غزوة...الخ)، فما وجه الصلة مثلًا بين الزنا وبين غزوة كذا –مثلًا–؟

فالسور نرتبها ترتيبًا موافقًا للمعقول عندما نقول: نزلت سورة كذا جملة واحدة أو نجومًا متفرقة غير متفاصلة بنجم آخر غيرها، ثم نزلت بعدها سورة على الوضع نفسه، وإما نجومًا لا يفصل بينهما بنجم آخر [1].

---

(١) حقق أستاذنا الدكتور العلامة إبراهيم خليفة ذلك بما لم يسبق إليه في كلام مطول في (التفسير التحليلي لسورة النساء) من (ص:٤٧) إلى (ص:٨٦).

قال الشيخ الزرقاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إنَّ القرآن لم ينزل جملة واحدة، وإنما نزل مفرَّقًا منجمًا على أكثر من عشرين عامًا على حسب الوقائع والدواعي المتجددة، وكان الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلما نزل عليه نجم من تلك النجوم قال: ضعوه في مكان كذا، من سورة كذا، وهو بشر لا يدري طبعًا ما ستجيء به الأيام، ولا يعلم ما سيكون في مستقبل الزمان، ولا يدرك ما سيحدث من الدواعي والأحداث، فضلًا عما سينزل فيها، ثم مضى العمر الطويل والرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هذا العهد، وإذا القرآن كله بعد ذلك يكمل ويتم، وينتظم ويتآخى، ويأتلف وينسجم، ولا يؤخذ عليه شيء من التخاذل والتفاوت، بل كان من ضروب إعجازه: ما فيه من انسجام ووحده وترابط حتى إن الناظر فيه دون أن يعلم بتنجيم نزوله لا يخطر على باله أنه نزل منجمًا.." [(١)].

بعض العلماء يقول: لا يصح أن يطلب التناسب بين بعض سور القرآن وبعض، بل حتى لا يحسن أن يطلب التناسب بين بعض نجوم القرآن وبعض، وإنما يطلب التناسب بين أجزاء النجم الواحد سواء كان بعض سورة أو سورة كاملة، فلو نزلت سورة كاملة يمكن أن تطلب التناسب بين أجزائها، ولكن لو نزلت نجومًا فلا تُعقد المناسبة بين النجوم؛ لأن النجوم فضلًا عن السور نزلت على حسب الدواعي والمقتضيات، وكما لا يحسن أن تتطلب مناسبة بين الأحداث والدواعي فكذلك النجوم المعالجة للأحداث، فمثلًا عندما نقول: النجم الفلاني نزل يعالج سرقة، والنجم

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/ ٣٤٠-٣٤١).

الفلاني نزل في غزوة، والثالث في قضية نفاق —مثلًا- فلا نستطيع أن نقول: هناك صلة بين سرقة وبين غزوة —مثلًا-....الخ.

هذا كلام الإمام عز الدين بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومن لفَّ لفه، وحاول الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن ينصر هذا القول في (فتح القدير) بأقصى ما استطاع في تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٤٠﴾ [البقرة:٤٠] (١).

فمن يقول هذا الكلام كلامه في وادٍ وتطلب المناسبة في وادٍ آخر.

فكلامكم يصح لو كنا نتطلب المناسبة بين النجوم المترتبة ترتيبًا نزوليًّا، فنحن عندما نطلب المناسبة بين سور القرآن، أو نجوم السورة الواحدة نطلبها على حسب الترتيب المصحفي. قال الشيخ ولي الدين الملوي: قد وهم من قال: لا يطلب للآيات الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المفرقة. وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلًا، وعلى حسب الحكمة ترتيبًا وتأصيلًا، فالمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما في الكتاب المكنون مرتبة سوره كلها، وآياته بالتوقيف، وحافظ القرآن

---

(١) انظر: فتح القدير (١/٨٥-٨٦). قال: "اعلم أن كثيرًا من المفسرين جاءوا بعلم متكلف، وخاضوا في بحر لم يكلفوا سباحته، واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة، بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ؛ وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف، فجاؤوا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الإنصاف، ويتنزه عنها كلام البلغاء، فضلًا عن كلام الرب جَلَّوَعَلَا، حتى أفردوا ذلك بالتصنيف، وجعلوه المقصد الأهم من التأليف، كما فعله البقاعي في تفسيره..." إلى آخر قوله.

العظيم لو استفتي في أحكام متعددة أو ناظر فيها أو أملاها لذكر آية كل حكم على ما سئل، وإذا رجع إلى التلاوة لم يتل كما أفتى، ولا كما نزل مفرقًا، بل كما أنزل جملة (١).

وهذا الذي ندعي أنه يسهم في إعجاز القرآن الكريم، فبدلًا من أن تجعلوا هذا شيئًا بديعًا وفق إليه العلماء تعارضون ذلك، كذا قال أستاذنا العلامة، أ.د إبراهيم خليفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ" (٢).

وقد قيل: "إن أقرب وأخصر تعريف للمناسبة أنها: **(علم يبحث فيه عن الترابط الوثيق بين سور القرآن الكريم وآياته من مبدئه إلى إلى نهايته)**. أو بعبارة أخرى: **(المناسبة: أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول)**" (٣).

---

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن (٣/٣٧٠)، معترك الأقران (١/٤٤)، البرهان في علوم القرآن (١/٣٧)، مناهل العرفان (١/٨٠).

(٢) وأصل الكلام وتفصيل القول فيه في (التفسير التحليلي لسورة النساء) (ص:٨٦-٨٨).

(٣) لا يأتون بمثله (دراسة في إعجاز القرآن)، للأستاذ الدكتور محمد سالم أبو عاصي، عميد كلية الدراسات العليا بجامعة الأزهر (ص:١٣٧)، (أحسن الحديث) دراسة في بيان القرآن (ص:٦٨-٦٩). وانظر: البرهان في علوم القرآن، للزركشي (١/٣٥)، الموافقات، للشاطبي (٢/٥٢٣)، الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي (٣/٢٧٠)، كشف الأسرار شرح أصول فخر الإسلام البزدوي (٢/٣٥٢)، شرح التلويح على التوضيح (٢/١٢٧)، تيسير التحرير (٣/٣٠٣)، فواتح الرحموت (٤/١٣١)، الردود والنقود شرح مختصر ابن الحاجب (٢/٥٣٦)، فصول البدائع في أصول الشرائع (٢/٣٤٥).

وقد قيل: إن أول من أظهر علم المناسبة الشيخ أبو بكر النيسابوري، وكان واسع العلم في الشريعة والأدب. قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (معرفة المناسبات بين الآيات): "وقد أفرده بالتصنيف الأستاذ أبو جعفر بن الزبير شيخ أبي حيان، وتفسير الإمام فخر الدين فيه شيء كثير من ذلك.

قال: واعلم أن المناسبة علم شريف، تحزر به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول، والمناسبة في اللغة: المقاربة، وفلان يناسب فلانًا، أي: يقرب منه ويشاكله. ومنه: النسيب الذي هو القريب المتصل كالأخوين، وابن العم ونحوه، وإن كانا متناسبين بمعنى: رابط بينهما، وهو القرابة، ومنه: (المناسبة في العلة في باب القياس): الوصف المقارب للحكم؛ لأنه إذا حصلت مقاربته له ظن عند وجود ذلك الوصف وجود الحكم؛ ولهذا قيل: المناسبة أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول، وكذلك المناسبة في فواتح الآي، وخواتمها، ومرجعها..." [١].

و"قال بعض مشايخنا المحققين: قد وهم من قال: لا يطلب للآي الكريمة مناسبة؛ لأنها على حسب الوقائع المتفرقة. وفصل الخطاب أنها **(على حسب الوقائع تنزيلًا وعلى حسب الحكمة ترتيبًا)**، فالمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما في الكتاب المكنون مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف، وحافظ القرآن العظيم لو استفتي في أحكام متعددة، أو ناظر فيها أو أملاها لذكر آية كل حكم على ما سئل، وإذا رجع إلى التلاوة لم يتل كما أفتى، ولا كما نزل مفرقًا..

(١) البرهان في علوم القرآن (١/٣٥-٣٦).

قال: ومن المعجز البين أسلوبه ونظمه الباهر فإنه ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود:١]. قال: والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها، أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك علم جم، وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها، وما سيقت له. قلت: وهو مبني على أن ترتيب السور توقيفي، وهذا الراجح. وإذا اعتبرت افتتاح كل سوره وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها، ثم هو يخفى تارة، ويظهر أخرى..." [١].

وقال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة، وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه، وشرف معانيه، فهو أيضًا معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا: إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك، إلا أني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف، غير متنبهين لهذه الأمور، وليس الأمر في هذا الباب كما قيل:

والنجم تستصغر الأبصار رؤيته   والذنب للطرف لا للنجم في الصغر [٢]

وقال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في موضع آخر: "أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط" [٣].

---

(١) المصدر السابق (١/٣٧-٣٨).

(٢) مفاتيح الغيب (٧/١٠٧).

(٣) المصدر السابق (١٠/١١٠).

وقال القاضي أبو بكر بن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إنَّ ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متَّسقة المعاني، منتظمة المباني، علم عظيم، لم يتعرَّض له إلا عالم واحد عَمِلَ منه: (سورة البقرة)، ثم فتح الله عَزَّوَجَلَّ لنا فيه، فلمَّا لم نَجِد له حَمَلَةً، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله عَزَّوَجَلَّ، ورددناه إليه" [١].

وقال برهان الدين إبراهيم البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وعلم المناسبات -الأهم من مناسبات القرآن وغيره- علم تعرف منه علل الترتيب.

وموضوعه: أجزاء الشيء المطلوب علمُ مناسبته من حيث الترتيب.

وثمرته: الاطلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء بسبب ما له بما وراءه، وما أمامه من الارتباط والتعلق الذي هو كلحمة النسب، فعلم مناسبات القرآن علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال، وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها؛ فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة، وكانت نسبته من علم التفسير نسبة علم البيان من النحو" [٢].

---

(١) سراج المريدين، لأبي بكر بن العربي (٤/١٤٤- ١٤٥)، ط:١، دار الحديث الكتانية، المغرب [١٤٣٨هـ].

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/٥-٦)، وانظر: مصاعد النَّظر للإشراف على مقاصد السِّور (١/١٤٢)، أسرار ترتيب القرآن، للسيوطي (ص:٥).

وقد بين الأستاذ الدكتور إبراهيم خليفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ السبيل المثلى إلى تحصيل المناسبة، حيث قال: "إن لك في تطلب المناسبة بين السور سبيلين:

إحداهما: ما أسميه: **(المسلك العام)**، وأعني به: أن نعقد المناسبة بين موضوع السورة السابقة، وموضوع السورة التي أنت بصدد القول في تفسيرها، أو قل: بين الروح العامة السارية في كيان السورة السابقة كله، وبين الروح العامة السارية في كيان السورة التي ستفسرها كله كذلك.

والسبيل الأخرى ما أسميه: **(المسلك الخاص)**، وأعني به: أن تطلب المناسبة بين آية في سورتك التي أنت بصدد تفسيرها، وأخرى في السورة السابقة عليها، وغالبًا ما يكون ذلك بين خاتمة السابقة، وفاتحة اللاحقة، وإن لم يمنع ذلك من تطلب المناسبة بين غير الفاتحة والخاتمة، كفاتحتي السورتين أو خاتمتيهما أو آية في وسط هذه وأخرى في وسط تلك –وهلم جرًّا–.

فأما السبيل الأول أو المسلك الأول فقد ذهل عنه أغلب المفسرين، بل كافتهم في أغلب السور القرآن فيما أعلم.

بحيث لم يعن الكاتبون منهم في بيان المناسبات، وهم قلة على أية حال بالنسبة للتاركين لها بالكلية. أقول: لم يعن هؤلاء إلا بالمسلك الثاني فحسب، وبحيث عدوا هذا المسلك كافيًا، بل بالغًا أقصى درجات الكفاية في بيان ارتباط بعض القرآن ببعض، مع أن هذا المسلك عندي بل عندي كل من تأمله بنصفة وتبصر ضعيف لا يكفي مثله في تجلية حكمة القرآن الكريم البالغة، وعظمته السابغة في روعة

ارتباطه، وإعجاز هذا الارتباط؛ إذ غايته الربط بين مجرد آية وآية أخرى —كما قلنا– . فأما أن يربط بين كافة السورة السابقة وأختها اللاحقة فهو بمعزل عن هذه الطلبة الشريفة بالكلية بخلاف ما ذهلوا عنه مما نسميه: (المسلك العام)؛ فإنك تعقد المناسبة في هذا المسلك بين موضوعي السورتين، أو بين روحيهما العامين، تكون قد ربطت بأوثق رباط بين كافة جزئيات هذه، وكافة جزئيات تلك، وهو ما يبرز حقًّا روعة القرآن، وسمو إعجازه في هذا المجال (١).

وقال برهان الدين إبراهيم البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال شيخنا الإمام المحقق أبو الفضل محمد بن العلامة القدوة أبي عبد الله محمد ابن العلامة القدوة أبي القاسم محمد المشدالي المغربي البجائي المالكي، علامة الزمان، سقى الله عَزَّوَجَلَّ عهده سحائب الرضوان، وأسكنه أعلى الجنان: قال بعض المتأخرين: الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر إلى الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام أو اللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل، بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلي

---

(١) انظر تفصيل ذلك في (التفسير التحليلي لسورة النساء) (ص:٨٩-٩٠).

المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، فإذا فعلته تبين لك وجه النظم مفصلا بين كل آية وآية في كل سورة انتهى" (١).

قال الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى: "والنظر هنا من جهات أربع:

الأولى: نظر في الغرض واستكشافه وتحديده: وليس هذا بالأمر الهين؛ لأنه لا يظهر إلا بفحص الكلام كلمة كلمة، وتركيبًا تركيبًا، وصورة صورة.

والجهة الثانية: النظر في المقدمات: يعني: معرفة منازل المعاني ومراتبها في ضوء المعرفة الواضحة للغرض الذي انعقد عليه الكلام.

وبهذا نوضح المعنى الذي هو بمثابة الأصل، والمعنى الذي هو مهاد ووطاء، وهذا باب من النظر يحتاج إلى مراجعة وأناة.

الجهة الثالثة: أن تنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب، والبعد من المقصود، يعني: العلاقة بين المقدمة والمطلوب.

والجهة الرابعة: هي النظر في حركة الكلام، وكيف تثير في مسيرتها هواجس وأحوالًا وأشجانًا، ترى الكلام يقف عندها، ويتغلغل حتى يشبع أحوال الاستشراف هذه، وذلك وفاء لحق البلاغة -كما قالوا-، وهو جيد؛ لأنه استكشاف حالة المجاذبة بين اللغة والنفس.." (٢).

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/١٧-١٨).

(٢) انظر ذلك في (البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري)، للأستاذ الدكتور محمد أبو موسى (ص:١٤-١٥).

ومن الكتب المفيدة والمفصلة في هذا الباب: كتاب: (**المناسبات القرآنية عند الإمام الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب**)، للدكتور رأفت المصري، وهو رسالة دكتوراه في جامعة الأزهر، كلية أصول اليدن، قسم التفسير، أشرف عليها العلامة الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الرحمن خليفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١).

ويذكر أستاذنا الدكتور محمد سالم أبو عاصي في بيان النسبة بين أسباب النزول والمناسبات: "أن المناسبة بين الآيات والسور أمر يتجاوز الترتيب التاريخي للآيات مع بعضها، أو السور مع بعضها؛ ليبحث في أوجه الترابط بينها في الترتيب من حيث السياق الداخلي.

قال: وبناء على ذلك قال الأقدمون من علماء القرآن: إن علم أسباب النزول علم تاريخي في حين أن علم المناسبة علم أسلوبي، بمعنى: أنه يهتم بالأساليب والارتباط بين الآيات والسور.." (٢).

ولا بد ممن ملاحظة أسباب النزول، فما نزل على سبب فلا بد من ذكره بعد بيان المناسبة، وقبل الدخول في شرح الآية. قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قد جرت عادة المفسرين أن يبدؤوا بذكر سبب النزول، ووقع البحث في أنه: أيهما أولى بالبداءة؟ أيبدأ بذكر السبب، أو بالمناسبة؛ لأنها المصححة لنظم الكلام، وهي سابقة على النزول؟ والتحقيق التفصيل بين أن يكون وجه المناسبة متوقفًا على سبب النزول

---

(١) الكتاب طبع دار النور المبين، عمان الأردن، الطبعة الأولى [٢٠١٦م].

(٢) لا يأتون بمثله (دراسة في إعجاز القرآن) (ص:١٣٦).

كآية: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء:٥٨]، فهذا ينبغي فيه تقديم ذكر السبب؛ لأنه حينئذ من باب: (تقديم الوسائل على المقاصد). وإن لم يتوقف على ذلك، فالأولى وجه المناسبة" (١).

٥ – إعجاز المعاني:

كما أنَّ القرآن الكريم معجز في ألفاظه فهو معجز في معانيه. قال القاضي الباقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المعاني التى تضمنها في أصل وضع الشريعة والأحكام، والاحتجاجات في أصل الدين، والرد على الملحدين، على تلك الألفاظ البديعة، وموافقة بعضها بعضًا في اللطف والبراعة، مما يتعذر على البشر ويمتنع، وذلك أنه قد علم أن تخير الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة، والأسباب الدائرة بين الناس، أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة، وأسباب مؤسسة مستحدثة، فإذا برع اللفظ في المعنى البارع، كان ألطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المتكرر، والأمر المتقرر المتصور، ثم انضاف إلى ذلك التصرف البديع في الوجوه التي تتضمن تأييد ما يبتدأ تأسيسه، ويراد تحقيقه بأن التفاضل في البراعة والفصاحة، ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المعنى، والمعاني وفقها، لا يفضل أحدهما على الآخر –

(١) بتصرف عن (البرهان في علوم القرآن) (٣٤/١)، الإتقان (٢٢٨/٤)، وانظر: لا يأتون بمثله (ص:١٤٨-١٥٢)، (أحسن الحديث) دراسة في بيان القرآن (ص:٧٥-٧٦).

فالبراعة أظهر، والفصاحة أتم" [١]. وفي (تفسير المنار) أن "حاصل هذا الوجه: أن كلام الفصحاء في المعاني المألوفة المبتذلة لا يخلو من الاختلاف والتفاوت، فانتفاء الاختلاف من القرآن ألبتة على تصرفه في ضروب المعاني العلمية العالية التي لم يسبق للعرب التصرف فيها أبلغ في الإعجاز، وأظهر في الدلالة على كونه من عند الله عَزَّوَجَلَّ" [٢].

وقد اهتم الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ببيان إعجاز المعاني في القرآن الكريم في كتابه: (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز)، فأتى بما مشترك من الكلام بين ما قالته العرب، وبين ما جاء في القرآن الكريم، ثم وازن بينهما فقال على سبيل المثال: والإعجاز إنما يتعلق بما ظهرت به الفضيلة [٣].

وبيان ذلك: أن قتل القاتل يزجر الناس عن سفك الدماء، وهذا المعنى قد أفصحوا عنه بقولهم: (القتل أنفى للقتل)، وأفصح عنه القرآن الكريم بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة:١٧٩].

ومعلوم أن التشريعات الإسلامية فيها بعض ما يتوافق مع القيم الأخلاقية الموروثة عن العرب بعد تخليصها من العيوب والنقائص، كما أن فيها بُعدًا وغايات سامية، فهي تشريعات ربانية المصدر، فإقامتها تنفيذ لشرع الله عَزَّوَجَلَّ العالم بأحوال

---

(١) إعجاز القرآن، للباقلاني (ص:٤٢).

(٢) تفسير المنار (٥/٢٣٩).

(٣) انظر: نهاية الإيجاز، بتحقيق السقا (ص:٥٧)، وبتحقيق: نصر حاجي مفتي أوغلي (ص:٢٨).

عبادة، وإرساء لقواعد العدل والمساواة بين الخلق. وبالمقارنة بين هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة:١٧٩]، وبين ذلك المثل: (الْقَتْلُ أنْفَى لِلْقَتل) ظهر ما يلي:

أوَّلًا: أنَّ حروف القاعدة القرآنية: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ أقل عددًا من عبارة العرب: (الْقَتْلُ أنْفَى للقتل).

ثانيًا: القاعدة القرآنية ذكرت (القصَاص) ولم تقل: القتل، فشملت كلَّ ما تُقَابَلُ به الجناية على الأنفس، فما دون الأنفس من عقوبة مُمَاثلة، وحدّدَت الأمر بأنْ يكون عقوبة وجزاء لخطأ سابق، لا مجرد عدوان، وهذا عين العدل. أما عبارة العرب فقد ذكرت القتل فقط، ولم تقيده بأن يكون عقوبة، ولم تُشِرْ إلى مبدأ العدل، فهي قاصرة وناقصة.

ثالثًا: القاعدة القرآنية: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ نصَّتْ على ثبوت الحياة بتقرير حكم القصاص، أما المثل العربي فذكر نَفْي القتل، وهو لا يَدُلُّ على المعنى الذي يَدُلُّ عليه لفظ: (حياة).

رابعًا: القاعدة القرآنية خالية من عيب التكرار، بخلاف المثل العربي الذي تكررت فيه كلمة: (القتل) مرتين في جملة قصيرة.

خامسًا: القاعدة القرآنية صريحة في دلالتها على معانيها، مستغنية بكلماتها عن تقدير محذوفات، بخلاف عبارة العرب، فهي تحتاج إلى عدة تقديرات حتى

يستقيم معناها؛ إذْ لا بُدَّ فيها من ثلاثة تقديرات، وهي كما يلي: (القتلُ) قصَاصًا (أنْفَى) من تركه (لِلقَتْلِ) عمْدًا وعدوانًا.

قال الشيخ العلامة محمد الخضر حسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾: لما كان القصاص أشد عقوبة يؤخذ بها الجناة، عني القرآن ببيان حكمته توطيناً للنفوس على الانقياد إليه، وتقوية لعزم أولي الأمر على إقامته، فقال تعالى مبيناً حكمة شرعه: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾.

في القصاص حياة من وجهين:

أولهما: أن الشخص إذا هم بقتل شخص، وعلم أنه إذا قتله اقتص منه، امتنع من قتله، فيكون القصاص سبباً للردع عن قتل أنفس كثيرة.

ثانيهما: أن القبائل القوية إذا قتلت منها القبيلة الضعيفة أحداً، لا تكتفي بقتل القاتل حتى تلحق به آخرين من عشيرته، والقصاص لا يتجاوز القاتل

إلى غيره، فيكون سببًا لحماية نفوس كثيرة من غائلة الإسراف في الانتقام؛ كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ٣٣﴾ [الإسراء:٣٣].

ونُقِلَ عن العرب ما يدل على أنهم تحدثوا عن حكمة القصاص من قبل، وأبلغُ كلمةٍ عَبَّرُوا بها عن هذا المعنى قولهم: (القتل أنفى للقتل)، ولكن لورود الحكمة في القرآن فضلٌ من ناحية حُسْن البيان الذي يُسارع بها إلى أقصى القلوب، ويجعلها مثلًا سائرًا يجري على الألسنة، ويتقلَّب في الأندية، حتى يَعْظُمَ أثرها في حياة المؤمنين،

وإذا شئت أنْ تزداد خبرة بفضل بلاغة القرآن، وسمو مرتبته في حسن البيان على مرتبة ما نطقبه بلغاء البشر، فانظر إلى هذه الجملة: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾، وإلى قولهم: (القتل أنفى للقتل)، وأقم بينهما وزنًا بالقسط، فإنك تجد من نفحات الإعجاز ما يُنَبِّهُك لأنْ تشهد الفرق بين كلام الخالق وكلام المخلوق.

ومن فضل بيان الآية أنها جعلت سبب الحياة: القصاص، وهو القتل عقوبة على وجه التماثل، أما العبارة العربية فقد جعلت سبب الحياة القتل، ومن القتل ما يكون ظُلمًا، فيكون سببًا للفناء لا للحياة.

وتصحيح هذه العبارة أن يقال: القتل قصاصًا أنفى للقتل ظلمًا. والآية جاءت خالية من التكرار اللفظي، فعبَّرت عن القتل الذي هو سبب الحياة بالقصاص، والعبارة العربية كرر فيها لفظ القتل، فمسَّهَا بهذا التكرار من الثِّقَل ما سلمت منه الآية.

ومن الفروق الدقيقة بينهما: أنَّ الآية جعلت القصاص سببًا للحياة التي تتوجَّه إليها الرغبة مباشرة، والعبارة العربية جعلت القتل سببًا لنفي القتل الذي تترتب عليه الحياة" (١).

---

(١) موسوعة الشيخ محمد خضر حسين (٣٢١/١-٣٢٢).

وقد فضلت هذه الجملة من القرآن الكريم على أوجز ما كان عند العرب في هذا المعنى، وهو قولهم: (القتل أنفى للقتل) بعشرين وجها أو أكثر [١]. وقد أشار ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى إنكار هذا التفضيل وقال: لا تشبيه بين كلام الخالق جَلَّ وَعَلَا وكلام المخلوق، وإنما العلماء يقدحون أذهانهم فيما يظهر لهم من ذلك [٢].

٦ – الإعجاز التأثيري:

والمراد من الإعجاز التأثيري: (**ما يتركه الخطاب من أثر في نفس المخاطب، ويشمل: ما يتضمنه الخطاب من بديع الأسلوب، وبلاغته، ومهابته، وجرسه الموسيقي، وما يتضمنه من المعاني الجليلة، ويدخل الإعجاز التأثيري في أعماق النفس، ويؤثر في السلوك**).

وقد ذكر هذا النوع من الإعجاز غير واحد من الأئمة الأعلام ضمن ما ذكروه من أوجه الإعجاز.

وقد نصَّ عليه الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالة: (بيان إعجاز القرآن) حيث قال: "قلت في إعجاز القرآن وجهًا آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذّ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النّفوس، فإنّك لا تسمع كلامًا غير

---

(١) انظر ذلك في (البرهان في علوم القرآن) (٣/٢٢٢- ٢٢٥)، و(الإتقان في علوم القرآن) (٣/١٨٥-١٨٨).

(٢) الإتقان (٣/١٨٥)، وانظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (٢/١١٨).

القرآن، منظورًا ولا منثورًا، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللَّذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى، ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظّها منه عادت إليه مرتاعة قد عراها الوجيب[١] والقلق، وتغشَّاها الخوف والفرق، تقشعرّ منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدوٍّ للرسول ﷺ من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله فسمعوا آيات من القرآن الكريم فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة، وكفرهم إيمانًا"[٢]...فمن ذلك ما ذكره من قصة إسلام عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد نقل قولَ الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ الزركشيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في (البرهان) [٣]، واختصره السيوطيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في (الإتقان) [٤].

---

(١) (الوجيب): خفقان القلب واضطرابه.

(٢) انظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، الرسالة الأولى: بيان إعجاز القرآن، لأبي سليمان الخطابي (ص:٧٠).

(٣) انظر: البرهان (١٠٦/٢)، وفيه: "ولهذا أسلم جبير بن مطعم لما سمع قراءة النبي ﷺ للطور حتى انتهى إلى قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧﴾ [الطور:٧] قال: خشيت أن يدركني العذاب، وفي لفظ: كاد قلبي يطير فأسلم، وفي أثر آخر أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما سمع (سورة طه) أسلم، وغير ذلك. وقد صنَّف بعضهم كتابًا فيمن مات بسماع آية من القرآن".

(٤) انظر: الإتقان (١٦/٤).

كما ذكر غير واحد من المفسرين والباحثين ما يدل على هذا اللون من ألوان الإعجاز من خلال تفسير النصوص ذات الصلة [١].

٧ – الإعجاز التشريعي:

جاء القرآن الكريم بتشريع معجز يثبت أنه تنزيل من حكيم حميد، عالم بما يصلح أحوال العباد في حالهم ومآلهم، فهو معجز من حيث شمول الأحكام، وعمومها لكل زمان ومكان، ووفائها لكل ما يستجد من الوقائع والأحداث.

فهو يشمل التشريعات التي يحتاجها العباد، ومستوف لكافة المسائل في العقائد، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق، والاقتصاد، والسياسة. فهو يقف عند القواعد والأطر والكليات، ويترك التجديد للفقه الإسلامي التي يتصف بالمرونة والصلاحية لكل زمان ومكان، "أي: أن القرآن معجزٌ بتشريعه في العقيدة، وفي الشريعة، أعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله، أو إدراك كل أسراره، كونه معجزٌ ببيانه، وكونه ربانيًّا، وكاملًا، وشاملًا، ومتوازنًا، وميسورًا، وصالحًا، وساميًا.

فهو (رباني) من الله عَزَّوَجَلَّ.

و(كامل) لا نقص فيه.

---

(١) وقد أفرد الشيخ محمد الغزالي في كتابه: (نظرات في القرآن) فصلًا كاملًا عن الإعجاز التأثيري، وبيَّن أنه من أوجه الإعجاز: (الإعجاز النفسي). انظر: نظرات في القرآن (ص:١١١). كما ذكر غير واحد من الباحثين المعاصرين تأثيره في الروح والنفس، وفي حياة الفرد والمجتمع.. إلى غير ذلك.

و(شامل) لحاجات الفرد، والأسرة، والمجتمع، والدولة.

و(متوازن) بين متطلبات الروح، والعقل، والجسد.

و(ميسور) في فهمه وتطبيقه.

و(صالح) لكل زمان ومكان.

و(سامي) بتعاليمه التي تعلو ولا تُعلى" [١].

وقد جاءت هذه التشريعات على لسان نبي أمي، وفي أمة أمية، تعيش الحياة القبلية بكل كيان أفرادها، لا يخطر على بال أحد منهم التزام بقانون عام، أو نظام حضاري، وتشريع شامل وكافل لإحقاق الحق، وصيانة مصالح الناس في جميع شؤونهم المالية، والاجتماعية، والأسرية، والدولية.

٨ - الإشارة إلى أوجه أخرى من الإعجاز:

قد أفرد كثيرون موضوع الإعجاز أو جانبًا من جوانبه بالبحث قديمًا وحديثًا -كما تقدم-.

وقد ذكر الشيخ الزرقاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ أربعة عشر وجهًا من أوجه الإعجاز، فمن ذلك:

---

(١) مقدمة في إعجاز القرآن العظيم، للدكتور جمال محمود الهوبي (ص:٨٥).

أ. الإعجاز في لغة القرآن وأسلوبه [(١)].

ب. الإعجاز في طريقة تأليفه.

ج. الإعجاز في علومه ومعارفه.

د. الإعجاز في وفاؤه بحاجات البشر.

هـ. الإعجاز في موقفه من العلوم الكونية.

و. الإعجاز في سياسته في الإصلاح.

ز. الإعجاز في أنباء الغيب فيه.

ح. الإعجاز في آيات العتاب.

ط. الإعجاز في تأثير القرآن ونجاحه [(٢)].

وذكر غير ذلك مما لم يخلو من نقد ومناقشة [(٣)].

---

(١) وقد ذكر أستاذنا الدكتور محمد سالم أبو عاصي آفاق الإعجاز اللغوي ومستوياته في كل من كتابه: (لا يأتون بمثله) دراسة في إعجاز القرآن (ص:٥٥-١٢٨)، و(أحسن الحديث) دراسة في بيان القرآن (ص:٢٦-٥١).

(٢) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/٣٣٢-٤١٤).

(٣) انظر: لا يأتون بمثله (دراسة في إعجاز القرآن)، للأستاذ الدكتور محمد سالم أبو عاصي، عميد كلية الدراسات العليل بجامعة الأزهر (ص:٨٩-٩١)، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، للدكتور عبد العظيم المطعني (١/١٦٥-١٦٨).

ثالثًا: الحروف المقطعة في أوائل السور:

وقد اختلف الناس في الحروف المقطعة أوائل السور على قولين:

أحدهما: أن هذا علم مستور، وسر محجوب، استأثر الله عَزَّوَجَلَّ به، وقال الشعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنها من المتشابه نؤمن بظاهرها ونكل العلم فيها إلى الله عَزَّوَجَلَّ (١).

قال الإمام الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد أنكر المتكلمون هذا القول، وقالوا: لا يجوز أن يرد في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ ما لا يفهمه الخلق؛ لأن الله جَلَّوَعَلَا أمر بتدبره والاستنباط منه، وذلك لا يمكن إلا مع الإحاطة بمعناه، ولأنه كما جاز التعبد بما لا يعقل معناه في الأفعال فلم لا يجوز في الأقوال بأن يأمرنا الله عَزَّوَجَلَّ تارة بأن نتكلم بما نقف على معناه، وتارة بما لا نقف على معناه، ويكون القصد منه ظهور الانقياد والتسليم.

القول الثاني: أن المراد منها معلوم، وذكروا فيه ما يزيد على عشرين وجهًا، فمنها البعيد، ومنها القريب... (٢).

قال أستاذنا العلامة إبراهيم خليفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التعقيب على قول من قال من المفسرين في الحروف المقطعة: الله أعلم بمراده، قال: أما أن يكون في القرآن لفظ غير

---

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (١/٥٦)، معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس (١/٧٧)، الكشف والبيان (١/١٣٦)، مفاتيح الغيب (٢/٢٥٠)، التسهيل لعلوم التنزيل (١/٦٨)، البرهان في علوم القرآن (١/١٧٣)، معالم التنزيل (١/٥٩)، زاد المسير (١/٢٥)، تفسير القرطبي (١٥/١٢٠)، التفسير البسيط (٢/ ١٣).

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن (١/١٧٢)، مفاتيح الغيب (٢/٢٥٠).

معلوم المعنى فهذا شي لا يجوز؛ لأن من المعلوم بلاغةً أن يكون الكلام مطابقًا لمقتضى الحال مع فصاحته، وفصاحة أجزاءه.

فإذا اختلت الفصاحة تختل البلاغة، فلا يكون الكلام بليغا إلا بأمرين: مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته، وفصاحة أجزاءه.

ومن أجل أن تكون الأجزاء صحيحة أو الكلمة صحيحة يجب أن تخلو من عيوب ثلاثة:

١ - تنافر الحروف.

٢ - مخالفة الوضع (القياس الصرفي والنحوي).

٣ - العيب الثالث وهو الذي يعنينا هنا: (الغرابة).

والغرابة أن تكون الكلمة مهجورة وغير مأنوسة الاستعمال عند أكثر العرب الخلص، فما بالك إذا كانت الكلمة مجهولة المعنى عند العرب جميعًا وعند العالمين جميعًا -عرب وغير عرب-؟!

فالكلام على هذا غريب، وبالتالي غير فصيح، وبالتالي غير بليغ.

ولو وقع هذا لأخذت العرب مطعنًا على القرآن الكريم، وقالوا لرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: كيف نتحدى بكلام غير بليغ؟ نحن أجل قدرًا من أن نشغل أنفسنا بمثل هذ، أو بجزء من كلام غير فصيح، وبذلك تسقط حجة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، هذه الحالة الأولى.

والحالة الثانية: أن القرآن تحداهم أن بسورة من مثله ولو أقصر سورة، أما ما دون السورة فلم يقع التحدي به، فإذا افترضنا أنهم جاؤوا بآيتين من مثل آيتين سورة الكوثر -مثلًا- لا تسقط حجة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن التحدي إنما يقع بالإتيان بسورة كاملة، فلو افترضنا أنهم جاؤوا بآيتين من مثل آيتين سورة الكوثر -مثلًا- وكملوا الآية الثالثة من السورة بكلام لا معنى له، فإن قلنا: هذه الحروف لا معنى لها، أو الله أعلم بمراده فلا يعترض عليهم؛ إذ يقولون: وهذه كذلك لا معنى لها، أو نحن فقط من يعلم معناها.

فإن قيل: أليس المتشابه قد استأثر الله عَزَّ وَجَلَّ بعلمه؟ فيقال له: ما معنى استأثر الله عَزَّ وَجَلَّ بعلمه، وماذا تقصد منها؟ هل تقصد علم حدوثه، أم علم معناه أو علم شيء ما يتعلق به؟

فإن كنت تقصد علم معناه فلا يصلح، أما إن كنت تقصد علم حدوثه فلا نعلم متى ستحصل الساعة، وكذلك لا نعلم عن كيفية الروح التي بها الحياة، فلا يؤثر مثل هذا، فعندما تقول الروح من المتشابه تقول: ماذا تقصد من المتشابه هنا؟ هل تقصد علم معناها أم علم كيفيتها؟ إن قلت: استأثر الله عَزَّ وَجَلَّ بعلم معناها فلا يصلح؛ لأن الروح ما به الحياة، وإن قلت: علم كيفيتها فما تقول عنه محكم كالخَلْقِ -مثلًا- فكلمة (خلق) معلوم معناها، وهي من المحكم، ولكن هل نعلم كيفية الخلق؟ لا نعلم.

فنقول: لا يصلح إذن أن يقال: إن في القرآن ولو لفظ واحد لا يعلم معناه إلا الله عَزَّوَجَلَّ، وإنما يجهل أشياء أخرى تتعلق بالمعنى.

فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿الٓمٓ ۝١﴾، وقوله: ﴿حمٓ ۝١﴾ وغيرهما هل يعتبر من المحكم أم من المتشابه؟

عندما يقصد من اللفظ ما وضع له فهو محكم، فهل يقصد من ﴿الٓمٓ ۝١﴾، وقوله: ﴿حمٓ ۝١﴾ وغيرهما الحروف نفسها أم يقصد شيء آخر؟

والجواب: أنه يقصد الحروف نفسها وما وضعت له، فتقصد هذه الحروف والدلالة الالتزامية العرفية تصحح أن يراد عين هذه الحروف، فعندما نتكلم في كلامنا العادي نريد لفظًا له معنى يطابق المقام، فلو جئت بلفظ يدل على معنى، ولكن لا يطابق المقام فالكلام غير بليغ.

فنقول هنا: إن الكلام دل على معنى، وهو إرادة عين هذه الحروف، وهو يطابق المقام؛ لأنك إذا رأيت معلِّمًا يهجي صبيًا فيقول له مثلًا: (أكل)، فيقول له: (ألف)، (كاف)، (لام)، حتى يعلم أن كلمة (أكل) مكونة من هذه الحروف الثلاثة، فهو يقصد ذات الحروف؛ لغرض صحيح.

إن كل اسم في الدنيا مقصود منه مسماه المعروف، ووضع للدلالة على مسماه، لما أقول (ألف)، أو (لام)، أو (ميم)، فمقصود من كل منها مسماه الذي ينطق في الكلمات مثل: الألف في أول (أكل)، واللام في أول (لك)، والميم في آخر

(تكلم)، طبقا لهذا فالأسماء المذكورة وضعت للدلالة على مسمياتها التي تستعمل في مباني الكلمات؛ للدلالة على ما وضعت له حقيقة، وهي محكمة في ذلك.

والغرض من ورودها في القرآن المتحدى به العرب، أن الله عَزَّوَجَلَّ أتاهم بها في أوائل بعض السور، لبيان أن القرآن الكريم مؤلف من عين مسميات الحروف التي تؤلفون منها كلماتكم، فما الذي أعجزكم في أن تأتوا بمثله؟ فعندما يأتيهم بألفاظ هي أسماء للحروف التي يركبون منها كلامهم، فعندما أقول: (أكل)، الألف فيه اسم، والمسمى هو الذي تنطقه في أول الكلمة (أَ)، والكاف فيه اسم، والمسمى هو الذي تنطقه (كَ)..والقرآن الكريم ذكر الأسماء، وهي أعلام للمسميات، والمسميات هي التي يتكون منها الكلام، ولا كلام إلا بهذه المسميات، فعندما يتحداهم فيقول: هاؤم آتيكم بأكثر الحروف دورانًا في الكلام(١)، ولا تستطيون أن تؤلفوا كلامكم إلا من هذه الحروف ونظائرها، فأتوا بمثله إذن، فلا آتيكم بحروف غريب عليكم وعلى

---

(١) قال الزمخشري: وهذه الحروف الأربعة عشر مشتملة على أنصاف أجناس الحروف، يعني: من المهموسة والمجهورة، ومن الرخوة والشديدة، ومن المطبقة والمفتوحة، ومن المستعلية والمنخفضة: ومن حروف القلقلة. وقد سردها مفصلة ثم قال: فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته، وهذه الأجناس المعدودة ثلاثون بالمذكورة منها، وقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله. قال أستاذنا العلامة إبراهيم خليفة: وأكثر سور الفواتح لا تغفل ذكر القرآن أكثر من مرة، وأكثرها كذلك فيها من قصص الأولين، وذكر الغيوب الصادقة، الموغلة في القدم منها، والمعاصر لنزول القرآن، والمستقبلي، ما يثبت بأنصع البراهين أن القرآن من عند الله عَزَّوَجَلَّ. وفي بعض سور الفواتح ذكر كثير من التشريعات التي ما كان أحد غير الله عَزَّوَجَلَّ ليقدر على الإتيان بمثلها سموًا ووفاء بحاجات البشر، وبحسبنا أن نقرأ (سورة البقرة) لنرى في ثناياها من ذلك الشيء الكثير.

لغتكم، فالقرآن مؤلف من عند الله عَزَّوَجَلَّ من عين الحروف التي تؤلفون منها كلامكم، فما يمنعكم إذن أن تأتوا بمثله؟ لولا أنه كلام خارق معجز لا بسبب التركيب من هذه الحروف، بل بأسباب أخرى لاستطعتم أن تأتوا بمثله، فأتى لهم بالأسماء الدالة على المسميات، مقصودًا من هذه الأسماء عين المسميات، واختار القرآن ما هو أكثر دورانًا في الكلام من مسميات الحروف، فعندما يأتيهم بأسماء مسمياتها حروف يتركب منها كلامهم، وهي أكثر دورنًا في كلامهم مما ترك، فيقال لهم: ما الذي يمنعكم عن الإتيان بمثله؟ فلا يمنعكم إلا كونه من خالق القوى والْقُدَر، وأنه معجز بأسباب أخرى لا بسبب التركيب من هذه الحروف.

فالقول في هذه الحروف: الله أعلم بمراده مجانب للصواب؛ فإن المراد من هذه الحروف معروف، وهو أنها أسماء المراد منها: مسمياتها من الحروف الدائرة في الكلام.

والمقصود من استعمالها هنا: التحدي، هذا هو القول الصحيح والأقوال الأخرى لا تصلح؛ لأن المعنى الموضوع له اللفظ صالح للإرادة هنا، ومطابق للمقام؛ ولعل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا موفقين كل التوفيق عندما رسموا المصحف، بمجرد حروف، فعندما تنطق بـ: ﴿الٓمٓ ①﴾ هل تنطقها أسماء أم مسميات؟ فلو كتبوها كما تنطق لكانوا قد كتبوها (ألف) همزة ولام وفاء، ولكنهم كتبوا (أ) -ألف- فقط، وكذلك اللام، والميم، فقد وفقوا غاية التوفيق عندما أرادوا أن يلفتوا نظرك إلى ألا تبحث عن معان مختلفة لما جرى عليه وضع هذه الأسماء، فهي موضوعة لمسمياتها، فلا تبحث عن معنى ثان غير هذه المسميات، فكتبوا المسميات لا الأسماء؛ إشارة

إلى أنه لا ينبغي أن تضل في طلب معان أخر غير المسميات، فإذا صرت إلى معنى آخر فقد صرفت اللفظ عما وضع له لغير قرينة موجبة للصرف، ولا علاقة بين ما وضع له اللفظ والمعنى المراد.

والدلالة على أن المقصود من هذه الحروف: التحدي دلالة التزامية عرفية.

والقول في هذه الحروف: الله أعلم بمراده مكمن خطورة على الدين، وعلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى القرآن، فلا يصلح حكمة ولا بلاغة.

فلا يبقى الخطاب على ما حرر من قبيل المهمل، ولا من قبيل خطاب الزبجي للعربي الذي لا يفهم لغته، وبالعكس.

ومحصل القول بأن هذه المسألة على غاية من الخطورة، حيث يطعن جاهل غافل في حكمة الله عَزَّوَجَلَّ، ويطعن في القرآن، وفي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والإسلام، فلا يصلح أن يقال: إن في القرآن ولو لفظ واحد لا يعلم معناه إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد غفل عن هذا المعنى الكثير، وذهبوا يبحثون عن معنى لها يربطها بما بعدها، ولو أعملوا عقولهم في محاولة إدراك المناسبة بين المعنى العربي الواضح لهذه الأسماء وبين معاني ما يليها من السورة، ولو سألوا أنفسهم لماذا لم يسأل أحد من العرب مسلمًا كان أو غير مسلم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن معنى هذه الأسماء لو أن معناها الواضح لا يتناسب مع معاني ما بعدها، ولو تأملوا لوجدوا المناسبة أجلى من الشمس وقت الضحى، كما وجدها جمع من المحققين الموفقين كل التوفيق في الالتزام بدقة وأمانة بتفسير هذه الجزئيات من القرآن تفسيرًا صحيحًا بلسان العرب.

وقد أدرك أولئك المحققون أن المناسبة بين المعنى الواضح لهذه الأسماء الذي هو مسمياتها (حروف المعجم) وبين المعاني التي تليها، بل بين القرآن عامة أنه لما كانت هذه المسميات هي عنصر الكلام وبسائطه التي يتركب منها افتتح الله عَزَّوَجَلَّ تسعًا عشرين سورة من سور القرآن تمثل عدد الحروف العربية كلها بطائفة من أسماء الحروف؛ تسجيلًا لعجزهم، وإظهارًا لتعنتهم في عدم إيمانهم، فإنه يقول لهم بلسان هذه الحروف: إن هذا القرآن الذي عجزتم عن الإتيان بما يدانيه فضلًا عما يساويه، لم يأتكم بلغة غير لغتكم، ولا بما لا تستطيعون النطق به، وإنما أتاكم بنظم عربي لا تتألف كلماته إلا من نفس حروفكم العربية التي تنطقون بها ليل نهار، بل التي لا تنطقون إلا بها، فما فعجزكم عن الإتيان بمثله وأنتم أساطين البيان، وفرسان حلبة الكلام، وهو بضاعتكم الرائجة إلا لكونه صادرًا عن الله عَزَّوَجَلَّ خالق القوى والقُدَر.

هذه زبدة ما ذكره أستاذنا العلامة الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الرحمن خليفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ من تحرير القول في الحروف المقطعة في أوائل السور، وقد بحث ذلك في رسالته للماجستير، وهي دراسة مستوعبة لكل ما قيل فيها، مع ترجيح القول الآنف الذكر، ولخص ذلك في فصل من رسالته للدكتوراه، وهي بعنوان: (المحكم والمتشابه في القرآن الكريم)، فأتى بما هو في غاية التحرير والنفاسة، وتحدث عن هذا الموضوع في كثير من تسجيلاته في التفسير وعلومه في محاضراته في الدرسات العليا في قسم التفسير وعلوم القرآن.

والحاصل أن الأسماء المذكورة وضعت للدلالة على مسمياتها التي تستعمل في مباني الكلمات؛ للدلالة على ما وضعت له حقيقة، وهي محكمة في ذلك.

والغرض من ورودها: التحدي، حيث أتاهم الله عَزَّوَجَلَّ؛ لبيان أن القرآن الكريم مؤلف من عين مسميات الحروف التي تؤلفون منها كلماتكم، فما الذي أعجزكم في أن تأتوا بمثله؟

وقد ذكر هذا القول من أئمة التفسير: جار الله الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الكشاف) (١)، ومال إليه القاضي البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تفسيره) (٢)، والإمام أبو البركات النسفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣)، والإمام الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ -كما تقدم-، ونظام الدين النيسابوري (٤)، والألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥)، والحافظ المزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيرهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفًا، يجمعها قولك: (نص حكيم قاطع له سر). وهي نصف الحروف عددًا، والمذكور منها أشرف من المتروك.

وحكى عن البعض قولهم: إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها؛ بيانًا لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه تركب

(١) انظر: الكشاف (١/١٩).

(٢) انظر: تفسير البيضاوي (١/٣٣).

(٣) انظر: تفسير النسفي (مدارك التنزيل) (١/٣٥).

(٤) انظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان (١/١٢٩).

(٥) انظر: روح المعاني (١/١٠١).

من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها؛ ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء، وهو الواقع في تسع وعشرين سورة.." (١).

رابعًا: الإشارة إلى مقاصد الإعجاز:

١ – إثبات مصدر القرآن، وأنه كلام رب العالمين.

٢ – إثبات عجز البشر عن الإتيان بمثله.

٣ - إثبات رسالة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنها عاملة وشاملة وناسخة لما قبلها.

٤ – إثبات اتصال رسالات الله عَزَّوَجَلَّ إلى العباد.

٥- الحث والتحفيز على النظر والتأمل والاستدلال.

٦ - تقوية الإيمان وزيادة الاطمئنان والتأنيس.

٧ - دحض شبه المكذبين، وبيان سوء مقاصدهم، وأسباب تكذيبهم.

ومما ذكر أستاذنا الدكتور محمد سالم أبو عاصي من مقاصد الإعجاز:

٨ – إقامة الحجة على العالمين بوجوب الانصياع لوحي السماء، وكلمة الله عَزَّوَجَلَّ الأخيرة للعالمين حتى بعد انتقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للرفيق الأعلى.

٩ -إثبات خلود القرآن بحفظ الله عَزَّوَجَلَّ له إلى قيام الساعة.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/١٥٩-١٦٠).

١٠ – أن الإعجاز لا ينقطع ولا تنقضي عجائبه، وهو حجة على الجاحدين، وتثبيت وزيادة لإيمان المؤمنين.

١١ – تحقيق المتعة الروحية للمتأمل في بيان القرآن ومضامينه، بإقناع العقل، وإمتاع العاطفة [١].

---

(١) انظر ذلك في (لا يأتون بمثله) دراسة في إعجاز القرآن، للأستاذ الدكتور محمد سالم أبو عاصي (ص:١٨٩-١٩٢)، (أحسن الحديث) دراسة في بيان القرآن (ص:٦٦-٦٧).

المبحث الخامس عشر

التفسير العلمي

مبادئ ومسالك وضوابط

وقد أفردت ما اصُطلح عليه بالتفسير العلمي النصوص القرآن الكريم، وما يتصل به من المبادئ، والقواعد، والضوابط، والخصائص والصفات في كتاب: (**الإرشادات المنهجية إلى تفسير الآيات الكونية**).

وأوجز هنا القول فيه استكمالًا لموضوعات الكتاب ذات الصلة، مع إضافات لا يُستغنى في هذا الباب.

المطلب الأول: مبادئ التفسير العلمي:

إنَّ (التَّفسير العلمي) قد جُعلَ لقبًا للونٍ مُسْتَقِلٍّ من ألوانِ التَّفسير بَعْدَ نَقْلِه عن مركَّبٍ إضافيٍّ.

وإنَّكَ تَرَى أنَّ اللَّقب الَّذي جُعِلَ عنوانًا لهذا العِلم —أعني: التَّفسيرَ العلمي— مُرَكَّبٌ إِضَافِيٌّ يَأْتَلِفُ مِنْ جزأين، هما المضاف والمضاف إليه.

والمركَّب لا يمكن أن يُعْلَم إلَّا بعد العلم بمفرداته.

فينبغي إذن التَّعرف على هذا المصطلح، وما يدلُّ عليه من المعنى.

وذلك على النَّحو التَّالي:

أوَّلًا: تحديدُ معنى كلِّ وَاحِدٍ مِنَ الجزأينِ على حِدَة قَبَلَ تضايفهما.

ثانيًا: تحديدُ المعنى المؤتلف من الجزأين معا عند تضايفهما بحيث إذا أطلق ذلك الحدُّ أو اللَّقب عليهما لم ينصرف إلَّا إلى ذلك المعنى المؤتلف منهما معًا.

ثالثًا: بيانُ أنَّ هذا المصطلح مصطلحٌ حادثٌ، ولكن يبقى النَّظر في تحديده، ثمَّ سلامته من النَّقض والمعارضة، وسلامته من الإخلال بقواعد التَّفسير العامَّة.

رابعًا: بيانُ جهودِ الباحثينَ في التَّفسيرِ وعلومِ القرآن في هذا المجال، مع نَقْدِ ما شابها مِنَ النَّقصِ أو الخَلَل.

وبيانُ آراءِ المؤيدينَ والمعارضينَ مَعَ عَرْضِ حُجَجِ كلِّ فَرِيقٍ، ثمَّ ما نخلصُ إليه من التَّرْجِيحِ الَّذي يقوم على الدَّليل الواضح.

وهناكَ عَشَرَةُ مبادئ لكلِّ علمٍ لا بدَّ مِنْ معرفتها، ليتصوَّر هذا الفن ويُعْرَف، وتعرف أهميَّته،

ويتميز الدخيل منه من الذي يندرج تحت أصول التفسير العامة.

وقد جمعها بَعْضُهم في قوله:

إنَّ مبادئَ كلَّ فنٍّ عَشَرَة ... الحدُّ والموضوع ثمَّ الثَّمرة
وفضله ونسبة والواضع ... والاسم الاستمداد حكم الشّارع
مسائل والبعض بالبعض اكتفى ... ومن درى الجميع حاز الشَّرفا

أولًا: المبدأ الأوَّل:

وهو في بيان التعريف: لما كان مصطلح: (التفسير العلمي) مكونًا من جزأين متضايفين فإني أَشْرَعُ ببيانِ كلِّ واحدٍ منهما على حدة لكن بإيجاز لا يخلُّ بالمقصود؛

لأنَّ الغرض هو المعنى المؤتلف منهما معًا، وليسَ تحقيق كلٍّ واحد منهما على حدة قبل التضايف.

١ – بيان معنى التفسير:

أ. التَّفسير لغة:

قال في (العين): "الفَسْرُ: التفسير، وهو بيان وتفصيل للكِتاب، وفَسَرَه يفسِره فسرًا، وفسره تفسيرًا. والتَّفْسِرة: اسمٌ للبَوْل الذي ينظُر فيه الأَطِّباء، يُسْتَدَلُّ به على مَرَض البَدَنِ، وكلُّ شيءٍ يُعرفَ به تفسيرُ الشيءِ فهو التَّفسِرةُ"[١]. وفي (الصحاح): "الفَسْرُ: البيانُ. وقد فَسَرْتُ الشيء أفسره –بالكسر– فسرًا. والتفسير مثله. واسْتَفْسَرْتُهُ كذا، أي: سألته أن يُفَسِّرَهُ لي.." [٢]. وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الفسر: إظهار المعنى المعقول، ومنه قيل لما ينبئ عنه البول: تفسرة، وسمي بها قارورة الماء.." [٣].

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التفسير مصدر فسر يفسر: إذا كشف المراد وبينه، وأصله من الفسر، وهو البيان. يقال: فسرت الشيء أفسره –بالكسر–

---

(١) العين، مادة: (فسر) (٧/٢٤٧–٢٤٨).

(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (فسر) (٢/٧٨١).

(٣) المفردات في غريب القرآن، مادة: (فسر) (ص:٦٣٦).

فسرًا. والتأويل: صرف الكلام إلى ما يؤول إليه من المعنى، من آل إلى كذا: إذا رجع إليه" (١).

يطلقُ التَّفسيرُ في اللُّغةِ على الكشفِ والبيانِ والإيضاحِ والتبيين للشيء المستتر (٢)، ومن ذلك قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝٣٣﴾ [الفرقان:٣٣]. كما يطلقُ ويرادُ به التَّأويل. يقول ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنى قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝٣٣﴾: "أي: ولا يقولون قولًا يعارضون به الحقَّ إلَّا جئناك بما هو الحق في نفس الأمر، وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم" (٣).

قال ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الفاء والسِّين والرَّاء كلمة واحدة تدلُّ على بيانِ شيءٍ وإيضاحِه. من ذلك: الفَسْرُ، يقال: فَسَرْتُ الشَّيءَ وفسَّرتُه" (٤).

وقد اختلف في اشتقاقه. فقيل: إنه مأخوذ من مادَّة: (فَسَرَ)، وهي تدلُّ على ظهور الشَّيء وبيانه. ومنه: الكشف عن المعنى الغامض. وقيل: مأخوذ من لفظ

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٣١٤/٧)، وقد بسط القول في ذكر ما قيل من معنى التفسير الحافظ ابن حجر في (فتح الباري) (١٥٥/٨)، وانظر: البرهان في علوم القرآن، للزركشي (١٤٧/٢).

(٢) انظر: التفسير والمفسرون في ثوبه الجديد، لأستاذنا العلامة أ.د عبد الغفور مصطفى جعفر (ص:١٦٧-١٨٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١٠٩/٦).

(٤) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، مادَّة: (فَسَرَ) (٥٠٤/٤).

التَفْسِرة، وهو نظر الطبيب في البول؛ لكشف العلَّة والدواء، واستخراج ذلك. فَكذلك المفسِّر ينظر في الآية؛ لاستخراج حكمها ومعناها.

وقيل: اشتقاقه من قول العرب: فَسَرْتُ الفرس وفسَّرته، أي: أَجريته وأَعديته إِذا كان به حُصْر؛ ليستطلِق بطنُه. وكأَن المفسِّر يجرى فرس فكره في ميادين المعاني؛ ليستخرج شرح الآية.

قال ابن الأنباري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قول العرب: فَسَرْتُ الدابة وفَسَّرْتُهَا، إذا ركضتها محصورة لينطلق حصرها، وهو يؤول إلى الكشف أيضًا. فالتفسير كشف المغلق من المراد بلفظه، وإطلاق للمحتبس عن الفهم به. وقيل غير ذلك [١].

والحَاصِلُ أنَّ مادَّة: (فَسَرَ) تَدُورُ في لغةِ العَرَب حولَ معنى البيان والكشف والوضوح مطلقًا [٢] سواء أكانَ هذا الكشفُ لغموضِ لفظٍ أم لغيرِ ذلك، يقالُ: فسرت اللَّفظ فسرًا من باب ضرب ونصر، وفسرته تفسيرًا شدد للكثرة إذا كشفت مغلقه.

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن، للزركشي (٢/١٤٧)، بصائر ذوي التمييز، للفيروزآبادى (١/٧٨-٧٩)، روح المعاني، للألوسي (١/٥)، التيسير في التفسير، لأبي حفص عمر النسفي (١/٨).

(٢) يقال: فَسَرْتُ الذِّراعَ: إذا كشفتُها. وفسَّرتُ الحديثَ: إذا بيَّنتُه.

ب. التَّفسير اصطلاحًا:

والتفسير في الاصطلاح: **(كَشْفُ معاني القرآن الكريم، وبيانُ المراد منه)**، وهو أعمُّ من أن يكون بحسبِ اللَّفظِ المشكلِ وغيره، وبحسب المعنى الظَّاهر وغيرِه، والمقصود منه.

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد حده الفقهاء فقالوا: هو إبداء احتمال في اللفظ، معضود بدليل خارج عنه. فالتفسير بيان اللفظ، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة:٢]، أي: لا شك فيه، والتأويل: بيان المعنى، كقولهم: لا شك فيه عند المؤمنين، أو لأنه حق في نفسه فلا تقبل ذاته الشك، وإنما الشك وصف الشاك، ونحو ذلك" (١). قيل: "تلخيصه: التفسير: ما يتعلق بالرواية، والتأويل ما يتعلق بالدراية" (٢).

وقيل: التفسير القطع بأن مراد الله عَزَّوَجَلَّ كذا، والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون قطع (٣).

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/٣١٤).

(٢) انظر: تفسير الماتريدي (١/٣٣٨)، التلخيص في تفسير القرآن، للكواشي (١/١٣٣)، الجواهر الحسان، للثعالبي (١/٤)، التحبير في علم التفسير، للسيوطي (ص:٣٧)، حاشية الطيبي على الكشاف (١/٦٥٢).

(٣) التيسير في التفسير، لأبي حفص عمر النسفي (١/٨)، روح المعاني (١/٦)، مناهل العرفان (٢/٥).

وقال كثير من أهل العلم: "التفسير: علم نزول الآية، وشأنها، وقصتها، والأسباب التي نزلت فيها، والأقوام الذين أريدوا بها، بلفظ يدل عليه دلالةً ظاهرة. فهذا وأضرابه محظور على الناس القول إلا باستماع الأثر. فأما التأويل فهو صرف الآية إلى معنى تحتمله موافقٍ لما قبلها وما بعدها، وليس بمحظور على العلماء استنباطه والقول فيه، وإنما يكون مرآتنا الكتاب والسنة" (١).

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التفسير قد يقال فيما يختص بمفردات الألفاظ وغريبها، وفيما يختص بالتأويل؛ ولهذا يقال تفسير الرؤيا وتأويلها..." (٢).

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التفسير: إخراج الشيء من مقام الخفاء إلى مقام التَّجلِّي. والتأويل: نقل الكلام عن وضعه فيما يحتاج في إثباته إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ، فهو مأخوذ من قولك: آل الشيء إلى كذا، أي: صار إليه" (٣).

وقال بعضهم: التفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل، والتأويل رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر (٤).

---

(١) انظر: الكشف والبيان، للثعلبي (٨٧/١)، التيسير في التفسير، لأبي حفص عمر النسفي (٨/١)، التلخيص في تفسير القرآن، للكواشي (١٣٣/١)، التعريفات، للشريف الجرجاني (ص:٦٣)، حاشية الطيبي على الكشاف (٦٥٢/١).

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة: (فسر) (ص:٦٣٦).

(٣) زاد المسير في علم التفسير (١٢/١).

(٤) انظر: تهذيب اللغة (٢٨٣/١٢)، حاشية الطيبي على الكشاف (٦٥١/١)، التوقيف على مهمات التعاريف (ص:١٠٤).

وقال الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ورسموه بأنه: "علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك كمعرفة النسخ وسبب النزول وقصة توضح ما أبهم في القرآن ونحو ذلك" (١).

وقال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التفسير علم يعرف به فهم كتاب الله عَزَّوَجَلَّ المنزل على نبيه محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبيان معانيه، واستخراج أحكامه، وَحِكَمِهِ. واستمداد ذلك من: علم اللغة، والنحو، والتصريف، وعلم البيان، وأصول الفقه، والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ" (٢).

قال الفناري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الأولى أن يقال: علم التفسير معرفة أحوال كلام الله عَزَّوَجَلَّ من حيث القرآنية، ومن حيث دلالته على ما يعلم أو يظن أنه مراد الله تعالى بقدر الطاقة الإنسانية -انتهى- (٣).

---

(١) روح المعاني، للألوسي (١/٥).

(٢) البرهان في علوم القرآن، للزركشي (١/١٣).

(٣) انظر: كشف الظنون، لحاجي خليفة (١/٤٢٧).

وهل يتوقَّف هذا الإيضاح على القطع بالمعنى المراد بأن يكون اللَّفظ نَصًّا لا يحتملُ إلَّا معنىً واحدًا، أو الرِّواية الصَّحيحة عن المعصوم ﷺ، أو لا يتوقَّفُ على شيءٍ من ذلك بحيث يكفي فيه غلبةُ الظَّنِ بالمعنى المراد؟

والصَّوابُ هو عَدَمُ التَّوقُّفِ، غَايةُ الأَمْرِ أنَّه يلزمُ عِنْدَ مجرَّدِ غلبةِ الظَّنِّ ألَّا يَقْطَعَ المفسِّرُ بأنَّ المعنى الَّذي غَلَبَ على ظَنِّه هو مرادُ الله عَزَّوَجَلَّ مِنَ النَّص، بل يقولُ بما يُشْعِرُ بِعَدَمِ الجَزْم، كقوله: المعنى عِنْدي -والله أعلم- وأشباه ذلك من العباراتِ المشعرةِ بعدمِ القطعِ فيما لا قَاطِعَ فيه.

والتَّفسير بهذا المعنى يشملُ جميعَ ضروبِ البيان لمفردات القرآن وتراكيبه، سواء تعلَّقَ البيانُ بشرحِ لغةٍ، أم باستنباطِ حُكْمٍ أم بتحقيقِ مُناسَبَةٍ، أو سَبَبِ نُزولٍ، أم بدفعِ إشكالٍ ورد على النَّص، أو بينه وبينَ نصٍّ آخَرَ، أم غير ذلك ممَّا يحتاجُ إليه بيانُ النَّصِ الكريم.

وَقَدْ عُرِفَ القولُ في تفسيرِ القرآنِ منذُ عهدِ نزوله، فالقرآنُ يُفَسِّر بَعْضُه بَعْضًا. وقد يحتاجُ بعضُ الصَّحابةِ إلى بيانِ شيءٍ مِنَ القرآنِ فيوافيهم به النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النَّحل:٤٤].

ومِنْ ثمَّ عَرَفَ العلماءُ وذكروا في تصانيفهم ألوانًا شتَّى من تفسير القرآن للقرآن، ومن تفسير السُّنَّة للقرآن.

ثمَّ سَارَ الصَّحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَمَنْ بَعْدَهَم على هذا المنوال من البيانِ لكلِّ ما يحتاج إلى بيان من القرآن، فتكوَّنت المدارس المتقدِّمة للتَّفسير في (مكَّة) و(المدينة)

و(الشَّام) و(العراق)..الخ، حتَّى دُوِّنت المصنَّفاتُ الَّتي لا تكاد تحصى في التَّفسير، كلٌّ على حَسَبِ مشرب صاحبه من العنايةِ باللُّغة والبلاغة أو الفقه والأحكام، أو تحقيق أمور العقيدة ومباحث علم الكلام، ثمَّ من إسهابٍ إلى إيجازٍ إلى توسُّطٍ في التَّناول، وهكذا صَارَ تفسيرُ القرآن عِلْمًا قائمًا بذاته وضعت فيه المئات بَل الألوفُ مِنَ المجلَّدات..

وهُنَاكَ أقوالٌ كثيرةٌ للعلماءِ في بيانِ معنى كلٍّ من التَّفسيرِ والتَّأويل، والنِّسبة بينهما، ليسَ هنا محلُّ بيانها، إذ الغَرَضُ هنا بيان المعنى المؤتلف من جزأين هما: (التَّفسير العلمي). ولكنِّي أعرض لذلك بإيجاز يُمَهِّدُ للمقصود.

قَالَ أستاذنا العلَّامة الأستاذ الدكتور إبراهيم خليفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "على أنَّ جمهرة العلماء قديمًا وحديثًا قد استقرَّ عُرْفهم على أن يُطْلِقوا التَّفسيرَ على ما يُدْرَكُ لأوَّلِ وَهْلَةٍ مِنْ مجرَّدِ فَهْمِ اللُّغة، وغير ذلك ممَّا هو مفتقر إلى إطالة الفكرة، وإمعان النَّظرة، كما يرى ذلك من له أدنى اطِّلاع على كتب القوم المؤلَّفة في فنِّ تفسير القرآن الكريم، وكيف أنَّ الكثرة الكاثرة منهم قد أطلقوا على كتبهم وفي ثناياها كلمة التَّفسير، وكيف أنَّ ذلك قد شاع في العرف العامِّ والخاصّ.

وأنَّ التَّأويل قد أَصْبَحَ داخلًا تحتَ مدلولِ كلمةِ (تفسير) من جهة أنَّ ذلك كلَّه لا يخرج عن كونه بيانًا لمعنى التَّنزيل المجيد، وكشفًا عن المراد منه، وأنَّ لهذا حقَّه من الحقِّ والرُّشد الَّذي لا يخفى على منصف.

والنِّسبة بين التَّفسير بهذا المعنى الواسع الَّذي استقر عليه العرفُ العامُّ والخاصُّ وبين التَّأويل هي العموم والخصوص بإطلاق، فكلُّ تأويلٍ تفسير ولا عكس، يجتمعان في بيان ما يحتاج بيانه إلى التَّأمل وإمعان النَّظر، وينفرد التَّفسير في بيان ما لا يحتاج إلى ذلك. وهذا كما لا يخفى عند الحديث عن التَّأويل بالمعنى الخاص بما في القرآن الكريم طبعًا. فأمَّا الحديث عن التَّأويل باعتبار كونه عنوانًا شاملًا للقرآن وغيره، فلا يخفى عليكَ أنَّ النِّسبة بينه وبين التَّفسير الَّذي صار عَلَمًا بالغلبة لا ينصرف عند الإطلاق إلَّا إلى بيان القرآن الكريم خاصَّة، يقول:

النِّسبة بين التَّأويل بهذا الوصف، وبين التَّفسير الَّذي قد صار هذا شأنه هي العموم والخصوص من وجه، فكلٌّ منهما قد يكون أعمَّ من الآخر من جهة، وأخصَّ من جهة أخرى.

وبيان ذلك: أنَّ التَّفسير بهذا المعنى شاملٌ للفظ القرآن الكريم ومعناه قطعًا أو ترجيحًا، رواية أو دراية، على أنَّ التَّأويل لا يكون بالرِّواية ولا بالقطع، وإنما يكون بالظَّنِّ ونوع مخصوص من الدِّراية على ما وضَّحناه لك. ففي هذا ترى عموم التَّفسير وخصوص التَّأويل.

كما ترى عكس ذلك -أعني: عموم التَّأويل وخصوص التَّفسير- في أنَّ التَّأويل بهذا الاعتبار لا يختصُّ بالقرآن أصلًا، بل يعدوه إلى غيره كتأويل أحاديث من السُّنَّة، وتأويل الرُّؤيا وغير ذلك، على حين أنَّ التَّفسير بهذا الوصف لا يخرج موضوعه، ولا أي من مسائله عن القرآن الكريم خاصَّة. ثمَّ النِّسبة بين مدلول كلٍّ

من هذين اللَّفظين: (التَّفسير والتَّأويل) لغة، وبين مدلوله اصطلاحًا هي العموم والخصوص بإطلاق كما هو الغالب في مدلول الشَّيء لغة ومدلوله اصطلاحًا. فأمَّا التَّفسير فإنَّ المحور الَّذي يدور عليه فلك مادَّته في اللغة هو الكشف مطلقًا، والتَّفسير بالمعنى الَّذي قرَّرناه في الاصطلاح لا يخرج عن كونه كشفًا مخصوصًا مندرجًا تحت الكشف اللُّغويِّ العامِّ، أعني: كشفًا عن شأن الآية ومعناها.

وأمَّا التَّأويل فقد علم أنَّ أصله في اللُّغة إمَّا من (الأَوْل) بمعنى الرجوع والصَّيرورة مطلقًا، ومدلوله الَّذي جلونا لك في الاصطلاح رجع وتصير مخصوص مندرج تحت اللُّغوي العامِّ كذلك، أعني: رجع الآية وصرفها إلى ما تحتمله من المعاني الدَّقيقة. وإمَّا من (الإيالة) أو (الإيال) بمعنى: السِّياسة مطلقًا، وهو بمعناه الاصطلاحي سياسة مخصوصة داخلة تحت اللغويَّة العامَّة، أعني: سياسة المؤول للكلام ووضعه للمعنى فيه موضعه" [١].

وحيثُ إنَّ الكشف أعمُّ مِنْ أن يكونَ بحسبِ اللَّفظِ المشكل وغيرِه، وبحسب المعنى الظَّاهر وغيره؛ فإنَّه يتناول أبعادًا أخرى للنَّص غير الظَّاهر، أو قُلْ: المعنى القريب الَّذي يفهمه العامِّي لأوَّل وهلة يطرق النَّصُ سمعَه، والمتبحِّرُ الَّذي يدرك عمق مفهوم النَّص بعد الدِّراسة والبحث. وذلك مما يؤسِّس أوَّلًا للمعنى المؤتلف.

---

(١) انظر: دراسات في مناهج المفسِّرين، أ.د إبراهيم عبد الرَّحمن خليفة (ص:١٠) فما بعد.

٢ - بيان المراد من العلم:

لا بُدَّ من الرُّجوع إلى بيان مادَّة: (العلم) لبيان المعنى المضاف إلى التفسير قبل الإضافة. فإنَّ (الْعِلْم) في اللُّغَة: نقيض الجهل، وهو يُطْلَقُ على الْمَعْرِفَةِ والشُّعُورِ والإتْقَانِ والْيَقِينِ. يُقَال: عَلِمْتُ الشَّيْءَ أَعْلَمُهُ عِلْمًا: عَرَفْتُهُ، ويُقَال: مَا عَلِمْتُ بِخَبَرِ قُدُومِه، أي: ما شَعَرْتُ، ويُقَال: عَلِمَ الأَمْرَ وتَعَلَّمَه: أَتْقَنَهُ [١].

واصْطِلاحًا: العلم هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع [٢]. ويقال ذلك عن الحق والصدق. قال العلامة أبو السعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔاۚ﴾ [يونس:٣٦]: أي: "من العلم اليقيني، والاعتقاد الصحيح المطابق للواقع" [٣]. وقال في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٦٤﴾ [الحجر:٦٤]. ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾، أي: باليقين الذي لا مجال فيه للامتراء والشك. ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٦٤﴾ تأكيد له، أي: أتيناك فيما قلنا بالخبر الحق، أي: المطابق للواقع [٤].

---

(١) انظر: تهذيب اللغة، للأزهري (٢/٢٥٤).

(٢) انظر: التعريفات، للجرجاني (ص:١٥٥)، تيسير التحرير، محمد أمين المعروف بأمير بادشاه الحنفي (١/١٥)، التقرير والتحبير، لأبي عبد الله، المعروف بابن أمير حاج (١/٢٧).

(٣) تفسير أبي السعود (٤/١٤٥)، وانظر: روح المعاني (٦/١٠٩)، الفواتح الإلهية، لنعمة الله بن محمود النخجواني (١/٤٧٢).

(٤) انظر: تفسير أبي السعود (٥/٨٤)، وانظر: روح المعاني (٧/٣١١).

وقال العلامة سعد الدين التفتازاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (شرح العقائد): "الحق: الحكم المطابق للواقع، يطلق على الأقوال والعقائد والأديان والمذاهب باعتبار اشتمالها على ذلك، والحكم يقابله الباطل، وأما الصدق فقد شاع استعماله في الأقوال خاصة. ويقابله الكذب، وقد يفرق بينهما بأن المطابقة تعتبر في الحق من جانب الواقع، وفي الصدق من جانب الحكم؛ فمعنى صدق الحكم: مطابقته الواقع. ومعنى حقيته: مطابقة الواقع إياه" (١).

ويتبين مما تقدم أن العلم لا يكون إلا حقًّا وصدقًا.

وقال الحكماء: هو حصول صورة الشَّيء في العقل، والأوَّل أخصُّ من الثَّاني. وقيل: العلمُ هو إدراك الشَّيء على ما هو به. وقيل: زوال الخفاء من المعلوم، والجهل نقيضه. وقيل: هو مستغنٍ عن التَّعريف، وقيل: العلم إدراك جازم مطابق للواقع ناشئ عن دليل. وقيل غير ذلك (٢).

واخْتَارَ ابن الحاجب والْعَضُدُ الإِيجِيُّ رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ بِأَنَّهُ صِفَةٌ تُوجِبُ لِمَحَلِّهَا تَمْيِيزًا بَيْنَ الْمَعَانِي لا يَحْتَمِلِ النَّقِيضَ (٣).

---

(١) شرح العقائد النسفية، للعلامة سعد الدين التفتازاني (ص:١٢).

(٢) انظر: التَّعريفات (ص:١٩٩)، الإبهاج (١/٣٠)، رفع الحاجب (١/٢٤٣)، نهاية السُّول (١/٢١).

(٣) انظر: مختصر ابن الحاجب (ص:٢٠٥)، المواقف (١/٥٩)، وانظر: الإبهاج (١/٢٨)، شرح الكوكب المنير (١/٦١)، إرشاد الفحول (١/٢٠).

قوله: "لا يَحْتَمِلُ النَّقِيضَ، أي: بِوَجْهٍ. يَخْرُجُ عنه: الظَّنُّ والاعتقاد والوَهْم; فإنَّها وإن كانت توجب تَمْيِيزَ النَّفْس الأشياء لكنَّهُ يَحْتَمِلُ النَّقِيضَ، إمَّا في العقْل أو في الخارج"(١). وفيه: أن العلوم المستندة إلى العادة تحتمل النقيض، لإمكان خرق العادة بالقدرة الإلهية(٢). وقال صاحب (الكليَّات) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والمعنى الحقيقي للفظ العلم هو الإدراك؛ ولهذا المعنى مُتَعَلق، وهو المعلوم، وله تابع في الحصول يكون وسيلة إليه في البقاء وهو الملكة، فأطلق لفظ العلم على كل منها إما حقيقة عرفية، أو اصطلاحية أو مجازًا مشهورًا" (٣).

والماديون: يزعمون أن العلم ليس إلا خصوص اليقينيات التي تستند إلى الحس وحده.

لكن الحواس تختلف باختلاف الأشخاص، فالأحول يرى الواحد اثنين، والسليم يراه شخصًا واحدًا، والذي عنده مرض الصفراء يجد الحلو مرَّ المذاق، والسليم يجده حلوًا، وهذا أدرك حقيقة، وذاك حقيقة، فتعددت الحقائق، ولا يستطيع أيُّ إنسان أن يقنع الآخر بما عنده، فالحقائق عندية.

وقد اكتشف العلم الحديث أن الفضاء مملوء بالصور التي لا نستطيع أن نشاهدها بأبصارنا، كما أنه مملوء بالأصوات التي فوق مستوى سمعنا، أو دون

---

(١) بيان المختصر شرح مختصر ابن الحاجب، لأبي القاسم الأصفهاني (١/ ٤٧).

(٢) انظر: إرشاد الفحول (١/ ٢٠).

(٣) انظر: الكليَّات، للكفوي (ص:٦١١)، وانظر: المستصفى، لأبي حامد الغزالي (١/ ٢٥).

مستواه، ونحن لا نسمع من ذلك شيئًا، وحيث إنَّ حواسنا محدودة كمًّا وكيفًا، فلا يصح عقلًا ولا واقعًا أن ننكر أشياء من حقائق الكون إنكارًا قطعيا لمجرد أننا لم نرها أو لم نسمع صوتها، إلَّا أن نقيم دليلًا عقليًّا وبرهانًا واضحًا يسلم به المنطق السليم.

أما المعرفة فهي خلاف الإنكار، وقد قيل: هي إدراك الأشياء وتصورها. وقيل: هي العلم الكسبي الخاص بالبسيط والجزئي والذي فيه إدراك وتصور والذي سبقه جهل، وبالمعرفة تدرك الآثار لا الكنه. فقولنا: علم كسبي، يعني ليست وحيًا؛ ولذلك الوحي لا يسمى: معرفة، وإنما يسمى: علمًا، والله عَزَّوَجَلَّ لا يوصف بأنه عارف، وإنما عالم [(١)].

---

(١) قال الجرجاني: "المعرفة: ما وضع ليدل على شيء بعينه، وهي المضمرات، والأعلام، والمبهمات، وما عرف باللام، والمضاف إلى أحدهما، والمعرفة أيضًا: إدراك الشيء على ما هو عليه، وهي مسبوقة بجهل بخلاف العلم؛ ولذلك يسمى الحق تعالى بالعالم دون العارف". التعريفات (ص:٢٢١)، وانظر: التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٣١٠). وفي (الفروق): "المعرفة: إدراك الشيء ثانيًا بعد توسط نسيانه؛ لذلك يسمى الحق جَلَّوَعَلَا بالعالم دون العارف. وهو أشهر الاقوال في تعريف المعرفة. وقيل: المعرفة: قد تقال فيما تدرك آثاره، وإن لم يدرك ذاته، والعلم لا يكاد يقال إلا فيما أدرك ذاته؛ ولذا يقال: فلان يعرف الله، ولا يقال: يعلم الله، لما كانت معرفته جَلَّوَعَلَا ليست إلا بمعرفة آثاره دون معرفة ذاته" معجم الفروق اللغوية (ص:٥٠٢). قال ابن حمدان في (نهاية المبتدئين): "علم الله عَزَّوَجَلَّ لا يسمى معرفة. حكاه القاضي إجماعًا" انظر: شرح الكوكب المنير (١/٦٥- ٦٧)، المختصر في أصول الفقه (ص:٣٦)، التحبير شرح التحرير (١/٢٣٧). أما ما روي من نحو: «تعرف على الله=

وعلم الله عَزَّوَجَلَّ لا يوصف بأنه معرفة؛ لأنه كلي ومطلق ومحيط.

فالعلم نوعان:

١ - علم كسبي جزئي، وهو العلم الإنساني.

٢ - وعلم كلي مطلق ومحيط وهو علم الله عَزَّوَجَلَّ [(١)].

قالوا: يطلق العلم على المسائل المضبوطة بجهة واحدة. والغالب أن تكون تلك المسائل نظرية كلية، وقد تكون ضرورية، وقد تكون جزئية.

ويطلق العلم على مجموع مسائل وأصول كلية تجمعها جهة واحدة مثل: علم النحو، وعلم الطب، وعلم الكيمياء.

ويجمع على (علوم) وقد تسمى به المباحث التي تتناول موضوعًا واحدًا مثل: علوم العربية، والعلوم الطبيعية، والعلوم التجريبية.

قال الشيخ الزُّرْقاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد تكون شخصية أيضًا، كمسائل علم الحديث رواية؛ فإنها في الواقع قضايا شخصية موضوعها: ذات النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

=في الرخاء يعرفك في الشدة» فقد قالوا: هذا من باب المقابلة والمشاكلة في التعبير على أن دائرة الإخبار أوسع من دائرة الأسماء، إلى غير ذلك مما قاله أهل العلم.

(١) قيل: علم المخلوق محدث، وهو قسمان: (قسم ضروري): وهو ما يعلم من غير نظر، كتصورنا معنى: النار، وأنها حارة. و(قسم نظري): وهو ما لا يعلم إلا بنظر، وهو عكسه، أي: عكس الضروري. وقال الأكثر: الضروري ما لا يتقدمه تصديق يتوقف عليه، والنظري بخلافه. ثم اعلم أن حد العلم الضروري في اللغة: الحمل على الشيء، والإلجاء إليه. وحده في الشرع: ما لزم نفس المكلف لزومًا لا يمكنه الخروج عنه. انظر: شرح الكوكب المنير (١/٦٥- ٦٧)، المختصر في أصول الفقه (ص:٣٦)، التحبير شرح التحرير (١/٢٣٧).

وذكر العلامة السعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المقاصد)، وعبد الحكيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (حاشيته على المطول): ما يفيد أن العلم المدون قد يطلق على طائفة من التصورات، أي: المفردات التي يتصورها العقل مضبوطة بجهة واحدة.

قال الشيخ الزُّرْقاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يمكن أن نستخلص من ذلك كله أن العلم في عرف التدوين العام يقال على المعلومات المنضبطة بجهة واحدة سواء أكانت وحدة الموضوع، أم وحدة الغاية، وسواء أكانت تلك المعلومات تصورات، كعلم البديع، أم تصديقات. وسواء أكانت تلك التصديقات قضايا كلية، وهو الغالب، أم جزئية، أم شخصية، كعلم الحديث رواية.

هذا كله إطلاق واحد من إطلاقات ثلاثة لعلماء التدوين.

والإطلاق الثاني عندهم: هو الإدراك، أي: إدراك تلك المعارف السالفة.

والإطلاق الثالث: هو على ما يسمونه: ملكة الاستحصال، أي: التي تستحصل بها تلك المعارف. أو ملكة الاستحضار، أي: التي تستحضر بها المعارف بعد حصولها. وأول هذه الإطلاقات هو أولاها بالقبول؛ لأنه المتبادر من نحو قولهم تعلمت علمًا من العلوم، وموضوع العلم كذا، والتبادر كما يقولون أمارة الحقيقة [١].

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن (١/١٣-١٤)، وانظر: حاشية الدسوقي على مختصر المعاني (ص:١٣٣).

أقول: والحاصل أنَّ المعنى اللُّغوي أوسعُ دائرةً من اختصاصِهِ بالقطعيِّ أو النَّظريِّ، فيبقى المعنى المؤتلفُ هو المعنيُّ هنا، وما أضيفَ إلى التَّفسير منه أخصُّ من العمومِ الآنفِ الذِّكر –كما سيأتي تحقيق ذلك–.

ولكنَّ المعنى الاصطلاحي على قولِ من قال: إنَّه الاعتقادُ الجازمُ المطابقُ للواقعِ، أو هو إدراكُ الشَّيءِ على هو به بَعْدَ زوالِ الخفاءِ عنه ممَّا يؤسِّسُ لبيانِ المعنى المؤتلف من حيث تحقيقُ المرادِ منه.

ومن معاني (العلم) -كما سبق-: اليقين، فهو كذلك: (الاعتقادُ الجازمُ المطابقُ للواقعِ الثَّابت)، أي: الَّذي لا يقبلُ التَّشكيك. ويعرِّفه بعضهم بأنَّه: (علمٌ يورثُ سكون النَّفس وثلج الصَّدر بما علم بعد حيرةٍ وشكٍّ). وبالعلم يصيرُ الشَّيءُ منكشفًا، وهذا يتوافقُ مع مادَّة: (فَسَرَ) حيثُ تدورُ في لغةِ العربِ حولَ معنى البيان والكشف والوضوح مطلقًا –كما سبق– فتأمَّل هذا التَّوافق بين المعنيين فإنَّه من الدَّعائمِ الَّتي تؤسِّس للمعنى المؤتلف مضافةً إلى ما سَبَق.

فاليقينُ ضدُّ الشَّكِّ، والعلم هو اعتقاد الشيء على ما هو به على سبيل الثقة كان ذلك بعد لبس أو لا، والتبيين علم يقع بالشيء بعد لبس فقط؛ ولهذا لا يقال: تبينت أن السماء فوقي، كما تقول: علمتها فوقي، ولا يقال لله: متبين لذلك. وأما اليقين فهو العلم بالشيء استدلالًا بعد أن كان صاحبه شاكًّا فيه. فلا يقال: تيقنت أن السماء فوقي. فكل يقين علم، وليس كل علم يقينًا. فالعلم هو اعتقاد الشيء على ما هو به على سبيل الثقة، واليقين هو سكون النفس وثلج الصدر بما علم؛

ولهذا لا يجوز أن يوصف الله عَزَّوَجَلَّ باليقين. ويقال ثلج اليقين وبرد اليقين، ولا يقال: ثلج العلم وبرد العلم، وقيل: الموقن العالم بالشيء بعد حيرة الشك، والشاهد أنهم يجعلونه ضد الشك فيقولون: شَكٌّ ويقين، وقلمَّا يقال: شَكٌّ وعلم، فاليقين ما يزيل الشك دون غيره من أضداد العلوم، والشاهد قول الشاعر:

بَكَى صَاحِبِي لما رأى الدَّرْب دونه وأيقن أنَّا لاَحِقانِ بقيصرا [(١)]

أي: أزال الشك عنه عند ذلك.. [(٢)].

أمَّا العِلمُ بمعنى الإدراك مطلقًا، سواء كان تصوُّرًا أو تصديقًا، يقينيًّا أو غير يقينيٍّ، فإنَّه بهذا المعنى يكون العلم أعم من الاعتقاد مطلقًا. وهو أوسعُ دائرةً كذلك من المعنى المؤتلف من الجزأين.

ولا بد من العلم، وهو لا يكون إلا بالتعلم والبحث والنظر، حتى ترتفع غشاوة الجهل عن الباحث، وتنجلي له الحقائق بارزة. قال أبو بكر النقاش سمي العلم علمًا؛ لأنه علامة يهتدي بها العالم إلى ما قد جهله الناس، وهو كالعلم المنصوب بالطريق [(٣)].

فالعلم في أصل معناه: الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، والناشئ عن دليل، وهو يورثُ سكون النَّفس، والاطمئنان وراحة البال؛ لأنه يأتي بعد حيرةٍ وشكٍّ.

---

(١) البيت لأمرئ القيس من (الطويل). ديوان امرئ القيس (ص:٩٦)، دار المعرفة، بيروت [١٤٢٥هـ].

(٢) الفروق (ص:٣٧٤).

(٣) البحر المحيط في أصول الفقه، للزركشي (١/٧٥).

وهذا في أصل معناه، ولكنه يطلق على ما دون ذلك، فيطلق تجوزًا على مبادئ العلم، أو على مبادئ علم من العلوم؛ لأنها توصل إلى العلم.

وفي الحديث: «**إنما العلم بالتعلم**» (١).

قوله: «**إنما العلم**» أي: تحصيله، (بالتعلم) -بضم اللام- على الصواب.

وفي بعض النسخ: (بالتعليم). والمعنى: ليس العلم المعتبر إلا المأخوذ من الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ وورثتهم على سبيل التعلم (٢).

وقال الشيخ محمد الشنواني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (حاشيته على مختصر ابن أبي جمرة): "«**إنما العلم بالتعلم**»، "أي: بكون الإنسان يتعلم العلم من غيره من العارفين، وليس العلم بالمطالعة في الكتب"(٣).

والحاصل أن الأخذ عن العلماء الربانيين يورث استقامة في الفكر والسلوك.

وقد روي أن لقمان الحكيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أوصى ابنه، فقال: يا بني جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك؛ فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء (٤).

---

(١) رواه البخاري في (الصحيح) معلقًا (١/٢٤). قال ابن حجر: إسناده حسن؛ لاعتضاده بالمجيء من وجه آخر. انظر: فيض القدير (٢/٥٦٩)، (٦/٢٤٢)، تغليق التعليق على صحيح البخاري (٢/٧٨).

(٢) انظر: فتح الباري، لابن حجر (١/١٦١)، عمدة القاري (٢/٤٢)، فيض القدير (٢/٥٦٩).

(٣) حاشية الشيخ محمد الشنواني على مختصر ابن أبي جمرة (ص:٤٢).

(٤) موطأ الإمام مالك [٣٦٧٠]، الزهد، لابن المبارك [١٣٨٧]، الزهد، لأحمد [٥٥٢].

٣ – المعنى المؤتلف من الجزأين:

اختلفَ تعريفُ (التَّفسير العلمي) بين الباحثين في التَّفسير وعلوم القرآن، وقد اطَّلعت على كثيرٍ من هذه التَّعريفات، ولكنَّها لا تخلو من الخلل، أو عدم الضَّبط، ولا أريد أن أثقل على القارئ في مناقشة هذه التّعرَيفات؛ حيث إن موضع الخلل يعلم من خلال تحقيق المعنى المراد، وذكر الضوابط والحدود الفاصلة.

وبادئ ذي بدء فإني أذكر التعريف الذي أراه راجحًا، ثم ألتفت إلى تحقيق المعنى، ومناقشة المعارضين.

أ. التحقيق في تعريف المؤتلف من الجزأين:

أرجِّح في تعريف (التَّفسير العلمي) المؤتلف من جزأين أنَّه (**الكَشْفُ عَنْ وجْهِ الصِّلةِ بينَ الآياتِ القرآنيَّةِ وبينَ مكتشفاتِ العلومِ في ضوءِ ما ثبتتْ صحَّته من نظريَّاتِ العلومِ الكونيَّةِ مِنْ حيثُ دلالتُها على ذلك مِنْ غيرِ تكلُّفٍ، وفقَ ضوابطِ التَّفسيرِ وقواعدِهِ العامَّةِ، على وجْهٍ يَدُلُّ على أنَّ القرآنَ الكريم كلامُ الله الَّذي لا تَنْقَضِي عَجَائِبُه**).

ب. ضوابط وقواعد:

ويتوسَّع فيه بحيثُ يشملُ المسائلَ ذاتِ الرُّجحانِ الظَّني. وغايةُ الأمر أنَّه يلزم عند مجرَّدِ غلبةِ الظَّنِّ ألَّا يَقْطَعَ المفسِّرُ بأنَّ المعنى الَّذي غَلَبَ على ظنِّهِ هو مرادُ الله عَزَّوَجَلَّ من النَّصِ، بل يقولُ ما يُشْعِرُ بِعَدَمِ الجزم، كقوله: المعنى عندي -والله أعلم- وأشباه ذلك من العباراتِ المشعرةِ بعدم القَطْعِ فيما لا قاطع فيه.

وهذا ما أراه أقربُ إلى الصَّوابِ مِنْ كلِّ مَا قِيْلَ مِنْ تَعْرِيفٍ للتَّفسيرِ العِلمِيِّ.

ويَتَقَرَّرُ ممَّا سَبَق:

١ - ليسَ بالضَّرورة أن يكون (التَّفسيرُ العلميُّ) إعجازًا؛ فإنَّ (التَّفسير العلمي) أعمُّ من الإعجاز من وجه، والإعجاز أعم من وجه آخر فبينهما عموم وخصوص من وجه، فكلُّ إعجاز من الآيات ذات الصِّلة تفسيرٌ علميٌّ إذا كان قد اصطبغ بصيغة الإعجاز، واندرج تحت مفهومه، وليس كلُّ تفسير علميٍّ إعجازًا.

فالتفسير العلمي هو الكَشْفُ عَنْ وجْهِ الصِّلةِ بينَ الآياتِ القرآنيَّةِ وبينَ مكتشفاتِ العلومِ في ضوءِ ما ثبتتْ صحَّته من نظريَّاتِ العلومِ الكونيَّةِ أو ما ترجحت صحته من نظريات العلوم الكونية على ما تقدم بيانه. أما الإعجاز العلمي فهو إخبار القرآن الكريم بحقيقة أثبتها العلم التجريبي أخيرًا، وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية، في زمن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٢ – المسائلُ العلميَّة القطعيَّة ذات الصِّلة بنصوص القرآن أو السُّنَّة هي من (التَّفسير العلمي) قولًا واحدًا؛ لتوافقها مع دلالة النص مع عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية، في زمن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٣ – المسائل النَّظريَّة ذات الرُّجحان الظَّني إنَّما تذكر:

أ- لتوسيع المدلول.

ب- وتُذْكَرُ على أنَّها فروضٌ واحتمالاتٌ يترجَّحُ ثبوتها، فإن آلَ أمرُها إلى القبولِ كانتْ من (التَّفسيرِ العلميِّ)، وإن آلَ أمرُها إلى الرَّفضِ لم تَكُنْ كَذَلك.

وإنْ كانَتْ لا تَدْخُل -قَبلَ القَطْعِ بمدْلُولها- في التَّعريفِ -كما أَسْلَفْتُ- لكنَّ غَايَةَ الأَمْرِ أنَّها قد تذكر، ولا يقطع المفسِّر بأنَّ المعنى الَّذي غلب على ظنِّه هو مرادُ الله عَزَّوَجَلَّ مِنَ النَّصِّ...الخ.

٤ – لا مَانِعَ مِنْ إطلاقِ مُسمَّى (التَّفسير العلمي) على المسائل النَّظريَّةِ ذاتِ الرُّجحانِ الظَّني تجوُّزًا، ووفقَ منهجٍ واضحِ المعالم، بحيثُ لا يؤثِّر بطلانُها على قَدَاسَةِ النَّصِّ.

وسيأتي في بيانِ (سببِ التَّسمية) مزيد من البيان في تحقيقُ المعنى المراد، وما يندرجُ تحت هذا المعنى المؤتلف، وما يخرجُ عنه.

المبدأ الثَّاني: موضوع (التَّفسير العلمي):

أمَّا موضوع (التَّفسير العلمي) فهو الآيات القرآنيَّة ذات الصِّلة بحقائق العلوم الكونيَّة كعلم الفلك، والعلوم الطِّبيَّة، والجيولوجيا (علم طبقات الأرض)، وآيات الخَلْق، ونحو ذلك، من حيث دلالتها عليها من غير تكلُّفٍ، وضمن ضوابط وشروط -يأتي بيانها-، سواء في ذلك ما يخصُّ الحقيقة العلميَّة الكونيَّة أو النَّظريَّة على ما تقدم، أو ما يخصُّ النَّص -كما سيأتي-.

والنَّص له من المعنى ما هو ظاهرٌ قريب يفهمه العامي، كما أن له أبعادًا أخرى تأتي في ظلال النص لا تتنافى مع ما يظهر من معنى النظم، يعلمها من رزقه الله عَزَّوَجَلَّ فهمًا ثاقبًا، واطِّلاعًا غائصًا، ونظرًا دقيقًا، ويقال هذا في عموم الآيات ومنها: الآيات الكونية.

ومن رزقه الله عَزَّوَجَلَّ فهمًا وحفظًا، ثم قصَّر في حق نفسه وحق غيره، فاستعمل عقله، وقضى جلَّ وقته فيما لا ينفعه فقد حُرِمَ خيرًا كثيرًا.

المبدأ الثَّالث: الثَّمرة:

إنَّما تطلب الثَّمرة لكلِّ علمٍ حتَّى لا تكون دراسته، وسبرُ أغواره، وتمحيصُ مسائله جُهْدًا ضَائعًا من الباحثين في هذا المجال؛ فإن الباحث عن الحق إنما يركز جهده، ويستنفذ طاقته فيما ينفعه في دينه ودنياه.

ويدلُّ ذلك على مدى عناية الباحثين في (التَّفسير وعلوم القرآن) بتجليةِ حقائقِ هذا العلم، ولا سيَّما أنَّه قد أَصْبَحَ مَرْتعًا لكثيرٍ من أصحابِ العلومِ الأخرى من الباحثينَ في علوم الطَّبيعةِ والطِّبِ والفلكِ والجيولوجيا ...الخ -كما سبق-. فربَّما يقتحمون أسوار التَّأويل على غير دراية منهم بالأصول والقواعد، فلذلكَ ينحرفونَ عن الجادَّة، ويَقَعُونَ في الشَّططِ والإِسفاف.

فكان لزامًا عليهم أن يرجعوا فيما ظهر لهم إلى أهل العلم بالشَّريعة أو التَّفسير، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النَّحل:٤٣]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ﴾ [النساء:٨٢-٨٣].

وينبغي لكلِّ باحث في العلومِ التَّجريبيَّة أَنْ يَحْترزَ عن (غرورِ العلم)، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء:٨٥]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [غافر:٨٣]، ولا يَكْتَمِلُ بَحْثُه إلَّا من خلال هذه الموازنة بين مقتضياتِ هذه العلوم، ومقتضياتِ العلومِ الشَّرعيَّة.

والحاصلُ أنَّ ثمرةَ هذا العلمِ يمكن إيجازُها فيما يلي:

١ – إظهارُ إعجازِ القرآن.

٢ – لفتُ أنظارِ المسلمينَ إلى التَّدبُّرِ والتَّأمُّلِ في نصوصِ القرآنِ الكريم، فيزدادُ المؤمنُ يقينًا وبصيرةً، ويدفعُ غيرَ المسلمِ إلى النظر والإيمان.

٣ – التفسير العلمي وسيلةٌ من وسائلِ الدَّعوة بالحكمة.

٤ – بيانُ صلاحيةِ النَّصِّ لكلِّ زمانٍ ومَكَانٍ.

٥ – بيان عناية الباحثين في التفسير وعلوم القرآن والعلوم الكونية بتجليةِ حقائقِ هذا العلم وتنقيته، والتدليل على أنه من وسائل الدعوة والإقناع، والتوسع في مفهوم النص.

٦ – التحذير من المضلِّين الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، ويضعون النص في غير مكانه، فيحملونه ما لا يحتمل، فيسيئون وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

المبدأ الرابع: فضله:

التفسير العلمي هو أحد فروع علم التفسير فيقال في فضله ما قيل في فضل التفسير. والشيء إنما يفضل بقدر ما لغايته من الفضل، وقد عُلمت الغاية من تحرير ثمرته.

أمَّا فضله من حيث كونه فرعًا من فروع علم التفسير فيقال فيه ما قيل في فضل أصله.

المبدأ الخامس: نسبته إلى غيره من العلوم:

التَّفسيرُ العلميُّ لونٌ من ألوانِ التَّفسيرِ يخضعُ لضوابِطِه وأصوله، وربَّما كان فيه التَّوسُّعُ في المدلولِ الَّذي لا يخرج عمَّا تحتمله الآية، ولكنَّه يضفي بُعْدًا لمفهوم النَّص.

ولما كانتْ أبحاثُ الإعجازِ العلميّ متعلّقةً بالتَّفسيرِ العلميّ للآياتِ الكونيَّة، فهي فرعٌ من فروعِ التَّفسير، وإن كانت متعلّقةً بالحديث الشريف فهي فرعِ من علومه.

فالنِّسبةُ بينه وبينَ سائرِ العلومِ هي نسبةُ العمومِ والخصوصِ الوجهي.

يقول الإمامُ محمَّد الطَّاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إنَّ عدم تكلُّم السَّلفِ عليها إن كان فيما ليس راجعًا إلى مقاصده فنحن نساعد عليه، وإن كان فيما يرجع إليها فلا نسلِّم وقوفهم فيها عند ظواهرِ الآيات، بل قد بيَّنوا وفصَّلوا وفرَّعوا في علومٍ عنوا بها، ولا يمنعنا ذلك أن نقتفي على آثارهم في علوم أخرى راجعة لخدمة المقاصد القرآنيَّة، أو لبيان سعة العلوم الإسلاميَّة، أمَّا ما وراء ذلك، فإنَّ كان ذكره لإيضاح المعنى فذلك تابع للتَّفسير أيضًا؛ لأنَّ العلومَ العقليَّة إنما تبحث عن أحوالِ الأشياءِ على ما هي عليه، وإن كان فيما زَادَ على ذلك فذلك ليس من التَّفسير، لكنَّه تكملة للمباحث العلميَّة، واستطراد في العلم لمناسبة التَّفسير؛ ليكون متعاطي التَّفسير أوسعَ قريحة في العلوم (١). وسيأتي تمام قول الإمام محمَّد الطَّاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

المبدأ السَّادس: الواضع:

لَقَدْ تناولَ علماءُ التَّفسيرِ والباحثونَ المتقدِّمونَ في علوم القرآنِ بعضَ موضوعاتِ هذا الفنِّ، ولكنَّه لم يُعْرَف بهذا الاسمِ إلَّا في العصور المتأخِّرة، وعلى

---

(١) التَّحرير والتَّنوير، محمد الطاهر بن بن عاشور (١/٤٥).

ذلكَ فإنَّ مردَّ الكثيرِ من أصول هذا الفنّ إلى الَّذينَ بدأُوا بتأصيلِ علوم التَّفسير، ووضعِ ضوابطَ له من المتقدِّمين، فلا يكادُ يخلو كتابٌ في علومِ القرآن، أو تفسيرٌ من ذكر بعض هذه القواعد. وقد استفادَ المتأخِّرونَ وزادوا بناءً على ما قد استجدَّ من ائتلاف المعنى الاصطلاحي للتَّفسير العلمي كعَلَمٍ لِلَوْنٍ مُسْتَقِلٍّ من ألوان التفسير.

قال الذَّهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (التَّفسير والمفسِّرون): "ولو أنَّا تتبعنا سلسلةَ البحوثِ التَّفسيرية للقرآن الكريم، لوجدنا أنَّ هذه النَّزعة -نزعة التَّفسير العلمي- تمتدُّ من عهد النَّهضة العلميَّة العباسيَّة إلى يومنا هذا، ولوجدنا أنها كانَتْ في أوَّل الأَمْرِ عبارة عن محاولاتٍ يُقصد منها التَّوفيقُ بينَ القرآن، وما جَدَّ من العلوم، ثم وُجِدت الفكرة مركَّزةً وصريحةً على لسان الإمام الغزالي، وابن العربي، والمرسي، والسُّيوطي، ولوجدنا أيضًا أنَّ هذه الفكرة قد طُبِّقتْ عِلميًّا، وظهرتْ في مثل محاولات الفخر الرَّازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ضمن تفسيره للقرآن. ثمَّ وُجِدت بعد ذلك كتب مستقلَّة في استخراج العلوم من القرآن، وتتبع الآيات الخاصَّة بمختلف العلوم، وراجت هذه الفكرة في العصر المتأخِّر رواجًا كبيرًا بين جماعة من أهل العلم، ونتج عن ذلك مؤلَّفات كثيرة تعالج هذا الموضوع، كما أُلِّفت بعض التَّفاسير الَّتي تسيرُ على ضوء هذه الفكرة"[١].

---

(١) التَّفسير والمفسِّرون (٢/٣٥٥-٣٥٦).

المبدأ السَّابع: التَّسمية:

أ. شروط وضوابط:

إنَّ إطلاقَ مسمَّى: (التَّفسير العلمي) على لونٍ خاصٍّ من ألوانِ التَّفسيرِ هو إطلاق واصطلاحٌ حَادِثٌ لم يَعْرِفْه السَّابقون، فَهَلْ مِنْ محذورٍ في إطلاقِ مثل هذا الاصطلاح؟

وهنا أقول: إنَّ إطلاقَ مثل هذا الاصطلاح على لون خاصٍّ من ألوان التَّفسير ينبغي أَنْ يَكونَ ضِمْنَ ضوابطَ وشروط محدَّدة يأتي بيانُها في هذه الدِّراسة.

وهو مصطلحٌ مؤتلفٌ من اجتماع مدلولين، هما:

١ – المدلولُ الشَّرعيُّ.

٢ – المدلولُ المادِّيُّ الَّذي عبَّر عنه من كَتَبَ في هذا المجال بمصطلح: (التَّفسير العلمي).

وحيث إنَّ إطلاق مفهوم العلم، أو قولنا: (العلمي) أوسعُ دائرةً من المعنى المؤتلف من الجزأين الذي يفيد تقييد (العلمي)، فكما قيِّد التفسير بكونه علميًّا، فقد قيِّد العلمي منه بكونه مختصًّا بالنَّظريَّات أو الحقائق العلميَّة الماديَّة الكونيَّة، فهو كذلك أوسعُ دائرةً من اختصاصه بالنَّظريَّات أو الحقائق العلميَّة الماديَّة الكونيَّة، ثم

قيِّد بالحقائق العلميَّة الماديَّة الكونيَّة فحسب دون النظريَّات –كما سيأتي بيان ذلك–.

وبناء على ذلك يكون ما أطلقناه هنا ليس جاريًا على الحقيقة وإنما على المجاز المرسل على النحو التالي:

الانتقال من التقييد بمعنى من المعاني إلى ما يشملها بعلاقة التقييد [١]، ثم الانتقال من الإطلاق إلى التقييد بعلاقة الإطلاق، وذلك باعتبار المعنى المنتقل عنه. ثم انقلنا من تقييد إلى إطلاق بعلاقة التقييد، ثم من إطلاق إلى تقييد بعلاقة الإطلاق باعتبار المعنى المنتقل عنه.

وبناءً على ما سبق بيانه لا يجوز تقسيم الآيات إلى ما كان منها علميًّا أو غيرَ علميٍّ، ويقصد من العلميِّ ما كان متوافقًا مع النَّظريَّات أو الحقائق الماديَّة، كما لا يجوز إطلاق هذا المصطلح المؤتلف دون بيانٍ أو ضبطٍ، أو تحديد لمصطلحاتِ البحث، وذلك لسببين:

الأوَّل: إنَّ ما يفهمُ من هذا الإطلاق لا يُعْرَفُ إلَّا في عُرْفِ العلمانيِّين، وذلك أنَّ العِلْمَ له جوانب ومفاهيم متعدِّدة لا يصحُّ أن يُقْتَصَرَ مِنْهَا على ما كان متوافقًا مع الحقائقِ أو النَّظريَّاتِ العلميَّةِ الماديَّةِ الكونيَّة.

---

(١) ينظر تحقيق المعنى قبل التضايف.

الثَّاني: إنَّ مِثْلَ هذا الاصطلاح -وإن كان يعرف عند البعض عُرْفًا فإنَّه- اصطلاح مُوهمٌ بأنَّ ما لم يكن من الآياتِ على هذه الصِّفةِ فهو ليس عِلْميًّا، وهو فهمٌ قبيح لم يقل به أحد.

ومن هنا كان لزامًا على كلِّ باحثٍ في هذا المجال أن يَشْرَعَ أوَّل ما يَشرع في تحديدِ مصطلحاتِ البحث، وأن يبيّن أنَّه لا مشاحَّة في الاصطلاح إذا كان مقيَّدًا بمنهجٍ عِلْمِيٍّ محدَّدِ المعالم، وضمن الشُّروط الَّتي يعرفها المتخصِّصون في هذا المجال، أو يُطْلِقَ على هذا اللَّون من ألوان التَّفسير إطلاقًا غيرَ موهمٍ، كَأَنْ يقولَ —مثلًا-: (الحقائقُ العلميَّة الكونيَّة في النُّصوصِ القرآنيَّة)، أو يقول: (علم الأجنَّة في القرآن والسُّنة).. -مثلًا- ونحو ذلك.

ب. تحقيق الشَّيخ محمَّد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وتعقيبنا عليه:

وتحقيقُ الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا ليسَ من قبيل إنكارِه للتَّفسيرِ العِلميّ، وإنَّما من حيثُ تحقيقُ المسمَّى.

يقولُ الشَّيخُ محمَّدُ الغزاليُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ القَوْلَ بالإعجازِ العِلْمِيّ في القرآنِ الكريم قولٌ يحملُ الكثيرَ من المخَاطِرِ والمجازَفَاتِ إذا نظرنا لبعضِ الإشاراتِ العلميَّة الَّتي وردت في القرآن بمقابل ما وَصَلَ إليه العلمُ الحديث. فالكلامُ عن مراحلِ الخلق وتطوُّر الأجنَّة وما إلى ذلك ممَّا أثبته العلم بعد آماد، لا شكَّ أنَّه يدلُّ دلالة واضحة على أنَّ القرآن الكريم الَّذي أخبر بهذا ضمن الظُّروف العلميَّة السَّائدة هو من عند الله

عَزَّوَجَلَّ، ولكن أن يصل الأمر إلى تسميته إعجازًا أظنُّ أنَّ ذلك يحمل كثيرًا من المجازفة، وقد يكون التَّعبير الأمثل عن ذلك أنَّه من (دلائل النُّبوَّة).

قال: أمَّا أن يسمَّى إعجازًا علميًّا بمعنى استمرار الإعجاز وخلوده فتلك قضيَّة غير دقيقة، وإن كان معجزًا في وقته، وأنَّ محلَّ القرآن الكريم هو الإنسان ابتداءً، والارقاء به، ومجال الإنسان هو العلم والكشف والاختراع لأداء الاستخلاف الإنساني، وعمارة الأرض بالعلم.

وهو تحقيقٌ لا يُستَغْنى عنه، قد أَهْمَلَه كثيرٌ من البَاحثين..

ثمَّ بدأ يؤسِّسُ لما ذكره، حيثُ قال:

مَا هو الإِعجاز؟ الإعجازُ أن يعجز الإنسان عن الإتيان بمثل هذا، هم عجزوا عن الإتيان بآياتٍ تدانيه. الخلود يعني عجز البشر عن الوصول إلى ما وصل إليه القرآن الكريم من الحقائقِ والقوانينِ العِلميَّة، وما إلى ذلك.

وإذا سلَّمنا بأنَّ هناك شيئًا من الإِعجازِ العلمي لكنَّ العِلْمَ الآن قد وَصَلَ إلى مَا وَصَلَ إليه، أثبت ما وصل إليه، وأصبح ما أثبت القرآن غير معجز لعالم اليوم.

لقد استطاع العلم كشف آفاق تجاوزت ما ورد من إشارات علميَّة في القرآن الكريم؛ لأنَّ ما جاء به القرآن الكريم كان معجزًا في عصر معيَّن، ولا يمكن أن نحكم بإعجازه إلَّا من خلال ذلك العصر.

أمَّا اليوم فقد تجاوز العلم تلك الآفاق ممَّا يدفعنا إلى القول بأنَّ هذه الآيات ليست معجزة لعالم اليوم، وأنَّه كانت معجزة لعالم الأمس. والقرآن الكريم معجزة لها صفة الخلود، فلماذا لا نقول: إنَّ هذا من دلائل القرآن الكريم؟

وقد يكون من المفيد التَّفريق بين (دلائل النُّبوَّة)، و(الإعجاز).. الإعجاز هو الأمر الَّذي لا يستطيع النَّاس الإتيان بمثله، فهو أمرٌ خارقٌ للعادة يعجز النَّاس عن الإتيان بمثله في كلِّ العصور.

ثمَّ قال: إنَّه دليل صدق الرَّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونبوَّته، ودليل مصداقيَّة القرآن الكريم، أمَّا تسميته: (إعجازًا) فهذا ما أتوقَّف عنده؛ لأنِّي أرى ذلك يتعارض مع خلود المعجزة[1].

أقول: وسواء قلنا إنَّه معجزةٌ لعَالَمِ اليوم، أو قلنا: إنه من دلائل النبوَّة فإنَّما هو اختلافٌ في التَّسميةِ والاصطلاحِ مع الاتِّفاقِ على كونِهِ بُرْهَانًا وحُجَّة من حيثُ خَرْقُهُ للعَادَةِ والمألُوف بكشفُ ما لا يمكن كشفه إلَّا باستخدام وسائل الكشف من غير استخدامها؛ إذ لم تكن متوفِّرة، ولم تكن المكتشفات قريبة من العهد الَّذي نزلت فيه نجوم القرآن.

وهنا أعرض قولًا لأستاذنا العلَّامة إبراهيم خليفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حيث يقول: إنَّ الإعجاز العلمي ليس في إيراد الظَّاهرة، بل في طريقة حصولها لو كان. وإنَّ الآيات

---

(١) انظر: كيف نتعامل مع القرآن، للشَّيخ محمَّد الغزالي (ص:١٣٨-١٤٠).

المشيرة إلى الإعجاز من المكتشفات من آيات الإخبار الإشاري إلى ما كان غيبًا وتحقَّق، فتبقى داخلة في أحد وجوه الإعجاز (١).

وقال أستاذنا العلامة عبد الغفور محمود مصطفى جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هو التفسيرات التي تكشف في بعض الآيات معاني وإشارات لم تكن معروفة من قبل، ولا كان في الإمكان معرفتها؛ لأنها نتيجة ما تم من كشف علمي وتقدم فيما يسمى بالعلوم الحديثة، وصارت هذه المعاني والإشارات العلمية القرآنية وجهًا من وجوه إعجاز القرآن الكريم" (٢).

وقد يقال: يصلح ذلك باعتبار المخاطَبين المشافهين بالخطاب وقت النُّزول على سبيل الحقيقة، وعلى غيرهم ممَّن قد انكشف لهم ذلك وتبيَّن فيصحُّ لا على سبيل الحقيقة، وإنَّما على سبيل المجاز.

ومما يُرجِّح ما قاله الشيخ الغزاليُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أمران:

الأوَّل: تعجيز المخاطَبين -والحالة هذه- ليس مقصودًا من ظاهر الخطاب.

كما أنَّ (التَّفسير العلميُّ) أعمُّ من الإعجاز من وجه، ولأنَّ المقصود أسمى من ذلك، فإنَّ مفهوم الآيات ذات الصِّلة بالظَّواهر العلميَّة تعطي مفاهيمَ متعدِّدة

---

(١) نقل قوله أستاذنا الدُّكتور عبد الغفور محمود مصطفى جعفر في (المؤتمر العالمي لبديع الزَّمان النَّورسي، تجديد الفكر الإسلامي في القرن العشرين) (ص:٣٥٨).

(٢) التفسير والمفسرون في ثوبه الجديد (ص:٧٨١).

تتناسبُ مع ثقافاتِ البشر، حتَّى أنَّ العاميَّ ليفهم المعنى القريب الَّذي يتناسب مع حاله، والمتبحر يدرك أبعادًا أخرى للنَّص. وهذا مسلَّم به.

الثَّاني: القولُ بخلودِ المعجزة.

أقول: فإن أراد أن ذلك المعنى الاصطلاحي لا يجوز عنده العدول عنه إلى معنىً هو أضيق دائرة منه كأن يطلق على ما كان مختصًّا بالخطابِ الشِّفاهِيِّ يكون بذلك قد ناقض نفسه، فنستطيع والحالة هذه أن نلزمه بعين ما التزم من كتابه نفسه فضلًا عن كتبه الأخرى، فما جوابه عن إطلاق مسمَّى (الإعجاز) على ما حقَّق أنَّه من (دلائلِ النُّبوَّة) فهو جوابنا، وهو سؤال مشترك الإلزام. فالمنع دونه خَرْط القَتادِ. ولكن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يرد ذلك –أعني: عدم صحة العدول إلى معنى أضيق– كما يدل على ذلك قوله في موضع آخر: إن اعتبرت كون عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ شفى مريضًا فذلك من الإعجاز، وكون هذا المريض يشفى بالعلاج بأدوية الآن؛ فهذا لا يبطل إعجاز عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

ثم تقسيمه المعجزة إلى نوعين: معجزة مستمرَّة، دائمة، وغير مرتبطة بأشخاص الأنبياء.. خالدة مجرَّدة عن حدود الزَّمان والمكان سيبقى النَّاس عاجزين عن الإتيان بمثلها حتَّى يوم القيامة، وهي القرآن، ومعجزة مجسدة مادِّيَّة مرتبطة بأشخاص الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ وجدت بوجودهم وانتهت بوفاتهم [١]. فلا شك أنه يعني الأولى فيما سبق من كلامه.

---

(١) سيأتي تمام قوله.

والحقيقة أن هذه اصطلاحات وإطلاقات صحيحة، فلا مشاحة في الاصطلاح. وإنما يعلم ذلك بتحقيق معنى الإعجاز، وهو يتحقق بشروط ثلاثة:

١ – التَّحدي، أي: (طلب المباراة والمعارضة)[١].

٢ – أن يكونَ الدَّافعُ إلى ردِّ التَّحدي قائمًا.

٣ – أن يكونَ المانعُ منتفيًا. وهذه الشروط الثلاثة قائمة في الشفاهي، فيبقى داخلًا في أحد وجوه الإعجاز العلمي إن اصطبغ بصبغته كما حققنا ذلك من قبل.

كما (الإعجاز) من حيث معناه اللغوي هو نسبة العجز إلى الغير[٢]، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة:٣١]. وهو قائم في المخاطَب –بفتح الطاء المهملة– المشافه بالخطاب.

ولكنَّ الشَّيخ الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وإن كان منه هذا التَّحقيقُ لمعنى الإعجاز، إلَّا أنَّه قد يتوسَّع في معنى الإعجاز –كما ذكرتُ– تجوُّزًا، فيطلق مسمَّى (الإعجاز) على ما حقَّق أنَّه من (دلائلِ النُّبوَّة).

ولا يرى أنَّ في ذلك من الحرج أو التَّعارض بعد أن حقَّق المعنى المقصود فقد أطلق في كتابه نفسه مسمى: (الإعجاز) على ما حقق أنه من (دلائل النبوة) حيث يقولُ في موضع آخر في معرض ردِّه على الشَّاطبيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إنكارِه (التَّفسيرَ

---

(١) انظر: مقاييس اللُّغة، لابن فارس، مادَّة: (حدا) (٢/٣٥)، والعين، مادَّة: (حدو) (٣/٢٧٩).

(٢) انظر: الصحاح، للجوهريّ (٣/٨٨٣).

العلميِّ)، وقولِ الشَّاطِبيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الشَّريعة: إنَّها أميَّة[١]، ونقد العلَّامة محمَّد الطَّاهر بن عاشور للشَّاطبي: "الشَّريعة ليست أميَّة، ولكنَّها إنسانيَّة وراقية جدًّا..يكفيني أنَّ القرآن الكريم قد تكلَّم منذ (خمسة عشر) قرنًا عن أبعاد الكون، وقال عن النُّجوم: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ [الواقعة:٧٥-٧٦]. فالمنزل هنا من غير شكٍّ هو الَّذي تكلَّم هذا الكلام.. الآن، أبعاد الكون، والأرقام الفلكيَّة تُعجز الخيال. إن اعتبرت كون عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ شفى مريضًا فذلك من الإعجاز، وكون هذا المريض يشفى بالعلاج بأدوية الآن؛ فهذا لا يبطل إعجاز عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، هذا صحيح.. لكن نحن نقول بأنَّ المعجزة نوعان: معجزة مستمرَّة، دائمة، وغير مرتبطة بأشخاص الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ.. خالدة مجرَّدة عن حدود الزَّمان والمكان سيبقى النَّاس عاجزين عن الإتيان بمثلها حتَّى يوم القيامة، وهي القرآن، ومعجزة مجسدة مادِّيَّة مرتبطة بأشخاص الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ وجدت بوجودهم وانتهت بوفاتهم"[٢].

سلمنا، ولكن الأمر فيه سعة، ولا يخرج عن كونه تحقيقًا في الاصطلاح، فهو عندما يحقق ذلك لا ينكر ما يتضمَّنه من المعنى الَّذي يقرُّوه الآخرون بتسمية أخرى.

فلا ضير إن قلنا: إنه من ضروب الإعجاز كما هو التحقيق، أو قلنا: إنه من دلائل النبوة على ما حقق الشيخ الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا كان يقصد أنَّ القرآن الكريم كلام الله عَزَّوَجَلَّ الذي لا تنقضي عجائبه.

---

(١) سيأتي تمام قول الشَّاطبي، وتعقيب العلاَّمة محمَّد الطَّاهر بن عاشور عليه.

(٢) كيف نتعامل مع القرآن، للشَّيخ محمَّد الغزالي (ص:١٤٠).

والتحقيق أنه من الإعجاز كما سيأتي مبينًا من تحقيق مسمى الإعجاز، وبيان ما يندرج تحته.

وتسمَّى المعجزة بهذا الاسم؛ لأنَّ البشر يعجزون عن الإتيانِ بمثلها؛ لأنَّها أمرٌ خارقٌ للعادة، خارجٌ عن حدود الأسباب المعروفة، وإعجاز القرآن عمومًا معناه: إثبات عجز البشر متفرِّقين ومجتمعين عن الإتيان بمثله، وليس المقصود من (إعجاز القرآن) هو تعجيز البشر لذات التَّعجيز، أي: تعريفهم بعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن؛ فإنَّ ذلك معلومٌ لدى كلِّ عاقل، وإنَّما الغرض إظهار أنَّ هذا الكتاب حقٌّ، وأنَّ الرَّسول الَّذي جاء به رسول صادق، وإثبات أنَّ ما جاء به الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إنما هو بوحي من الله عَزَّوَجَلَّ، فالمعجزات براهين من الله عَزَّوَجَلَّ إلى عباده بصدق رسله وأنبيائه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ[(١)].

و(التَّفسير العلمي) ليسَ بالضَّرورة أن يكون إعجازًا؛ فإنَّ (التَّفسير العلمي) أعمُّ من الإعجاز من وجه، والإعجاز أعم من وجه آخر فبينهما عموم وخصوص من وجه، فكلُّ إعجاز من الآيات ذات الصِّلة تفسيرٌ علميٌّ إذا كان قد اصطبغ بصيغة الإعجاز العلمي، واندرج تحت مفهومه، وليس كلُّ تفسير علميٍّ إعجازًا.

---

(١) انظر: التِّبيان في علوم القرآن، للصَّابوني (ص:٩٣)، وانظر: البحر المحيط، للزركشي في كلام مطوَّل (٣٥٧/١)، (٩٥/٢-١٠٤).

المبدأ الثَّامن: الاستمداد:

أمَّا استمداده فمن العلومِ الكونيَّةِ كعلومِ الطَّبيعةِ والطِّبِ والفلكِ والجيولوجيا.. الخ، مع ردِّ ما يتَّفق منها مع النُّصوص إلى ضوابط علوم التَّفسير والقرآن.

المبدأ التَّاسع: حكم الشَّارع:

يتفرَّعُ الحكمُ عليه إلى ما يلي:

١ - حُكْمُ الاشتغالِ به، وذلكَ ممَّا يتعلَّقُ بالمفسِّر:

أمَّا حُكْمُ الاشتغال به فهو فرض كفاية؛ لأنَّه مِنْ فروعِ علمِ التَّفسير. هذا من حيث سبر أغواره، ودراسة مسائله، أما النظر والتأمل فهو متعين على المكلَّف فيما يدخل في وسعه، لكن التوسع في جانب من جوانب الإعجاز أو في باب من علوم القرآن أو فرع من فروع علم التفسير كفائي. والحاصل أن حكمه كحكم التفسير في الجملة.

والشَّارع يحثُّ على تدبُّر آياتِ الله عَزَّوَجَلَّ في كَوْنِهِ وفي مخلوقاتِهِ، فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قد وعد بأن يَكْشِفَ للنَّاس عامّةً، وللعلماء خاصّةً حقيقةَ ما في الكون من آياتٍ بيّنةٍ لتكونَ حجَّةً وبرهانًا -كما سبق- وأَمَرَ بالنَّظرِ بما في السَّمواتِ والأرضِ، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس:١٠١].

ومن النَّظرِ والتَّدبُّرِ: التَّأمُّلُ في التَّوافقِ بينَ الحقائقِ العلميَّة الكونيَّةِ وبينَ دلالاتِ الآياتِ القرآنيَّة.

٢ – الحكم على مسائله إجمالًا وعلى ما يَرِدُ من أرباب العلوم الأخرى:

أ. الحكم على مسائله إجمالًا:

أما الحكمُ على مسائِلِهِ إجمالًا فهو كذلك من فروض الكفاية على من يملك أهلية الحكم. كما هو الحال فيمن ردَّ التفسير العلمي جملة، ومن قَبِلَه من العلماء والمحققين بضوابط وشروط كما سيأتي تحقيق ذلك، ولكل وجهة.

ب. الحكم على ما يَرِدُ من أرباب العلوم الأخرى:

أما حُكْمُ النَّظرِ فيما يَرِدُ مِنْ أَرْبَابِ العلومِ الأخرى مِنَ المسائلِ ذاتِ الصِّلة، والحكم على كلِّ مسألة من مسائله على حدة، والحكم أنَّه من التَّفسيرِ العلميِّ. وبيان الراجح الذي ينبغي العمل به من المردود الذي لا يندرج تحت هذا المسمى، والذي هو اقتحام لأسواره من غير فهم أو دراية، فإنه كذلك من فروض الكفاية على من يملك أهلية الحكم.

وحيثُ إنَّ مفرداتِ هذا العلم تتناولُ علومَ الطَّبيعةِ والطِّبِ والفَلَك والجيلوجيا...الخ. وغالب المتخصِّصينَ في هذه العلوم لا دراية لهم بعلمِ التَّفسير؛

لذلك فإنَّ الاشتغال به من فروض الكفاية ممن يملكُ الأهليَّةَ لضبطِ ما يَرِدُ على النُّصوص من المعاني المتصلة بالحقائق الكونية، وبيان الصَّحيح من المردود من حيث التوثيق والضبط والنظر والإحالة على متخصصين.

ولا بدَّ من تنقية التُّراث، والكثير ممَّا اشتهر بين النَّاس، أو دوِّن في الكتب أو الصُّحف أو المواقع الإلكترونيَّة.

المبدأ العاشر: مسائله:

أمَّا مسائله فإنَّه يتناول الآيات القرآنيَّة ذات الصِّلة بالحقائق العلميَّة الكونيَّة وآيات الخلق أو النَّظريَّات ذات الرُّجحان الظَّني.

ولذلك فإنَّ مسائلَ هذا الفنِّ تتجاوزُ العلوم الشَّرعيَّة إلى العلوم الطَّبيعيَّة أو الطِّبيَّة أو آيات الخلق.. الخ. فلا بدَّ من الرُّجوع إلى هذه العلوم للإثبات والتَّوثيق.

وعلى ذلك فإنَّ مسائلة:

أولًا: الآياتُ القُرآنيَّة ذاتُ الصِّلةِ بالحقائقِ العلميَّةِ الكونيَّة.

ثانيًا: الحقائقُ العلميَّة الكونيَّة الَّتي تتَّفقُ مع ما يُفْهَمُ من بعضِ الآياتِ القرآنيَّة.

المطلب الثاني: التفسير العلمي بين الإنكار والإقرار:

المسألة الأولى: الإقرار:

لقد تكلم كثيرون في التفسير العلمي لنصوص القرآن، فمنهم من أفرده بالدراسة، ومنهم تعرض له من خلال تفسيره للآيات ذات الصلة، ولكن بقيت بعض المسائل تحتاج إلى مزيد من النظر والتحقيق كما سيأتي.

أولًا: بيان ما أورده الباحثُ الأديب عبَّاس العقاد رَحِمَهُ اللَّهُ:

١ - رأي الأستاذ عباس العقاد رَحِمَهُ اللَّهُ:

ونعني ما ذكره الباحث الأديب عبَّاس العقاد رَحِمَهُ اللَّهُ من عدمِ الحَرَجِ من الفروض والتَّقديرات على قائلٍ يقول بها، وعليه عهدتها [١] بمعنى أنَّ التَّبعة على من نسب إليه.

٢ - التَّعقيب على ما أورده الباحثُ الأديب عبَّاس العقاد رَحِمَهُ اللَّهُ:

يوافق رأيه ما حققناه من تعريف التفسير العلمي من حيث إن هذه النَّظريَّات إن ذكرت لا ينبغي أن تذكر على أنَّها التَّفسير الَّذي لا يدلُّ النَّصُّ على سواه، بَلْ

---

(١) انظر ما ذكره في كتابه: (التَّفكير فريضة إسلاميَّة) (ص:٦٤).

تُذْكَرُ لتوسيعِ المدلول، أو على أنَّها احتمالٌ من الاحتمالاتِ الَّتي يَدُلُّ عليها اللَّفظُ، والَّتي لا يؤثِّرُ بطلانُها -فيما بعد إنْ لم تثبت- على قَدَاسةِ النَّص.

ويُفْهَمُ ممَّا سبق أنَّ القائلَ إمَّا أن يعتمدها كتفسير، وهو أمرٌ غير مقبول؛ إذ لا يجوز التَّفسير إلَّا بالحقائقِ الثَّابتة، وإمَّا أن يبيِّن أنَّها فروضٌ وتقديراتٌ احتماليَّةٌ قَدْ تَصْدُقُ على مفهومِ النَّصِّ، وذلك خيرٌ له من اقتحام أسوار التَّفسير على غير يقينٍ وبيِّنة.

لكنَّ قَوْلَه: (وعليه عهدتها) لا يستقيم؛ لأنَّ العِلْم ليسَ حكرًا على أحدٍ، ولا عهدة شيءٍ منه يستقلُّ بها فلانٌ، ولكن له أن يقول: -المعنى الَّذي يترجَّحُ عندي- ونحو ذلك.

ثانيًا: دعوى أنَّ القرآنَ الكريم قَدْ جَمَعَ علومَ الأوَّلين والآخرين:

إنَّ هناك من ادَّعى أنَّ القرآن الكريم قد جمع علوم الأوَّلين والآخرين، وحيث إنه كذلك فقد تضمن في إشارات علمية تفهم من النصوص ذات الصلة.

ومن هؤلاء: محمَّدُ بن أبي الفضل المرسي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]. وقد نقل ذلك الإمامُ الغزاليُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في (الإحياء)، وفي (جواهر القرآن)، والزَّركشيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في (البرهان)،

(١) انظر (أضواء البيان) (٢/٤٢٩)، روح المعاني (٣/٣٥٧)، (٤/١٣٧)، (٧/٤٥٣)، الإتقان في علوم القرآن (٤/٣٠)، التَّفسير والمفسِّرون (٢/٣٥٢). والمرسي هو محمَّد بن عبد الله بن محمَّد بن أبي الفضل السلمي المرسي، أبو عبد الله، شرف الدِّين: عالم بالأدب والتَّفسير والحديث. ضرير. =

والجلالُ السُّيوطيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (معترك الأقران)، و(الإتقان)، و(الحاوي)، و(الإكليل)، والألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (روح المعاني) (١).

وحاصل هذه الدَّعوى أنَّ القرآن الكريم قد اشتمل على كلِّ شيءٍ، أمَّا أنواع العلوم فليس منها بابٌ ولا مسألةٌ هي أصلٌ إلَّا وفي القرآن ما يدلُّ عليها، وفيه عجائب المخلوقات، وملكوت السَّموات والأرض وما في الأفق الأعلى، وتحت الثَّرى، وبدء الخلق، وأسماء مشاهير الرُّسل والملائكة وعيون أخبار الأمم السَّالفة.... الخ.

وما يعنينا هنا أمران:

= أصله من (مرسية)، ومولده بها. تنقَّل في (الأندلس)، وزار (خراسان) و(بغداد)، وأقام مدَّة في (حلب) و(دمشق)، وحجَّ وعاد إلى (دمشق). وسكن (المدينة)، ثمَّ انتقل إلى (مصر) سنة [٦٢٤]، وتوفِّي متوجِّهًا إلى (دمشق) بين (العريش) و(الزَّعقة). من كتبه: (التَّفسير الكبير) يزيد على عشرين جزءا، سمَّاه: (ري الظمآن)، و(التَّفسير الأوسط) عشرة أجزاء، و(التَّفسير الصَّغير) ثلاثة، و(الكافي في النَّحو، و(الإملاء على المفصَّل) انتقد فيه نحو سبعين خطأ. الأعلام (٢٣٣/٦)، الأنساب، للسَّمعاني (٢٥٨/٥)، وفي (طبقات المفسِّرين) للدَّاودي: "كان مالكيًّا، مولده في ذي الحجة سنة (تسع وستين وخمسمائة)، مات متوجِّها إلى (دمشق) بين (العريش)، و(غزة)؛ يوم الاثنين (خامس عشر) ربيع الأوَّل، سنة (خمس وخمسين وستمائة) [٦٥٥هـ]. طبقات المفسِّرين، للدَّاودي (١٦٨/٢-١٧٢)، طبقات المفسِّرين، لأحمد الأدنه وي (٢٣٩/١).

(١) انظر: إحياء علوم الدِّين (٣٤١/١)، جواهر القرآن (٤٧/١). البرهان في علوم القرآن (١٨١/٢-١٨٢)، معترك الأقران (١٥/١) فما بعد، الإتقان (١٢٥/٤)، الحاوي (١٥٢/٢)، الإكليل (١٣/١)، روح المعاني (٣٥٧/٣)، (١٣٧/٤).

الأوَّل: أن هناك من استدل بهذه الدعوى -أعني أنَّ القرآنَ الكريم قَدْ جَمَعَ علومَ الأوَّلين والآخرين- على قبول التفسير العلمي من حيث إنَّ القرآن الكريم قد اشتمل على كلِّ شيءٍ من أنواع العلوم فقد تضمن إشارات علمية تفهم من النصوص ذات الصلة.

الثاني: أنَّ هناكَ من اعتمد على دعوى أنَّ القرآن الكريم قد جمع علوم الأوَّلين والآخرين في رفض التَّفسير العلميِّ؛ لرفضه هذه الدَّعوى فحسب. وسيأتي بيان ذلك في تحقيق دعوى عدم الجواز.

المسألة الثانية: الإنكار:

أولًا: إنكارُ الشَّاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ للتَّفسيرِ العلميّ:

١ - علة الإنكار: يعلل الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ رفضه للتفسير العلمي بأن الشَّريعةُ المباركةُ أميَّة (١)؛ ....

---

(١) أي: لا تحتاج في فهمها وتعرف أوامرها ونواهيها إلى التَّغلغل في العلوم الكونيَّة والرياضيَّات وما إلى ذلك. وأمَّا قول النَّبيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لاَ نَكْتُبُ وَلاَ نَحْسُبُ الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا». يعني: مرَّةً تسعةً وعشرين، ومرَّةً ثلاثين. [متفق عليه]، فبيانه على النَّحو التَّالي: عندما يقول الرَّسول صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ..» فهو يصفُ واقعًا، ولا يشرع لتأييد الجهل بالكتابة والحساب؛ لأنَّ القرآن الكريم قد بدأ بفريضة القراءة، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق:١-٥]؛ ولأنَّ الرَّسول صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذي وصف واقع الأمَّة في ذلك الوقت، وهو الَّذي غيَّر هذا =

لأنَّ أهلها كذلك، فهو أجري (١) على اعتبار المصالح (٢).

وقال في (المسألة الرَّابعة من النَّوع الثَّاني) ما تقرَّر من أميَّة الشَّريعة، وأنَّها جارية على مذاهب أهلها، وهم العرب تنبني عليه قواعد، منها: أنَّ كثيرًا من النَّاس تجاوزوا في الدَّعوى على القرآن الحدَّ، فأضافوا إليه كلَّ علمٍ يذكر للمتقدِّمين أو المتأخِّرين

= الواقع، بتحويل البدو الجهلاء الأمِّيين إلى قراء وعلماء وفقهاء، وذلك امتثالًا لأمر ربِّه في القرآن الكريم، الَّذي علَّمنا أنَّ من وظائف جعل الله عَزَّوَجَلَّ القمر منازل أن نتعلَّم عدد السِّنين والحساب، ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس:٥]. فوصف الواقع –كما نقول الآن مثلًا: (نحن مجتمعات متخلفة) –، فلا يعني شرعنة هذا الواقع ولا تأييده، فضلًا عن تأبيده، بأيِّ حال من الأحوال. ويقال أيضًا: إنَّ حُكم الرَّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا الحديث على الأمَّة الإسلاميَّة بالأميَّة تبعًا لنبيّها الأمّي: ﴿ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٧]، فألحق الرَّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأمَّة بنبيّها من حيث إنَّه وصفها بأنها أمَّة أميَّة لا تكتب ولا تحسب، وإن كانت في واقعها في كثير من عصورها ليست أميَّة. وفي (النَّبأ العظيم): "فترى مثلًا في قصَّة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في القران أنَّه لبث في قومه ألفَ سنةٍ إلَّا خمسين عامًا. وفي (سفر التَّكوين) من التَّوراة أنَّه عاش تسعمائة وخمسين سنة. وترى في قصَّة أصحاب الكهف عند أهل الكتاب أنَّهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة شمسيَّة، وفي القران أنهم لبثوا في كهفهم ﴿ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ۝٢٥﴾ [الكهف:٢٥]، وهذه السنون التِّسع هي فرق ما بين عدد السِّنين الشَّمسيَّة والقمريَّة. قاله الزَّجاج، يعني: بتكميل الكسر. فانظر إلى هذا الحساب الدَّقيق في أمَّة أميَّة لا تكتب ولا تحسب" النَّبأ العظيم، أ.د محمَّد عبد الله دراز (ص:٦٦).

(١) أي: فإنَّ تنزيل الشَّريعة على مقتضى حال المنزَّل عليهم أوفق برعاية المصالح الَّتي يقصدها الشَّارع الحكيم.

(٢) الموافقات (٢/١٠٩).

من علوم الطِّبيعيات والتَّعاليم والمنطق وعلم الحروف وأشباهها، وهذا إذا عرضناه على ما تقدَّم لم يصحَّ، فإنَّ السَّلف الصَّالح كانوا أعلم بالقرآن وبعلومه وما أودع فيه، ولم يبلغنا أنَّ أحدًا منهم تكلَّم في شيءٍ من هذا، سوى ما ثبت فيه من أحكامِ التَّكاليف وأحكام الآخرة. نعم تضمَّن علومًا من جنس علوم العرب، وما هو على معهودها ممَّا يتعجَّب منه أولو الألباب، ولا تبلغه إدراكات العقول الرَّاجحة.. الخ[١].

٢ – ردُّ العلَّامة محمَّد الطَّاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ على الإمامِ الشَّاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد كفانا مؤونة التَّعقيب على الإمامِ الشَّاطبيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الإمامُ العلَّامة محمَّد الطَّاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال: "وهذا مبنيٌّ على ما أسَّسه من كون القرآن لما كان خطابًا للأميّين، وهم العرب فإنما يعتمد في مسلك فهمه وإفهامه على مقدرتهم وطاقتهم، وأنَّ الشَّريعة أميَّة. وهو أساسٌ واهٍ لوجوه ستَّة:

الأوَّل: أنَّ ما بناه عليه يقتضي أنَّ القرآن لم يقصد منه انتقالُ العربِ من حالٍ إلى حال، وهذا باطل لما قدَّمناه، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ﴾ [هود:٤٩].

(١) الموافقات (١٢٧/٢)، التَّحرير والتَّنوير (٤٤/١).

الثَّاني: أن مقاصد القرآن راجعةٌ إلى عموم الدَّعوة، وهو معجزةٌ باقية، فلا بدَّ أن يكون فيه ما يصلح؛ لأن تتناوله أفهام من يأتي من النَّاس في عصور انتشار العلوم في الأمَّة.

الثَّالث: أنَّ السَّلف قالوا: إنَّ القرآن لا تنقضي عجائبُه، يعنون معانيه، ولو كان كما قال الشَّاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لانقضت عجائبُه بانحصار أنواع معانيه.

الرَّابع: أنَّ من تمام إعجازه أن يتضمَّن من المعاني مع إيجاز لفظه ما لم تف به الأسفارُ المتكاثرة.

الخامس: أنَّ مقدار أفهام المخاطَبين به ابتداء لا يقضي إلَّا أن يكون المعنى الأصليُّ مفهوما لديهم، فأمَّا ما زاد على المعاني الأساسيَّة فقد يتهيَّأ لفهمه أقوام، وتحجب عنه أقوام، وربَّ حاملِ فقهٍ إلى من هو أفقهُ منه.

السَّادس: أنَّ عدم تكلُّم السَّلف عليها إن كان فيما ليس راجعًا إلى مقاصده فنحن نساعد عليه، وإن كان فيما يرجع إليها فلا نسلِّم وقوفهم فيها عند ظواهر الآيات، بل قد بيَّنوا وفصَّلوا وفرَّعوا في علوم عنوا بها، ولا يمنعنا ذلك أن نقتفي على آثارهم في علوم أخرى راجعة لخدمة المقاصد القرآنيَّة، أو لبيان سعة العلوم الإسلاميَّة، أمَّا ما وراء ذلك، فإن كان ذكره لإيضاح المعنى فذلك تابعٌ للتَّفسير أيضًا؛ لأنَّ العلوم العقليَّة إنما تبحث عن أحوال الأشياء على ما هي عليه، وإن كان فيما زاد على ذلك فذلك ليس من التَّفسير لكنَّه تكملة للمباحث العلميَّة، واستطراد في العلم لمناسبة التَّفسير ليكون متعاطي التَّفسير أوسع قريحة في العلوم.

وذهب ابنُ العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (العواصم) (١) إلى إنكار التَّوفيق بين العلوم الفلسفيَّة والمعاني القرآنيَّة، ولم يتكلَّم على غير هاته العلوم، وذلك على عادته في تحقير الفلسفة لأجل ما خولطت به من الضَّلالات الاعتقاديَّة، وهو مفرطٌ في ذلك مستخفٌّ بالحكماء.

وأنا أقول: إنَّ علاقة العلوم بالقرآن على أربع مراتب:

الأولى: علوم تضمَّنها القرآن كأخبار الأنبياء والأمم، وتهذيب الأخلاق والفقه والتَّشريع والاعتقاد والأصول والعربيَّة والبلاغة.

الثَّانية: علوم تزيد المفسِّر علمًا كالحكمة والهيأة وخواصِّ المخلوقات.

الثَّالثة: علوم أشار إليها أو جاءت مؤيدة له، كعلم طبقات الأرض والطِّب والمنطق.

الرَّابعة: علوم لا علاقة لها به، إما لبطلانها كالزَّجر والعيافة والميثولوجيا، وإمَّا لأنها لا تعين على خدمته كعلم العروض والقوافي" (٢).

---

(١) انظر: العواصم من القواصم (١/٢٦٥-٢٦٦).

(٢) التَّحرير والتَّنوير (١/٤٤-٤٥).

ثانيًا: إنكار الأستاذ الدُّكتور محمَّد حسين الذَّهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بنى الشيخ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنكاره على أمور هي: (التعريف الذي ذكره وما يترتب عليه، وعلى ما أورده من الاعتراض من النَّاحية اللُّغويَّة، والبلاغيَّة، والاعتقاديَّة)، وأتناول هنا ما أورده بالعرض والتحليل.

١ – تعريف التَّفسير العلميِّ عند الشَّيخ الذَّهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **والتَّعقيب عليه:**

أ. تعريف الدكتور الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال الشَّيخ الذَّهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (التَّفسيرِ والمفسِّرون): هو "التَّفسير الَّذي يُحَكِّم الاصطلاحات العلميَّة في عبارات القرآن، ويجتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفيَّة منها.. اهـ" (١).

ب. التَّعقيب على ما أورده من التَّعريف:

أقول: هذا التَّعريف مختلٌّ في آداب البحث، فإنَّهم يشترطون في التَّعريف أن يكون جامعًا مانعًا –كما سيأتي- فمن أين له أنَّ كلَّ مَنْ يقولُ بالتَّفسيرِ العلميِّ يحكِّم الاصطلاحاتِ العلميَّة في النُّصوص القرآنيَّة؟

فلستُ أوافقه فيما ذَهَبَ إليه من الاعتراض بالقول بتحكيمِ الاصطلاحاتِ العلميَّة في القرآنِ الكريم، وجعل ذلك من مفردات التعريف الذي قد اصطلح هو

---

(١) التَّفسير المفسِّرون (٢/٣٤٩).

عليه لا يسلَّم له، ولا يَسْلَمُ من النقض. وتلك الاصطلاحات المتَّصلة بالحقائقِ العلميَّةِ شاهدةٌ على ما كان غير معلومٍ ثمَّ تبيَّن. وأيضًا فيه (التَّعريفُ بعينِ المعرَّف)، وذلك مختلٌّ في آدابِ البحث.

قال الشَّيخ الذَّهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أمَّا أنا فاعتقادي أنَّ الحقَّ مع الشَّاطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأنَّ الأدلَّةَ الَّتي ساقها لتصحيحِ مُدَّعاه أدلَّة قويَّة، لا يعتريها الضَّعف، ولا يتطرَّقُ إليها الخَلَل؛ ولأنَّ ما أجاب به على أدلَّةِ مخالفيه أَجْوِبةٌ سديدةٌ دامغةٌ لا تثبت أمامها حججهم، ولا يبقى معها مُدَّعاهم. وهناك أُمورٌ أُخرى يتقوَّى بها اعتقادنا أنَّ الحق في جانب الشَّاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومَن لَفَّ لفه، فمن ذلك ما يأتي:

٢ – ما أورده من الاعتراض من النَّاحية اللُّغويَّة:

"وذلك أنَّ الألفاظ اللُّغويَّة لم تقف عند معنىً واحد من لدن استعمالها إلى اليوم، بل تدرَّجت حياة الألفاظ وتدرَّجت دلالاتها، فكان لكثير من الألفاظ دلالات مختلفة، ونحن وإن كنَّا لا نعرف شيئًا عن تحديد هذا التَّدرج وتاريخ ظهور المعاني المختلفة للكلمة الواحدة، نستطيع أن نقطع بأنَّ بعض المعاني للكلمة الواحدة حادثٌ باصطلاح أرباب العلوم والفنون، فهناك معان لُغويَّة، وهناك معانٍ شرعيَّة، وهناك معانٍ عُرْفيَّة، وهذه المعاني كلُّها تقوم بلفظ واحد، بعضها عرفته العرب وقت نزول القرآن، وبعضها لا علم للعرب به وقت نزول القرآن، نظرا لحدوثه وطروه على اللَّفظ، فهل يعقل بعد ذلك أنَّ نتوسَّع هذا التَّوسع العجيب في فهم ألفاظ القرآن، وجعلها

تدلُّ على معانٍ جدَّت باصطلاح حادث، ولم تُعرف للعرب الَّذين نزل القرآن عليهم؟ وهل يعقل أنَّ الله تعالى إنما أراد بهذه الألفاظ القرآنيَّة هذه المعاني الَّتي حدثت بعد نزول القرآن بأجيال، في الوقت الَّذي نزلت فيه هذه الألفاظ من عند الله عَزَّوَجَلَّ، وتُليت أول ما تُليت على مَن كان حول النَّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؟ أعتقد أنَّ هذا أمر لا يعقله إلَّا مَن سفه نفسه، وأنكر عقله" (١).

٣ – التَّعقيب على ما أورده من النَّاحية اللُّغويَّة:

ليسَ هُنَاكَ مِنْ مانعٍ من حمل الألفاظ على معانٍ جدَّت باصطلاحاتٍ حادثة لم يعرفها العربُ الَّذين نَزَلَ عليهم القرآنُ الكريم ما دَامَ النَّصُّ يحتملُ، بل لعلَّ ذلك ممَّا يدلُّ على أنَّ القرآن الكريم موجَّه إلى كلِّ زمانٍ ومكان، وما دَامَ فيه الكثيرُ من الحقائقِ الكونية الَّتي تمَّ اكتشافُها فيما بعد.

والكثيرُ من النَّظريَّاتِ مع التَّقدُّم العلميِّ لا تَبْقَى كَذَلك، فإمَّا أن يؤولَ أمرُها إلى القَبُول أو إلى الرَّفض.

والقرآنُ الكريمُ لم ينحصر فهمُ دلالاتِ ألفاظه في الزَّمن الَّذي نَزَلَ فيه.

---

(١) التَّفسير المفسِّرون (٢/٣٥٩-٣٦٠).

٤ – ما أورده من الاعتراض من النَّاحية البلاغيَّة:

أ. رأي الدكتور الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عُرِّفت البلاغة بأنَّها مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ومعلومٌ أنَّ القرآن في أعلى درجات البلاغة، فإذا نحن ذهبنا مذهب أربابِ التَّفسير العلميِّ، وقلنا بأن القرآن متضمِّنٌ لكلِّ العلوم، وألفاظه متحملة لهذه المعاني المستحدثة، لأوقعنا أنفسنا في ورطةٍ لا خلاص لنا منها إلَّا بما يخدش بلاغة القرآن، أو يذهب بفطانة العرب؛ وذلك لأنَّ مَن خوطبوا بالقرآن في وقت نزوله إن كانوا يجهلون هذه المعاني وكان الله عَزَّوَجَلَّ يريدها من خطابه إياهم لزم على ذلك أن يكون القرآن غير بليغ؛ لأنَّه لم يراع حال المخاطَب، وهذا سلبٌ لأهمِّ خصائص القرآن الكريم. وإن كانوا يعرفون هذه المعاني فلِمَ لَمْ تظهر نهضة العرب العلميَّة من لدن نزول القرآن الَّذي حوى علوم الأوَّلين والآخرين؟ ولِمَ لَمْ تقم نهضتهم على هذه الآيات الشارحة لمختلف العلوم وسائر الفنون؟ وهذا أيضًا سلب لأهم خصائص العرب ومميزاتهم (١).

ب. التَّعقيب على ما أورده من النَّاحية البلاغيَّة:

يعترض على ما أورده من وجوه:

---

(١) المصدر السابق (٢/٣٦٠).

الأوَّل: مَا نَسَبَه إلى أرْبَابِ التَّفسيرِ العلميّ بأنَّ القرآنَ الكريمَ مُتَضمِّنٌ لكُلِّ العلومِ أعمُّ من المدَّعَى. فَلَيْسَ كلُّ من يقولُ بالتَّفسيرِ العلميّ أو يَنْقلُ في تفسيره ما يتَّفق مع الظَّواهر العلميَّة الكونية يقول: إنَّ القُرْآنَ متضمِّنٌ لكلِّ العلومِ، -وسيأتي بيان ذاك-.

الثَّاني: فَهْمُ معاني القرآن لَيْسَ قاصرًا على من خُوطِب به وَقْتَ النُّزول، كما أنَّ التَّحدِّي به ليس للعربِ وَحْدَهم الَّذين أدركوا إعجازه البلاغي، لكنَّه يشمل النَّاس كافَّة، سواء في ذلك العرب وغيرهم، ومن عاصر التَّنزيل، ومن جاء بَعْدَهُم.

وقبلَ الإسلامِ كانَتْ الشَّرائعُ محليَّةً ومرحليَّةً، فعندما يتطوَّرُ الواقعُ فَتُنسخُ شريعةٌ سَابِقَةً، يأتي رَسُولٌ جديدٌ بشريعةٍ جديدةٍ، لكن أمَا وقد بَلَغَتْ الإنسانيَّةُ سِنَّ الرُّشد، وشاءَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ خَتْمَ رسالاتِ السَّماءِ جاءتْ الشَّريعةُ المحمَّديَّةُ لِتَقِفَ عِنْدَ الثَّوابتِ والأُطر والقواعد والكليَّات، ومرونة النُّصوص تتركُ التَّجديد للفقه الإسلاميِّ، فكم هي الأحكامُ المستجدَّةُ الَّتي لم يَعْرِفْهَا السَّلفُ؟ كذلكَ فإنَّ الإعجازَ ألوانُه مختلفةٌ ومتجدِّدةٌ، وقد قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣].

الثَّالث: قوله: القرآن -والحالة هذه- لم يراع حَالَ المخاطَب -بفتح الطاء المهملة- مردودٌ بأنَّ المخاطَبين الأوائل فهموا قدر طاقتهم ومعطياتهم العلميَّة في ذلك العَصْر، فكان المعنى مَفْهُومًا ليديهم بالقَدْر الَّذي يحتاجونَ إليه.

٥ – ما أورده من الاعتراض من النَّاحية الاعتقاديَّة:

أ. رأي الدكتور الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: "فإذا نحن ذهبنا مذهب مَن يُحمِّل القرآن كلَّ شيء، وجعلناه مصدرًا لجوامع الطِّب، وضوابط الفلك، ونظريَّات الهندسة، وقوانين الكيمياء، وما إلى ذلك من العلوم المختلفة، لكُنا بذلك قد أوقعنا الشَّك في عقائد المسلمين نحو القرآن الكريم؛ وذلك لأنَّ قواعد العلوم وما تقوم عليه من نظريَّات لا قرار لها ولا بقاء، فرُبَّ نظرية علميَّة قال بها عالِمٌ اليوم، ثمَّ رجع عنها بعد زمنٍ قليلٍ أو كثير؛ لأنَّه ظهر له خطؤها...." [١].

ب. التَّعقيب على ما أورده من النَّاحية الاعتقاديَّة:

ما ذَكَرَهُ الشَّيخُ الذَّهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أمرٌ مسلَّمٌ، لكنَّه لا يُعَارضُ قَوْلَ مَنْ يؤيِّد التَّفسيرَ العلمي بشرطِ عدمِ تحميلِ القرآنَ الكريم النَّظريَّاتِ العلميَّة، وذلك أمرٌ واضح. أمَّا التَّفسير بالنَّظريَّاتِ والفُروض فإنِّي أوافق الشَّيْخَ فيما ذَهَبَ إليه، وذلك لأنَّه ينبغي ألَّا نفسِّر كونيَّاتِ القرآنِ الكريمِ إلَّا باليقينِ الثَّابتِ مِنَ العِلْم، لا بالنَّظريَّاتِ والفُرُوض؛

---

(١) المصدر السابق (٢/٣٦٠).

لأنَّ الحقائقَ هي سبيل التَّفسيرِ العلميِّ الحق، أمَّا الحدسيَّات والظَّنيَّات فهي عرضة للتَّصحيح والتَّبديل إن لم تكن للإبطال.

والتَّعريف الَّذي يقول: إنَّ التَّفسير العلمي يكون بالنَّظريَّات والفروض تعريف مختلٌّ في معيار علماءِ المنطقِ وآدابِ البحث؛ فإنَّهم يشترطون في التَّعريفِ أَنْ يكونَ (جَامِعًا مَانِعًا)، أو قُلْ: (مُطَّرِدًا مُنْعَكِسًا).

وإذا نَظَرْنا إلى التَّعريفِ نجدُ أنَّه قد فَقَدَ أَحَدَ هذين الشَّرطين، وهو الانْعِكَاسُ أو الجَمْعُ والَّذي محصِّله: أنَّه كُلَّمَا كَذَبَ -أي: رفع التَّعريف- كَذَبَ -أي: رفع- المعرَّف.

وإذا قُلنا: إنَّ التَّفسيرَ العِلميَّ يكونُ بالحقائقِ الثَّابتة، ولكنَّه يَشْمَلُ النَّظريَّاتِ ذاتِ الرُّجحانِ الظَّني توسُّعًا، فإنَّه -والحالة هذه- أوسعُ دَائِرةً مِنْ أَنْ يكونَ بالفرضيَّاتِ أو النَّظريَّاتِ، وعلى الأوَّل -المسلَّم به- لا يَدْخل شيءٌ من (مَاصَدُقَاتِهِ)[1] في التَّعريفِ.

ولكنَّا نقولُ تحقيقا: يتوسَّع في التَّفسيرِ العِلميِّ بحيثُ يَشْمَلُ المسائلَ ذاتِ الرُّجحانِ الظَّنيِّ. ولكن يلزمُ عِنْدَ مجرَّدِ غَلَبَة الظَّنِّ ألَّا يَقْطَع المفسِّرُ بأنَّ المعنى الَّذي غَلَبَ على ظنِّه هو مرادُ الله عَزَّوَجَلَّ من النَّص، بَلْ يقولُ مَا يُشْعِرُ بِعَدَم الجَزْم، كقولِهِ:

---

(١) (الما صدق) لفظ مركَّب من (ما) و(صدق) الفعل الماضي تركيبًا مزجيًّا، جعل اسمًا للأفراد الَّتي يصدق عليها الكليُّ.

المعنى عِنْدي -والله أعلم- وأشباه ذلك من العباراتِ المشعرةِ بعدمِ القَطْعِ فيما لا قَاطِعَ فيه -كَمَا نبَّهْتُ إلى ذلكَ غَيْرَ مرَّة-

وبناءً على مَا سَبَق فإنَّ التَّعريف -والحالة هذه- غيرُ حَاصِرٍ لأَقْسَامِهِ، فهو أضيقُ دائرةً من أَقْسَامِه.

ويمكنُ أَنْ يُقَال: إنَّ دَلِيلَ الفَسَادِ المزعوم خارجٌ عَنْ نِطَاقِ الدَّعوى؛ لأنَّه يفيدُ الكَلامَ عن النَّظريَّات، وهي لا تُفِيدُ العلم، وإِنْ أَفَادَتْ الظَّنَّ الغَالِب؛ لأنَّ العِلْم هو الإدراكُ المطابقُ للواقع، أو هو اليقينُ على مَا حقَّقنَا لكَ مِنْ بَيَانِ معنى العِلْم في (الاصطلاح)، أو على الرَّاجح ممَّا قِيْلَ فيه في الاصطلاح، أو على اعْتِبَارِ أَحَدِ مَعَانيه.

أمَّا على اعتبارِ معناه اللُّغوي فيمكن التَّأسيسُ لذلك على اعتبار أحد معانيه.

فيبقى المعنى المؤتلف منضبطًا بحمله على ما حقَّقنا من المعنى المراد.

ثالثًا: معارضون آخرون:

وقد عارضه من المعاصرين الشَّيخ محمَّد شلتوت معتمدًا على ما اعتمد عليه مَنْ قَبْلَه من حيثُ إنَّنا لو طبَّقنا القرآن الكريم على هذه المسائل العلميَّة المتقلِّبة لعرضناه للتَّقلب معها، وتحمُّل تبعات الخطأ فيها.. [١].

---

(١) انظر: مقدِّمة تفسير الشَّيخ محمود شلتوت (ص:١١-١٢)، كيف نتعامل مع القرآن، للدُّكتور القرضاوي (٤٣٢).

وقَدْ ذكر الشَّيخ الدُّكتور القرضاوي أنَّه عارضه من المعاصرين الشَّيخ أمين الخولي في كتابه: (التَّفسير، معالم حياته ومنهجه اليوم)، وهو رأي الشَّيخ مصطفى المراغي، والأستاذ الدُّكتور عبد الحليم محمود، والشَّيخ عبد الله المشد، والشَّيخ أبو بكر ذكري أعلنوه في مقدِّمة تفسيرهم الموجز للقرآن، والَّذي كان ينشر في مجلَّة: (نور الإسلام)، لسان الوعظ والإرشاد في الأزهر.

وقال: وقد عارضه أيضًا سيِّد قطب في (الظِّلال) (١) قائلًا: إِنِّي لأَعْجَبُ لِسَذَاجَة الَّذين يحاولونَ أن يضيفوا إلى القرآنِ الكريمِ ما ليس منه، وأن يحملوا إليه ما لم يقصد إليه، وأن يستخرجوا منه جزئيَّاتٍ في علوم الطِّب والكيمياء والفلك... الخ. ثمَّ قال: إنَّ الحقائق القرآنيَّة حقائق نهائيَّة قاطعة مطلقة، أمَّا ما يصل إليه البحثُ الإنسانيُّ أيًّا كانَتْ الأدواتُ المتاحةُ فهي حقائقُ غير نهائيَّة (٢).

فرع.. في التَّعقيب على ما أورده الدكتور يوسف القرضاوي:

يفهم من كلام الدُّكتور القرضاوي أنَّ سيِّد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرفض التَّفسير العلمي رفضًا كليًّا، ولكنَّ تمام كلامه من الموضع ذاته الَّذي نقل عنه الدُّكتور القرضاوي (٣) فضلًا عن المواضع الأخرى الكثيرة يفيد أنَّ سيِّد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ يحرص على الاستفادة

(١) في ظلال القرآن (١/١٨١).

(٢) بقليل من التَّصرُّف عن (كيف نتعامل مع القرآن)، للدُّكتور القرضاوي (٤٣٢).

(٣) انظر: الظِّلال ج (٢) (١/١٨١–١٨٤).

من العلوم التَّجريبيَّة، حيث يأتي في (الظِّلال) على ذِكْرِ هذه العلوم لتوسيع مدلولِ النَّص، دونَ أن يجريَ وراءَ النَّظريَّات لإثبات مصداقيَّته، فلا مانع عنده من تتبُّع ما كشفه العلم من دقَّة وتناسق في هذا الكون، ومحاولة الرَّبط بين مدلولِ النَّصِّ والظَّاهرةِ العلميَّة. وهو منهج اصطلاحي متوازن. ولا سيما وقد حكمنا أن التفسير العلمي ليس بالضرورة أن يكون إعجازًا، أو مقصدًا أوليًّا للنص، ولو أنَّه رَفَضَ التَّفسيرَ العلميَّ رَفْضًا مطلقًا لنَاقضَ نَفْسَه؛ فإنَّ (الظِّلال) حَافِلٌ بِذِكْرِ هذه العلوم، حيثُ تُذْكَرُ في ظِلال النَّصِّ توسيعًا لمدلوله. وإنْ كنتُ أَخْتَلِفُ مَعَه في قَوْلِهِ: إنَّ مَا يَصِلُ إليه البحثُ الإنسانيُّ أيًّا كانَتْ الأدواتُ المتاحةُ فهي حقائق غير نهائيَّة. فقد يصلُ البحثُ العلميُّ إلى حقائقَ قاطعة ونهائيَّة، وقد بيَّنتُ ذلك في غير موضع فأغنى عن التَّفصيل هنا. وقريبٌ من قول سيِّد قطب ما ذكره الباحثُ الأديب عبَّاس العقَّاد رَحِمَهُ ٱللَّهُ –وسيأتي بيان قوله والتَّعلق عليه–.

المسألة الثالثة: التحقيقات:

أولًا: تحقيق دعوى الجواز:

وقد تقدم بيان ذلك في (التحقيق في تعريف الحد المؤتلف من الجزأين)، وفي مسألة (الإقرار)، والتعقيب على (الإنكار).

ثانيًا: تحقيق دعوى عدم الجواز:

ونستنتج ممَّا سبق أنَّ دعوى من قال بعدم جواز (التَّفسير العلمي) تتفرَّع إلى شقَّين، على النَّحو التَّالي:

الدَّعوى الأولى:

أنَّ التَّفسير العلمي يكون بالنَّظريَّات	وكلُّ النَّظريَّات غير ثابتة
مقدِّمة صغرى	**مقدِّمة كبرى**
النتيجة	
التَّفسير العلمي متبدِّل وغير ثابت	

وبناء على ذلك يقال:

التَّفسير العلمي متبدِّل وغير ثابت	وكلُّ ما كان غير ثابت لا يصلح تفسيرًا لما هو ثابت
النتيجة	
التَّفسير العلمي لا يصلح تفسيرًا	

الدَّعوى الثَّانية:

يلزم من التَّفسير العلمي القول باشتمال القرآن على كلِّ العلوم	اشتماله على كلِّ العلوم لم يصحَّ
النتيجة	
التَّفسير العلمي لا يصحُّ	

وكلاهما مختلٌّ في آداب البحث والمناظرة.

فقد سبق بيان أنَّ التَّعريف الأوَّل بناءً على الدَّعوى الأولى قد فَقَدَ شرط الانعكاس أو الجمع. وهو غيرُ حاصرٍ لأقسامه، ودليلُ الفَسَادِ فيه خارجٌ عن نِطَاقِ الدَّعوى -كما سبق-.

أمَّا التَّعريفُ الثَّاني بناءً على الدَّعوى الثَّانية فإنَّ أصل الادِّعاء فيه غير مسلَّم؛ لعدم الدَّليل.

وفي تتبُّعِ ذلك بالنِّسبة لعلومٍ عدِّة تكلُّفٌ وتعسُّفٌ.

والقاعدةُ المنطقيَّةُ والعقليَّةُ تفيدُ أنَّ بين الملزومِ واللَّازمِ تَنَاسُبٌ عكسيٌّ بالنِّسبةِ للوجودِ والعدم (١).

وهنا لا يوجدُ تَنَاسُبٌ بين اللَّازمِ والملزومِ، فلا يلزمُ من وجودِ الملزومِ هنا وجودُ اللَّازم، ولا يلزمُ من عدمِ اللَّازمِ عدمُ الملزومِ، وذلك على التَّسليم جَدَلًا بصحَّةِ الملزوم.

المطلب الثالث: ضوابط التفسير العلمي فيما يخصُّ الظَّاهِرَة العلميَّة الكونيَّة والمفسِّرَ والنَّص:

توطئة:

إن الآيات الكونية في القرآن الكريم تحثُّ على التفكر في ملكوت الله عَزَّوَجَلَّ، ومعاني القرآن عمومًا مصوغة بحيث يصلح أن يخاطب بها الناس كلهم على اختلاف مداركهم وثقافتهم، وعلى تباعد أزمنتهم وبلدانهم، ومع تطور علومهم واكتشافاتهم. والمتأمل في نصوص القرآن يدرك أن أسلوب الخطاب يتضمن سطحًا قريبًا، وعمقًا

---

(١) وتصوير المسألة: أن نقول مثلًا: الشَّمس ملزوم، والضُّوء لازم، فكلَّما وجدت الشَّمس وجد الضُّوء، فيلزم من وجود الملزوم وجود اللَّازم، وليس كلَّما انعدمت الشَّمس انعدم الضَّوء. كأن يأتي الضُّوء من القمر مثلًا أو الكهرباء، فلا يلزم من عدم الملزوم عدم اللَّازم. والعكس بالنِّسبة للازم. نقول: يلزم من عدم اللَّازم عدم الملزوم، فيلزم من عدم الضُّوء عدم الشَّمس، ولا يلزم من وجود اللَّازم وجود الملزوم، فلا يلزم من وجود الضُّوء وجود الشَّمس.

وجذورًا، فالعاميُّ يفهم منه السطح القريب، والمثقف يفهم العمق، والباحث المتخصص يفهم أعماق المعنى وجذوره.

والباحثون في العلوم الكونية إنما تنبهوا لذلك البعد في مفهوم النص؛ فإن المتخصص في علم من العلوم يتنبه لما له صلة بتخصصه، وحيث إن ذلك الباحث في العلوم الكونية قد لا يكون محيطًا بقواعد التأويل وضوابطه كان لزامًا عليه أن يرد ما تبادر إلى ذهنه إلى مفسِّرٍ عالمٍ بالضوابط العامة التي تخص النص، وبما يدرأ التعارض بين النقل والحقائق العلميَّة القطعيَّة.

وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ المنَزَّلَ لقوم يعقلون، وجعل العقل مناط التَّكليف كما هو معروف ومقرَّر، وجعل العلم والنَّظر، والتفكر في الخلق، طريقًا موصلًا إلى الحقائق، ودالًا على الخالق عَزَّوَجَلَّ؛ ولذلك لا يتصوَّرُ وجودُ نصٍّ من مشرّع حكيمٍ يتناقضُ مع المسلَّمات والمبادئ العقليَّة، أو الحقائقِ العلميَّة. ونقول باستحالة وجود تعارض بين الآيات القرآنية، والحقائق العلميَّة، ومن قال بذلك فهو إمَّا جاهل بالآية، أو جاهل بالحقيقة العلميَّة.

أولًا: ما يخصُّ الظَّاهِرَةَ العلميَّةَ الكونيَّة:

١ - التَّعويلُ على الحقائقِ لا الفرضيَّات:

ولا يقال: إنَّ العلم ليس فيه حقائق ثابتة إلى الأبد، فكم من قضايا علميَّة كانت يومًا ما —بل ظلَّت قرونًا وقرونًا– حقائق مقدَّسة، ثمَّ ذهبت قدسيَّتها العلميَّة، وأثبت التَّطور العلمي عكسها.

هذا صحيح ومعروف ولكن حسبنا الثَّبات النِّسبي للحقائق، فهذا هو الَّذي في مقدورنا بوصفنا بشرًا.. وقد قيل في تعريف التَّفسير: هو بيان مراد الله عَزَّوَجَلَّ بقدر الطَّاقة البشريَّة (١).

٢ – أن تكونَ الظَّاهرةُ ممَّا يحتملها النَّصُّ من غير تكلُّفٍ ولا تعسُّفٍ.

٣ – أمَّا (المسائل النَّظريَّة ذات الرُّجحان الظَّني) فإنَّما تُذْكَرُ:

أ. لتوسيعِ المدلول.

ب. تُذْكَرُ على أنَّها فُرُوضٌ واحتمالاتٌ يترجَّحُ ثبوتها.

فإن آلَ أمرُها إلى القبولِ كانَتْ من (التَّفسيرِ العِلميِّ)، وإن آلَ أمرُها إلى الرَّفضِ لم تكن كذلك.

٤ – ألَّا تتنافى مع ما يظهر من معنى النظم الكريم.

٥ – ألَّا يدعى أنها المراد وحده دون الظَّاهر إن كان ثمة معنىً ظاهرًا لا يتناقض معه.

---

(١) بتصرُّف عن (كيف نتعامل مع القرآن) (ص:٣٨٢).

٦ – لا مانعَ من إطلاقِ مسمَّى: (التَّفسيرِ العلميِّ) على (المسائل النَّظريَّة ذات الرُّجحان الظَّني) تجوُّزًا، ووفق منهجٍ واضحِ المعالم، بحيث لا يُؤثِّرُ بطلانُهَا على قَدَاسَةِ النَّص –كما سبق بيان ذلك–.

٧ – أن لا يكونَ ثمَّةَ تعارضٌ بين ظَاهِرةٍ ذاتِ رجحانٍ ظنِّيٍّ عند البعضِ، وأخرى تترجَّحُ عليها عند آخرين.

ثانيًا: ما يخصُّ المفسِّر:

١ – إنَّ أوَّلَ ما يشترطُ في (المفسِّر) أن يكونَ صحيحَ الاعتقاد سائرًا على مَنْهَجِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعة، غيرَ مبتدعٍ في دين الله عَزَّوَجَلَّ.

قال الإمام أبو طالب الطَّبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أوائل تفسيره القول في (آداب المفسِّر): "اعلم أنَّ من شرطه صحَّة الاعتقاد أوَّلًا، ولزوم سنَّة الدِّين، فإن من كان مغموصًا عليه في دينه لا يؤتمن على الدُّنيا، فكيف على الدِّين؟ ثمَّ لا يؤتمن في الدِّين على الإخبار عن عالم، فكيف يؤتمن في الإخبار عن أسرار الله عَزَّوَجَلَّ؟ ولأنَّه لا يؤمَنُ أن يكون متَّهمًا بالإلحاد ويبغي الفتنة، ويغري النَّاس بليِّه وخداعه...وإن كان متَّهمًا بهوىً لم يؤمن أن يحمله هواه، على ما يوافق بدعته" [(١)].

وفي (البرهان): "اعلم أنَّه لا يحصل للنَّاظر فهم معاني الوحي، ولا يظهر له أسراره، وفي قلبه بدعةٌ أو كِبْرٌ أو هوى أو حبُّ الدُّنيا، أو هو على ذنبٍ، أو غير

---

(١) انظر: الإتقان (٤/ ٢٠٠).

متحقِّق بالإيمان، أو ضعيف التَّحقيق، أو يعتمد على قول مفسِّرٍ ليس عنده علمٌ، أو راجع إلى معقوله، وهذه كلها حجب وموانع بعضها آكد من بعض" (١).

قال السُّيوطيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفي هذا المعنى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦].

قال سفيانُ بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقولُ: أَنْزَعُ عنهم فَهْمَ القرآنِ. أخرجه ابن أبي حاتم" (٢).

وقال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المعنى: سأمنع وأصد" (٣).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي: سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوبَ المتكبرين عن طاعتي، ويتكبرون على الناس بغير حقٍّ، أي: كما استكبروا بغير حقٍّ أذلهم الله بالجهل، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١٠﴾ [الأنعام:١١٠]" (٤).

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/١٨٠-١٨١).

(٢) الإتقان (٤/٢١٦)، وقال في (الدر): "أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشَّيخ: عن سفيان بن عيينة في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦]، يقول: أنزع عنهم فهم القرآن" الدُّر المنثور (٣/٥٦٢)، وانظر: تفسير الطَّبري (١٣/١١٢)، تفسير ابن أبي حاتم (٥/١٥٦٧)، العظمة، لأبي الشَّيخ (١/٣١٥)، تفسير ابن كثير (٣/٤٧٥)، نوادر الأصول (١/١٨٢).

(٣) المحرر الوجيز (٢/ ٤٥٤).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/٤٢٦).

فينبغي لطالب الحق والهداية أن يحترز عن الصفات المذمومة التي تصد عن الحق، أو تعيق الفكر عن سديد النظر، ومن هذه الصفات التكبر والغرور والعجب؛ لأن من شأن المتكبر في غالب أحواله أن يستنكف عن قبول النصح، وعن الاستماع وحضور مجالس العلم؛ ولذلك فإنك ترى المتناظرين في مسائل الدِّين أو السِّياسة يزعمون أنَّهم يتباحثون عن أسرار الدِّين، أو مصالح الأمَّة، ثمَّ إنهم يتجاحدون تجاحد المتكبِّرين، ومهما اتَّضح الحقُّ على لسان واحدٍ منهم أَنِفَ الآخرُ قبولَه، وتشمَّر لجحده، واحتال لدفعه، بما يقدر عليه من التَّلبيس، وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين، إذ وصفهم الله عَزَّوَجَلَّ؛ فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فصّلت:٢٦]. فكلُّ من يناظر للغلبة والإفحام لا ليغتنم الحقَّ إذ ظفر به فقد شاركهم هذا الخلق، وكذلك يحمل ذلك على الأنفة من قبول الوعظ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ﴾ [البقرة:٢٠٦].

والعُجْبُ قد يحمل صاحبه على تعظيم نفسه حتى تستولي عليه الغفلة، ويفرح بما هو عليه، ويستغني بما عنده، وربما يصل إلى (غرور العلم) الصَّارف عن الآيات والحجج، والصادِّ عن الهداية، و(غرور العلم) سببٌ في خلق نزعة الإلحاد والجحود، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [غافر:٨٣].

وهذا النوع من الغرور هو خداع للنفس، وركون إلى ما يوافق الهوى. وإطلاق العلم على اعتقادهم تهكم وجري على حسب معتقدهم، وإلا فهو جهل، وإن كان

قد أصاب علمًا من طرف فهو جاهل بجوانب أخرى، ولو أنه بحث أو ردَّ ما أشكل عليه إلى أولي العلم لذهب عنه ما يجد في نفسه من الشبه، ورجع عن الانحراف، واستقام على الهداية. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [النساء:٨٣]. لكن الغرور منعه من الاستفادة من علم غيره، فبقي في ظلمة الجهل.

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ألا ترى أنَّ الذي يعظم نفسه بالباطل يريد أن ينصر كل ما قاله -ولو كان خطأ-" (١).

٢ - التَّجرُّدُ عن الهوى والحَسَد، فالأهواءُ تدفع أصحابها إلى نصرة مذهبهم، فيغرون النَّاسَ بلينِ الكلامِ ولحنِ البيان.

قال ابن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والحسد شر تلازمه شرور: العجب، والاحتقار، والكبر. وإنما ينشأ الحسد من العجب، وحب الذات، فتسول له نفسه أن غيره ليس أهلًا لنعم الله عَزَّوَجَلَّ، وكفى بهذا معاداة للمنعم" (٢).

وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن الأمم السالفة أنهم قالوا: ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [يس:١٥]، وقالوا: ﴿أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا﴾ [المؤمنون:٤٧]، ﴿وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ٣٤﴾ [المؤمنون:٣٤].

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٩٢/١٠).

(٢) تفسير ابن باديس (٣٧٩/١-٣٨٠).

والحسدَ يعدُّ من (الصوارف الذَّاتية) عن الحقِّ؛ لكونه من أمراض القلوب، ومن الآفات التي تصيب النفس فتؤثِّر في الفكر، وهو من العقبات في طريق الهداية من حيث كونه مشتتًا للأفكار، ومورّثًا للوسواس، ومكدرًا للحواس.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة:١٠٩]. فالمعنى أن حسد الإنسان ذاتي صارف عن الحق، وهو من أمراض النفس، فمودتهم لكفركم من عند أنفسهم، لا أنه عندهم هو الحق. وقد فصلتُ القول في ذلك في كتابي: (عقبات في طريق الهداية)، فجعلت من العقبات التي تصد عن الحق والهداية: عقبة اتباع الهوى، وعقبة العجب والكِبْر، وعقبة الغرور، وعقبة الحسد.. إلى غير ذلك.

٣ - أن يحترز طالب الهداية والحق عن العقبات المضلة عن الحق والهداية، وقد أحصيتها في مصنف مستقل، وتحصل لي منها أربعة وخمسين عقبة.

٤ - أن يبدأ أوَّلًا بتفسيرِ القرآن بالقرآن، فما أُجمل منه في موضع فإنَّه قد يفَصَّل في موضع آخرَ، وما اختصرُ منه في مكانٍ فإنَّه قد يُبسَطَ في مكانٍ آخر.

٥ - أَنْ يُطْلَبَ التَّفسيرُ مِنَ السُّنَّة؛ فإنَّها شَارِحَةٌ للقرآنِ، موضِّحةٌ له. وقد ذكر القرآن أنَّ أحكام رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إنما تصدر منه عن طريق الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النِّساء:١٠٥].

وذَكَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنَّ السُّنَّةَ مبيِّنة للكتاب: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النَّحل:٤٤].

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَه**»[(١)]، يعني: السُّنَّة.

وأمثلة هذا في القرآن كثيرة، كتفسير: (السَّبيل) بالزَّاد والرَّاحلة، وتفسير: (الظلم) بالشِّرك، وتفسير: (الحساب اليسير) بالعرض. وتفسير القوة في ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠] بالرمي. وكتفسير العبادة بالدعاء في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر:٦٠] إلى غير ذلك. وقد جمعها السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مرتبة مع السور في آخر فصل من كتابه من كتابه: (الإتقان في علوم القرآن)[(٢)]، كما عقد في (معترك الأقران) فصلًا في (أحاديث نبويَّة تفسِّرُ آياتٍ قرآنية)[(٣)].

٦ - فإذا لم يجد التَّفسير من السُّنَّة رجع إلى أقوال الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ فإنَّهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال عند نزوله، ولما لهم من الفهم التَّام، والعلم الصَّحيح، والعمل الصَّالح.

(١) أخرجه أحمد [١٧١٧٤]، وأبو داود [٤٦٠٤]، والطبراني [٦٧٠]، والبيهقي في (الكبرى) [١٩٤٦٩].

(٢) الإتقان في علوم القرآن (٤/٢٤٤).

(٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن (٣/٥٠١)، وانظر: البرهان في علوم القرآن (٢/١٥٦-١٥٧)، مناهل العرفان (٢/١٢-١٤).

وقد قال الحاكم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب (معرفة علوم الحديث): "إنَّ الصَّحابيَّ الَّذي شهد الوحي والتَّنزيل، فأخبر عن آية من القرآن أنها نزلت في كذا وكذا فإنه حديث مسند" (١).

وقال صاحب (كشاف القناع) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يلزم الرُّجوع إلى تفسير الصَّحابيِّ؛ لأنّهم شاهدوا التَّنزيل، وحضروا التَّأويل. فتفسيره أمارة ظاهرة. وإذا قال الصَّحابيُّ ما يخالف القياس فهو توقيف. وقال القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢) وغيره من الحنابلة: إن قلنا: إنَّ قول الصَّحابيِّ حجَّة لزم قبول تفسيره، وإلَّا فإنَّ نقل كلام العرب في ذلك صيّر إليه، وإن فسَّره اجتهادًا أو قياسًا على كلام العرب لم يلزم قبول تفسيره"(٣).

---

(١) وانظر: معرفة علوم الحديث، للحاكم النَّيسابوري، (ص:٢٠)، وانظر: المستدرك على الصَّحيحين (٢٨٣/٢)، الإتقان (٢٠٠/٤)، إغاثة اللهفان (٢٤٠/١)، توضيح الأفكار (٢٥٥/١)، تدريب الرَّاوي (١٩٢/١-١٩٣)، توجيه النظر (٣٩٧/١)، وفي (النُّكت): "ما قيل: إنَّ تفسير الصَّحابي مسند إنَّما هو في تفسير يتعلَّق بسبب نزول الآية أو نحو ذلك". وقد ذكر الحافظ أن ابن الصلاح تبع في ذلك الخطيب. أمَّا الحاكم فأطلق النَّقل عن البخاريِّ ومسلم أنَّ تفسير الصَّحابي الَّذي شهد الوحي حديثٌ مسند. قال الحافظ: "والحقُّ أن ضابط ما يفسِّره الصَّحابي إن كان ممَّا لا مجال للاجتهاد فيه، ولا منقولا عن لسان العرب فحكمه الرَّفع وإلَّا فلا. كالإخبار عن الأمور الماضية...وعن الأمور الآتية، والإخبار عن عمل له ثوابٌ مخصوصٌ أو عقاب" النُّكت على كتاب ابن الصلاح (٨٦/١)، و(٤٣٤/١).

(٢) يعني: أبا يعلى.

(٣) كشاف القناع عن متن الإقناع (٤٣٤/١).

٧ - فإذا لم يجد في القرآن ولا في السُّنَّة ولا في أقوال الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فقد رجع كثيرٌ من الأئمَّة إلى أقوال التَّابعين، كمجاهد بن جبر، وسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيب، والرَّبيع بن أنس، وقتادة، والضَّحاك بن مزاحم، وغيرهم من التَّابعين.

ومن التَّابعين من تلقَّى جميع التَّفسير عن الصَّحابة، وربَّما تكلَّموا في بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال، والمعتمد في ذلك كلِّه النَّقل الصَّحيح..

٨ - أن يكون عالما باللُّغة العربيَّة وفروعها؛ فإنَّ القرآن نزل بلسانٍ عربيٍّ، ويتوقَّف فهمه على مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع. قال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: "لا يحلُّ لأحدٍ يؤمنُ بالله واليوم الآخر أن يتكلَّم في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ إذا لم يكن عالما بلغات العرب" (١).

قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: "لا أُوتَى برجل يفسِّر كتاب الله عَزَّوَجَلَّ غيرَ عالمٍ بلغة العرب إلَّا جعلته نكالًا" (٢).

والمعاني تختلف باختلاف الإعراب، ومن هنا كانت الحاجة إلى اعتبار علم النَّحو، والتَّصريف الَّذي تعرف به الأبنية، والكلمة المبهمة يتَّضح معناها بمصادرها

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٩٢)، الإتقان (٤/ ٢١٣)، روح المعاني (١/ ٦).

(٢) رواه البيهقيُّ في (شعب الإيمان) [٢٠٩٠]، انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٦٠)، الإتقان (٤/ ٢٠٩).

ومشتقاتها. وخواص تركيب الكلام من جهة إفادتها المعنى، ومن حيث اختلافها بحسب وضوح الدِّلالة وخفائها. ثمَّ من ناحية وجوه تحسين الكلام -وهي علوم البلاغة الثَّلاثة: المعاني والبيان والبديع- من أعظم أركان المفسر؛ إذ لا بدَّ له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز، وإنما يدرك الإعجاز بهذه العلوم.

٩ – أن يكون عالما بأصول العلوم المتَّصلة بالقرآن، كعلم القراءات؛ لأنَّ به يعرف كيفيَّة النُّطق بالقرآن، ويترجَّح بعض وجوه الاحتمال على بعض، وعلم التَّوحيد، حتى لا يؤوِّل آيات الكتاب الَّتي في حقِّ الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته تأويلًا يتجاوز الحقَّ، وعلم الأصول، وأصول التَّفسير خاصَّة، مع التَّعمق في أبوابه الَّتي لا يتَّضح المعنى ولا يستقيم المراد بدونها، كمعرفة أسباب النُّزول، والنَّاسخ والمنسوخ، ونحو ذلك.

١٠ – دقَّةُ الفَهْمِ الَّتي تمكِّنُ المفسِّرَ من ترجيحِ معنىً على آخَرَ، أو استنباط معنى يتَّفق مع نصوص الشَّريعة.

١١ – ضرورةُ المعرفةِ بأوليَّات العلوم، وآليَّات التَّفسير.

١٢ – انتباه المتخصص في العلوم إلى ما لم يتنبه له غيره:

إنَّ كلَّ مفسِّر يتأثر بثقافته الَّتي أتقنها، فتفسير الفقيه غير تفسير المتكلِّم، وهما غير تفسير اللُّغوي...الخ.

فقد قرَّرَ علماءُ النَّفسِ أنَّ قوَّة الانتباهِ إلى الشَّيء لها علاقةٌ بما اختَمَرَ في نفس الإنسان، وبما يهتم به، فالصُّورة أو اللوحة الفنيَّة قد يراها أكثر من واحدٍ، فمنهم من

لا يلتفت إليها أصلًا، ومنهم من ينظر إليها نظرة خاطفة، ومنهم من يتأملها تأمُّلًا مفصَّلًا عميقًا.

فانتباه الرَّسام ليس كانتباه الشَّاعر، وانتباه الشَّاعر ليس كانتباه الرّجل العادي.. الخ.

وإذا عرفنا ذلك، فلا ينبغي أن ننكر على العالم من علماء الكون أو الطَّبيعة أن ينتبه إذا قرأ الآية من القرآن الكريم إلى ما فيها من معانٍ تتَّصل بثقافته وتخصُّصه، لم ينتبه إليها غيره من علماء الدِّين والشَّرع، أو فحول علماء البلاغة والفقه.

فالمتخصِّص في علم (الجيولوجيا) سينتبه إلى ما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ۝٧﴾ [النَّبأ:٧] من معانٍ لم ينتبه إليها سواه.

والمتخصِّص في (علم البحار) سينتبه إلى معانٍ في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ۝١٩ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ۝٢٠﴾ [الرَّحمن:١٩-٢٠].

والمتخصِّص في العلوم الرياضيَّة سيجد في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ [السَّجدة:٥] ما لا يجد غيره.... الخ[1].

١٣ - تجنُّب اتِّهام الأمَّة كلِّها بالجهل:

---

(١) بتصرُّف عن (كيف نتعامل مع القرآن) (ص:٣٨٠-٣٨١).

ألَّا يحمل هذا الرَّأي أو التَّفسير العلمي اتِّهامًا للأمَّة كلِّها طوال تاريخها، كلِّه -وفيها خيرُ القرون من الصَّحابة والتَّابعين والأئمَّة الكبار في كلِّ فنٍّ- بأنَّها لم تفهم القرآن الكريم إلى أن جاء هذا العالم في زماننا فعلَّمها ما كانت تجهل من كتاب ربِّها.

فيقتضي هذا الكلام أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أنزل على النَّاس كتابًا لم يفهموه، ولم يفهموا مراد منزِّله منه، مع أنَّه عَزَّوَجَلَّ وصفه بأنَّه: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥﴾ [المائدة:١٥]، وأنَّه ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٥]؛ ولهذا ينبغي أن نقبل من هذا اللَّون من التَّفسير ما كان إضافة إلى القديم، وليس إلغاءً كليًّا له، فلا مانع من إضافة فهمٍ جديد للآية..، فالقرآن لا تنقضي عجائبه، ولا تنفد كنوز أسراره، والله عَزَّوَجَلَّ يفتح على عباده في فهمه ما يشاء لمن يشاء (١).

وإذا قدَّم علماء البحث العلميِّ بأدواته ووسائله الإنسانيَّة نظريَّة من النَّظريَّات ذات رجحانٍ ظنِّيٍّ، وذات نفع في مجالات التَّطبيقات العمليَّة، ولم يقل العلماء حولها الكلمة الأخيرة القطعيَّة بالأدلَّة والبراهين.. وقد تعرَّض لها القرآن الكريم، فالمنهج كما يلي:

إذا كان النَّص القرآني يحتمل التَّفسير ضمن ضوابط فهم النُّصوص العربيَّة بما يتَّفق مع هذه النَّظريَّة، فلا مانع من جعل تفسيره بما يتَّفق معها أحد الاحتمالات الَّتي يمكن أن يفهم النَّص بمقتضاها، ولكن دون جزم ولا قطع، وتظلُّ الاحتمالات

---

(١) بتصرُّف عن (المصدر السابق) (ص:٣٨٣).

الأخرى الَّتي يحتملها النَّص مفتوحة ومطروحة حتَّى يأتي اليقين الَّذي تقرِّره أدوات ووسائل البحث العلمي الإنسانيَّة.

وإذا قدَّم علماءُ البحثِ العلميِّ أو بعضهم نظريَّةً من النَّظريَّاتِ حَوْلَ موضوعٍ من الموضوعاتِ الَّتي تعرَّضَ لها القرآنُ الكريم، فليسَ على متدبِّرِ النَّصِّ القرآني أن ينظرَ إلى هذه الفرضيَّةِ بأكْثَرَ ممَّا ينظرُ إلى أيِّ احتمالٍ آخر يمكن أن يُفْهَمَ النَّصُّ بمقتضاه.. [1].

ويفهم ممَّا سَبَقَ أنَّ التَّفسيرَ العلميَّ النَّظريَّ إذا كان النَّصُّ محتملًا لأوجهٍ متعدِّدةٍ من التَّأويلِ يبقى احتمالًا يمكنُ أن يَثْبتَ في المستقبل، ويمكن أن يرد، فيذكر على أنَّه احتمال.

١٤ – أن يحمل النَّص على المعنى القريب الَّذي يفهم من النَّص، إذا لم توجد قرينة صارفة، وأن يقدِّم ما جاء من المأثور وأسباب النُّزول على رأيه، لا مانع من حمله النَّص على معنىً آخرَ مضافًا إلى المعنى القريب ضمن الضَّوابط والشُّروط.

١٥ – أن يقطع المفسِّر بالقول بعدم التَّعارض بين مفهوم النَّص، وبين مقتضات العقول السَّليمة أو الظَّواهر العلميَّة القطعيَّة. وسيأتي بيان قانون التَّعارض والتَّرجيح بإيجاز.

١٦ – أن يراعي المفسِّرُ المقاصدَ العامَّةَ من التَّأويل، فيذكرُ تلك الظَّواهر على وجهٍ يدفعُ المسلمينَ إلى النَّهضةِ، ويلفتهم إلى جلال القرآن الكريم، ويحرِّكهم إلى

---

(١) انظر: قواعد التَّدبُّر الأمثل لكتاب الله تعالى، لعبد الرَّحمن حسن حبنكة الميداني (ص:٢٣٣-٢٣٨).

الانتفاع بقوى هذا الكون العظيم -الَّذي سخَّره الله عَزَّوَجَلَّ لنا- انتفاعًا يعيد لأمَّة الإسلام مجدَها.

١٧ - ألَّا تطغى تلك المباحث عن المقصود الأوَّل من القرآن الكريم، وهو الهداية والإرشاد، وصلاح الأحوال الفرديَّة، والجماعيَّة، والعمرانيَّة، وقد بيَّن ذلك العلَّامة محمد الطَّاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (التَّحرير والتَّنوير)[1].

١٨ - على المفسِّر أن يتجنَّبَ ادِّعاءَ التَّكرارِ في القرآنِ ما أمكن. و"ممَّا يدفع توهُّم التَّكرار في عطف المترادفين، نحو: ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ٢٨﴾ [المدَّثر:٢٨]، ﴿صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾ [البقرة:١٥٧]، وأشباه ذلك، أن يعتقد أنَّ مجموع المترادفين يحصل معنى لا يوجد عند انفراد أحدهما، فإنَّ التَّركيب يُحدث معنىً زائدًا، وإذا كانت كثرة الحروف تفيد زيادة المعنى، فكذلك كثرة الألفاظ"[2].

وذلك نحو قوله عَزَّوَجَلَّ في (سورة الرَّحمن): ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾، وقوله في (سورة المرسلات): ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٥﴾.

١٩- وعلى المفسِّر أيضًا أن يتجنَّب كلَّ ما يُعتبر من قبيل الحشو في التَّفسير، كالخوض في ذكر علل النَّحو، ودلائل مسائل أصول الفقه، ودلائل مسائل الفقه، ودلائل مسائل أصول الدِّين، فإنَّ كلَّ ذلك مقرَّرٌ في تآليف هذه العلوم، وإنما يؤخذُ ذلك مسلَّمًا في (علم التَّفسير) دون استدلال عليه.

---

(١) انظر: ذلك مفصَّلًا في (التَّحرير والتَّنوير) (٣٨/١).

(٢) الإتقان (٤٨٩/٢)، البرهان في علوم القرآن (٤٧٧/٢).

٢٠- وعلى المفسِّر أن يتجنَّب ذكرَ ما لا يصحُّ من أسباب النُّزول، وأحاديث الفضائل، والقَصص الموضوع، والأخبار الإسرائيليَّة؛ فإنَّ هذا مما يُذهب جمال القرآن، ويُشغِل النَّاس عن التَّدبر والاعتبار.

٢١ - عدم الخوض في الغيبيَّات كالذَّات الإلهيَّة، والرُّوح، والملائكة، والجنِّ، وحياة البرزخ، وحساب القبر، وقيام الساعة، والبعث والحساب، والميزان والصِّراط، والجنَّة والنَّار وغيرها، والتَّسليم بالنصوص الواردة فيها تسليمًا كاملًا، انطلاقًا من الإيمان الكامل بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وسنَّة رسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقينًا راسخًا بعجز الإنسان عن الوصول إلى مثل هذه الغيبيَّات. فإن الإسلام منع العقل عن الخوض في الغيبيَّات كذات الله عَزَّوَجَلَّ والسَّمعيات الَّتي وردت بطريق النَّقل، منع العقل عن اقتحامها؛ لأنَّ العقل يعجز أن يصل إلى حقيقة، فمنعه العقل صونًا له عن التَّخبط في بحار الغيوب الَّتي لا يملك العقل فيها وسيلة آمنة.

أمَّا (التَّفسير العلمي) فإنَّه يبحث في العلوم التَّجريبيَّة، وهذا ممَّا يقع تحت التَّجربة والمشاهدة.

٢٢ - وعلى المفسِّر بعد كلِّ هذا أن يكون يقظًا، فطنًا عليمًا بقانون التَّرجيح، حتى إذا كانت الآية محتملة لأكثر من وجه أمكنه أن يُرَجِّح ويختار.

٢٣ - وإذا كان المفسِّر لا بُدَّ له من أن يحتكم إلى (قانون التَّرجيح) عندما تحتمل الآية أكثر من وجه، فإنَّا في حاجةٍ إلى بيان هذا القانون، الَّذي هو الحَكَم الفصل عند تزاحم الوجوه وكثرة الاحتمالات، فهاك قانون التَّرجيح في الرَّأي. قال

الزَّركشيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "كلُّ لفظٍ احتمل معنيين فصاعدًا هو الَّذي لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه، وعليهم اعتماد الشَّواهد والدَّلائل، دون مجرَّد الرَّأي، فإن كان أحد المعنيين أظهر، وجب الحمل عليه، إلَّا أن يقومَ الدَّليل على أنَّ المراد هو الخفيُّ.

وإن استويا، والاستعمال فيهما حقيقة، لكن في أحدهما حقيقة لغويَّة أو عرفيَّة، وفي الآخر شرعيَّة، فالحمل على الشَّرعية أولى، إلَّا أن يدل دليل على إرادة اللغويَّة، كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْۗ﴾ [التَّوبة:١٠٣]، ولو كان في أحدهما عرفيَّة، والآخر لغويَّة، فالحمل على العرفيَّة أولى. وإن اتفقا في ذلك أيضًا، فإن تنافى اجتماعهما ولم يمكن إرادتهما باللَّفظ الواحد، كالقُرء للحيض والطُّهر، اجتهد في المراد منهما بالأمارات الدَّالة عليه، فما ظنَّه [١] فهو مراد الله عَزَّوَجَلَّ في حقِّه. وإن لم يظهر له شيءٌ فهو يتخيَّر في الحمل على أيِّهما شاء؟ أو يأخذ بالأغلظ حكمًا؟ [٢] أو بالأخفِّ؟ [٣] أقوال. وإن لم يتنافيا وجب الحمل عليهما عند المحقِّقين، ويكون ذلك أبلغ في الإعجاز والفصاحة، إلَّا إن دلَّ دليل على إرادة أحدهما" [٤].

٢٤ - عدم التَّكلف في فهم النَّص:

---

(١) أي: غلب على ظنِّه.

(٢) احتياطًا.

(٣) عملًا بيسر الدِّين.

(٤) بتصرُّف عن (البرهان في علوم القرآن)، و(مناهل العرفان في علوم القرآن) (٦٠/٢)، وانظر: الإتقان (٤٨١/٢)، الكليَّات، لأبي البقاء الكفوي (ص:٨٤٧).

قال: ومن هنا فقد رفض بعض المحقِّقين من علماء الشَّريعة، ومن علماء الطَّبيعة ما قاله بعضهم في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرَّحمن:٣٣]: إنَّ السُّلطان هنا هو سلطان العلم، وإن هذا يشير إلى غزو الفضاء والصُّعود إلى القمر...الخ؛ لأنَّ سياق الآية يبيِّن أنَّ هذا التَّحدي في الآخرة -كما يدلُّ على ذلك ما قبلها وما بعدها-، وأنَّهم لا يستطيعون الخروج من ملك الله عَزَّوَجَلَّ. وأين يهربون من ملكه عَزَّوَجَلَّ، وهو الَّذي له ملك السَّموات والأرض؟ ولو افترضنا أنَّ الصُّعود إلى القمر نفوذٌ من أقطار الأرض، فهل نفذ من أقطار السَّموات؟ مع أنَّ الَّذين صعدوا إلى القمر أو داروا في الفضاء لا يزالون على صلة بالأرض؛ فهي الَّتي تحرِّكهم وتراقبهم، وتعطيهم التَّنبيهات، وترشدهم إلى إصلاح الخطأ إن حدث [(١)].

٢٥ - ضرورة المعرفة بأوليَّاتِ العلوم:

---

(١) بتصرُّف عن (كيف نتعامل مع القرآن) (ص:٣٨٢). لكن يرى الشَّيخ عبد المجيد الزِّنداني أنه لا مانع من كون الآية تشير إلى أنَّ البشر سيحاولون غزو الفضاء، وأنَّهم سينجحون عندما تكون لهم الوسيلة، وستعلن عليهم حربٌ إلهيَّة بشواظ من نارٍ ونحاس تهزمهم عندما يحاولون أن يسترقوا السَّمع من الملأ الأعلى، وكلُّ هذه المحاولات اليوم لغزو الفضاء بين الأرض والسَّماء، لا غزو للسَّماء نفسها. انظر: كتاب التَّوحيد، للشَّيخ عبد المجيد الزِّنداني (٢/٦٦-٦٧)، وكذلك في (موسوعة الزِّنداني) (ص:١٨٣).

لا بدَّ للمفسِّر من معرفة مبادئ العلوم الكونيَّة (١)؛ ليستخدمها فيما لا بدَّ منه من بيان معاني القرآن الكريم، وتوضيح مقاصده ودلالاته، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [إبراهيم:٤]. ولا بدَّ لمن يعيش في القرن الخامس عشر الهجري أن يخاطَب بلسان هذا القرن لا بلسان قرون مضت. كما أنَّ الفتوى تختلف باختلاف الزَّمان والمكان، فإنَّ تفسير القرآن الكريم، وشرح الحديث، وأسلوب الدَّعوة كلُّها تختلف باختلاف الزَّمان والمكان (٢).

ولا بد للمفسر أن يفقه علوم الآلة، وأن يكون مُلِمًّا بجملة من العلوم التي تعصمه من الزلل والشذوذ، والخروج عن النص، ومن هذه العلوم.

أ. علم اللغة (٣).

ب. علم النحو (٤).

---

(١) وكذلك مبادئ العلوم الأخرى كاللغويَّة والشَّرعيَّة.

(٢) كيف نتعامل مع القرآن (ص:٣٧٩-٣٨٠).

(٣) قال الإمام الألوسي: "فأما ما يحتاجه التفسير فأمور: الأول: (علم اللغة)؛ لأن به يعرف شرح مفردات الألفاظ ومعلولاتها بحسب الوضع، ولا يكفي اليسير؛ إذ قد يكون اللفظ مشتركًا وهو يعلم أحد المعنيين، والمراد الآخر، فمن لم يكن عالما بلغات العرب لا يحل له التفسير كما قاله مجاهد، وينكل كما قاله مالك- وهذا مما لا شبهة فيه-" روح المعاني (٦/١).

(٤) إن علم النحو يصون اللسان عن اللحن في اللفظ، والزيغ في المعنى. قال أبو حيان: "فجدير لمن تاقت نفسه إلى علم التفسير، وترقت إلى التحقيق فيه والتحرير، أن يعتكف على كتاب سيبويه، فهو =

ج. علم الصرف.

د. علم الاشتقاق (١).

هـ. علوم البلاغة الثلاثة: (المعاني، والبيان، والبديع) (٢).

و. علم القراءات (٣).

ز. علم أصول الدين (٤).

ح. علم الفقه وأصوله (٥) ومقاصد التشريع.

= في هذا الفن المعول عليه، والمستند في حل المشكلات إليه" البحر المحيط في التفسير (١/١١).
قال ابن الوردي: (جَمِّلِ المنطِقَ بالنَّحو فمنْ***يُحرَمِ الإعرابَ بالنُّطقِ اختبلْ).

(١) قال الألوسي: هذا وعد السيوطي مما يحتاج إليه المفسر: (علم التصريف) و(علم الاشتقاق)، وأنا أظن أن المهارة ببعض ما ذكرنا يترتب عليها ما يترتب عليهما من الثمرة. وعد أيضًا: (علم الفقه) ولم يعده غيره ولكل وجهة، وعد (علم الموهبة) أيضًا من ذلك " روح المعاني (١/٧).

(٢) "ويعرف بالأول خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعنى، وبالثاني خواصها من حيث اختلافها، وبالثالث وجوه تحسين الكلام، وهو الركن الأقوم، واللازم الأعظم في هذا الشأن كما لا يخفى ذلك على من ذاق طعم العلوم ولو بطرف اللسان" روح المعاني (١/٦-٧).

(٣) "لأنه به يعرف كيفية النطق بالقرآن، وبالقراءات ترجح بعض الوجوه المحتملة على بعض" روح المعاني (١/٧).

(٤) "الكلام فيما يجوز على الله عَزَّوَجَلَّ وما يجب له وما يستحيل عليه، والنظر في النبوة، ويؤخذ هذا من علم الكلام، ولولاه يقع المفسر في ورطات" روح المعاني (١/٧).

(٥) وذكر الإمام الألوسي أن من العلوم التي يحتاجها المفسر: "معرفة الإجمال والتبيين، والعموم والخصوص، والإطلاق والتقييد، ودلالة الأمر والنهي، وما أشبه هذا، وأخذوه من أصول الفقه" روح المعاني (١/٧).

ط. الأحاديث المبينة لمعاني الآيات وللمجمل والمبهم منها [١].

ي. علوم الحديث والجرح والتعديل.

ك. علم أسباب النزول.

ل. علم الناسخ والمنسوخ.. إلى غير ذلك [٢].

وقال البعض كذلك: لا بدَّ له أن يكون ملمًا بأصول المنطق وقواعد الجدل والمناظرة.

ولا بد للمفسر كذلك أن يملك من الموهبة [٣] والهمة والحرص والتقوى والاستقامة في القول والعمل ما يؤهله للنظر في الآيات وتفسيرها.

---

(١) وذكر الإمام الألوسي أن من العلوم التي يحتاجها المفسر: "تعيين مبهم، وتبيين مجمل، وسبب نزول، ونسخ، ويؤخذ ذلك من (علم الحديث)" روح المعاني (١/٧).

(٢) انظر شروط المفسر، والعلوم التي يحتاجها في (البرهان في علوم القرآن) حيث فصل الزركشي ذلك من بداية كتابه، والإتقان، للسيوطي (٢/١٦٦)، (٤/٢٠٠)، وانظر: التفسير والمفسرون، للدكتور الذهبي (١/١٨٩).

(٣) قال السيوطي: "ولعلك تستشكل علم الموهبة وتقول: هذا شيء ليس في قدرة الإنسان، وليس كما ظننت من الإشكال. والطريق في تحصيله: ارتكاب الأسباب الموجبة له من العمل والزهد. قال في (البرهان): اعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي، ولا يظهر له أسراره وفي قلبه بدعة، أو كبر، أو هوى، أو حب الدنيا، أو وهو مصر على ذنب، أو غير متحقق بالإيمان، أو ضعيف التحقيق، أو يعتمد على قول مفسر ليس عنده علم، أو راجع إلى معقوله، وهذه كلها حجب وموانع بعضها آكد من بعض. قلت: وفي هذا المعنى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦]. قال سفيانُ بن عيينة: يقولُ: أَنْزَعُ عنهم فَهْمَ القرآن" الإتقان في علوم =

قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التفسير علم يعرف به فهم كتاب الله عَزَّوَجَلَّ المنزل على نبيه محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وبيان معانيه، واستخراج أحكامه، وَحِكَمِهِ. واستمداد ذلك من: علم اللغة، والنحو، والتصريف، وعلم البيان، وأصول الفقه، والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ" (١).

قال الشيخ الزُّرْقاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذه الشروط التي ذكرناها وهذه العلوم كلها إنما هي لتحقيق أعلى مراتب التفسير مع إضافة تلك الاعتبارات المهمة المسطورة في الكلمات القيمة الآتية. أما المعاني العامة التي يستشعر منها المرء عظمة مولاه والتي يفهمها الإنسان عند إطلاق اللفظ الكريم فهي قدر يكاد يكون مشتركًا بين عامة الناس، وهو المأمور به للتدبر والتذكر؛ لأنه جَلَّوَعَلَا سهله ويسره وذلك أدنى مراتب التفسير" (٢).

ثالثًا: الضوابط العامة فيما يخص النص:

وهذه قواعد تخصُّ النَّص ينبغي للمفسِّر أن لا يغفل عنها:

= القرآن (٤/٢١٦)، وانظر: البرهان في علوم القرآن (٢/١٨٠)، روح المعاني (١/٧)، التفسير والمفسرون، للدكتور الذهبي (١/١٩١)، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، لأبي شهبة (ص:٣٥).

(١) البرهان في علوم القرآن (١/١٣).

(٢) مناهل العرفان (٢/٥١).

١ – مطابقة التَّفسير للمفسَّر، من غيرِ نقص لما يحتاج إليه في إيضاح المعنى، ولا زيادةٍ لا تليقُ بالغرض، ولا تناسب المقام، مع الاحتراز من كون التَّفسير فيه زيغٌ عن المعنى، وعدولٌ عن المراد (١).

٢ – مراعاة المعنى الحقيقي، والمعنى المجازي، فلعلَّ المراد المجازي، فيحمل الكلام عليه أو العكس.

٣ – مراعاة النَّظم القرآني والغرض الَّذي سِيق له الكلام، والمؤاخاة بين المفردات.

٤ – مراعاة التَّناسب بين الآيات، فيبيِّن وجه المناسبة، ويربط بين السَّابق واللَّاحق من آيات القرآن، حتى يوضِّح أنَّ القرآن لا تفكُّكَ فيه، وإنما هو آياتٌ متناسبة يأخذُ بعضها بحجز بعض.

---

(١) فمن ذلك الشطط: ما أورده الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره: (الجواهر) في كثير من المواضع من خروج عن النص إلى معان بعيدة لا يحتملها. فوضع في تفسيره كثيرًا من صور النباتات، والحيوانات، ومناظر الطبيعة، وتجارب العلوم. وكثيرًا ما يشرح بعض الحقائق الدينية بما جاء عن أفلاطون في جمهوريته، أو بما جاء عن إخوان الصفا في رسائلهم. ويُفسِّر آيات القرآن تفسيرًا علميًا يقوم على نظريات حديثة، وعلوم جديدة، لم يكن للعرب عهد بها من قبل. قال الشيخ الذهبي: ولست أرى هذا المسلك في التفسير إلا ضربًا من التكلف، إن لم يذهب بغرض القرآن، فلا أقل من أن يُذهب بجلاله وجماله. انظر: التفسير والمفسرون، للدكتور الذهبي (٢/٣٧٠-٣٨١)، وانظر: التفسير والمفسرون في ثوبه الجديد (ص:٧٨٢).

٥ – ملاحظة أسباب النُّزول، فما نزل على سَبَب فلا بُدَّ من ذكره بعد بيان المناسبة، وقبل الدُّخول في شرح الآية. قال الزَّركشيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قد جرت عادة المفسِّرين أن يبدؤوا بذكر سبب النُّزول، ووقع البحث في أنَّه: أيُّهما أولى بالبداءة؟ أيُبدأ بذكر السَّبب، أو بالمناسبة؛ لأنَّها المصحِّحة لنظم الكلام، وهي سابقة على النُّزول؟ والتَّحقيق التَّفصيل بين أن يكون وجه المناسبة متوقِّفًا على سببِ النُّزول كآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨]، فهذا ينبغي فيه تقديم ذكر السَّبب؛ لأنَّه حينئذٍ من باب تقديم الوسائل على المقاصد. وإن لم يتوقَّف على ذلك، فالأَوْلى وجه المناسبة [١].

٦ – سلامة النص مع التناقض مع نصوص أخرى أو مع المسلمات العقلية والحقائق الكونية.

٧ – أن يكون ثمة صلة بين النص والحقيقة العلمية ذات الصلة.

٩ – ذكر جميع ما يحتمله النص من المعاني القريبة والبعيدة المحتَملة ذات الصلة.

---

(١) بتصرُّف عن (البرهان في علوم القرآن) (١/٣٤)، الإتقان (٤/٢٢٨).

وفيما يخصُّ ضوابط (التَّفسير العلميّ) فإنَّ للإمام العلَّامة محمَّد الطَّاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه: (التَّحرير والتَّنوير) تحقيقًا ذكره في (المقدمة الرَّابعة) من (تفسيره) (فيما يحق أن يكون غرض المفسِّر) فارجع إليه، فإنَّه ممَّا لا يستغنى عنه (١).

المطلب الرابع: التَّعارض والتَّرجيح فيما يخص النص:

سَبَقَ بيانُ التَّعارضِ والتَّرجيحِ مُجْمَلًا، ولا أتعرَّضُ هنا لتفصيل قانون التَّعارض والتَّرجيح، وإنَّما لبعض التَّنبيهاتِ ذاتِ الصِّلة فيما يوهمُ التَّصادمَ بين النَّقلِ والعلمِ، أو النَّقلِ والعقل.

ولا بدَّ في البدايةِ من بيانِ الصِّلةِ بين مقتضياتِ العقلِ ومقتضياتِ النَّقل. وهل ثمة تصادم بين مقتضياتِ العقلِ ومقتضياتِ النَّقل؟ أو بين النقل والحقائق الكونية الثابتة بيقين؟

ولا يخفى أن هناك تيارًا دينيًا يعادي العقل، ويخلط بين العقل والهوى.

وهناك في المقابل تيار علماني، يقف فقط عند العقل. والعقل إنما ملكة من ملكات الإنسان، وكل ملكات الإنسان نسبية الإدراك، بينما العلم الإلهي كلي ومطلق ومحيط لا يأتي بما يناقض العقل، ولكن يأتي بما يتجاوز العقل، وهو فوق

---

(١) (التَّحرير والتَّنوير) (١/٣٨) فما بعد. وانظر ما ذكره أستاذنا الدكتور عبد الغفور محمود مصطفى جعفر في كتابه: (التفسير والمفسرون في ثوبه الجديد) (ص:٧٨١-٨٠٥).

العقل، فلا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول، وما قضى العقل باستحالته لا يمكن أن يأتي به النقل.

إن المحققين من علماءَ الأمَّةَ اعتبروا الوحيَ والعقلَ هاديين للخلق إلى الحقِّ.

قال الرَّاغب الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لله عَزَّوَجَلَّ إلى خلقه رسولان:

أحدُهما: مِنَ الباطن؛ وهو العقل.

والثَّاني: مِنَ الظَّاهِر، وهو الرَّسولُ، ولا سَبِيْلَ لأحدٍ إلى الانتفاعِ بالرَّسولِ الظَّاهر ما لم يتقدَّمْه الانتفاعُ بالبَاطِن، فالباطنُ يعرف صحَّة دعوى الظَّاهر، ولولاه لما كانت تلزم الحجة بقوله، ولهذا أحال الله عَزَّوَجَلَّ من يُشَكِّكُ في وحدانيَّته وصِحَّة نبوَّة أنبيائه عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ على العقل، فأمره أن يفزع إليه في معرفة صِحَّتها، فالعقلُ قائدٌ والدِّينُ مَدَدٌ، ولو لم يكن الدِّين لأَصْبَحَ العقلُ حَائِرًا، واجْتِمَاعُهُمَا كما قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النُّور:٣٥]" [١].

وفي مقدِّمة كتاب: (الاقتصاد في الاعتقاد) يَصِفُ الإمامُ الغزاليُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عصابة الحقِّ -أهل السُّنَّةِ- أنَّهم وقفوا بين مقتضياتِ الشَّرائع، وموجباتِ العقول، وتحقَّقوا أن لا معاندة بين الشَّرع المنقول، والحقِّ المعقول اهـ[٢].

وفي (معارج القدس) الَّذي ينسب للإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أنَّ العقل لن يهتدي إلَّا بالشَّرع، والشَّرع لم يتبيَّن إلَّا بالعقل. فالعقل كالأسِّ، والشَّرع كالبناء، ولن

---

(١) الذَّريعة في مكارم الشَّريعة، للرَّاغب الأصفهاني (ص:٢٠٧).

(٢) مقدِّمة كتاب (الاقتصاد في الاعتقاد)، للإمام الغزالي (ص:٣).

ينفع أسٌّ ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناءٌ ما لم يكن أسٌّ. وأيضًا فالعقل كالبصر، والشَّرع كالشُّعاع، ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج، ولن يغني الشُّعاع ما لم يكن بصرٌ، فالشَّرع عقلٌ من خارج، والعقلُ شرعٌ من داخل، وهما متعاضدان، بل متَّحدان. ولكون الشَّرع عقلًا من خارج سلب الله عَزَّوَجَلَّ اسم العقل من الكافر في غير موضع من القرآن، نحو قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١﴾ [البقرة:١٧١]. ولكون العقل شرعًا من داخل قال عَزَّوَجَلَّ في صفة العقل: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ [الروم:٣٠]، فسمَّى العقلَ دينًا. ولكونهما متَّحدين قال: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ﴾ [النُّور:٣٥]، أي: نور العقل ونور الشَّرع.

ثمَّ قال: ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [النور:٣٥]، فجعلها نورًا واحدًا. فالشَّرع إذا فُقد العقل لم يظهر به شيء، وصار ضائعًا ضياع الشُّعاع عند فقد نور البصر، والعقل إذا فُقد الشَّرع عجز عن أكثرِ الأمور، عجز العين عند فقد النُّور" (١).

وفي (الإحياء) يُقرِّر: أن لا غنى بالشرع عن العقل، ولا بالعقل عن الشرع، "فإن العلوم العقلية كالأغذية، والعلوم الشرعية كالأدوية، والشخص المريض يستضرُّ بالغذاء متى فاته الدواء". ويُنكر على مَن يظن أن العلوم العقلية مُناقضة للعلوم

---

(١) معارج القدس (ص:٥٧-٥٩)، وانظر: (الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه) (ص:٤١).

الشرعية، وأن الجمع بينهما غير مُمكن، وهو في رأيه ظن صادر عن عمىً في عين البصيرة (١).

ويؤكد ابن رشد رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذه العلاقة بين العقل والنقل وأنها قائمة على التآخي، وعلى قراءة النقل بالعقل حيث يقول: "فإنا معشر المسلمين، نعلم على القطع أنه لا يؤدي النظر البرهاني إلى مخالفة ما ورد به الشرع؛ فإن الحق لا يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له.

وإذا كان هذا هكذا، فإن أدى النظر البرهاني إلى نحو ما من المعرفة بموجود ما، فلا يخلو ذلك الموجود أن يكون قد سكت عنه في الشرع أو عرف به. فإن كان مما قد سكت عنه فلا تعارض هنالك، هو بمنزلة ما سكت عنه من الأحكام، فاستنبطها الفقيه بالقياس الشرعي، وإن كانت الشريعة نطقت به، فلا يخلو ظاهر النطق أن يكون موافقًا لما أدى إليه البرهان فيه أو مخالفًا؛ فإن كان موافقًا فلا قول هنالك، وإن كان مخالفًا طلب هنالك تأويله" (٢).

ويقول الشيخ محمد عبده رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إذا قدرنا عقل البشر قدره وجدنا غاية ما ينتهي إليه كماله إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض بعض الكائنات التي تقع تحت الإدراك الإنساني حِسًّا كان، أو وجدانًا أو تعقلًا، ثم التوصل بذلك إلى معرفة

---

(١) إحياء علوم الدين (١٧/٣). ويلاحظ أنَّ الراغب في (الذريعة) يرى الشرعيات كالأغذية، والمعقولات كالأدوية، باعتبار آخر (ص:٢٠٨).

(٢) فصل المقال، لأبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الشهير بابن رشد الحفيد (ص:٣١-٣٢).

مناشئها، وتحصيل كليات لأنواعها، والإحاطة ببعض القواعد لعروض ما يعرض لها، أما الوصول إلى كنه حقيقة ما فمما لا تبلغه قوته" (١).

وفي (المنار): "إنه ليس في عقائد الإسلام شيء يحكم العقل باستحالته، وإنما فيه أخبار عن عالم الغيب لا يستقل العقل بمعرفتها؛ لعدم الاطلاع على ذلك العالم، ولكنها كلها من الممكنات أخبر بها الوحي، فصدقناه، فالإسلام لا يكلف أحدًا أن يأخذ بالمحال" (٢).

وذكر الشيخ محمد عبده أن الله عَزَّوَجَلَّ منح الإنسان أربع هدايات يتوصل بها إلى سعادته:

أولاها: هداية الوجدان الطبيعي، والإلهام الفطري. وتكون للأطفال منذ ولادتهم، فإن الطفل بعد ما يولد

يشعر بألم الحاجة إلى الغذاء فيصرخ طالبًا له بفطرته، وعندما يصل الثدي إلى فيه يلهم التقامه وامتصاصه.

الثانية: هداية الحواس والمشاعر، وهي متممة للهداية الأولى في الحياة الحيوانية، ويشارك الإنسان فيهما الحيوان الأعجم، بل هو فيهما أكمل من الإنسان، فإن حواس الحيوان وإلهامه يكملان له بعد ولادته بقليل، بخلاف الإنسان فإن ذلك يكمل فيه بالتدريج في زمن غير قصير، ألا تراه عقب الولادة لا تظهر عليه علامات

---

(١) رسالة التوحيد (ص:٢٥).

(٢) المنار (٦/٢٧).

إدراك الأصوات والمرئيات، ثم بعد مدة يبصر، ولكنه لقصر نظره يجهل تحديد المسافات، فيحسب البعيد قريبا فيمد يديه إليه ليتناوله وإن كان قمر السماء ولا يزال يغلط حسه حتى في طور الكمال:

الهداية الثالثة: العقل، خلق الله عَزَّوَجَلَّ الإنسان ليعيش مُجْتَمِعًا ولم يعط من الإلهام والوجدان ما يكفي مع الْحِسِّ الظاهر لهذه الحياة الاجتماعية كما أعطي النحل والنمل، فإن الله عَزَّوَجَلَّ قد منحها من الإلهام ما يكفيها لأن تعيش مجتمعة يؤدي كل واحد منها وظيفة العمل لجميعها، ويؤدي الجميع وظيفة العمل للواحد، وبذلك قامت حياة أنواعها كما هو مشاهد.

أما الإنسان فلم يكن من خاصة نوعه أن يتوفر له مثل ذلك الإلهام، فحباه الله هداية هي أعلى من هداية الحس والإلهام، وهي العقل الذي يُصَحِّحُ غلط الحواس والمشاعر ويبين أسبابه، وذلك أن البصر يرى الكبير على البعد صغيرًا، ويرى العود المستقيم في الماء مُعْوَجًّا، والصَّفْرَاوِيّ يذوق الحلو مُرًّا. والعقل هو الذي يحكم بفساد مثل هذا الإدراك.

الهداية الرابعة: الدين، يُغَلِّطُ الْعَقْلَ في إدراكه كما تَغْلَطُ الْحَوَاسُّ، وقد يهمل الإنسان استخدام حواسه وعقله فيما فيه سعادته الشخصية النوعية، ويسلك بهذه الهدايات مسالك الضلال، فيجعلها مسخرة لشهواته ولذاته حتى توردہ موارد الهلكة. فإذا وقعت المشاعر في مزالق الزلل، واسترقت الحظوظ والأهواء العقل فصار يستنبط لها ضروب الحيل، فكيف يتسنى للإنسان مع ذلك أن يعيش سعيدًا؟ وهذه الحظوظ

والأهواء ليس لها حد يقف الإنسان عنده وما هو بعائش وحده، وكثيرًا ما تتطاول به إلى ما في يد غيره، فهي لهذا تقتضي أن يعدو بعض أفراده على بعض، فيتنازعون ويتدافعون، ويتجادلون، ويتجالدون، ويتواثبون ويتناهبون حتى يفني بعضهم بعضًا، ولا تغني عنهم تلك الهدايات شيئًا فاحتاجوا إلى هداية ترشدهم في ظلمات أهوائهم، إذا هي غلبت على عقولهم، وتبين لهم حدود أعمالهم ليقفوا عندها، ويكفوا أيديهم عما وراءها. ثم إن مما أودع في غرائز الإنسان الشعور بسلطة غيبية متسلطة على الأكوان ينسب إليها كل ما لا يعرف له سببًا؛ لأنها هي الواهبة كل موجود ما به قوام وجوده، وبأن له حياة وراء هذه الحياة المحدودة، فهل يستطيع أن يصل بتلك الهدايات الثلاث إلى تحديد ما يجب عليه لصاحب تلك السلطة الذي خلقه وسواه، ووهبه هذه الهدايات وغيرها، وما فيه سعادته في تلك الحياة الثانية؟ كلا إنه في أشد الحاجة إلى هذه الهداية الرابعة -الدين- وقد منحه الله عَزَّوَجَلَّ إياها.

أشار القرآن الكريم إلى أنواع الهداية التي وهبها الله عَزَّوَجَلَّ للإنسان في آيات كثيرة منها قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد:١٠]، أي: طريقي السعادة والشقاوة والخير والشر.

قال الأستاذ الإمام: وهذه تشمل هداية الحواس الظاهرة والباطنة، وهداية العقل وهداية الدين، ومنها قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧]، أي: دللناهم على طريقي الخير والشر، فسلكوا سبل الشر المعبر عنه بالعمى. وذكر غير هاتين الآيتين مما في معناهما ثم قال: بقي معنا هداية أخرى

وهي المعبر عنها بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام:٩٠] فليس المراد من هذه الهداية ما سبق ذكره، فالهداية في الآيات السابقة بمعنى الدلالة، وهي بمنزلة إيقاف الإنسان على رأس الطريقين: المهلك، والمنجي، مع بيان ما يؤدي إليه كل منهما، وهي مما تفضل الله عَزَّوَجَلَّ به على جميع أفراد البشر. وأما هذه الهداية فهي أخص من تلك، والمراد بها إعانتهم وتوفيقهم للسير في طريق الخير والنجاة مع الدلالة، وهي لم تكن ممنوحة لكل أحد كالحواس والعقل وشرع الدين.

ولما كان الإنسان عرضة للخطأ والضلال في فهم الدين وفي استعمال الحواس والعقل على ما قدمنا، كان محتاجا إلى المعونة الخاصة، فأمرنا الله عَزَّوَجَلَّ بطلبها منه في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة:٦]، فمعنى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾: دلنا دلالة تصحبها معونة غيبية من لدنك تحفظنا بها من الضلال والخطأ، وما كان هذا أول دعاء علمنا الله عَزَّوَجَلَّ إياه إلا لأن حاجتنا إليه أشد من حاجتنا إلى كل شيء سواه" (١).

وهذا كلام جد نفيس. وقال الشيخ محمد عبده رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا: "والذي علينا اعتقاده أن الدين الإسلامي دين توحيد في العقائد لا دين تفريق في القواعد، العقل

---

(١) تفسير المنار (١/٥٢-٥٤)، تفسير سورة الفاتحة، ملخص من دروس الشيخ محمد عبده (ص:٤٨-٥٢)، مطبعة الموسوعات، بباب الخلق، القاهرة [١٣١٩هـ].

من أشد أعوانه، والنقل من أقوى أركانه، وما وراء ذلك فنزغات شياطين، وشهوات سلاطين، والقرآن شاهد على كل بعمله، قاض عليه في صوابه وخطله" (١).

وفي كتاب: (الثَّقافة العربيَّة الإسلامية): ولا غرو أن وجدنا في تاريخ حضارتنا كثيرًا ممَّن نبغوا في المجالين، العلوم الشَّرعية، والعلوم العقليَّة. ومن العلوم العقليَّة: العلوم الطبيعيَّة والرياضيَّة والطبيَّة. فجابر بن حيَّان مبتكرُ (علم الجبر)، إنَّما وصل إليه وهو يؤلِّف رسالةً في (الوصايا والفرائض). وابن رشد الحفيد صاحب كتاب: (الكليَّات) في (الطِّب) الَّذي تتلمذت عليه أوربا عدَّة قرون، هو نفسه صاحب كتاب: (بداية المجتهد) في الفقه المقارن، وهو قاضٍ شرعي من فقهاء المالكيَّة. والفخر الرَّازي صاحب: (التَّفسير الكبير)، والكتب الشَّهيرة في (علم أصول الفقه)، و(علم أصول الدِّين)، كان من أشهر الأطبَّاء في زمانه، ولم تكن شهرته في الطِّب تقلُّ عن شهرته في علوم الدِّين. وابن النَّفيس مكتشف الدَّورة الدَّمويَّة الصُّغرى، وأوَّل من أشار إلى الحويصلات الرئويَّة والشَّرايين التَّاجيَّة، هو من فقهاء الشَّافعية الَّذين ترجم لهم السُّبكيُّ في (طبقاته)، وترجم له الذَّهبي وغيره من مؤرِّخي الأعلام في الإسلام (٢).

فيجب على الإنسان أن يأخُذَ من السَّمع في مجال العقيدة كلَّ ما لا يستطيع أن يتوصَّل إليه بعقله، أو يقف على حقيقته بفطرته. والشرع يهدي إلى الحق، ولا

---

(١) رسالة التوحيد (ص:١٣-١٤).

(٢) الثَّقافة العربيَّة الإسلامية (ص:١٠٩-١١٢).

سيما اضطراب النظر، واختلال الفكر، وهو يفيد العقل ما لا يستقل بمعرفته من الغيبيات والسمعيات، وبالتالي لا تكون الهداية بالعقل وحده.

يقول الشَّيخ محمود شلتوت رَحِمَهُ ٱللَّهُ تحت عنوان -أسماء الله عَزَّوَجَلَّ لا دخل للإنسان فيها-: لا يعني هذا المنع، وذلك الحذر أنَّ العقل لا مجال له في هذا الميدان، وإنما يعني أنَّ العقل لا يستطيع في هذا المجال أن يقوم بدور البناء والتَّأسيس، ولكنَّه في نفس الوقت يستطيع أن ينظر فيما قُدِّم إليه لا بقصد أن يحكم عليه بالصَّواب أو الخطأ، وإنما بقصد أن يدرك ما فيه من معاني يقتنع بها كلُّ ذي عقلٍ سليم، وفكرٍ مستقيم، إلَّا أنَّه في مجال النُّبوَّة خاصَّة يحتاج فوق ذلك إلى إعمال فكره لكي يثبت أن مدَّعِي النُّبوَّة صادقٌ في دعواه، وأنَّه شخصيَّة متوازنة لها من الخلال والصِّفات فوق ما يتمتع به البشر، بشرط أن لا تخرجهم هذه الخلال وتلك الصِّفات عن كونهم أفرادًا من نوع البشر، وعليه أن يعمل عقله أيضًا، ويبذل غاية الجهد حتَّى يصل إلى نتيجة في مجال إثبات الصِّلة بين الله عَزَّوَجَلَّ وبين مدعي النُّبوَّة[1].

فإذا تمهَّد لكَ ذلك علمتَ أنَّ منع العقل هنا لا يعني إلغاء دوره تمامًا، وإنَّما يبقى للعقل دورٌ هامٌّ يتمثَّل في:

---

(١) انظر: الإسلام عقيدة وشريعة، محمود شلتوت (ص:١٩)، عقيدتنا، لأستاذنا أ.د/ طه الدُّسوقي (ص:١٢٤).

١ – التَّأكد من صِحَّة النَّقل:

دعا القرآن الكريم إلى اعتماد البرهان التَّاريخي لبيان صحَّة النَّقل، كمشاهدةِ الآثار الَّتي خلَّفها أهلها في الأرض، والَّتي تعبِّر بلسان حالها عمَّا كانوا عليه من القوَّة، وذلك كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾ [الأحقاف:٤]، ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾ [آل عمران:١٣٧]، ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ٩ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ١٠﴾ [الفجر:٦-١٠]، إلى غيرها من الآيات.

فالواجب على كلِّ من عَرَفَ التَّمييز بين صحيحِ الرِّوايات وسقيمها، وثقات النَّاقلين لها من المتَّهمين أن لا يروي منها إلَّا ما عرف صحَّة مخارجه، والسَّتَّارَةَ في ناقليه، وأن يتقِي منها ما كان منها عن أهل التُّهم والمعاندين من أهل البدع، والَّذي لم يعرف.

والدَّليل على ذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [الحجرات:٦]، وقال جل ثناءه: ﴿مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ [البقرة:٢٨٢]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ [الطَّلاق:٢]. فدلَّ بما ذكرنا من هذه الآي أنَّ خبر الفاسق ساقطٌ غير مقبول، وأنَّ شهادة غير العدل مردودة [١].

---

(١) انظر: هوامش على مقدِّمة صحيح مسلم، للأستاذ الدكتور يحيى إسماعيل (ص:١٠٢).

والحاصل أنَّ اعتماد البرهان التَّاريخي قد يحتاج إلى متخصِّصين في (علم الآثار)، وقد يحتاج إلى متخصِّصين في (التَّاريخ القديم)، وينبغي أن يكون مأمونًا، وأن يعرض قوله على الضَّوابط الشَّرعيَّة.

ويكون ذلك من الاستدلال بالآثار على صحيح الأخبار.

٢ – درء موهم التَّعارض بين العقل والنقل، وبين الحقائق العلميَّة القطعيَّة والنَّقل:

لا يتصوَّرُ وجودُ نصٍّ من مشرّع حكيمٍ يتناقضُ مع المسلَّمات والمبادئ العقليَّة، أو مع الحقائقِ العلميَّة. ونقول باستحالة وجود تعارض بين الآيات القرآنية، والحقائق العلميَّة، ومن قال بذلك فهو إمَّا جاهل بالآية، أو جاهل بالحقيقة العلميَّة.

وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ المنزَّلَ لقوم يعقلون، وجعل العقل مناط التَّكليف كما هو معروف ومقرَّر، وجعل العلم والنَّظر طريقًا موصلًا إلى الحقائق، ودالًا على الخالق عَزَّوَجَلَّ، وأخبر عَزَّوَجَلَّ أن أخشى من يخشاه من عرفه حقَّ معرفته، فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨].

وقضيَّة التَّقابل بين السَّمع والعقل أو الحقائق العلميَّة هي في الحقيقة قضيَّةٌ مصطنعةٌ في الفكرِ الإسلاميّ، ولا يصحُّ مثل هذا ولو على سبيل الافتراض لما يلزم منه من الإساءة للمشرع الحكيم، والطعن بالتشريع، وعدم الأخذ بالمنزَّل، حيث

يبقى مهملًا، ووجوده على هذا النَّحو واستمراره على ما هو عليه عبثٌ، تعالى المنزِّلُ عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وقد علم أنَّ المنَزَّل لقوم يعقلون، وأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يكلِّف نفسًا إلَّا ما آتاها، وما خالفَ العقلَ إدراكُه خارجٌ عن الوُسع، ومخالفٌ للنُّصوص.

وحكم التَّعارض بين المنقول والمعقول أن تقول: إنَّه عندما يقع ما ظاهره تعارض بين مقتضى المعقول والثَّابت من المنقول فلا يخلو أمر هذا التَّعارض من إحدى حالين:

أوَّلاهما: أن يكون هذا التَّعارض هو في ظاهر النَّظر فحسب، وهو ما لا يستأهل أن يسمَّى تعارضًا في الحقيقة، بل مجرَّد اختلافٍ ظاهريٍّ لا أثر لمثله في ردِّ مقتضى منقول، ولا معقول، كما يفسِّر النَّبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مثلًا لفظًا عامًّا ببعض أفراد الخاصَّة المندرجة تحته دون أن يمنع من إرادة بقيَّة أفراد اللَّفظ العامِّ، فَيُظَنُّ في ظاهر النَّظر أنَّ ثمَّة تعارضًا بين مقتضى المعقول من عموم اللَّفظ الَّذي صار بحكم اللُّغة وإلفها من المركوزات في العقل، ومقتضى المنقول من خصوصه.

وواقع الأمر ألَّا تعارض، وأنَّ الخاصَّ الوارد في المنقول داخلٌ تحت العامِّ الَّذي يظهر في العقل عمومه دخولًا أوليًّا لا يمنع من إرادة غيره من بقيَّة أفراد العامِّ.

ومن أمثلة ذلك: تفسيره صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في حديث عدي بن حاتم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ للمغضوب عليهم باليهود، والضَّالين بالنَّصارى [1]، فإنَّ هذا التَّفسير لا يمنع من شمول كلٍّ من لفظي: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ﴾ و﴿ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ إلى جانب المذكورين بإزائه في الحديث الشَّريف لمن عداهم من كلِّ من يمكن انطواؤه تحت عموم اللَّفظ. غاية الأمر أنَّ المذكورين مقصودون به قصدًا أوَّليًّا.

إلا أن المدرسة الاجتماعية العقلية في التفسير قالت بالشمول بناء على الأسس العشرة التي قامت عليها هذه المدرسة، ومنها: (الشمول في القرآن).

وعلى أية حال فإن إنكار القول بالشمول -والحالة هذه- مجانب للصواب، والشمول يضفي بعدًا على مفهوم النص. ثم لا حرج عليك بعد ذلك أن توفق بينه وبين المنقول على النحو الذي بينته.

---

(١) أخرجه أحمد [١٩٣٨١]، والطبراني [٢٣٧]، قال الهيثمي (٢٠٨/٦): "رجاله رجال الصحيح غير عماد بن حبيش وهو ثقة". وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٧٢٠٦]. وقد "حكى في تفسير قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة:٧]، نحو عشرة أقوال. وتفسيرها باليهود والنصارى هو الوارد عن النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وجميع الصحابة والتابعين وأتباعهم حتى قال ابن أبي حاتم: لا أعلم في ذلك اختلافًا بين المفسرين" الإتقان في علوم القرآن (٢٤٢/٤- ٢٤٣)، وانظر: التفسير والمفسرون، للدكتور محمد حسين الذهبي (١٠٧/١)، الإسرائيليات والموضوعات، محمد أبو شهبة (ص:٧٣)، الصحيح المسند من أسباب النزول، مُقْبل الوادعِي (ص:٩)، مكتبة ابن تيمية، القاهرة [١٤٠٨هـ].

ولا سيما إذا أضيف إلى ذلك ما يدل على أن الجواب قد يأتي بما يناسب حال السائل، أو بأخطر ما تفشى مما يندرج تحت مفهوم الشمول من انحرافات طائفة قد يكون خطرها في وقت أعظم منه في آخر -وبالله التوفيق-.

الحال الثَّانية: أن يكون التَّعارض بين ظاهر المنقول الثَّابت والمعقول بحيث لا يمكن الجمع بينهما بحال:

فحينئذٍ نقول: لا يخلو هذا المعقول من أن يكون ظنيًّا أو قطعيًّا، فإن كان الأوَّل، وكان المنقول مع ذلك كتابًا أو سنّةً مرفوعةً، أو لها حكم المرفوع من مأثور الصَّحابة أو مأثور التَّابعين بشرطه، أو مجمعًا عليه.. فإنَّهم يردُّون المعقول الظَّني لأجل المنقول.

ومن أمثلة ذلك: أن يفسّر النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لفظًا عامًّا بخاصٍّ متميّزٍ من الأفراد المندرجة تحته مانعًا من إرادة بقيَّة الأفراد كالَّذي حدَّث به البخاريُّ وغيره عن عبد الله -يعني: ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: لَمَّا نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام:٨٢]، قلنا يا رسولَ الله: أَيُّنَا لا يَظْلِمُ نفسه؟ قال: «**ليس كما تقولون، ﴿وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ بِشِرْكٍ، أَوَلَمْ تَسْمَعُوا إلى قولِ لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾** [لقمان:١٣]؟»[١].

فهنا طرح أهلُ السُّنَّة مقتضى المعقول الَّذي هو (عموم النَّكرة في سياق النَّفي)، والَّذي يقضي بعموم الظُّلم في الآية الكريمة لجميع ما يقع تحت اسمه، وأخذوا بمقتضى

---

(١) صحيح البخاري [٣٣٦٠، ٣٤٢٩]، مسلم [١٢٤].

المنقول الَّذي هو تخصيص الظُّلم في الآية الكريمة بواحدٍ متميِّزٍ من (مَا صَدُقَاتِهِ)، وهو الشِّرك.

فإن كان ما يعارض المعقول المظنون من المنقول ليس كتابًا ولا سنَّةً مرفوعةً، ولا ما في حكمها، ولا مجمعًا عليه، قدَّموا المعقول المظنون قضاء بما يوجبه المنطق السَّليم.

وبيَّن الإمام الغزاليُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه: (قانون التَّأويل)[(١)] أنَّه إذا كان بين المعقول والمنقول تصادمٌ في أوَّلِ النَّظر، وظاهر الفكر فقد تحزَّب الخائضون فيه إلى مفرط بتجريد النَّظر إلى المنقول، وإلى مفرط بتجريد النَّظر إلى المعقول، وإلى متوسِّط طمع في الجمع والتَّلفيق. والمتوسِّطون انقسموا إلى من جعل المعقول أصلًا، والمنقول تابعًا، فلم تشتد عنايتهم بالبحث عنه، وإلى من جعل المنقول أصلًا، والمعقول تابعًا، فلم تشتد عنايتهم بالبحث عنه، وإلى من جعل كلَّ واحدٍ أصلًا، ويسعى في التَّأليف والتَّوفيق بينهما، فهم إذن خمس فرق. ثمَّ بيَّن ذلك وفصَّله واختار الفرقة المتوسِّطة، وهي الخامسة الجامعة بين البحث عن المعقول والمنقول الجاعلة كلَّ واحد منهما أصلًا مهمّا، المنكرة لتعارض العقل والشَّرع، وكونه حقًّا، ومن كذَّب العقل فقد كذَّب الشَّرع؛ إذ بالعقل عرف صدق الشَّرع. ولولا صدق دليل العقل لما عرفنا النَّبيَّ من المتنبي، والصَّادق والكاذب. كيف يكذِّب العقلُ بالشَّرع، وما ثبت الشَّرع إلَّا بالعقل؟

---

(١) انظر: قانون التأويل، للإمام الغزالي (ص:٧).

وهؤلاء هم الفرقة المحقَّة، وقد نهجوا منهجا قويمًا، إلَّا أنَّهم ارتقوا مرتقى صعبًا، وطلبوا مطلبًا عظيمًا، وسلكوا سبيلًا شاقًّا..(١).

المطلب الخامس: نماذج من التفسير العلمي للآيات الكونية وآيات الخلق:

١ - انفصال الأرض:

يقول علماء الفلك: إنَّ الأرض انفصلت عن السَّماء، واختلف العلماء في طبيعة هذا الانفصال، فهناك من يقول: إنها انفصلت عن الشمس، ويقول آخرون: إنها انفصلت عن نجم آخر، فالاختلاف ينحصر بينهم في تحديد الجزء الذي انفصلت منه، وإلى ذلك الإشارة في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء:٣٠].

٢ - الماء والحياة:

ولقد تضمنت الآية القرآنية السَّابقة حقيقة علمية أخرى، وهي أنَّ سائل الماء أهم عنصر لوجود الحياة على كوكب الأرض، ولا يوجد سائل على وجه الأرض يصلح أن يكون وسطًا صالحًا للتفاعلات الحيوية في جسم الأحياء غير الماء. ولقد

---

(١) انظر: المصدر نفسه (ص:١٠) فما بعد.

اكتشف لدى بعض الباحثين أنَّ من الأحياء المجهرية كالبكتريا من يستطيع أن يعيش بدون هواء لفترة زمنية، ولكنها لا تستطيع الاستغناء عن الماء.

٣ - موقع اللبن:

بعد تقدم العلم واكتشاف كيفية تكون اللبن في الأنعام، ووجد الباحثين أنَّ الأنزيمات الهاضمة تحول الطعام إلى فرث يسير في الأمعاء الدقيقة حيث تمتص العروق الدموية -الخملات- المواد الغذائية الذائبة من بين الفرث، فيسري الغذاء في الدم، حتى يصل إلى الغدد اللبنية، وهناك تمتص الغدد اللبنية المواد اللبنية التي سيكون منها اللبن من بين الدم فيتكون اللبن، الذي أخرج من بين فرث أولًا، ومن بين دم ثانيًا، وذلك نص صريح تنطق به الآية في القرآن: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةًۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦﴾ [النحل:٦٦].

٤ - انخفاض نسبة الأوكسجين عند الصعود إلى الأعلى:

بعد تمكن الإنسان من الطيران، والترقي في السماء بوسائل النقل الحديثة عرف أنه كلما ارتفع إلى الأعلى في الجو قلَّ الأوكسجين والضغط الجوي، مما يسبب ضيقًا شديدًا في الصدور وعملية التنفس، وذلك عين ما تنطق به الآية قبل طيران الإنسان بثلاثة عشر قرنًا من الزمان كما ورد في القرآن: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [الأنعام:١٢٥].

٥ – طبيعة الجبال كالأوتاد في علم الجيلوجيا:

الوتد يغرس في الرمل؛ لتثبيت الخيمة، والبحارة يلقون بحبل المرساة إلى الأعماق فيعلق حبل المرساة في قاع البحر. وهكذا الجبال غرست في الأرض واخترقت بامتداداتها الطبقة اللزجة التي تقع في أسفل الطبقة الصخرية التي تكون القارات، فأصبحت بالنسبة للقارات كالوتد للخيمة، فالوتد يثبت الخيمة بالجزء الذي يغرس في الصحراء، وحبل المرساة يحفظ السفينة من أن تتحرك وتسيرها الأمواج.

وهكذا الجبال تثبت القارات بالجزء المغروس منها في الطبقة اللزجة التي تقع تحت الطبقة الصخرية التي تتكون منها القارات.

ولولا أن الله عَزَّوَجَلَّ قد خلق الجبال على شكل أوتاد ومسامير تثبت القارات؛ لطافت القارات، ومادت الأرض من تحت أقدامنا. والقرآن يبين هذه الحقيقة في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ۝٧﴾ [النبأ:٧]، ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝١٥﴾ [النحل:١٥]، ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ﴾ [الأنبياء:٣١].

٦ – علم النباتات:

لقد كان معلومًا للناس قديمًا أنَّ الذكورة والأنوثة لا توجد إلَّا في الإنسان والحيوان. أمَّا في النباتات فلم يعلم الناس حقيقة هذا الأمر إلَّا في الوقت الراهن بعلم

النبات مع تقدم علم التشريح للنبات. وقد ذكر القرآن ذلك. يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس:٣٦]. أما قاعدة الزوجيَّة في الكون فقد كان الناس يجهلونها، بينما قررها القرآن في الآية السابقة، وفي قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات:٤٩]، أي: ذكر وأنثى، ومُوجب وسالب، حتى الذرَّة التي هي وحدة البناء الكونيّ لهذا العالم، فيها بروتون وإلكترون، أو شحنة كهربائية موجبة وشُحنة كهربائية سالبة.

والحاصل أن هذا الكون قائمٌ على هذا التقابل وهذا الازدواج، وقاعدة الزوجيَّة قاعدة عامَّة في هذا الكون، كلُّ شيء مزدوج، ليس هناك واحد إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ المتصف بالكمال المطلق، وماعدا الله عَزَّوَجَلَّ كله مزدوج، يكمِّل بعضه بعضًا بالتقابل.

٧ - حقيقة اتساع الكون:

مما تقرر في علم الفلك أن السماء لا تزال في اتساع دائم، سواء في تكوين مدن نجومية جديدة باستمرار، أو في تباعد هذه المدن النجومية بشكل دائم. يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات:٤٧].

٨ - أصل الوقود من الشجر الأخضر:

اكتشف العلماء الكيميائيون أنَّ مصادر الوقود جميعًا أصلها تلك النقطة الخضراء، الموجودة في النبات. فالنقط الخضراء تلك تخزن من وقود الشمس في أجزاء

النبات، وتحوّله إلى مواد نباتية، يسهل أكلها أو حرقها، وإخراج الوقود الكامن في تلك الأجزاء. كما اكتشف العلماء في طبقات الأرض أن أصل البترول وجميع مشتقاته: (بنزين، كيروسين)، وغيرهما.. جميعها مواد متحولة من نبات مطمور بالتراب والصخور، أو حيوانات تغذت على نباتات، وبعد أن ماتت طمرت في الأرض في باطن الأرض تحللت أجسامها وتحولت إلى نفط خام، ثم جري تكريره واستخرج منه الأنواع المختلفة للوقود. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس:٨٠].

٩ – الذباب يعجزنا:

لقد اكتشف الباحثون في علم الحشرات أنَّ الذباب مزود بغدد لعابية طويلة وغنية جدًّا باللعاب. وبمجرد أن يأخذ الذباب شيئًا من الطعام سرعان ما يفرز عليه كمية كبيرة من اللعاب تحوله من فوره إلى مادة أخرى. فإذا أخذ الذباب شيئًا من الطعام، وأردنا إن نسترد منه ذلك الشيء الذي سلبنا فإنا لا نقدر؛ وذلك لأنه يسكب عليه لعابًا بمجرد أن يأخذه ويحوله إلى مادة أخرى, فإذا قتلنا الذباب وأمسكناه وبحثنا عن المادة التي أخذها منا فلن نجد ما أخذ؛ لأنه قد حول ما أخذه إلى شيء آخر. يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج:٧٣].

١٠ - الرياح اللواقح:

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ۝٢٢﴾ [الحجر:٢٢]. في هذه الآية إشارة إلى أن الرياح تلقح السحب فتمتلئ ماء، وذلك بحملها بخار الماء المتصاعد من البحر، وهناك تلقح الرياح ذرات الماء في سحابة سالبة الشحنة الكهربائية مع ذرات ماء في سحابة موجبة الشحنة، وينتج عن ذلك تلقيح ذرة كاملة للماء تقع على الأرض؛ لثقلها.

ومن تصادم السحب السريعة في عملية التلقيح، والاختلاف في شحنتها الموجبة أو السالبة تحدث الشرارة الكهربائيَّة، وتسمى: (البرق)، ويصدر هذا التصادم صوتًا يسمى: (الرعد). كما أنَّ الآية تشير إلى استخدام الرياح في تلقيح النبات، وهذا معروف عند علماء النبات.

والحاصل أن قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾، بمعنى أنها الرياح تلقح السحب فتمتلئ ماء، أي: حوامل بالماء، والسياق يقرِّر ذلك. وليس المراد منها أنها تُلَقِّح الشجر والنبات، وإن كانت هذه حقيقة فإن الآية تشير إليها إشارة.

وإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يسُوقُ الرِّياح بُشْرًا بين يدي رحمته -(بين يدي المطر)-: الرياح لواقح، كالناقة التي تحمل في بطنها حَمْلَها، أو المرأة التي تحمل، لواقح، أي: حوامل بالماء، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالٗا﴾ [الأعراف:٥٧]، أي: بالماء، ﴿سُقۡنَٰهُ

لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف:٥٧]. فالرياح تحمل الماء، وكأنها مُلقَّحة بالماء، هذا هو المراد باللقاح هنا.

١١ – الحواجز بين البحار:

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ۝٥٣﴾ [الفرقان:٥٣]، ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ﴾ [النمل:٦١]، ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠﴾ [الرحمن:١٩-٢٠].

توصل العلماء إلى اكتشاف الحواجز المائية وهي على نوعين:

النوع الأول: الحاجز بين بحرين مالحين. يسمح باختلاط بطيء، بحيث تفقد كمية المياه المنطلقة من بحر لآخر خصائصها وتكتسب خصائص البحر الذي دخلت فيه.

والثاني: الحاجز بين نهر عذب وبين بحر مالح. حيث تلتقي البحار والأنهار وتتمازج مع وجود حاجز يمنع الاختلاط الكامل بينهما، وهذا ما كشف عنه علماء البحار في القرن العشرين عن منطقة المصب بين النهر والبحر والحواجز البحرية بين بحرين مختلفين.

١٢ - نهاية النجوم والكواكب والبحار:

جاء في نهاية النجوم ونهاية الكواكب وصفان مختلفان، ولو رجعنا إلى كتب التفسير واللغة العربية لا نجد تفريقًا بين النجوم والكواكب، ففي بعض الأحيان يطلقون النجوم على الكواكب، والعكس؛ لأنهما يضيئان.

ولكن العلم كشف غير ذلك، والقرآن الكريم ميَّز بين النجم والكواكب.

فقال العلماء: إن الكواكب أجسام صلبة كالأرض والقمر، وأما النجوم فهي نيران ملتهبة، ونهاية النيران الملتهبة أن تطمس، ونهاية الأجسام الصلبة أن تتناثر.

وقد جاء الوصف في القرآن الكريم لنهاية الكواكب مختلفًا عن الوصف لنهاية النجوم، حيث قال الله عَزَّوَجَلَّ في الكواكب: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢﴾ [الانفطار:٢].

وجاء في وصف النجوم: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨﴾ [المرسلات:٨].

وجاء في وصف البحار: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ [التكوير:٦]، أي: أوقدت فصارت نارًا تضطرم، وفي آية أخرى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣﴾ [الانفطار:٣].

وقاع البحر عبارة عن شقوق وخطوط كثيرة وهائلة متصلة بباطن الأرض، فعندما تقذف الأرض ما بداخلها فإنه سيخرج من هذه الشقوق، وتتفجر هذه الشقوق.

١٣ - مسائل أخرى:

وقد ذكروا في مباحث التفسير العلمي للقرآن الكريم كلامًا مطولًا فيما يدل على كرويَّة الأرض، وكذلك في علم الأجنة وأطوار خلق الجنين كما نص عليها القرآن الكريم، ونظرية الحالة الدخانية في بداية نشأة الكون، وذلك من خلال قراءة معاصرة إلى غير ذلك مما جاء مفصلًا في مظانِّه من مباحث التفسير العلمي (١).

المطلب السادس: دفع شبه في هذا الباب:

أولًا: عموم طوفان نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ للبشر، لا لجميع أجزاء الأرض:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ﴾ [هود: ٤٠].

إن أصح ما يمكن أن يقال في طوفان نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنه كان عامًّا بالنسبة لعموم البشر القاطنين على وجه الأرض في بقعة من الأرض محدودة، وليس عامًّا لجميع أجزاء الأرض، كما دلت على ذلك قرائن متعددة.

---

(١) النماذج الآنفة من (موسوعة الشيخ الزنداني) من (ص:٥١٥) إلى (ص:٧١٣)، والإعجاز العلمي في القرآن، محمد سامي محمد علي (ص:٣٦-٩٥)، والمنتخب في تفسير القرآن (ص:٣٧٣- ٣٧٥)، والأدلة المادية على وجود الله عَزَّوَجَلَّ، للشيخ محمد متولي الشعراوي (ص:٩٥-١٢٢)، بتصرف واختصار.

***ويدل على عمومه للبشر:** قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝٧٧﴾ [الصافات:٧٧].

***ويدل على عدم عمومه لجميع أجزاء الأرض القرائن التالية:**

١ - لم يرد نص في عموم الطوفان لجميع أجزاء الأرض. أما البقاع التي ليس فيها بشر فلا دليل إلى الطوفان قد عمها؛ بل هناك من البهائم ما يعيش في المناطق أو الجزر النائية في أقاصي الأرض، أو الأماكن البعيدة شديدة البرودة.

٢ – أن الحكمة من حمل تلك الحيوانات معهم ظاهرة، وهي حاجة البشر إليها في منافع متعددة، كالمأكل، والملبس، والمركب، وغير ذلك، وخشية انقراضها، مع الحاجة إليها كذلك من أجل التوازن في طبيعة الحياة على الأرض.

٣ – أن المقصد من عمومه للبشر متحقق؛ إذ إنهم المخاطبون بالتكليف؛ وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن الحكمة من ذلك الطوفان في إنجاء من نجا، وهلاك من هلك، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ۝٦٤﴾ [الأعراف:٦٤]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝٧٣﴾ [يونس:٧٣]، ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٤﴾ [هود:٤٤]، ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤٨﴾ [هود:٤٨]، ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ

﴿وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٧٧﴾ [الأنبياء:٧٦-٧٧]، ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ١١٧ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٨ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١١٩ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ١٢٠﴾ [الشعراء:١١٧-١٢٠]، ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٤ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٥﴾ [العنكبوت:١٤-١٥]، ﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ ٧٥ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٦ وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ ٧٧ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٧٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٩ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٠ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨١ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ٨٢﴾ [الصافات: ٧٥-٨٢].

٤ – قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ﴾ [العنكبوت:١٤]، وقال عن المكذبين المهلَكين: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٤﴾ [العنكبوت:١٤] فالآية تفيد أن الهلاك قد وقع على أولئك الذين لبث نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ فيهم، وكانوا في نطاق دعوته.

٥ – أن الطوفان وما ترتب عليه من نجاة من نجا، وهلاك من هلك إنما كان بإرادة الله عَزَّ وَجَلَّ وأمره، وله في ذلك الحكمة البالغة، وهو القادر على تحقيقه على النحو الذي أراد.

٦ – أن الحكمة لا تظهر في عموم الطوفان في الأماكن التي لا يقطنها البشر، وبها من الحيوانات ما يبعد انتقاله إلى السفينة؛ لبعد المسافة واختلاف الطبيعة.

٧ – أن البشر في ذلك الوقت كان عددهم قليلًا؛ لقرب زمن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ من زمن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٨ – أن البشر كانوا في ذلك الوقت في بقعة محدودة من الأرض.

٩ – إنما عمرت الأرض بعد الطوفان من ذرية نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ فقط، كما في القرآن من قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يونس:٧٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات:٧٧].

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات:٧٧] يقول: لم يبق إلا ذرية نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ (١).

وأخرج الترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه: عن سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ قال: سام، وحام، ويافث (٢).

---

(١) تفسير الطبري (٢٥/٥٩)، الدر المنثور (٧/٩٩)، ابن كثير (٧/٢٢).

(٢) أخرجه الترمذي [٣٢٣٠]، وقال: "حسن غريب"، وضعفه الحافظ في (إتحاف المهرة) (٦/٣١)، انظر: الدر المنثور (٧/٩٩)، تفسير الطبري (٢١/٥٩)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (١٠/٣٢١٨)، ابن كثير (٧/٢٢). والحديث أخرجه أيضًا: أحمد [٢٠١٠٠]، والروياني [٧٩٣]، والطبراني في (الشاميين) [٢٦٤٤]، والحاكم [٤٠٠٦]، وقال: "صحيح الإسناد" وأقره الذهبي. وقد روي عن عمران بن حصين وسمرة، قال الهيثمي (١/١٩٣): "رواه الطبراني في (الكبير)، ورجاله موثقون".

وعن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فالناس كلهم من ذرية نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ [١].

فلم يبق بعد الطوفان إلا ذرية نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو من نسل شيث عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكان معه في السفينة ثمانون نفسًا، وهم المشار إليهم بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ٤٠﴾ [هود:٤٠]، ومع ذلك فما بقي إلا نسل نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فتوالدوا حتى ملؤا الأرض [٢].

فهذه قرائن ظاهرة على ما قرر من كون الطوفان كان عامًّا بالنسبة لعموم البشر، وليس عامًّا لجميع أجزاء الأرض –والله تعالى أعلم–.

ثانيًا: سجود الشمس:

الشمس ساجدة في كل وقت وحركة، وسجودها باعتبار دلالة الحال من خضوعها لإرادة الله عَزَّوَجَلَّ وأمره، وظهور أثر الصنعة فيها، وفي سائر آيات اللله عَزَّوَجَلَّ الكونية.

وهي بالنظر إلى المخاطبين تظهر وغيب باعتبار الرؤية الحسية بالعين، وأفولها في مكان يقابله ظهورها لآخرين في مكان آخر.

---

(١) تفسير الطبري (٢١/٥٩)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (١٠/٣٢١٨)، الدر المنثور (٧/٩٩)، ابن كثير (٣/٢٩٧)، الكشاف (٤/٤٨).

(٢) انظر: فتح الباري، لابن حجر (١٢/١٩٣).

وهي ليست بمنقطعة عن السجود، فهي ساجدة في كل حال، فهي في حال ظهورها آية ظاهرة للمخاطبين من حيث أثرها وكونها مدركة بالحواس، حيث ينظرون إلى هذه الآية الكونية العظيمة نظر تأمل؛ ليعلموا خضوع هذه الآية الكبرى لأمر الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يملك أحد أن يغير شيئًا في هذا النظام الكوني الذي أبدعه الخالق جَلَّوَعَلَا، فهو مستمر على النحو الذي أراده الله عَزَّوَجَلَّ، وإلى الأمد الذي أراده

قال الله عَزَّوَجَلَّ مخبرًا عن الذي حاجَّ إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ في ربه جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ﴾ [البقرة:٢٥٨]، فالشمس تعمل في هذا الكون بانتظام إلى الأجل الذي أراده الله عَزَّوَجَلَّ عند نهاية العالم، وقيام الساعة.

فهي في تأمل المخاطبين من حيث النظر إلى هذه الآية الكونية العظيمة وإدراك أثرها ساجدة لله عَزَّوَجَلَّ، خاضعة لأمره، وتتوارى عن الأنظار عند أفولها في مكان، لتشرق في مكان آخر عند أقوام آخرين، فتكون آية كونية عظيمة ماثلة أمام أنظارهم، ساجدة لله عَزَّوَجَلَّ، خاضعة لأمره، وعلى هذه فهي ساجدة في كل وقت، وليس هذا مختصًّا بالشمس، فقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن سجود جميع المخلوقات له فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ [الحج:١٨]، فدعا الله عَزَّوَجَلَّ

إلى النظر إلى آياته الكونية الكبرى نظر تأمل واعتبار؛ ليعلموا مدى ضعفهم وافتقارهم إلى الخالق جَلَّ وَعَلَا.

وهذا المعنى هو الذي أراد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إيصاله إلى أبي ذرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حين قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لأبي ذر عندما غربت الشمس: «**أتدري أين تذهب؟**»، قال: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد، فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها يقال لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها، فذلك قوله** جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨﴾ [يس:٣٨]» (١).

وفي (صحيح مسلم): «**أتدرون متى ذاكم؟ ذاك حين** ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾ [الأنعام:١٥٨]».

والمخاطبون في ذلك الوقت هم الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وهم في بيئة صحراوية وأمية، ولا تعي مداركهم أكثر من هذا.

ومنهم: أبو ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الذي روى الحديث، ومع ذلك يقال: إن هذا الحديث آحاد، والصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يرون في كثير من الأحيان الأحاديث بالمعنى الذي يفهمونه؛ لعلمهم بما يحيل المعنى لغة، إلا أن هذه الحقائق الغيبية لا يعلم أحد عن تصورها شيئًا سوى ما جاء من الأحاديث التي سمعوها من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا قصارى جهدهم في النقل، وذاك المعنى الذي قرر هو الذي أراد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) صحيح البخاري [٣١٩٩، ٧٤٢٤]، مسلم [١٥٩].

إيصاله إلى أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وهو الذي يتفق مع نص القرآن الكريم، ولا معدل عنه إلى تأويلات فيها ما فيها من التعسف والتكلف.

أما قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ﴾ [الكهف:٨٦] فمعناه: أي: فيما يبدو له، وهو ظاهر من الآية نفسها، بدليل قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ﴾ [الكهف:٨٦]، أي: في المكان الذي بدا له ذلك مدركًا في منتهى نظره، لا في الموضع الذي تغرب فيه حقيقة؛ إذ ليس للشمس مغرب حقيقي أصلًا.

وقد سماها القرآن الكريم: ﴿مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ﴾ [الكهف:٩٠]، ولم يقل: مشرق الشمس، مع أنه قال في الآية التي قبلها: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ﴾ [الكهف:٨٦]، فكان المتوقع أن يقول في الآية الثانية: مشرق الشمس؛ حتى يكون المشرق في مقابل المغرب، ولكنه جَلَّوَعَلَا قال: ﴿مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ﴾؛ لأن المشهدية مختلفة فالشمس في القطب مستمرة لا تغرب، فيخيل للناظر أن هذا مطلعها؛ وأن ذا القرنين كان أمام الشمس القطبية التي شمس منتصف الليل، والتي ليس بينها وبين الناس ستر، وهذا ما حدده الجغرافيون العرب من موطن يأجوج ومأجوج في المنطقة القطبية.

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُٱللَّهُ: "والمراد بـ: ﴿مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ﴾ [الكهف:٨٦]: مكان مغرب الشمس من حيث يلوح الغروب من جهات المعمور من طريق غزوته أو مملكته. وذلك حيث يلوح أنه لا أرض وراءه بحيث يبدو

الأفق من جهة مستبحرة؛ إذ ليس للشمس مغرب حقيقي إلا فيما يلوح للتخيل" (١).

وذكر الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تحت عنوان شبهة: (غلطة فلكية!): كذَّب الكاتب قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ [يس:٣٨]، وزعم أن ذلك يخالف العلم.. أي علم؟!

.. إن جريان الشمس من أسرتها المعروفة فى فضاء الله عَزَّ وَجَلَّ الواسع مقرر فلكيًّا، لم ينكره أحد قط، ولكن (عبقرى أسيوط) يريد تكذيب القرآن، فحكى دورة الأرض حول محورها، ودورتها حول أمها الشمس، ثم قال: من هذا يتضح أن الشمس لا تجري ولا تذهب لتسجد تحت العرش، وأنها لا تغرب في عين حمئة اهـ.

والاستنتاج مضحك فقد فهم العبقري أن دوران الأرض حول الشمس يعني: أن الشمس ثابتة، وفهم من قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ﴾ [الكهف:٨٦] أن الشمس تغطس فى الماء يوميًا ثم تخرج!

ولم يدرك ما يعرفه الأطفال عندنا أن اختفاء قرص الشمس في الماء إنما هو في عين الرائي لا فى حقيقة الأمر!

أما أن الشمس تسجد لربها جَلَّ وَعَلَا، فإن الجماد، والنبات، والحيوان، والكائنات جمعاء خاضعة لله عَزَّ وَجَلَّ، تسبح بحمده، وتهتف بمجده، وتلبي أمره، وهي طوع مشيئته.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/١٦).

ويوم لا يأذن للشمس في الشروق، وينهي أمر الدنيا، ويفتح يوم الحساب، فمن الذي يعصيه؟ ويظهر أن المسكين فهم من سجود الشمس أنها تصلي ركعتين كسائر البشر!" (١).

ثالثًا: الشهاب الراصد:

وذكر الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ردًّا على ذلك الكاتب الذي أورد شبهة عن الشهب الساقطة، فكذَّب ما ورد في القرآن من أنها رجوم للشياطين.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "جاء في (سورة الجن): ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ [الجن:٨-٩] ونقول: أجمع علماء الكون على رحابته، واتساع آفاقه، والسؤال الذي نورده: هل أبناء آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وحدهم هم العقلاء الذين يحيون فيه؟! أيبني رجل قصرًا من سبعين ألف طبقة، ثم يسكن غرفة منه، ويدع الباقي تصفر فيه الريح؟ فلم بناه بهذه الضخامة؟

---

(١) قذائف الحق، لمحمد الغزالي (ص:٣٥-٣٦)، طبعة دار نهضة مصر، و(ص:١٣٣-١٣٤)، طبعة دار القلم [١٤١١هـ]، وانظر: كتاب: (لا ريب فيه، نقض أوهام حول القرآن)، لأستاذنا الدكتور محمد سالم أبو عاصي (ص:٢١٦-٢١٧).

الواقع أن هناك غيرنا يسكن هذا الكون، ومن هؤلاء: (الجن) الذين تحدثت عنهم الأديان، فإذا حاول أحدهم التمرد، وإفساد الهداية النازلة لأهل الأرض فما المانع من إرسال شهاب وراءه يحرق كيانه؟

ولم يقل القرآن الكريم: إن كل شهاب يلمع فهو وراء شيطان سارق، لم يرد هذا القصر في القرآن قط، فقد تتساقط الشهب لأمور أخرى لا ندريها ولم يعرف العلم المعاصر عنها شيئًا.

ومن هنا فإن القول بأن القرآن أصبح يتناقض مع العلم فى قصة الشهب لغو لا أصل له" (١).

رابعًا: إنكار السماء:

قال الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وينكر الكاتب وجود السماء قائلًا: إن الفكر البشري أيام جهالته أخطأ في فهم الزرقة التي تحيط بنا، فوصفها بأنها سقف الأرض وسماها سماء، ثم جاءت الأديان فأكدت ذلك، وزادت بأن حددت عدد طبقاتها، وظل هذا الاعتقاد سائدًا حتى أبطله العلم.

ونقول: تطلق السماء لغة على كل ما علا. وقد أطلق القرآن الكريم السماء على السحاب. قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ

---

(١) قذائف الحق، لمحمد الغزالي (ص:٣٦)، طبعة دار نهضة مصر، و(ص:١٣٧)، طبعة دار القلم، لا ريب فيه، نقض أوهام حول القرآن (ص:٢٢١-٢٢٢).

مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ﴾ [فاطر:٢٧]، وفي آية أخرى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور:٤٣]، أي: المطر.

ومن الآيتين معًا نعلم أن السماء هي السحاب.

وأطلق القرآن السماء على السقف العادي، وكل ما ارتفع: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ﴾ [الحج:١٥].

وتطلق السماوات السبع على طباق فوقنا لا نعرف: ما هي، ولا ما أبعادها، ولم يتحدث الدين عن مادتها، ولا عن طريقة بنائها، فماذا في العلم يخالف ما أسلفنا بيانه؟

يقول هذا الكاتب: وراء النجوم فراغ لا نهائي، لا محدود..

ونقول هذا كذب، فالكون محدود، والوصف بالمطلق هو لله عَزَّوَجَلَّ وحده، ولم يقل علماء الفلك: إنهم استيقنوا من أن كوننا هذا لا نهائي..

ثم يجيء الكاتب إلى قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ﴾ [الأنبياء:٣٠]، فيزعم أن هذا الرأي يناقض جميع النظريات العلمية، كما يعرف ذلك طلاب المدارس..

لقد فهم الأحمق من الآية أن الأرض كانت ملزوقة في الزرقة الفضائية قبل أن تنفصل وحدها، وهذا ما لم يقله أحد.

سئل ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن هذه الآية فقال: فتق السماء بالمطر، وفتق الأرض بالنبات [(١)].

وهناك رأى علمي بأن المجموعة الشمسية كانت سديمًا، ثم انفصلت عن الشمس وتوابعها على نحو ما نرى.

ونحن لا نصدق ولا نكذب رأيًا علميًّا لم يستقر فى وضعه الأخير.. والمهم أن القرآن يستحيل أن يكون به ما يناقض حقيقة علمية مقررة [(٢)].

ومن الكتب المفيدة في هذا الباب، والتي قد اهتمت برد شبهات كثيرة بأسلوب عصري، ومنهج علمي كتاب: (قذائف الحق)، للشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ، وكتاب: (لا ريب فيه، نقض أوهام حول القرآن)، لأستاذنا الدكتور محمد سالم أبو عاصي [(٣)].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم. انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٨/٢٤٥٠)، وانظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٣/٢٣٦)، الدر المنثور (٥/٦٢٥).

(٢) قذائف الحق، لمحمد الغزالي (ص: ٣٩)، طبعة دار نهضة مصر، و(ص: ١٤٦-١٤٧)، طبعة دار القلم، لا ريب فيه، نقض أوهام حول القرآن (ص:٢٢٤-٢٢٥).

(٣) الكتاب مطبوع في (دار الحرم للنشر والتوزيع)، أمام الباب الخلفي لجامعة الأزهر.

خاتمة:

يتبيَّن ممَّا سبق أنَّ التفسير العلمي إذا كان خاضعًا لضوابط التفسير فيما يخصُّ الظَّاهِرَةَ العلميَّةَ الكونيَّة والمفسِّرَ والنَّص مما تقدم بيانه فإنه يضفي بعدًا لمفهوم النَّص، ويدلُّ على صدق مبلِّغ الخطاب، وإثبات أنَّ ما جاء به حقٌّ، وصدقٌ، ووحيٌ من عند الله عَزَّوَجَلَّ، ففي الإعجاز على اختلاف ألوانه ما يدلُّ على إحكام آياتِ القرآن الكريم حيثُ أَعجزَ الإنسَ والجنَّ عن الإتيانِ بمثله.. وتحدَّاهم مع قيام الدَّافع، وانتفاء المانع، كما أنَّه يُعَزِّزُ ثقةَ المخاطَب -بفتح الطاء المهملة- بالخطاب من خلال إقامةِ الحُجَّة، ودحضِ شُبَهِ المكذِّبين، مع بيان أنَّ تكذيب ما جاء به الرُّسلُ عَلَيهِمُالسَّلَامُ لا يقومُ على حُجَّةٍ، وإنما له اعتباراتٌ أخرى.. وأن الباحث عن الحقيقة بموضوعية وتحرر لا بد أن يبصر الحق.

المبحث السادس عشر

أسـماء السـور

المطلب الأول: تعريف السورة في اللغة والاصطلاح:

أولًا: بيان معنى السورة في اللغة:

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "السور: حائط المدينة، وجمعه: أَسْوارٌ وسِيرَانٌ. و(السُّورُ) أيضًا جمع: سورة، مثل: بُسْرَةٍ وَبُسْرٍ، وهي كل منزلة من البِناء. ومنه: سورَةُ القرآن؛ لأنَّها منزلةٌ بعد منزلةٍ مقطوعةٍ عن الأخرى. والجمع: سُوَرٌ بفتح الواو. ويجوز أن يجمع على (سُورَاتٍ) بسكون الواو وفتحها" (١).

وقال ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "السين والواو والراء أصل واحد يدل على علو وارتفاع. من ذلك: سار يسور: إذا غضب وثار. وإن لغضبه لسورة. والسور: جمع سورة، وهي كل منزلة من البناء" (٢). وسور البناء: يجمع على (سور) بكسر الواو. وسورة القرآن تجمع على (سور) بفتح الواو (٣).

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "السورة: المنزلة الرفيعة، قال الشاعر:

ألم تر أن الله أعطاك سورة ... ترى كلَّ ملك دونها يتذبذب (٤)

---

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (سور) (٢/٦٩٠).

(٢) مقاييس اللغة، مادة: (سور) (٣/١١٥).

(٣) انظر: الكليات (ص:٤٩٤).

(٤) ديوان النابغة الذبياني (ص:٧٣).

وسور المدينة: حائطها المشتمل عليها، وسورة القرآن تشبيهًا بها لكونه محاطًا بها إحاطة السور بالمدينة، أو لكونها منزلة كمنازل القمر، ومن قال: سؤرة فمن أسأرت، أي: أبقيت منها بقية، كأنها قطعة مفردة من جملة القرآن.

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَـٰهَا﴾ [النور:١]، أي: جملة من الأحكام والحكم، وقيل: أسأرت في القدح، أي: أبقيت فيه سؤرًا، أي: بقية" (١).

وقال الْحَرَالِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "السورة تمام جملة من المسموع يحيط بمعنى تام، بمنزلة إحاطة السور بالمدينة" (٢).

وقال التُّورِبِشْتِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "السورة كل منزلة من البناء، ومنها القرآن؛ لأنها منزلة بعد منزلة مقطوعة عن الآخرى، أو قطعة مفردة من جملة القرآن، فكأنما أُخذ من سُور المدينة، وهو حائطها المشتمل عليها؛ تشبيهًا بها؛ لكونها محيطة بها إحاطة السور بالمدينة" (٣).

---

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة: (سور) (ص:٤٣٣-٤٣٤).

(٢) تراث أبي الحسن الْحَرَالِّي المراكشي في التفسير (ص:١٧٠)، التوقيف على مهمات التعاريف (ص:١٩٩).

(٣) الميسر في شرح مصابيح السنة، للتُّورِبِشْتِي (٢/٤٩٠)، التوقيف على مهمات التعاريف (ص:١٩٩).

ثانيًا: بيان معنى السورة في الاصطلاح:

بناء على ما تقدم من بيان معنى السورة في اللغة والذي يؤسس لبيان معنى السورة ووصفها في الاصطلاح؛ فإن معناها في الاصطلاح يرجع إلى ما قيل في الاشتقاق، ومحصل القول في ذلك أن يقال: إن الواو في (السورة) إما أن تكون أصلية، أو منقلبة عن همزة، وبيان ذلك على النحو التالي:

القول الأول: أن تكون الواو في (السورة) أصلية:

وعليه يكون اسمها مشتقًا من:

١ – السور الذي يحيط بالبلد:

أ. أما لأنها طائفة من القرآن محدودة محوزة على حيالها، كالبلد المسور.

ب. أو لأنها محتوية على فنون من العلم وأجناس من الفوائد، كاحتواء سورة المدينة على ما فيها.

٢ – أن تسمى بالسورة التي هي الرتبة:

أ. لأن السور بمنزلة المنازل والمراتب يترقى فيها القارئ: وهي أيضًا في أنفسها مترتبة: طوال وأوساط وقصار.

ب. أو لرفعة شأنها وجلالة محلها في الدين.

القول الثاني: أن تكون واوها منقلبة عن همزة:

فيكون المعنى: قطعة وطائفة من القرآن، كالسؤرة التي هي البقية من الشيء والفضلة منه [١].

ما نخلص إليه من التعريف:

وبناء على ما تقدم فقد قيل في تعريف السورة في الاصطلاح: **(هي مقدار من القرآن يشتمل على آي ذوات فاتحة وخاتمة، أقلها ثلاث آيات)** [٢].

وقيل: **(السورة الطائفة المترجمة توقيفًا من الأحاديث والآثار، أي: المسماة باسم خاص، وأقلها ثلاث آيات).**

قال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(والسورة الطائفة) من القرآن (المترجمة)، أي: المسماة باسم خاص (توقيفًا)، أي: بتوقيف من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ذكر هذا الحد شيخنا العلامة الكافيجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تصيف له [٣]. وليس بصاف عن الإشكال، فقد سمى

---

(١) انظر: الكشاف (١/٩٧)، وفي أصل اشتقاقها بحث. وفيه بحث. انظر: الكليات (ص:٤٩٤)، تهذيب اللغة (١٣/٣٧)، حاشية القونوي على البيضاوي (٢/٤٢١)، الإتقان في علوم القرآن (١/١٨٦).

(٢) قاله الجعبري. انظر: البرهان في علوم القرآن (١/٢٦٤)، الإتقان (١/١٨٦).

(٣) واسمه: (التيسير في قواعد علم التفسير) وهو مطبوع في دار القلم. و(الكافيجي) هو: محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود الرومي الحنفي محيي الدين، أبو عبد الله الكافيجي: من كبار العلماء بالمعقولات، رومي الأصل، اشتهر بمصر، ولازمه السيوطي [١٤] سنة. وعرف بالكافيجي؛ لكثرة اشتغاله =

كثير من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والتابعين رَحِمَهُمُ اللَّهُ سورًا بأسماء من عندهم، كما سمى حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ التوبة بالفاضحة، وسورة العذاب، وسمى سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ الفاتحة بالواقية، وسماها يحيى بن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ بالكافية، وسماها آخر الكنز، وغير ذلك مما بسطناه في (التحبير) في النوع الخامس والتسعين [(١)].

وقال بعضهم: (السورة قطعة لها أول وآخر). ولا يخلو من نظر؛ لصدقه على الآية، وعلى القصة. ثم ظهر لي رجحان الحد الأول، ويكون المراد بالتوقيفي: الاسم الذي تذكر به وتشتهر.

(وأقلها ثلاث آيات) كالكوثر، أي: على عدم عد البسملة آية، إما على عدم كونها من القرآن في كل سورة كما هو مذهب غيرنا، أو على أنها منه لكنها ليست آية من السورة، بل آية مستقلة للفصل -كما هو وجه عندنا-، وليس في السور أقصر من ذلك" [(٢)].

= بالكافية في النحو. ولي وظائف، منها مشيخة الخانقاه الشيخونية. وانتهت إليه رياسة الحنفية بمصر. توفي سنة [٨٧٩ هـ]، له تصانيف، منها: (مختصر في علم التاريخ)، و(أنوار السعادة في شرح كلمتي الشهادة)، و(نزهة المعرب) في النحو، و(التيسير في قواعد التفسير)، وغيرها. انظر في ترجمته: الضوء اللامع (٢٥٩/٧)، مفتاح السعادة (٤٥٤/١)، بغية الوعاة (ص:٤٨)، شذرات الذهب (٣٢٦/٧)، الأعلام (١٥١/٦).

(١) انظر: التحبير في علم التفسير (ص:٣٦٨).

(٢) انظر: تحقيقنا لإتمام الدراية لقراء النقاية، للإمام السيوطي (١٨٥/١-١٨٦).

وقال في (الإتقان): "وقد ثبت جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار، ولولا خشية الإطالة لبينت ذلك" [(١)].

ومما يدل لذلك: ما جاء عن عكرمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: كان المشركون يقولون: سورة البقرة، سورة العنكبوت، يستهزئون بها، فنزل: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥﴾ [الحجر:٩٥] [(٢)].

وقد تعقب أستاذنا العلامة الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الرحمن خليفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ الإمامَ السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله الآنف الذكر، حيث قال: إن كان مراد الحافظ -طيب الله ثراه- في هذا الموطن هو التعميم الشامل لأسماء جميع سور القرآن، أو مراده من الثبوت: زعم مجيء الحديث فى كل اسم من أسماء سور القرآن على درجة صالحة للحجية، من تواتر، أو صحة، أو حسن، فغير مسلم؛ فإن الباحث المتقصي في كتب السنة، وكتب التفسير بالمأثور، يدرك لا محالة أن هذا مطلب عزيز المنال، وأن أقصى ما يظفر به فى أسماء بعض السور آثار ضعيفة فردة، لا ينجبر ضعفها، موقوفة أو مقطوعة في كثير من الأحيان، مما يدل على أن مثل هذه الدعوى من صاحبها لو كانت قصده رَحِمَهُ ٱللَّهُ مجازفة.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (١/١٨٦).

(٢) انظر: الدر المنثور (٥/١٠٤)، الإتقان في علوم القرآن (١/١٨٧)، جمال القراء، لعلم الدين السخاوي (ص:٤٢٣).

وما أورده من حديث عكرمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أعم من المدعى؛ فإن أقصى ما يدل عليه ثبوت التوقيف في خصوص ما سماه من البقرة والعنكبوت، فأما ما وراء ذلك فليس في هذا الحديث عنه عين ولا أثر، ويزيد على ذلك أن الحديث مرسل.

واستدل على ذلك بما قرر من القواعد المسلمة في الاستدلال من نحو قولهم: **(يلزم من ثبوت الأخصِّ ثبوت الأعمِّ، ولا يلزم من ثبوت الأعمِّ ثبوت الأخصِّ)**، و**(شرط موضوع الدَّليل إمَّا أن يكون مساويا لموضوع المدَّعَى أو أعمَّ منه)**.

و**(شـــرط محمول الدَّليل إمَّا أن يكون مســـاويا لمحمول المدَّعى أو أخصَّ منه)**، و**(يلزم من ثبوت الأخصِّ ثبوت الأعمِّ)**.

ويقال من حيث الإجمال: **(المحمولُ الثَّابت لموضوع أخص، أعمُّ من المحمول الثَّابت لموضوع أعم..)**.

وبناء على ما حُرِّر فإنَّ موضوع مدعاه هو جميع السور، على أن موضوع دليله هو خصوص سورتي البقرة والعنكبوت، وثبوت شيء للأخص لا يلزم ثبوته للأعم.

وباعتبار آخر فإن ثبوت التسمية بالتوقيف لسورتين هم أعم من أن يكون معه غيره من ثبوت تلك التسمية لغيرهما، فلا ينتج؛ لما قرر من أنه لا يلزم من ثبوت الأعم ثبوت الأخص، أي: فيكون الدليل على هذا الاعتبار الأخير هو أعم من المدعى، فلا ينتج.

ويقال لمن ادعى ثبوت التوقيف: ما مقصودك من ثبوت التوقيف؟ هل تقصد المعنى الظاهر المتبادر، وهو حصول الشيء بدرجة صالحة للحجية، أو تقصد مجرد الورود أعم من أن يكون حجة أو غير حجة؟ فإن قصدت الأول فهي مجازفة لا تصلح؛ فإن ذلك مصادم للواقع الذي يعرف بالتتبع؛ فإن بعض السور لم يرد فيها شيء عن المعصوم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا عن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ولا عن التابعين رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

وأما إن كان مراده رَحِمَهُ ٱللَّهُ من هذا الثبوت هو مجرد ورود الأثر، ولو على درجة لا تتم بمثلها حجة فغير مفيد أصلًا فيما نحن بصدده، وما يصلح أن يعبر عن مثل هذا بالثبوت، بل كان عليه أن يقول جاء أو ورد ونحو ذلك.

فأما التحقيق الذي نقول به فهو أن التوقيف قد ثبت بالفعل في بعض السور بحيث يتيسر لكل باحث الوقوف على كون تسمية السورة من هذا البعض باسمها المشهور هي بالتوقيف الثابت عن المعصوم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالسند الصحيح من جهة، ثم المشهور عن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ والتابعين رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ المدلول على شهرته بينهم بالسند الصحيح. ولكن مثل هذا لا يتيسر مثله في العديد من السور، فالمنصف يأخذ بالحيطة، ويلزم الجادة، فلا يقول بالتوقيف إلا فيما ثبت فيه التوقيف، وما لم يثبت فإنه يتوقف فيه على أقل تقدير، فيقول: الله أعلم أبالتوقيف هو ولم أطلع عليه أم هو بالاجتهاد؟ (١).

---

(١) انظر ذلك مفصلًا في (التفسير التحليلي لسورة النساء) (ص:٤-١٥).

والذي نرجحه هو ما ذهب إليه أستاذنا العلامة الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الرحمن خليفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، من الجزم بتوقيفية الأسماء التي ورد فيها دليل، وأن نتوقف فيما لم يتوفر له الدليل، هل هو بالتوقيف ولم نطلع عليه أم هو بالاجتهاد؟ ونضرب صفحًا عن الأقوال الأخرى.

المطلب الثاني: الحكمة في تقطيع القرآن سورًا:

ومن أبرز من ذكر أوجه الحكمة في تقطيع القرآن سورًا جار الله الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الكشاف)، فقال: ليست الفائدة في ذلك واحدة، ولأمر ما أنزل الله عَزَّوَجَلَّ التوراة، والإنجيل، والزبور، وسائر ما أوحاه إلى أنبيائه عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ على هذا المنهاج، مسورة، مترجمة السور. وبوب المصنفون في كلِّ فنٍّ كتبهم أبوابًا موشحة الصدور بالتراجم. ومن فوائده:

١ – أن الجنس إذا انطوت تحته أنواع، واشتمل على أصناف، كان أحسن وأنبل وأفخم من أن يكون نوعًا واحدًا.

٢ – أن القارئ إذا ختم سورة أو بابًا من الكتاب ثم أخذ في آخر كان أنشط له، وأبعث على الدرس والتحصيل، منه ولو استمر الكتاب بطوله، ومن ثم جزَّأَ القراء القرآن أسباعًا وأجزاءً وعشورًا وأخماسًا.

٣ - ومنها أن الحافظ إذا حذق السورة (١)، اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها لها فاتحة وخاتمة، فيعظم عنده ما حفظه، ويجل في نفسه ويغتبط به.

ومنه حديث: أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران، جد فينا**» (٢)، ومن ثمة كانت القراءة في الصلاة بسورة تامة أفضل.

ومنها: ومنها أن التفصيل سبب تلاحق الأشكال والنظائر، وملاءمة بعضها لبعض، وبذلك تتلاحظ المعاني، ويتجاوب النظم" (٣).

وذكر الزركشي رَحِمَهُٱللَّهُ في (البرهان) من أوجه الحكمة في تقطيع السور آيات معدودات لكل آية حد ومطلع:

"*حتى تكون كل سورة، بل كل آية فنًّا مستقلًّا، وقرآنًا معتبرًا.

*وفي تسوير السورة تحقيق لكون السورة بمجردها معجزة وآية من آيات الله عَزَّوَجَلَّ.

*وسورت السور طوالًا، وقصارًا، وأوساطًا؛ تنبيهًا على أن الطول ليس من شرط الإعجاز، فهذه (سورة الكوثر) ثلاث آيات، وهي معجزة إعجاز سورة البقرة،

---

(١) قوله: (إذا حذق السورة): حذق الشيء، أي مهر فيه.

(٢) أخرجه أحمد [١٢٢١٥]، والبغوي في (شرح السنة) [٣٧٢٥]. وهو عند ابن حبان [٧٤٤] بلفظ: «.. عد فينا، ذو شأن»، كما أخرجه الطحاوي في (شرح مشكل الآثار) [٣٢١١]، والبيهقي في (إثبات عذاب القبر) [٥٤] بلفظ [٥٤]: «جَلَّ فِينَا».

(٣) الكشاف (١/٩٧-٩٨).

ثم ظهرت لذلك حكمة في التعليم، وتدريج الأطفال من السور القصار إلى ما فوقها يسيرًا يسيرًا؛ تيسيرا من الله عَزَّوَجَلَّ على عباده؛ لحفظ كتابه، فترى الطفل يفرح بإتمام السورة فرح من حصل على حد معتبر، وكذلك المطيل في التلاوة يرتاح عند ختم كل سورة ارتياح المسافر إلى قطع المراحل المسماة مرحلة بعد مرحلة أخرى، إلى أن كل سورة نمط مستقل، فسورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ تترجم عن قصته، وسورة براءة تترجم عن أحوال المنافقين وكامن أسرارهم، وغير ذلك.

فإن قلت: **فهلَّا كانت الكتب السالفة كذلك؟** قلت لوجهين:

أحدهما: أنها لم تكن معجزات من ناحية النظم والترتيب.

والآخر: أنها لم تيسر للحفظ.." (١).

المطلب الثالث: أقسام السور:

روي عن وَاثِلَة بن الْأَسْقَع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاة: السَّبْعَ، وأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُور: الْمَئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيل: الْمَثَانِيَ، وفُضِّلْتُ بالْمُفَصَّل**» (٢).

---

(١) البرهان في علوم القرآن (١/٢٦٤-٢٦٥)، وانظر: مناهل العرفان في علوم القرآن (١/٣٥١).

(٢) أخرجه الطيالسي [١١٠٥]، وأبو عبيد القاسم بن سلام في (فضائل القرآن) (ص:٢٢٥)، وأحمد [١٦٩٨٢]، وابن الضريس في (فضائل القرآن) [١٢٧]، وابن جرير (١/١٠٠)، والطبراني في (الكبير) [١٨٦]، والطحاوي في (شرح مشكل الآثار) [١٣٧٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) =

وعلى هذا فقد قال العلماء: إن سور القرآن أربعة أقسام: (الطوال، والمئون، والمثاني، والمفصل):

١ – السور الطوال:

وهي سبع سور: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف.

فهذه ستة، واختلفوا في السابعة، هل هي الأنفال وبراءة معًا؛ لقصر كل منهما على حدتها، ولاتحاد موضوعهما، وعدم الفصل بينهما بالبسملة، فكانتا كالسورة الواحدة؟ ...

= [٢١٩٢]: عن واثلة. قال المنذري (٢/٢٤٠): "رواه أحمد، وفي إسناده: عمران القطان"، قال الهيثمي (٤٦/٧): "فيه: عمران القطان، وثقه ابن حبان وغيره، وضعفه النسائي وغيره، وبقية رجاله ثقات"، وقال المناوي في (فيض القدير) (٥٦٥/١): "وفيه: عمرو بن مرزوق، أورده الذهبي في (الضعفاء)، وقال: كان يحيى بن سعيد لا يرضاه". واللفظ عند أبي عبيد: «أعطيت السبع مكان التوراة، وأعطيت المئين مكان الإنجيل، وأعطيت المثاني مكان الزبور، وفضلت بالمفصل» انظر: مصاعد النَّظر، للبقاعي (١٣٢/٢). وقد أخرجه أبو عبيد من جهة: سعيد بن بشير، عن قتادة، عن أبي المليح، عن واثلة بن الأسقع، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وهو حديث غريب، وسعيد بن بشير فيه لين، وأخرجه أبو داود الطيالسي في (مسنده) عن عمران، عن قتادة به.

... أم هي سورة يونس؛ لرواية ابن جرير، وابن أبي حاتم رَحِمَهُمَاٱللَّهُ [١] وغيرهما [٢]: عن سعيد بن جبير رَحِمَهُٱللَّهُ، وغيره أن السورة السابعة هي سورة يونس، بدلًا من الأنفال والتوبة؟

وقد صحح هذه الرواية السيوطي رَحِمَهُٱللَّهُ في (الإتقان) [٣]، وهو قول عبد الله بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في رواية سعيد بن جبير، وهو قول جماعة من التابعين [٤].

وسميت بذلك؛ لطولها.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٧/١٣٠)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٧/٢٢٧٢).

(٢) قال السيوطي: "أخرج سعيد بن منصور، وابن الضريس، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في (شعب الإيمان): عن سعيد بن جبير في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ [الحجر:٨٧] قال: السبع الطول: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس. فقيل لابن جبير: ما قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلۡمَثَانِي﴾ قال: ثنى فيها القضاء والقصص. الدر المنثور (٥/٩٦).

(٣) انظر: الإتقان في علوم القرآن (١/٢٢٠).

(٤) انظر: تفسير أبي المظفر السمعاني (٣/١٥٠)، تفسير ابن كثير (١/١٥٥)، فضائل القرآن، لأبي عبيد القاسم بن سلام (ص:٢٢٧)، معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس (٤/٣٨)، فتح الباري، لابن رجب (٧/٦٧).

٢ – المثاني:

وهي التي تلي المئين في عدد الآيات. وقال الفراء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هي السور التي آيها أقل من مائة آية؛ لأنها تثنى، أي: تكرر أكثر مما تثنى الطوال والمئون.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "واختلف في تسميتها مثاني، فقيل: لأنها تثني في كل ركعة، أي: تعاد.

وقيل: لأنها يثنى بها على الله عَزَّوَجَلَّ [(١)].

وقيل: لأنها استثنيت لهذه الأمة لم تنزل على من قبلها" [(٢)].

أو لأنه يُثْنَى فيها القضاء والقصص، كما جاء عن ابن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ [(٣)].

وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: سميت المثاني؛ لما يتردد فيهن من الأخبار والأمثال، والعبر [(٤)].

وقيل: لأنها قد تجاوزت المائة الأولى إلى المائة الثانية [(٥)].

---

(١) أي: يكثر فيها ذلك.

(٢) فتح الباري (٨/ ١٥٨)، وانظر: عمدة القاري (١٨/٨١).

(٣) تقدم.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٧/٢٢٧٢)، الدر المنثور (٥/٩٦)، تفسير الماوردي (النكت والعيون) (٣/١٧١)، التفسير البسيط، لأبي الحسن الواحدي (١٢/٦٥٢).

(٥) انظر: تفسير الماوردي (٣/١٧١)

وقد ردَّ الربيع رَحِمَهُٱللَّهُ القول بأنها سميت مثاني؛ لأن الفرائض، والحدود، والأمثال، والعبر، ثنيت فيها، وقال: هذه الآية، يعني: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧﴾ [الحجر:٨٧] مكية، وأكثر هذه السور السبعة مدنية، وما نزل شيء منها في مكة، فكيف يمكن حمل هذه الآية عليها؟! [١].

والمراد بالمثاني: الفاتحة؛ لحديث أبي سعيد بن المعلى، قال: كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فلم أجبه، فقلت: يا رسول الله، إني كنت أصلي، فقال: «**ألم يقل الله** عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال:٢٤]». ثم قال لي: «**لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن، قبل أن تخرج من المسجد**»، فذهب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ليخرج من المسجد فَذَكَّرْتُهُ، فقال: «﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ [الفاتحة:٢] هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته» [٢].

وحديث: أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم**» [٣].

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب (١٩/١٦٠).

(٢) صحيح البخاري [٤٤٧٤، ٤٦٤٧، ٤٧٠٣، ٥٠٠٦].

(٣) صحيح البخاري [٤٧٠٤].

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أعظم سورة فى القرآن**»، أي: أعظم نفعًا للمتعبدين؛ لأن أم القرآن لا تجزئ الصلاة إلا بها، وليس ذلك لغيرها من السور؛ ولذلك قيل لها: السبع المثاني؛ لأنها تثنى في كل صلاة، هذا قول عليٍّ بن أبي طالب وأبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وغيرهما. ويشهد لهذا قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب**» (١). وفيه: قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هي السبع المثاني**» تفسير لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ [الحجر:٨٧]، أن المراد بها فاتحة الكتاب، وقد روى عن السلف أقوال أخر فى تفسير السبع المثاني، فروى عن ابن عباس وابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنها السبع الطوال؛ لأن الفرائض والقصص تثنى فيها، ويجوز أن يكون المثاني القرآن كله، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر:٢٣]؛ لأن الأخبار تثني فيه.

مما يدل أن قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لأعلمنك أعظم سورة**» لا يوجب تفاضل القرآن بعضه على بعض فى ذاته" (٢).

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأولى ما قيل به في تأويل السبع المثاني: أنها فاتحة الكتاب..." (٣).

---

(١) صحيح البخاري [٧٥٦]، مسلم [٣٩٤].

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/٢٤٥-٢٤٦).

(٣) انظر: الاستذكار (١/٤٤٥-٤٤٦).

وقال ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والصحيح أن السبع هي الفاتحة، وأن القرآن العظيم هو القرآن كله" (١).

وقال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أم القرآن هي فاتحة الكتاب، وكان ابن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يقول: أم القرآن، ويقول: إنما هي فاتحة الكتاب، وأم الكتاب: اللوح المحفوظ.

قلت: ودل الحديث على خلاف قوله. ويقال: إنما سميت أم القرآن؛ لأنها أصل القرآن، وأم كل شيء: أصله، ومن هذا سميت مكة: أم القرى، كأنها أصل القرى ومعظمها.

وقيل: للحمَّى: (أم مِلْدَم) (٢)، كأنهم جعلوها معظم الأوجاع، واللدم: الضرب، فشبهوا ما يكون من الحمى بالضرب الذي يؤلم" (٣).

وفي (المنتقى): "وإنما قيل لها: القرآن العظيم على معنى التخصيص لها بهذا الاسم، وإن كان كل شيء من القرآن قرآنًا عظيمًا، كما يقال في (مكة): بيت الله عَزَّوَجَلَّ، وإن كانت البيوت كلها لله جَلَّوَعَلَا، ولكن على سبيل التخصيص والتعظيم لمكة. ويقال: محمد عبد الله ورسوله، وإن كان كل بشر عبد لله عَزَّوَجَلَّ، وكل رسول رسول لله جَلَّوَعَلَا، على سبيل التخصيص والتعظيم له صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ" (٤).

---

(١) عارضة الأحوذي (٩/١).

(٢) تقول العرب: يقال: (أنا أُمُّ مِلْدَم، آكُلُ اللحم، وأمص الدم). انظر: العين، مادة: (دلم) (٤٦/٨).

(٣) أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري) (١٨٦٨/٣).

(٤) المنتقى شرح الموطأ، لأبي الوليد الباجي (١٥٥/١).

وقال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والواو في هذه الآية ليست بواو العطف الموجبة الفصل بين الشيئين، وإنما هي الواو التي تجيء بمعنى: التخصيص والتفضيل، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخۡلٌ وَرُمَّانٌ ۝٦٨﴾ [الرحمن:٦٨]، وكقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة:٩٨].. ونحو ذلك -والله أعلم- " [١].

وقال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإن قيل: كيف صح عطف «**القرآن**» على «**السبع المثاني**»، وعطف الشيء على نفسه مما لا يجوز؟ قلنا: ليس بذلك، وإنما هو من باب ذكر الشيء بوصفين:

أحدهما: معطوف على الآخر، والتقدير: آتيناك ما يقال له: السبع المثاني والقرآن العظيم، أي: الجامع لهذين النعتين، والسبع بيان لعدد آياتها.

وأقول: لا يبعد أن يكون التعريف في السبع للعهد، والمشار إليه ما في القرآن، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل:١٥-١٦].

وتنكير ﴿سَبۡعٗا﴾ [الحجر:٨٧] في التنزيل للتعظيم والتفخيم، ويشهد له ما يتبعه من قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [الحجر:٨٨]، أي: ولقد آتيناك هذا العظيم الشأن الذي لا يوازيه شيء، فلا تطمح عينك إلى هذا الدنيء الحقير.

---

(١) أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري) (٣/١٧٩٨).

وأما عطف **«القرآن»** على **«السبع المثاني»** المراد منه الفاتحة، فمن باب عطف العام على الخاص؛ تنزيلًا للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات، وإليه أومأ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: **«ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن»** حيث نكر السورة، وأفردها؛ ليدل على أنك إذا تقصيت سورة سورة في القرآن، وجدتها أعظم منها...." [١].

٣ – المئون:

وهي السور التالية للسبع الطوال، والتي تزيد آياتها على مائة أو تقاربها، وسميت بذلك؛ لأن كل سورة منها مائة آية أو نحوها.

٤ – المفصل:

وهو أواخر القرآن، واختلفوا في تعيين أوله على اثني عشر قولًا، فقيل أوله: سورة: ق، وقيل غير ذلك، وصحح النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن أوله الحجرات.

---

(١) الكاشف عن حقائق السنن (١٦٣٩/٥)، وانظر: الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (٣/١٧-٤).

وسمي بالمفصل؛ لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة، وقيل: لقلة المنسوخ منه؛ ولهذا يسمى المحكم أيضًا، كما روى البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «**إنَّ الذي تَدْعُونَهُ المُفَصَّلَ هو المُحْكَم**» (١).

والمفصل ثلاثة أقسام: طوال، وأوساط، وقصار.

فطواله: من أول الحجرات إلى سورة البروج.

وأوساطه: من سورة الطارق إلى سورة البينة.

وقصاره: من سورة الزلزلة إلى آخر القرآن" (٢).

المطلب الرابع: بيان سر التسمية:

إن الشارع الحكيم لم يضع اسم السورة إلا على تمام مسماها عندما تتكامل نجومها.

فإن منع مانع فعلى الأقل على معظم المسمى. فاسم الشيء موضوع لتمام معناه، فإن لم نقل على تمامه فلا أقل من أن يقال على المعظم.

---

(١) صحيح البخاري [٥٠٣٥].

(٢) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن (١/٣٥٢)، وانظر ذلك مفصلًا في البرهان في علوم القرآن، للزركشي (١/٢٤٤-٢٤٨)، الإتقان في علوم القرآن (١/٢٢٠-٢٢٤).

وقد ذكر أستاذنا العلامة إبراهيم عبد الرحمن خليفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (التفسير التحليلي لسورة النساء): "أن البحث عن سر التسمية يجب أن ينحصر في دائرتين اثنين لا ثالث لهما:

أولهما: أن يكون سر التسمية هو بيان موقع السورة من القرآن الكريم:

وذلك منحصر في سورة واحدة هي: الفاتحة، أو فاتحة الكتاب؛ فإن تسمية هذه السورة بذلك إنما هي لبيان محلِّها من القرآن، وأنها أوله وافتتاحه، وإن لم يمنع كون ذلك هو المقصود في الأصالة أن يكون مقصودًا إلى جانبه بالتبع له كون السورة بوصفها فاتحة القرآن قد اشتملت على أكمل ما تعارف عليه البلغاء، من براعة الاستهلال المعروفة والمستحسنة في فاتحة كل كلام بليغ.

وأما الدائرة الثانية فهي أن يكون سر التسمية هو بيان أبرز الموضوعات، أو قل: الموضوع الأبرز في السورة، وبحيث يعد هذا الموضوع بمثابة نقطة الارتكاز التي تدور من حولها حلقة موضوعات السورة بأسرها أو بعبارة أخرى بمثابة المركز للدائرة —كما يقول المهندسون-.

أو بعبارة ثالثة بمثابة المحور للفلك —كما يقول الجغرافيون والفلكيون-.

وهذه الدائرة يتسع نطاقها حتى تشمل جميع سور القرآن باستثناء التسمية بالفاتحة —حسبما سبق لك-.

يقول الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (البرهان) إذ يقول في آخر النوع الرابع عشر الذي عقده في كتابه البرهان للحديث عن معرفة تقسيم القرآن بحسب سوره، وترتيب السور والآيات وعددها، إذ يقول: خاتمة أخرى: في اختصاص كل سورة بما سميت

ينبغي النظر في وجه اختصاص كل سورة بما سميت به، ولا شك أن العرب تراعي في الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصه، أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى.

ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز، كتسمية سورة البقرة بهذا الاسم؛ لقرينة ذكر قصة البقرة المذكورة فيها، وعجيب الحكمة فيها.

وسميت سورة النساء بهذا الاسم؛ لما تردد فيها من كثير من أحكام النساء.

وتسمية سورة الأنعام لما ورد فيها من تفصيل أحوالها، وإن كان قد ورد لفظ الأنعام في غيرها إلا أن التفصيل الوارد في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًاۚ﴾ [الأنعام:١٤٢]، إلى قوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾ [الأنعام:١٤٤]، لم يرد في غيرها كما ورد ذكر النساء في سور إلا أن ما تكرر وبسط من أحكامهن لم يرد في غير سورة النساء، وكذا سورة المائدة لم يرد ذكر المائدة في غيرها، فسميت بما يخصها" (١).

(١) البرهان في علوم القرآن (١/٢٧٠-٢٧١)، وانظر: الإتقان، للسيوطي (١/١٩٧).

وإن كان هذا العلامة لم يتقن التركيز على خصوص النطاق الذي وصفنا لك في هذه الدائرة –كما تراه-" [(١)].

وذكر الإمام محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ اعتباراتٍ لمحدِّدات الإطلاق في التسمية، ومن هذه الاعتبارات: ما يكون مشتركًا بين أكثر من سورة، فينبغي لطالب العلم أن يعيَ هذه المحدِّدات في البحث عن سرِّ التسمية، كموقع السورة، أو الموضوع الأبرز فيها، أو ما كان وصفًا لها، أو باعتبار الإضافة لشيء اختصت بذكره، أو باعتبار الإضافة لما كان ذكره فيها أوفى، أو باعتبار الإضافة لكلمات تقع في السورة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الظاهر أن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ سموا بما حفظوه عن النبيء صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو أخذوا لها أشهر الأسماء التي كان الناس يعرفونها بها ولو كانت التسمية غير مأثورة.

واعلم أن أسماء السور:

١ – إما أن تكون بأوصافها:

مثل: الفاتحة، وسورة الحمد.

٢ – وإما أن تكون بالإضافة لشيء اختصت بذكره:

نحو: سورة لقمان، وسورة يوسف، وسورة البقرة.

٣ – وإما بالإضافة لما كان ذكره فيها أوفى:

نحو: سورة هود، وسورة إبراهيم.

---

(١) انظر: تفصيل القول في ذلك (التفسير التحليلي لسورة النساء) (ص:١٥-٢٢).

٤ – وإما بالإضافة لكلمات تقع في السورة:

نحو: سورة براءة، وسورة حم عسق، وسورة حم السجدة، كما سماها بعض السلف، وسورة فاطر.

وقد سموا مجموع السور المفتتحة بكلمة حم: «آل حم» (١).

٥ – وربما سموا السورتين بوصف واحد:

فقد سموا سورة الكافرون وسورة الإخلاص: المقشقشتين (٢).

---

(١) جاء في (الصحيح): عن أبي وائل، عن عبد الله، قال: غدونا على عبد الله، فقال رجل: قرأت المفصل البارحة، فقال: «هَذًّا كَهَذِّ الشِّعْرِ إنَّا قد سمعنا القراءة، وإنِّي لأَحْفَظُ القُرَنَاءَ التي كان يقرأُ بهِنَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثمانِيَ عَشْرَةَ سُورَةً من المفَصَّل، وسورتين من آلِ حم» صحيح البخاري [٥٠٤٣]، مسلم [٨٢٢]. وقوله: «القرناء» أي: النظائر في الطول والقصر التي كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرن بينها في صلاته. و«آل حم» أي: السور التي أولها: ﴿حمٓ ①﴾، كقولك: فلان من آل فلان.

(٢) يقال: قشقش المريض من علته: إذا برأ. والمقشقشتان –بالكسر–، أي: المبرئتان من الشرك؛ لأنهما بمنزلة كلمة التوحيد في النفي والإثبات. قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: "سورتان من القرآن يقال لهما المقشقِشتان: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ [الإخلاص:١]، و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ①﴾ [الكافرون:١]، و(المشقشتان)، ومعناه: المبرِّئتان من الكفر والشكِّ والنفاق، كما يقشقش الهناء الجرب فيبرئه" مجاز القرآن، لأبي عبيدة (٦/١)، وانظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (قشش) (١٠١٦/٣)، تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٣٠٣/٦)، وانظر: الكشاف (٨٠٨/٤)، (٨٢٤/٤)، تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٢٥)غرائب التفسير، للكرماني (١٣٩٩/٢)، غرائب القرآن (٣٤/١)، معجم ديوان الأدب (١٩٤/٣)، أساس البلاغة، للزمخشري، مادة: (قشش) (٧٩/٢)، مصاعد النَّظر، للبقاعي (٢٨٠/٣)، نظم الدرر (٣٤٤/٢٢-٣٤٥)، حاشية القونوي على البيضاوي (٤٩٠/٢٠). =

واعلم أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم يثبتوا في المصحف أسماء السور، بل اكتفوا بإثبات البسملة في مبدأ كل سورة؛ علامة على الفصل بين السورتين، وإنما فعلوا ذلك كراهة أن يكتبوا في أثناء القرآن ما ليس بآية قرآنية، فاختاروا البسملة؛ لأنها مناسبة للافتتاح مع كونها آية من القرآن.

وفي (الإتقان) [(١)] أن (سورة البينة) سميت في مصحف أبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (سورة أهل الكتاب)، وهذا يؤذن بأنه كان يسمي السور في مصحفه. وكتبت أسماء السور في المصاحف باطراد في عصر التابعين رَحِمَهُمُ اللَّهُ ولم ينكر عليهم ذلك. قال المازري رَحِمَهُ اللَّهُ في (شرح البرهان) عن القاضي أبي بكر الباقلاني رَحِمَهُ اللَّهُ: إن أسماء السور لما كتبت المصاحف كتبت بخط آخر لتتميز عن القرآن، وإن البسملة كانت مكتوبة في أوائل السور بخط لا يتميز عن الخط الذي كتب به القرآن" [(٢)].

= وقيل: إن المعوذتين كان يقال لهما: (المقشقشتان)، أي: مبرئتان من النفاق. انظر: النكت والعيون (٦/٣٧٣).

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن (١/١٩٦).

(٢) التحرير والتنوير (١/٩١).

المطلب الخامس: هل في القرآن الكريم فاضل ومفضول؟

ذكر أستاذنا العلامة إبراهيم عبد الرحمن خليفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الخلاف في هذه القضية يكاد يكون لفظيًّا؛ لأنا لو حرَّرنا محل النزاع لوجدنا أنهم متفقون لا مختلفون.

١ – لأن الذي ينفيه ينظر إلى أن الكل كلام الله عَزَّوَجَلَّ، ومن حيث كونه كلام الله عَزَّوَجَلَّ فلا فاضل ولا مفضول.

٢ – ينظر إليه أيضًا حيثية بلوغ الكل أقصى درجات البلاغة والفصاحة.

وكل القرآن على مستوى واحد من حيث البلاغة والفصاحة، وقد بلغ قمة الذروة.

فمثلًا: سورة الإخلاص أبلغ وأفضل ما يكون في التوحيد.

وسورة المسد أبلغ وأفضل ما يكون في بابها (في ذم أبي لهب..).

فلا نقارن بين سورتين في موضعين مختلفين.

فالنافي يتكلم من حيثيات لا نجد محلًا للنزاع فيها.

والمثبت يثبت أن للسورة الفلانية أجرًا أكثر من سورة كذا.

وهذا لا خلاف فيه لثبوت النص.

أو موضوع السورة الفلانية أعظم من موضوع سورة أخرى.

فموضوع سورة الإخلاص –مثلا– أعظم من موضوع سورة المسد...وهكذا.

ويصح أن نقول –مثلا–: فضل سورة النساء على سورة البقرة من حيث اشتمال النساء على كذا وكذا.

نهاية

الجزء الثاني

من

تذكرة وبيان من علوم القرآن

ويليه الجزء الثالث

ومن موضوعات الجزء الثالث: التجديد في التفسير، وتنوع أوجه الاستدلال وغير ذلك الموضوعات التي لا يستغنى عنها في علوم القرآن والتفسير.

المؤلف في سطور:

الاسم: عبد القادر محمد المعتصم دهمان.

الميلاد: من مواليد مدينة حمص في سوريا.

محل الإقامة: الكويت، محافظة الفروانية، ضاحية عبد الله المبارك الصباح.

المؤهل والخبرات:

١ – حاصل على شهادة المعهد العلمي الشَّرعي التابع لجمعيَّة العلماء في مدينة (حمص) بتاريخ (١٥/١٢/١٤١٣هـ)، بتقدير: (امتياز). وعلى شهادة الثَّانوية الأزهريَّة (القسم الأدبي) من (القاهرة).

٢ – حاصل على درجة الإجازة العالية (الليسانس) من كليَّة أصول الدين بجامعة الأزهر في (القاهرة)، بتاريخ (٢) من ربيع الآخر [١٤١٨هـ]، (٦/أغسطس/١٩٩٧م) بتقدير: جيد جدًّا، قسم التفسير وعلوم القرآن.

٣ – حاصل على درجة دبلوم الدِّراسات العليا (الماجستير) في التَّفسير وعلوم القرآن، وذلك بعد مناقشة رسالة بعنوان: (الإقناع بين طريقة القرآن وعرض المفسِّر)، وذلك يوم الأربعاء الواقع في (٧/ذي الحجة/١٤٢٤هـ)، الموافق (٢٩/١/٢٠٠٤م). وقد طبعت رسالة الماجستير

مع تحقيقات وزيادات وتعديلات جديدة بعنوان (وسائل الإقناع في القرآن) في دار الفتح للدراسات والنشر، عمان، الأردن [٢٠١٦م].

٤ – حاصل على درجة الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن، بعد مناقشة رسالة بعنوان: (أساليب الخطاب في القرآن الكريم). دراسة تحليلية شاملة لأساليب الخطاب والطلب في القرآن الكريم. وذلك يوم السبت الواقع في (٢٠١١/٧/٣٠)، الموافق (٢٩/شعبان/١٤٣٢هـ). وقد طبعت رسالة الدكتوراه في مجلدين مع تحقيقات وزيادات وتعديلات جديدة في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت، قطاع الشؤون الثقافية، مجلة الوعي الإسلامي، الإصدار مائة وأحد عشر، غراس للنشر والتوزيع، الكويت [١٤٣٦هـ].

عمل إمامًا وخطيبًا ومدرِّسًا في (سوريا)، وكذلك في (الكويت) ولا يزال. وعمل مُوَجِّهًا فنيًّا في المراقبة الثَّقافية في وزارة الأوقاف إدارة مساجد محافظة (الفروانيَّة)، ثمَّ باحثًا شرعيًّا ومُوَجِّهًا [٢١] عامًا في (المراقبة الثقافية في إدارة مساجد محافظة الفروانية)، وإمامًا وخطيبًا في محافظة (الفروانيَّة) [٢٢] عامًا، ولا يزال.

ومدرسًا في كلية التربية الأساسية في الهيئة العامة للتعليم التطبيقي، قسم الدراسات الإسلامية (الكويت – العارضية).

بعض المشايخ الذين عاصرهم وانتفع بهم:

في مدينة حمص:

١ — الشيخ محمود جنيد كعكة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٢ — الشيخ أبو السعود بسمار رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٣ — الشيخ أحمد الكعكة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٤ — الشيخ محمد جندل الرفاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٥ – الشيخ عزت عبيد الدعاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٦ – الشيخ عبد الوكيل صافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٧ – الشيخ إسماعيل المجذوب حفظه الله.

٨ – الشيخ وحيد بحلاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

في مصر:

١ – الأستاذ الدكتور العلامة إبراهيم عبد الرحمن خليفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ شيخ المفسرين في (عصره).

٢ – الأستاذ الدكتور عبد الغفور محمود مصطفى جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٣ – الأستاذ الدكتور عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٤ – الأستاذ الدكتور سعد رزق جاويش رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٥ – الأستاذ الدكتور إسماعيل الدفتار رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٦ – الأستاذ الدكتور محمد محمد الشريف حفظه الله.

٧ – الأستاذ الدكتور محمود حمدي زقزوق رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٨ – الأستاذ الدكتور عبد المعطي بيومي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٩ – الأستاذ الدكتور محمد سالم أبو عاصي حفظه الله.

الكتب والمؤلفات:

١ – الجزء الأول من كتاب: **(تذكرة وبيان من علوم القرآن)**، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر، الطبعة الأولى: [١٤٤٣هـ، ٢٠٢١م].

٢ – **(مَجَارِي الكِنَايَة فِي اللُّغَة وعِلْمِ البَيَان والتَّفْسِيْر والفِقْه وأُصُوْلِه)**:

جاء في مقدمة الكتاب: "وقد كنتُ قد بحثتُ من مقاصدِ علم البيان كلًّا من: (التشبيه، والاستعارة، والمجاز المرسل)، في كتاب: (تذكرة وبيان من علوم القرآن)، ووعدتُ بأن يكون مبحث الكناية في صدر الجزء الثاني من كتابي: (تذكرة وبيان من علوم القرآن).

ولما رأيت ما للكناية من تشعبات في علوم متنوعة رأيتُ إفرادها البحث؛ لحاجة طالب العلم، والباحث في علوم: (اللغة، والبلاغة، والتفسير، والفقه، وأصوله) لمعرفة مجاري الكناية في هذه العلوم".

الطبعة الأولى، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤٥هـ]، الموافق [٢٠٢٣م].

٣ – **(الإرشادات المنهجية إلى تفسير الآيات الكونية)** (إضاءات على تعريف التفسير العلمي وضوابطه، ومبادئه العشرة)، العبيكان، [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م]، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ]، الموافق [٢٠٢٠م].

وقد طبع قسم منه في (جامعة النيلين)، السودان. بعنوان: (مبادئ التفسير العلمي لنصوص القرآن الكريم وضوابط التعريف)، كبحث (محكم).

٤ – **(وسائل الإقناع في القرآن الكريم)**، دار الفتح للدراسات والنشر، عمان، الأردن [٢٠١٦م].

٥ – **(أساليب الخطاب في القرآن الكريم)**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت، قطاع الشؤون الثقافية، مجلة الوعي الإسلامي، الإصدار مائة وأحد عشر، غراس للنشر والتوزيع، الكويت [١٤٣٦هـ].

٦ – **(التربية الوقائية من آفات التفكك الأسري)**، وقد كان طبع في وزارة الأوقاف، في إدارة مساجد محافظة الفروانية، في دولة الكويت سنة [١٤٣٥هـ]، الموافق [٢٠١٤م]، رقم

الإيداع ٢٠١٤/٤١م. WWW.islam.gov.kw. بعنوان: (أخطار تهدد الأسرة). وأعيد طبعه في (دار اللؤلؤة)، مع إضافات وبعض التعديلات.

وقد اعتمد جزء منه كبحث محكم، في كلية الدراسات الإسلامية، مدينة: (نوفي بازار)، جمهوريا صربيا، وطبع في كتاب: (المؤتمر العالمي: العلوم الإنسانية والشرعية قضايا ومناهج وآفاق) في (٢٨-٢٩ يوليو/تموز ٢٠٢١م، كلية الدراسات الإسلامية، مدينة نوفي بازار، جمهوريا صربيا، (ص:٥٤٤-٥٦٦).

٧ - (**المحبة صورها وأحكامها، وزارة الأوقاف**)، دولة الكويت، إدارة مساجد محافظة الفروانية، مطبعة النظائر [١٤٣٧هـ]. أعيد طبع الكتاب بإصلاحات وإضافات وتحقيقات جديدة في (دار اللؤلؤة)، المنصورة، مصر [١٤٣٩هـ، الموافق ٢٠١٨م]، الإصدار الثالث بإصلاحات جديدة، العبيكان [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م].

٨ - (**عقبات في طريق الهداية، وسبل الوقاية منها**)، والكتاب يتناول خمسة وخمسين موضوعًا من حيث التعريف وبيان الخطر والتربية الوقائية. طبع في (دار اللؤلؤة)، المنصورة، مصر [١٤٣٩هـ]، الموافق [٢٠١٨م]، الإصدار الثاني، العبيكان، الرياض [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م].

٩ - (**دروس وعبر من رحلة سيد البشر** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ). كتيب. وزارة الأوقاف، دولة الكويت، إدارة مساجد محافظة الفروانية، الطبعة الأولى [١٤٣٩هـ]، [٢٠١٨م]، الإصدار الثاني، العبيكان، الرياض [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م].

١٠ - (**نهج الأبرار في اجتناب ما توعد عليه بالنار**). والكتاب يتناول موضوعات كثيرة من حيث التعريف وبيان الخطر والتربية الوقائية. العبيكان، [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م]، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ]، الموافق [٢٠٢٠م].

١١ – **(سبيل الوصول إلى عنوان الأصول)** (في الأصول)، وهو شرح وتحقيق ودراسة لعنوان الأصول في أصول الفقه، لأبي حامد المطرزي. مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٦هـ].

١٢ – **(الْإِرْشَادُ إِلَى أَسْبَابِ النَّجَاة، والوَسَائِلُ النَّاجِعَةُ لِحَيَاةٍ طَيْبَةٍ نَافِعَة)**، الطبعة الأولى، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤٥هـ]، الموافق [٢٠٢٣م].

١٣ – **(أساليب النداء في القرآن الكريم)**، دراسة تحليلية لآيات النداء تتناول (الأداة، والمنادَى، والمنادِي، وما ولي الأداة والمنادَى)، العبيكان، الرياض [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م]، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ]، الموافق [٢٠٢٠م].

١٤ – **(تنوير المستبصر الفائز ببيان أحكام الجنائز)**، شرح وتحقيق كتاب الجنائز للفقير إلى رحمة ربِّه العلي إبراهيم بن يوسف البولوي، توفي سنه [١٠٤١هـ]. مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٥هـ].

١٥ – **(آفات اللسان وسبل الوقاية والعلاج منها)**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة الكويت [١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م]، العبيكان، الرياض [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م].

١٦ – **(كتب عليكم الصيام)**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة الكويت [١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م].

١٧ – **(ثلاث رسائل في الفقه)**، للعلامة حسن الشرنبلالي المتوفى سنة [١٠٦٩هـ]، وهي على النحو التالي:

أ. **(دُرُّ الكُنوز فمن عمل بها بالسعادة يفوز)**. وهي منظومة في أحكام الصلاة.

ب. **(سعادة الماجد بعمارة المساجد)**.

ج. (**إتحاف ذوي الإتقان بحكم الرهان**). مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٦هـ].

١٨ – (**عنوان الأصول**)، لأبي حامد المطرزي. مع شرحنا له، مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٦هـ].

١٩ – (**أحكام الجنائز**)، لإبراهيم بن يوسف البولوي، توفي سنه [١٠٤١هـ]. مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٥هـ].

٢٠ – (**إتحاف المهتدين بمناقب أئمَّة الدِّين**) مختصر (تنوير بصائر المقلدين في مناقب الأئمَّة المجتهدين) للشيخ مرعي الحنبلي، اختصار الشيخ أحمد الدمنهوري المتوفى سنة [١١٠١هـ]، الطبعة الأولى، دار الضياء، الكويت [١٤٣٥هـ].

٢١ – تحقيق ودراسة وشرح منظومتي الشهداء:

أ. (**داعي الهدى بشرح منظومة الشهدا**)، للإمام أحمد بن عبد الرَّزاق المغربي الرَّشيدي.

ب. (**شرح منظومة الشهداء**)، للإمام علي بن محمَّد الأجهوري، الطبعة الأولى، دار الضياء، الكويت [١٤٣٤هـ].

٢٢ – (**تحقيق ودراسة رسالتان في الأصول**)، لإسماعيل بن غنيم الجوهري المتوفى سنة [١١٦٥ هـ]:

أ. (**رسالة في جواز النسخ**).

ب. (**الكلم الجوامع في مسألة الأصولي لجمع الجوامع**)، الطبعة الأولى، دار الضياء، الكويت [١٤٣٤هـ].

٢٣ – دراسة وتحقيق **(سورة الفاتحة)** من التيسير في التفسير المسمى ببحر علوم التفسير، لنجم الدين عمر بن محمد النسفي [٥٣٧ هـ]، لم يطبع.

٢٤ – تحقيق ودراسة وشرح لكتاب: **(إتمام الدراية شرح نقاية العلوم)**، وهي خلاصة مختارة من أربعة عشر علمًا، للإمام جلال الدين السيوطي، المتوفى سنة [٩١١هـ]، دار الضياء، الكويت، طبع في مجلدين، وقد شارك في تحقيق (إتمام الدراية) الدكتور عبد الرقيب صالح الشامي، وفضيلة الشيخ مصطفى محمود سليخ.

٢٥ – **(الإفساد في الأرض صوره وأسبابه وسبل الوقاية منه في ضوء الكتاب والسنة)**، العبيكان [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م]، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ]، الموافق [٢٠٢٠م].

٢٦ – **(الخيانة صورها وأحكامها وآثارها في ضوء الكتاب والسنة)**، العبيكان [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م]، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ]، الموافق [٢٠٢٠م].

٢٧ – تحقيق ودراسة لكتاب: **(تبيين المحارم)**، للإمام سنان الدين يوسف بن عبد الله الأماسي الحنفي، نزيل مكة، والمتوفى بها في حدود سنة ألف للهجرة، مقابل على سبع مخطوطات، بالاشتراك مع الدكتور عبد الرقيب صالح الشامي، وأ.د إقبال عبد العزيز المطوع، لم يطبع بعد. وفي الكتاب ما يقرب من مائة باب من المحرمات، مرتبة على ترتيب ما وقع في القرآن من الآيات، والكتاب في طور الإعداد للطبع.

٢٨ – **(مختارات من خطب الدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان)**، لم يطبع.

٢٩ – الجزء الثاني من **(تذكرة وبيان من علوم القرآن)**، لم يطبع.

٣٠ – **الزَّمان والهداية والاعتبار في قصص القرآن والأحاديث والأخبار:**

وقد جاء فيه: بيان مفهوم الزمان في الاصطلاح واعتبار الشارع، والألفاظ ذات الصلة، ثم التجوز في الأفعال في قصص القرآن، ثم بيان دلالات ومقاصد القسم بالزمن في القرآن الكريم، ثم بيان مقاصد القصص والأخبار، ثم بيان الأزمنة الفاضلة، ثم ذكر الألفاظ يحتاجها المفسر والفقيه مع بيان دلالاتها وما يتصل بها من أعمال، وذكر أسماء وأفعال الزمن الحال والمقارب، وأفعال المقاربة والشروع، وأسماء الزمن المتجدد أو ما يغلب استعماله في التجدد، والزمن الخاص بالمرأة، وما يغلب إطلاقه في الاصطلاح الشرعي على ما يخص المرأة، وأسماء السنة وبيان أجزائها، ودلالة الفعل وأقسامه على الزمن، دلالة النواسخ الفعلية على الزمان، ودلالة الحال، ودلالة اسم الزمان والظرف في اللغة، والدلالة على الزمن باعتبار الإضافة والقطع عنها، والدلالة على الزمان باعتبار الشرط والاستفهام، وغير ذلك.

٣١ – الجزء الثاني من كتاب: **(تذكرة وبيان من علوم القرآن)**، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر.

فهرس الجزء الثاني
من تذكرة وبيان من علوم القرآن

مقدمة.. ٥

المبحث الثاني عشر: مجاري الكناية في التفسير................. ٩

توطئة.. ١١

المطلب الأول: تعريف الكناية في اللغة.......................... ١٤

أولًا: الكناية في لسان أهل اللغة.................................. ١٤

ثانيًا: الكناية في عرف اللغة..................................... ١٥

ثالثًا: تعريف الكناية في اصطلاح علماء البيان........................ ١٦

رابعًا: تقرير معنى الكناية عند علماء البيان.......................... ١٧

الطريق الأول.. ١٧

الطريق الثاني.. ١٨

خامسًا: إرادة المعنى اللغوي من الكناية في التفسير........................ ٣٠
سادسًا: التصريح قد يكون أبلغ من الكناية.................................. ٣٢
المطلب الثاني: وجود الكناية في القرآن الكريم.............. ٣٢
المطلب الثالث: بيان بلاغة الكناية وأهميتها وأغراضها....... ٣٧
المطلب الرابع: بيان أغراض الكناية وفوائدها................. ٤٢
أولًا: قصد الاختصار، وبلاغة الإيجاز.. ٤٣
ثانيًا: استعمال الكناية في مواضع لا يحسن التصريح فيها بصريح الكلام......... ٤٤
ثالثًا: التنبيه على عظم قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، وشدة تمكنه جَلَّوَعَلَا وتصرفه في الخلق...... ٤٧
رابعًا: الإشارة إلى فطنة المخاطب.. ٤٨
خامسًا: استعمال لفظ هو أجمل وأبلغ من الصريح.............................. ٥٠
سادسًا: تحسين اللفظ وتزيينه.. ٥٢
سابعًا: قصد المبالغة والبلاغة.. ٥٥
ثامنًا: الكناية عن الشيء ببعض ما ينسب إليه من عادة أو طبع................ ٥٧
تاسعًا: التنبيه على العاقبة والمصير... ٥٨
خلاصة في إجمال أغراض الكناية... ٦٠
المطلب الخامس: الكناية بين الحقيقة والمجاز.............. ٦١
مسألة: في بيان محددات الإطلاق في التفسير................. ٦٣
المطلب السادس: أقسام الكناية................................ ٦٣

أولًا: كناية عن موصوف لم يصرح به في الكلام.......................... ٦٣
١ – تعريفها وبيان نوعيها.................................... ٦٣
٢ – نماذج من الكناية عن موصوف.................................... ٦٥
ثانيًا: كناية عن صفة لم يصرح بها في الكلام.......................... ٦٧
١ – تعريفها وبيان نوعيها.................................... ٦٧
٢ – نماذج من الكناية عن صفة.................................... ٦٨
ثالثًا: كناية عن نسبة بين أمرين غير مصرح بها في الكلام.................. ٧٠
١ – تعريفها ومثالها في الإيجاب والنفي.................................... ٧٠
٢ – نماذج من الكناية عن نسبة.................................... ٧٢
المطلب السابع: أقسام الكناية باعتبار الوسائط.............. ٧٣
أولًا: التعريض.................................... ٧٤
ثانيًا: التلويح.................................... ٧٩
ثالثًا: الرمز.................................... ٨٢
رابعًا: الإيماء والإشارة.................................... ٨٣
خلاصة نافعة في التمييز بين الاصطلاحات.................... ٨٥

المبحث الثالث عشر: قصص القرآن هداية واعتبار..............٨٩

توطئة..٩١

المطلب الأول: بيان معنى القصة في اللغة والاصطلاح........٩٤

أولًا: تحرير معنى القصة في اللغة وما يتصل بمادة اللفظ من المعاني..............٩٤

ثانيًا: تحرير معنى القصة في الاصطلاح..................................١٠٠

ثالثًا: فروق مميِّزة بين الاصطلاحات...................................١٠٢

١ - الفرق بين المثل والقصة...١٠٢

٢ - الفرق بين القصة والحديث...١٠٢

المطلب الثاني: التجوز في الأفعال في قصص القرآن وكلام الله عَزَّوَجَلَّ...١٠٦

أولًا: وقوع الماضي موقع المستقبل في كلام الله عَزَّوَجَلَّ.....................١٠٦

ثانيًا: أوجه التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي وعكسه......................١١٠

ثالثًا: التعبير عن المستقبل باسم الفاعل واسم المفعول......................١١٥

رابعًا: التعبير عن الماضي بلفظ المضارع...................................١١٦

خامسًا: التعبير عن الحاضر بالمستقبل.....................................١١٨

سادسًا: اعتبار مجيء التجوز بالأفعال مقيدًا بالشرط، أو غير مقيد...........١٢١

المطلب الثالث: الخصائص والمقاصد..............................١٢٤

أولًا: الزمان والغاية..١٢٤
ثانيًا: ربانية المصدر والغاية..١٢٤
ثالثًا: إثبات الوحدانية لله عَزَّوَجَلَّ، والتحرر من العبودية لغيره....................١٣١
رابعًا: إثبات الوحي والرسالة..١٣٧
خامسًا: إثبات البعث والجزاء..١٤٥
سادسًا: تثبيت فؤاد النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأمته................................١٤٨
سابعًا: الاقتداء بأئمة الهدى والاعتبار بحال أهل الضلال ومآلهم...............١٥٣
ثامنًا: بيان أن ما جاء به الرسل عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ يخرج من مشكاة واحدة.............١٥٩
تاسعًا: معرفة سنن الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الكون................................١٦١
عاشرًا: القرآن الكريم إنما يعنى بالمهمات................................١٨٠
حادي عشر: إبراز كثير مما أخفاه أهل الكتاب..........................١٨٢
ثاني عشر: تنبيه الإنسان من الغفلة......................................١٨٥
ثالث عشر: الإرشاد إلى آداب المناظرة والحوار، وإقامة الحجة على المخالف...١٨٨
رابع عشر: كشف خفاء واقعة ذات حلقات المتتابعة......................١٩٣
خامس عشر: الدَّعوة إلى الخير والإصلاح، والنهي عن الفساد في الأرض.....١٩٤
سادس عشر: محاربة اليأس القنوط......................................١٩٥
سابع عشر: بيان قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، وإحاطته بكل شيء علمًا.................٢٠٣
ثامن عشر: التحذير من المهلكات......................................٢٠٥

المطلب الرابع: صحة النقل...٢٠٩
المطلب الخامس: الأهداف التربوية للقصة (قصة لقمان عليه السلام أنموذجًا)..٢١٤
المطلب السادس: الأسلوب التأثيري للقصة..........................٢٣٧
المطلب السابع: التنويه بجوانب الإعجاز في قصص القرآن الكريم.......٢٤٦
المطلب الثامن: فوائد أخرى متفرقة وبيان بلاغة التكرار.........٢٤٨

المبحث الرابع عشر: الإعجاز بين الإقناع والإمتاع.................٢٦٣

المطلب الأول: تحقيق المراد من الإعجاز في اللغة والاصطلاح....٢٦٥
أولًا: المراد من الإعجاز في اللغة.......................................٢٦٥
ثانيًا: المراد من الإعجاز في الاصطلاح...................................٢٦٦
ثالثًا: الترجيح الذي نختاره..٢٦٩
المطلب الثاني: تعدد جوانب الإعجاز في القرآن الكريم......٢٧١
المطلب الثالث: العناية بمسائل الإعجاز.............................٢٨٣
١ – الجاحظ المتوفى سنة [٢٢٥هـ] ٢٨٤
٢ – محمد بن زيد الواسطي المتوفى سنة [٣٠٧هـ] ٢٨٤
٣ – علي بن عيسى الرماني المتوفى سنة [٣٨٤هـ] ٢٨٥
٤ – أبو سليمان الخطابي المتوفى سنة [٣٨٨هـ] ٢٨٧

٥ – القاضي أبو بكر الباقلاني المتوفى سنة [٤٠٣هـ] ٢٩٠
٦ – القاضي عبد الجبار المتوفى سنة [٤١٥هـ] ٢٩٢
٧ – عبد الملك بن محمد الثعالبي المتوفى سنة [٤٢٩هـ] ٢٩٥
٨ – عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة [٤٧١هـ] ٢٩٦
٩ – أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري المتوفى سنة [٥٣٨هـ] ٣٠٠
١٠ – القاضي عياض بن موسى المتوفى سنة [٥٤٤هـ] ٣٠٦
١١ – فخر الدين الرازي المتوفى سنة [٦٠٦هـ] ٣٠٩
– مكانة تفسير الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وتحرير القول في أنه لم يتمه...................٣١٠
– كتاب: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز...................................٣١٦
– وصية الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قبل رحيله عن الدنيا..............................٣١٧
١٢ – عبد الواحد بن عبد الزملكاني المتوفى سنة [٦٥١هـ] ٣٢٠
١٣ – ابن أبي الأصبع المصري المتوفى سنة [٦٥٤هـ] ٣٢١
١٤ – عز بن عبد السلام المتوفى سنة [٦٦٠هـ] ٣٢٢
١٥ – جمال الدين بن النقيب المتوفى [٦٩٨هـ] ٣٢٥
١٦ – يحيى بن حمزة المتوفى سنة [٧٤٥هـ] ٣٢٦
١٧ – سعد الدين التفتازاني المتوفى سنة [٧٩٢هـ] ٣٢٩
١٨ – محمد عبده المتوفى سنة [١٣٢٣هـ] ٣٣٠
١٩ – مصطفى صادق الرافعي المتوفى سنة [١٣٥٦هـ] ٣٣٢

٢٠ – محمد عبد الله دراز المتوفى سنة [١٣٧٧هـ] ٣٣٣
٢١ – محمد الخضر الحسين المتوفى [١٣٧٧هـ] ٣٣٤
٢٢ – بديع الزمان سعيد النّورسي المتوفى سنة [١٣٧٩هـ] ٣٣٤
٢٣ – سيد قطب المتوفى سنة [١٣٨٦هـ] ٣٣٥
٢٤ – محمد الطاهر بن عاشور المتوفى سنة [١٣٩٣هـ] ٣٣٦
٢٥ – محمد عبد الخالق عضيمة المتوفى سنة [١٤٠٤هـ] ٣٣٩
٢٦ – محمد متولي الشعراوي المتوفى سنة [١٤١٩هـ] ٣٤٠
خاتمة...٣٤٠
المطلب الثالث: القدر المعجز من القرآن، وبطلان القول بالصرفة.....٣٤١
المطلب الرابع: بيان ما يتحقّق به الإعجاز..........................٣٤٤
المطلب الخامس: ذكر جملة من أوجه إعجاز القرآن...................٣٤٦
أولًا: الإعجاز الغيبي في القصص والأخبار.............................٣٤٧
١ – غيب الماضي...٣٤٨
٢ – غيب الحاضر...٣٥١
٣ – غيب المستقبل...٣٥٢
ثانيًا: الإعجاز في خصائص القرآن الكريم وأسلوبه........................٣٦٠
١ – جريانه على نسق بديع خارج عن المألوف...............................٣٦٠
٢ – جريانه على مستوى رفيع واحد على الرغم من تنوع المعاني والموضوعات..٣٦١

٣ – صلاحية صياغته لمخاطبة الناس عامة على اختلاف ثقافاتهم وعصورهم..٣٦٣
٤ – التناسق في ترتيب الآيات والسور..............................٣٦٨
٥ – إعجاز المعاني..............................٣٧٩
٦ – الإعجاز التأثيري..............................٣٨٤
٧ – الإعجاز التشريعي..............................٣٨٦
٨ – الإشارة إلى أوجه أخرى من الإعجاز..............................٣٨٧
ثالثًا: الحروف المقطعة في أوائل السور..............................٣٨٩
رابعًا: الإشارة إلى مقاصد الإعجاز..............................٣٩٨

المبحث الخامس عشر: التفسير العلمي مبادئ ومسالك وضوابط...٤٠١

المطلب الأول: مبادئ التفسير العلمي..............................٤٠٣
أولًا: المبدأ الأوّل..............................٤٠٤
١ – بيان معنى التفسير..............................٤٠٥
أ. التَّفسير لغة..............................٤٠٥
ب. التَّفسير اصطلاحًا..............................٤٠٨
٢ – بيان المراد من العلم..............................٤١٥
٣ – المعنى المؤتلف من الجزأين..............................٤٢٤

أ. التحقيق في تعريف المؤتلف من الجزأين.................. ٤٢٤
ب. ضوابط وقواعد.................................... ٤٢٥
المبدأ الثَّاني: موضوع (التَّفسير العلمي) ٤٢٧
المبدأ الثَّالث: الثَّمرة................................. ٤٢٧
المبدأ الرابع: فضله.................................... ٤٢٩
المبدأ الخامس: نسبته إلى غيره من العلوم.................. ٤٢٩
المبدأ السَّادس: الواضع................................. ٤٣٠
المبدأ السَّابع: التَّسمية.................................. ٤٣٢
أ. شروط وضوابط...................................... ٤٣٢
ب. تحقيق الشَّيخ محمَّد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وتعقيبنا عليه.......... ٤٣٤
المبدأ الثَّامن: الاستمداد................................. ٤٤٢
المبدأ التَّاسع: حكم الشَّارع.............................. ٤٤٢
١ - حُكْمُ الاشتغالِ به، وذلكَ ممَّا يتعلَّقُ بالمفسِّر................ ٤٤٢
٢ - الحكم على مسائله إجمالًا وعلى ما يَرِدُ من أرباب العلوم الأخرى........ ٤٤٣
أ. الحكم على مسائله إجمالًا............................. ٤٤٣
ب. الحكم على ما يَرِدُ من أرباب العلوم الأخرى................. ٤٤٣
المبدأ العاشر: مسائله................................... ٤٤٤
المطلب الثَّاني: التفسير العلمي بين الإنكار والإقرار............. ٤٤٥

المسألة الأولى: الإقرار.. ٤٤٥
أولًا: بيان ما أورده الباحثُ الأديب عبَّاس العقاد رَحِمَهُ ٱللَّهُ..................... ٤٤٥
١ - رأي الأستاذ عباس العقاد....................................... ٤٤٥
٢ - التَّعقيب على ما أورده الباحثُ الأديب عبَّاس العقاد................... ٤٤٥
ثانيًا: دعوى أنَّ القرآنَ الكريم قَدْ جَمَعَ علومَ الأوَّلين والآخرين.................. ٤٤٦
المسألة الثانية: الإنكار.. ٤٤٨
أولًا: إنكارُ الشَّاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ للتَّفسيرِ العلميِّ.............................. ٤٤٨
١ - علة الإنكار.. ٤٤٨
٢ - ردُّ العلَّامة محمَّد الطَّاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ على الشَّاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.......... ٤٥٠
ثانيًا: إنكار الأستاذ الدُّكتور محمَّد حسين الذَّهبي............................ ٤٥٣
١ - تعريف التَّفسير العلميِّ عند الشَّيخ الذَّهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ والتَّعقيب عليه........ ٤٥٣
أ. تعريف الدكتور الذهبي.. ٤٥٣
ب. التَّعقيب على ما أورده من التَّعريف.................................. ٤٥٣
٢ - ما أورده من الاعتراض من النَّاحية اللُّغويَّة............................ ٤٥٤
٣ - التَّعقيب على ما أورده من النَّاحية اللُّغويَّة............................ ٤٥٥
٤ - ما أورده من الاعتراض من النَّاحية البلاغيَّة........................... ٤٥٦
أ. رأي الدكتور الذهبي.. ٤٥٦
ب. التَّعقيب على ما أورده من النَّاحية البلاغيَّة........................... ٤٥٦

٥ - ما أورده من الاعتراض من النَّاحية الاعتقاديَّة.........................٤٥٨
أ. رأي الدكتور الذهبي...٤٥٨
ب. التَّعقيب على ما أورده من النَّاحية الاعتقاديَّة.........................٤٥٨
ثالثًا: معارضون آخرون...٤٦٠
فرع في التَّعقيب على ما أورده الدكتور يوسف القرضاوي.....................٤٦١
المسألة الثالثة: التحقيقات...٤٦٢
أولًا: تحقيق دعوى الجواز...٤٦٢
ثانيًا: تحقيق دعوى عدم الجواز...٤٦٣
الدَّعوى الأولى...٤٦٣
الدَّعوى الثَّانية...٤٦٤
المطلب الثالث: ضوابط التفسير العلمي فيما يخصُّ الظَّاهِرَة العلميَّة الكونيَّة والمفسِّر والنَّص...٤٦٥
توطئة...٤٦٥
أولًا: ما يخصُّ الظَّاهِرَةَ العلميَّةَ الكونيَّة...٤٦٦
ثانيًا: ما يخصُّ المفسِّر...٤٦٨
ثالثًا: الضوابط العامة فيما يخص النص...٤٨٧
المطلب الرابع: التَّعارض والتَّرجيح فيما يخص النص...٤٩٠
١ - التَّأكد من صِحَّة النَّقل...٥٠٠

٢ – درء موهم التَّعارض بين العقل والنقل، وبين الحقائق العلميَّة والنَّقل.......٥٠١
المطلب الخامس: نماذج من التفسير العلمي للآيات الكونية وآيات الخلق..٥٠٦
١ – انفصال الأرض..٥٠٦
٢ – الماء والحياة..٥٠٦
٣ – موقع اللبن..٥٠٧
٤ – انخفاض نسبة الأوكسجين عند الصعود إلى الأعلى....................٥٠٧
٥ – طبيعة الجبال كالأوتاد في علم الجيلوجيا....................٥٠٨
٦ – علم النباتات..٥٠٨
٧ – حقيقة اتساع الكون..٥٠٩
٨ – أصل الوقود من الشجر الأخضر....................٥٠٩
٩ – الذباب يعجزنا..٥١٠
١٠ – الرياح اللواقح..٥١١
١١ – الحواجز بين البحار..٥١٢
١٢ – نهاية النجوم والكواكب والبحار....................٥١٣
١٣ – مسائل أخرى..٥١٤
المطلب السادس: دفع شبه في هذا الباب....................٥١٤
أولًا: **عموم طوفان نوح** عَلَيْهِ السَّلَامُ **للبشر، لا لجميع أجزاء الأرض**..........٥١٤

ثانيًا: **سجود الشمس**..٥١٨
ثالثًا: الشهاب الراصد..٥٢٣
رابعًا: إنكار السماء..٥٢٤
خاتمة..٥٢٧

المبحث السادس عشر: أسماء السور........................٥٢٩

المطلب الأول: تعريف السورة في اللغة والاصطلاح...............٥٣١
أولًا: بيان معنى السورة في اللغة....................................٥٣١
ثانيًا: بيان معنى السورة في الاصطلاح..............................٥٣٣
الواو في (السورة) إما أن تكون أصلية، أو منقلبة عن همزة....................٥٣٣
القول الأول: أن تكون الواو في (السورة) أصلية...........................٥٣٣
القول الثاني: أن تكون واوها منقلبة عن همزة..............................٥٣٤
ما نخلص إليه من التعريف....................................٥٣٤
المطلب الثاني: الحكمة في تقطيع القرآن سورًا....................٥٣٩
المطلب الثالث: أقسام السور....................................٥٤١
١ — السور الطوال....................................٥٤٢
٢ — المثاني....................................٥٤٤

٣ – المئون..٥٤٩
٤ – المفصل..٥٤٩
المطلب الرابع : بيان سر التسمية...................................٥٥٠
المطلب الخامس : هل في القرآن الكريم فاضل ومفضول؟...............٥٥٦

تقدَّم في الجزء الأول أن علوم القرآن من أولى العلوم التي ينبغي أن يُعنى بها، وأن يشغل الباحث بها جُلَّ وقته، وأن يستغرق الليل والنهار، ويصرف نفائس الأوقات، وهو يغوص في بحر أسرارها، وأن يستنهض همته لدرك ما يمكن دركه من سبر أغوارها، هي علوم القرآن الكريم؛ لشرفها بشرف موضوعها.

وهذه دراسة لبعض الموضوعات في هذا الباب، تبدأ من حيث انتهى الجزء الأول. ويتناول الجزء الثاني الموضوعات التالية: (مجاري الكناية في التفسير)، وهو مستل ومختصر من كتابي: (مَجَارِي الكِنَايَة في اللُّغَة وعِلْمَ البَيَان والتَّفْسِيْر والفِقْه وأُصُوْله) مع اضافات وفوائد متفرقة. ويتناول الكتاب ايضًا مبحث: (قصص القرآن هداية واعتبار)، وهو مستل ومختصر من كتابي: (الزَّمان والهداية والاعتبار في قصص القرآن والأحاديث والأخبار)، مع اضافات وفوائد متفرقة. ويتناول الكتاب أيضًا مبحث: (الإعجاز بين الإقناع والإمتاع)، وفيه تحقيق المراد من الإعجاز في اللغة والاصطلاح، وبيان عناية بمسائل الإعجاز، وبيان القدر المعجز من القرآن، وما يتحقَّق به الإعجاز، مع ذكر جملة من أوجه اعجاز القرآن، ومن ذلك: بيان خصائص القرآن الكريم وأسلوبه، والتناسق في ترتيب الآيات والسور، والحروف المقطعة في أوائل السور، وغير ذلك، والإشارة الى مقاصد الإعجاز. ويتناول الكتاب أيضًا مبحث: (التفسير العلمي مبادئ، ومسالك، وضوابط)، وهو مستل من كتابي: (الإرشادات المنهجية الى تفسير الآيات الكونية) مع اضافات وفوائد متفرقة، وفيه اضاءات على تعريف التفسير العلمي ومبادئه العشرة، وضوابطه فيما يخصُّ الظَّاهِرَةَ العلميَّةَ الكونيَّة، والمفسِّر، والنَّص، والتَّعارض والتَّرجيح فيما يخص النص، وذكر نماذج من التفسير العلمي للآيات الكونية وآيات الخلق، ودفع شبه في هذا الباب. كما يتناول الكتاب مبحث: (أسماء السور)، وفيه: تعريف السورة في اللغة والاصطلاح، وبيان الحكمة في تقطيع القرآن سورًا، وأقسام السور، والبحث عن سر التسمية، وغير ذلك. والله تعالى أسأل أن يكون الكتاب نافعًا ومثمرًا، وقد أودعت الكتاب فوائد وتحقيقات في غاية النفاسة، وهي تفتح آفاقًا للبحث والنظر، والإمتاع والإقناع، راجيًا من الله تعالى القبول.

الجزء الثاني

من

تذكرة وبيان من علوم القرآن

د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان

دار اللؤلؤة للنشر والتوزيع

@DarElollaa

Dar_Elollaa@hotmail.com

الأزهر: شارع محمد عبده خلف الجامع الأزهر.

01050144505 - 0225117747

المنصورة: عزبة عقل - بجوار جامعة الأزهر.

01007868983 -0502357979